قراءات نقدية في علم الاجتماع

الكتاب الرابع

التحضر في الشرق الأوسط

تأليف

ڤينسنت فرانسيس كوستيللو

ترجمة وتعليق

دكتور

غريب محمد سيد أحمد

أستاذ علم الاجتماع

كلية الآداب جامعة الإسكندرية

دكتور

عبد الهادي محمد والي

أستاذ علم الاجتماع

ووكيل كلية الآداب جامعة طنطا

١٩٩٧

دار المعرفة الجامعية

[illegible]

[illegible]

التحضر فى الشرق الأوسط

التحضر في الشرق الأوسط

تأليف

ڤينسنت فرانسيس كوستيللو

ترجمة وتعليق

دكتور غريب محمد سيد أحمد

أستاذ علم الاجتماع

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دكتور عبد الهادي محمد والي

أستاذ علم الاجتماع

وكيل كلية الآداب - جامعة طنطا

١٩٩٧

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣

٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - ت ٥٩٧٣١٤٦



إهـــداء

حينما فكرنا فى اهداء هذا العمل ، توصلنا بعد وقت قصير الى ان اوثق رباط يشدنا ، واقوى انتماء يجمعنا ، أننا تتلمذنا على استاذ واحد ، وتعلمنا على يدى معلم واحد ، وانه انطلاقا من هذا الانتمـــاء المشترك ، تطورت علاقتنـــا ، وازدهرت .

فالى ذلك الرجل ، والى ذلك المعلم ، نهدى ثمرة من ثمار غرسه ، وهو كثير ...

الى الاستاذ الدكتور / محمد عاطف غيث

This is an Arab'c translation of «Urbanization in Middle

East» by Vincent Francis Costells, Puplished by Cambridge

University Press, Cambridge, 1977.

محتويات الكتاب

تصــــدير الطبعة الثانية

مع ندرة الكتابات فى علم الاجتماع الحضرى ، والتحضر ، والتحديث ، الا أن أى منها لم يتطرق لعقد مقارنات بين مجتمعات متشابهة أو متمايزة بناء وثقافة · و « التحضر فى الشرق الاوسط » الذى قمنا بترجمته يتميز بعقد مقارنات بين عدد من بلدان الشرق الاوسط التى تنتمى الى العالم الثالث ، وتشمل : ليبيا ومصر وبلدان شبه الجزيرة العربية واسرائيل ولبنان والعراق وتركيا وايران · وقد اعتمد (كوستيللو) فى مقارناته على الدراسات التى اجريت واقعيا فى هذه البلدان بواسطـــة باحثين محليين ، وهنا تكمن الثقة فى الكثير من التعميمات التى توصل اليهـــا ·

ان حل مشكلات العالم الثالث لا يتأتى الا من خلال دراسات مقارنة ، بحيث يستفيد كل بلد من خبرات وتجارب البلدان التى تتقاسم معه أسلوب حياته بالرغم من تنوع السياق الثقافى والاجتماعى لها · والكتاب الذى نقدم ترجمته للقارىء العربى ـ كما يتضح من عنوانه ـ يعالج ظاهرة التحضر فى الشرق الاوسط · ويتضمن ثمانية فصول · يتحدث الفصل الاول عن البيئة والمجتمع فى الشرق الاوسط ، ويعرض الفصل الثـانى للمجتمع الحضرى قبل الصناعى · وينتقل الفصل الثالث الى تناول النمو الحضرى الحديث ، بينما يعالج الفصل الرابع الهجرة الريفية الحضرية · أما الفصل الخامس فيتناول التكيف الاجتماعى فى المدينة · بينما يدرس الفصل السادس المهن والتدرج الطبقى ، ويحلل الفصل السابع الشكل والبناء الحضرى · وأخيرا يخصص المؤلف الفصل الثامن لمناقشة ختامية للتحضر فى الشرق الاوسط ·

ولم نتوقف عند حد الترجمة العربية . بل وضعنا مقدمـــة مطولة للترجمة العربية ، وكذلك خاتمة نقدية للكتاب ، بالاضافة الى وضع كثير من التعليقات على النص المترجم تفسيرا لفكرة أو نقدا لها ·

ان الكتاب الراهن بموضوعاته التى عرضها وقضاياه التى ناقشها ، يشكل جنبا حقيقيا لدارسى الاجتماع عامة ، والاجتماع الحضرى بصفة خاصة • وخاصة ان منطقة الشرق الاوسط تمثل منطقة هامة من مناطق العالم الثالث • وبالتالى تصبح كل اضافة علمية عن هذه المنطقة خطوة على طريق الوصول الى عناصر نظرية التحضر فى هذه البلدان • ولعل هذا كان من اهم الاسباب التى جعلت من نقل هذا الكتاب الى العربية والتعليق عليه ، مهمة تؤكد ان يكون لدى القارىء العربى ، كتابا يتناول ظاهرة هامة فى منطقته • كما أن تنوع المناقشات التى أثارها المؤلف تهم بعض المتخصصين فى فروع اخرى للعلم الاجتماعى • فضلا عن أن هذا الكتاب يفتح أمام دارسى الاجتماع الحضرى بابا للمناقشة والحوار ، جدير بالاهتمام •

لعلنا بهذه الترجمة قد أضفنا الى المكتبة العربية عملا يفيد منه القارىء والباحث والدارس • وبالله التوفيق •

المترجمان

تصدير الطبعة الاولى

دفعتنا الاهمية المتزايدة لدراسة المجتمع الحضرى الى اختيار هذا الكتاب للترجمة · خاصة وانه يعالج ظواهر هذا المجتمع فى منطقة نحن ننتمى اليها ، وتنتمى هى بدورها للعالم الثالث الذى أصبح يمثل مجالا خصبا لدراسات علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعية ·

ولما كانت مجتمعات هذه المنطقة تأخذ منذ فترة بأساليب التنمية والتحديث ، ولما كانت ظاهرة التحضر مصاحبة لعملية التحديث والتنمية، فان اهمية نقل هذا الكتاب الى العربية والتعليق عليه تصبح مزدوجة ·

وانطلاقا من الايمان بالجهد المشترك قام الدكتور / غريب محمد سيد احمد بترجمة الفصول الرابع والخامس والسادس والثامن والتعليق عليها ، بالاضافة الى كتابة خاتمة نقدية للكتاب · وقام الدكتور / عبد الهادى محمد والى بترجمة الفصول الاول والثانى والثالث والسابع والتعليق عليها ، بالاضافة الى كتابة مقدمة الترجمة العربية ·

والله الموفق ؟

مقدمــة

الطبعــة الاولى (*)
المدخــل الى دراســــــة المدينــة

تمهــــــيد :

.. يرجع اهتمامنا بدراسة « مجتمع المدينة » الى عدة اعتبارات قد يكون من اللازم أن نشير اليها فيما بعد ولو بشيء من الايجاز .. ولكن قبل أن نفعل ذلك ، لعل من الضرورى أن نشير فى عجــالة الى تاريــخ الحياة الحضرية ، وطبيعتها .

لقد مثلت المدينة مرحلة هامة من مراحل التطور التاريخى للانسان ، لذلك يذهب البعض الى اننا حينما نؤرخ لحياة المدن فاننا نؤرخ للحيــاة الانسانية كلها . ذلك أن المدينة قد ادخلت عناصر جديدة لهذه الحياة ، هى فى جملتها طريقة جديدة فى الحياة ليست زراعية . وقد جذب التحليل التاريخى لنشأة المدن أنظار كثير من الدارسين الذين حاولوا الاجــابة على تساؤلات معينة حول الوقت الذى بدأت فيه مدينة بعينها فى الظهور، ومراحل تطورها ، ومدى اسهامها فى نمو المنطقة المحيطة بها ، وكذلك العصر الذى وجدت فيه ، وما اذا كانت هناك مراحل تطورية أو دورية مر بهــا التاريخ الانسانى فى ارتباطه بتطور المدينــة .

ولكن ظهور المدن مسألة يصعب تتبعها بدقة واحكام ، حيث أن معظم الشواهد على ذلك تتعلق بالاثار ، وبالتالى ليست مترابطة ، كما لم تتم دراستها بنفس الدرجة من الاتقان ، لانه لم تتوافر عن الكثير منهــا كتابات أو وثائق يمكن الاعتماد عليها . هذا فضلا عن أن مقارنة تلك المدن بالمدن الحديثة سوف يكون أمرا غير دقيق . فالظروف السابقة على وجود المدن القديمة هى تلك الظروف التى جعلت من الممكن ظهور مجتمع يعتمد على غيره على الاقل فى مسائل الامداد بالطعام ، كما أن الاختراع والتكنولوجيا مسألتان ضروريتان للتركز الحضرى . ومع ذلك فهذين المتغيرين قد وجدا قبل وجود المدن متمثلين فى المخترعات البدائية كالمحراث،

(*) كتبت هذه المقدمة د. عبد الهادى والى .

والطاحونة ، وزراعة المحاصيل ، واستئناس الحيوانات . أيضا حينما ظهرت المدن أصبحت دون شك مركزا لكل اختراع ، ومصدرا لكل أنواع التكنولوجيا . وبالتالى أتاحت الفرصة لتركز سكانى واسع النطاق . ولقد كانت المدن القديمة صغيرة الحجم ، ويعزى ذلك الى ضعف الانتاجية الزراعية ، والتكلفة الزائدة للنقل الى مسافات بعيدة .

وكذلك فان معظم المدن القديمة قد أصبحت اطلالا ، وتدهور ثقافاتها الحضرية ، والمدن اليونانية ، والرومانية وغيرها خير دليل على ذلك : فقد اعتمدت على التجارة والهيمنة السياسية Political Domination على مناطق الظهير الزراعى Hinterland ، ولقد كان تداعيها وانهيارها راجعا لعدة أسباب متداخلة ومعقدة من أهمها الغزوات التى كانت تشنها عليها الجماعات الاقل تحضرا ، فى الوقت الذى كانت فيه دفاعاتها قاصرة عن حمايتها (١) .

وفى العصور الوسطى شهدت بلدان غرب أوربا المرحلة الثانية من مراحل التطور الكبرى للمدن ، تلك المدن التى اتسمت بالتخصص الوظيفى فى مجتمع أصبح يعتمد على التخصص بالدرجة الاولى . ومعنى ذلك أن المدن قد بدأت تتخصص فى أوجه نشاط اقتصادية أخرى غير التجارة والنقل . فأصبحت الصناعة هى الوظيفة الاساسية للعديد من المدن فى العصور الوسطى ، وأدت الى ظهور برجوازية العصور الوسطى ، ونظام الروابط ، وكذلك النقابات الحرفية (٢) .

وفى العصور الحديثة شهدت المجتمعات الانسانية ، ولا تزال تشهد معدلات نمو سريعة فى مجال التحضر ، الامر الذى أدى الى أن أصبحت

---

(١) Hatt, P. K. and Reiss, A. J., cities and society, (ed.), The Free Press, New York, 1967, pp. 175 - 176.

(٢) Ibid, p. 176.

الغالبية العظمى من السكان تعيش فى مدن . والمدن فى العصر الحالى تتنوع اقتصادياتها،كما تتخصص فى نفس الوقت.لكن هناك عملية اساسية تشهدها المدن الحديثـــة ، وهى أنها تنتج الان الكثير لصالح سكانها ومواطنيها أكثر مما كانت تفعل المدن المبكرة . لدرجة أن أكثر من نصف النشاط الاقتصادى فى مدن البلدان المتقدمـــة يوجه لصيانة البيئـــة الفيزيقية ، ورعاية السكان والمؤسسات الحضرية .

ولما كانت المدن جزءا متكاملا من مجتمع اوسع نطاقا ، فان عددها وتوزعها ، ووظائفها فى المجتمع تختلف وفقا لدرجة تعقد الثقافة ، وعلاقة هذه الوظائف ، وذلك التوزيع ، بالتغير الثقافى . وفضلا عن ذلك فان هذه الوظائف تتنوع وفقا للمرحلة التاريخية التى تشهدها المدن فى نموها، فهناك على سبيل المثال مدن تجارية ، واخرى أدارية ، وثالثة دفاعية ونوع رابع يختلف فيما بينه وفقا لتخصص الانتاج الصناعى . والمهم أن هذه التطورات حولت المدينة من مكان للاقامة الى مكان للانتاج والعمل . وفضلا عن كل ذلك فان هناك مدنا لم تكن وظائفها انتاجية ، مثل المدن التى تشتهر بالفنون ، والاداب ، والعلوم أو بأنها ذات وظائف دينية ، أو ترويحية . او اداريـــــة .

ولا يهتم عالم الاجتماع بالوصف التاريخى فى حد ذاته ، لكنه يهتم بالتحليل التاريخى للمدن ، وظهورها ، ونموها من حيث كونه يسهم فى الاجابة على تساؤلات مثل ماهى الوظائف التى قامت بها المدن فى مجتمعات مختلفة .. ؟ وما هو اسهامها فى التغير الاجتماعى والثقافى .. ؟ وما هو الدور الاقتصادى الذى أدته وتؤديه .. ؟ وكيف تحولت فيها الطقـــوس والمعتقدات الى نظم علمانية Secular ؟ وكيف كانت المدينة فى عصور الاقطاع ، وما مدى تاثير التحضر على التنظيم الايكولوجى للمنطقة . أو الاقليم وكيف أثرت المدن ولا تزال تؤثر فى الثقافة العامة ، والحضارة الانسانية .. ؟

ومعنى ذلك أن الدراسة السوسيولوجية ـ التي تعتمد على البعد التاريخي ـ للمدن لا تسمح فقط بأن يتوصل الدارس الى تعميمات عن التغير الثقافي في المجتمعات ، وعلاقته بالمدن وحضارتها ، لكنه يسمح أيضا باختيار الفروض الخاصة بالدراسات الحضرية في مجتمعات متنوعة ، وعبر مراحل تاريخية مختلفة ، وثقافات متباينة · ومن الامثلة على هذه الدراسات ما قام به كنجزلى دافز K. Davis وهيلدا جولدن Helda Golden من البحث عن مدى اسهام التحضر في النمو الاقتصادي ، واستخدام المعطيات التاريخية الخاصة بالمجتمعات التي تشهد نموا اقتصاديا من أجل التوصل الى ما اذا كان للتحضر قد أنتج معدلات وأشكالا مختلفة للانتاج الاقتصادي والاستهلاك (٣) وهناك العديد من الدراسات اعتمد على البعد التاريخي ، أو أخذ بالمدخل التاريخي في محاولته الاجابة على مثل هذه التساؤلات

ان ما يعنينا هنا هو انه أصبح هنالك تقسيم لمراحل التحضر الى مرحلتين كبرين الاولى تعرف بمرحلة ما قبل الصناعة Pre.industrial والاخرى هي المرحلة الصناعية industrial ، وعلى ذلك فهناك مدن ما قبل الصناعة ، والمدن الصناعية ، أو الحديثة ذلك لأن النمو الحديث أصبح الى حد كبير مرتبطا بنمو وتطور حركة التصنيع ، وسواء كانت المدينة في حد ذاتها صناعية ، أو غير صناعية ، فانها تتأثر بالضرورة وبدرجة أو أخرى بعملية التصنيع · وما تتيحه من عناصر ، خدمات ، وتيسيرات حضرية ، وسوف يشمل حديثنا فيما بعد هاتين المرحلتين بهدف الاشارة الى طبيعة المدينة ، أو التحضر في كل منهما ·

---

(٣) Davis, K. and Helda Hertz Golden, Urbanisation and the development of pre-industrial areas. In : Hatt and Reiss, Ibid. pp. 130 - 140.

اولا : مدينة ما قبل الصناعة : Pre-industrial City

عرف العالم القديم مدنا كثيرة ظهرت في الامبراطوريات الشرقية في الهند ،والصين ، وعلى مقربة من البحر الابيض ، والبحر الاحمر ، والخليج الفارسى ، وعلى نهر النيل • ومنها ما كان كبير الحجم ، وعلى درجة كبيرة من التنظيم والجمال • ورغم انه ليست هناك معلومات دقيقة عن أحجام هذه المدن ، الا أن هناك مؤشرات على أن النمو السكانى فيها كان متوازنا ، بمعنى أن معدلات المواليد كانت تتعادل مع معدلات الوفيات ، حيث لم تكن القواعد الصحية متبعة فى الكثير منها ، كذلك اعتمد النمو فى هذه المدن على ما يمكن ان تحققه الزراعة من فائض يسمح باعالة أعداد متزايدة من البشر • ومن امثلة هذه المدن روما Rome والاسكندرية ، وبيزنطة (اسطنبول الان) • وقد بلغ حجم السكان فى بعض هذه المدن بضعة مئات من الالاف • فهذه بغداد عاصمة الخلافة ، والامبراطورية الاسلامية بلغ حجمها حوالى ثلاثمائة الف نسمة ، وقرطبة Cordoba حوالى تسعين الفا ، والقسطنطينية التى تراوح حجمها ما بين (١٦٠ ــ ٢٠٠) الف نسمة وكانت من مفاخر الامبراطورية البيزنطية • وقد اثرت بعض العوامل فى نمو مدن ما قبل الصناعة • منها الاعتبارات الحربية ، وسهولة حماية المدن ، ومنها وجود ظهير زراعى يمكن أن يمدها باحتياجات الغذاء ، وملاءمة الموقع لنمو حركة التجارة ، والتبادل • وفى بعض الحالات تدهور حجم المدن مثلما حدث فى أوربا عام ١٣٨٤ حينما حل وباء الطاعون ، وادى الى تدهور حجم السكان حتى بلغ حوالى (٦٠٪) مما كان عليه قبل هذا الطاعون (٤) •

---

(4) Cook, Robert, C., The World's great Cities, evolution or devolution, in: Baali & Vandiver, Urban Sociology, Contemporary Readings, (ed.) Appelton Century Crofts, New York, 1970, pp. 5 - 6.

ومن المعتقد أن اقدم المدن قد وجد حوالي عام (٤٠٠٠) قبل الميلاد فيما يسمي الان بالعراق • ومع أن المدن القديمة كانت صغيرة الحجم بمقياسنا الحالى ، الا انها كانت تختلف عن غيرها من التجمعات فى امرين: الاول أنها كانت أكبر من حيث العدد الكلى للسكان ، والثانى نها احتوت على اعداد كبيرة من السكان الذين لا يعملون فى مهن زراعية ، أو ترتبط مباشرة بانتاج الغذاء ، كذلك افصح تاريخ هذه المدن عن أنها كانت أكثر تقدما من الناحية الثقافية ، اونه لا يمكن لاى مجتمع أن يتقدم فى الاتجاه الحضرى ، مالم يحقق العمال والمزارعون ، ومنتجوا الطعام مزيدا من الفائض فى الانتاج وبشكل يفى بحاجات من لا يعملون فى الزراعـة • والحديث عن مدن ما قبل الصناعة يكاد يرتبط بالحديث عن مدن افريقيا ، واسيا ، وامريكا اللاتينية ، وبالتالى بالحديث عن مدن المنطقة التى تهم بها الدراسة التى نقدم لها الان • ذلك أن هذه البلدان حديثة عهد بالتصنيع ومع ذلك اشارت دراسات عديدة الى ان هناك سمات مشتركة بين مدن ما قبل الصناعة ـ رغم وجود تنوع فيما بينها ـ ومن أهم سمات مدن ما قبل الصناعة ما يلى :

١ ـ من حيث الحجم ، فهى أكبر حجما اذا قورنت بالمجتمعات القروية فى ذات المجتمع ، وفى نفس الفترة الزمنية •

٢ ـ تتسم بالاستقرار النسبى • فسكانها لا يميلون الى التنقل المستمر •

٣ ـ المنازل فيها متجاورة ولا تفصل بينها مسافات شاسعة •

٤ ـ كثافة السكان فيها عالية اذا قورنت بكثافة السكان فى القرى•

٥ ـ لم تكن مدن ما قبل الصناعة مخططة بشكل هندسى جيد ، فضلا عن وجود سور أو خندق حولها يسهل الدفاع عنها •

٦ ـ كان هناك تشابه بين مساكنها فى الشكل والارتفاع •

٧ ـ اعتمدت على التبادل التجارى ، وكانت السوق مركزا لها ٠

٨ ـ كانت الصناعة فيها تتمثل فى الحرف اليدوية المنتشرة فى احيائها دون نظام معين ٠

٩ ـ لم تكن هذه المدن متجانسة مثل القرى ، بل كانت متغايرة ، ويقوم التمايز الطبقى فيها على المهن ، والحرف ، والدخل ، وانعكس هذا التمايز فى طراز المسكن بحيث يحتل الاغنياء منطقة الوسط ٠ ويسكن الفقراء الضواحى والاطراف ٠

١٠ ـ كانت هذه المدن تشترك فى ظاهرة وجود العشش والاكواخ، بحيث لا تكاد تخلو منها احدى هذه المدن (٥) ٠

والى جانب الاهتمام بخصائص مدينـــة ما قبل الصناعة ، سواء الاجتماعية او الفيزيقية . او الديموجرافية ، او غيرها ، اهتم كثير من العلماء والدارسين بتحلل طبيعة الحياة الاجتماعية والتنظيمات القائمة فى مدينة ما قبل الصناعة ٠ وأبعد من ذلك حاول هؤلاء اختبار مدى صـدق القضايا النظرية الحديثة عن التحضر ، لعل ذلك يكشف عن فروق جوهرية بين التحضر التقليدى ، والتحضر الحديث ٠ وقد قام جوبيرج S. Joberg بمحاولة من هذا القبيل فى كتابه « مدينة ما قبل الصناعة » (١٩٦٠) ، حيث درس امكان تطبيق القضايا المتضـمنة فى نظرية لويس ويرث L. Wirth عن التحضر والحياة الحضرية ، على مدينة ما قبل الصناعة ولعل منا لمفيد أن نستعرض هذه المحاولة بايجاز :

١ ـ قرر جوبيرج أن القضية الاولى من قضايا نظرية ويرث ، والمتعلقة بسيادة العلاقات الثانوية والضبط الرسمى ، لا تنطبق على

---

(٥) قيس النورى ، المجتمع بعد التصنيع ، عالم الفكر ، المجلد الرابع ، العدد الاول ، الكويت ، ١٩٧٣ ، ص ١٥٣ ـ ١٥٥ ٠

مدينة ما قبل الصناعة ، فالروابط بين افراد الطبقـــة الدنيا عمن يشتركون معا في المسكنى ، والمهنة ، ولا يتحركون كثيرا غالبا ما كانت قوية ، اما الضبط الاجتماعي الرسمى الذى اشـار اليه ويرث ، فتمارســه الصفوة من الطبقة العليا التى تستمد سلطانها من العرف ، والمبادىء الاخلاقية المطلقة ، وليس من كفاءتها الشخصية ، او من دعم سياسى تلقاه .

٢ ـ أما القضية الثانية ـ وهى الخاصة بالعلاقات السطحية وغير الشخصية ـ فقد تبين للباحث أن ما يســود مدينة ما بل الصناعة من علاقات أبعد ما يكون عن هذه الخصائص ، بل على العكس من ذلك كانت العلاقات الوثيقة ، والشخصية هى السمة الواضحة ، والتجـارة فيهـا كانت تعمل على دعم علاقات التجار وعملائهم .

٣ ـ وفيمـا يتعلق بالقضيـة الثالثـــة ، وهى تؤكد على سمة التخصص ، اشار جوبيرج الى انه كان هناك نوع من التخصص فى مدينة ما قبل الصناعة مختلف عما يوجد فى المدينة الصناعية ، وقام هذا التخصص على اساس الانتاج نفسه ، وليس تخصصا داخل العملية الانتاجية . بمعنى أن الطائفة الحرفية كانت تحتكر انتاج سلعة او سلع معينة ، وكان التخصص قاصرا على درجة المهارة فى اداء العملية الانتاجية ، والسن المطلوبة لهذه العملية ، فضلا عن ان الانتاج لم يكن ضخما كما يقول ويرث نظرا للتأخر النسبى للتكنولوجيا .

٤ ـ كذلك تؤكد الشواهد ـ ولم تعارض فى نفس الوقت ـ ما ذهب اليه ويرث من وجود ارتباط بين زيادة التخصص ، وتقسيم العمل فى المدينة ، وبين نمو السوق واتساعها .

٥ ـ كانت وسائل الاتصال محدودة النطاق فى مدينة ما قبـل الصناعة على عكس ما ذكره ويرث . وكانت معظم الاتصالات فى اطار الطائفة الحرفية ، او الاسرة الممتدة فقط .

٦ — ربط ويرث بين التخصص ، وزيادة الكثافة السكانية بمعنى أن التخصص والتباين أمران ضروريان لتواجه المدينة الاعداد المتزايدة فيها ، لكن جوبيرج يقول ان هذه العلاقة لم تكن واضحة فى مدينة ما قبل الصناعـــــة •

٧ — قرر ويرث وجود احتكاك فيزيقى شديد ، واحتكاك اجتماعى سطحى ، لكن على العكس من ذلك كانت مدينة ما قبل الصناعة تشهد اتصالات فيزيقية محدودة ، واتصالات اجتماعية وثيقة •

٨ — كان استخدام الارض فى مدينة ما قبل الصناعة يقوم على اسس دينية وسياسية وليس على اسس اقتصادية كما ذكر ويرث (٦) •

٩ — يشير جوبيرج الى أن الانتاج فى مدينة ما قبل الصناعة ، لم يكن يقوم على المنافسة ، والاستغلال المتبادل كما ذكر ويرث عـــن المدينة الصناعية ذلك ان الطموح الشخصى كان محدودا • ومن ناحيـــة اخرى فان الطائفة او العائلة الممتدة كانت تشارك الفرد فى ثمار جهـده وطموحه الشخصى (٧) •

١٠ — رغم وجود تقسيم دقيق للعمل فى مدينة ما قبل الصناعة ، الا ان التمايزات الطبقية ظلت واضحة ، ودقيقة على عكس ما يشير ويرث من أن التفاعل يقلل حدة الفروق الطبقية فى المدينة الحديثـــة •

---

(٦) يجد القارىء عرضا وافيا للقضايا النظرية عند لويس ويرث والتعليق عليها فى كتاب : عاطف غيث ، علم الاجتماع الحضرى ، مدخـل نظرى ، دار الكتب الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٢ ، ص ٤ — ١٤ •

(٧) S. Joberg, Gideon, The pre-industrial City, in Hatt and Reiss, Cities and society op. cit., pp. 179 - 189.

١١ — يشير موريس Morris الى ان عملية الانتماء لجماعات مختلفة وتعدد الولاءات وبالتالى صراع هذه الولاءات لدى الفرد فى المدينة الصناعية أو الحديثة ، هذه العملية لم تكن قائمة فى مدينة ما قبل الصناعة ، لان الاسرة الممتدة كانت وحدة التنظيم الاجتماعى من ناحية ، وكان هناك تداخل بين الجماعات القرابية والمهنية ، والتعليمية التى ينتمى اليها الفرد — حتى برغم الضعف النسبى لاواصر الاسرة الممتدة — من ناحية أخرى .

١٢ — كذلك أشار موريس الى أن عملية تقنين السلع ، والخدمات لم تكن موجودة أو معروفة بعد ، وأن تطوير العلاقات النقدية أو المالية كان أقل وضوحا ، ذلك لان معظم السلع والخدمات فى مدينة ما قبل الصناعة كانت تقوم بها الجماعات القرابية (٨) .

ولعل استعراضنا لهذه المحاولة يشير الى اى حد اختلفت مدينة ما قبل الصناعية عن المدينة الصناعية الحديثة ، وذلك من وجهة النظر الاجتماعية ، وهى فى حد ذاتها محاولة مفيدة من حيث انها تشير الى امكان اختلاف التراث الحضرى فى الشرق الاوسط عنه فى الغرب الصناعى من ناحية ، كما تشير الى أن أى دراسة علمية للتحضر وسماته فى هذه المنطقة لابد أن تتبع جذوره البعيدة ، والتى ربما ظلت تؤدى دورا فى توجيه النمو الحضرى الحديث فيها .

ونحن اذا ما اضفنا الخصائص التى اوردناها من قبل ، الى تلك المحاولة التى كانت تهدف الى اختبار مدى كفاءة نظرية لويس ويرث فى تقديم تفسيرات كافية لاوضاع التحضر فى مدينة ما قبل الصناعة ، فانه لا ينبغى أن يفهم من ذلك أن هذه الخصائص تنطبق على جميع مدن

---

(٨) Morries, R. F. Urban sociology, F. A. Praeger, New York; pp. 37 - 53.

ما قبل الصناعة ، وبنفس الدرجة ، ولكن هناك بطبيعة الحال تفاوت بينها وفقا لتباين أوضاعها التاريخية ، والثقافيـــة ، والايكولوجية ، والسياسية ، الا أنه يبقى مع ذلك ان هناك مجموعة من الخصائص العامة، التى تسمح بحدود معينة من التباين فى التفاصيل •

ثانيا : المدينة الصناعية او الحديثة : Industrial city

كما سبق أن أشرنا فان الجزء الثانى من التقسيم التاريخى لتطور المدن ، يتمثل فى المدينة الصناعية ، وقد شهدت تلك المرحلة تقدما مذهلا فى مجال الاكتشافات التكنولوجية ، والذى أثر فى شكل المدينة ، ونمط تخطيطها ، ووسائل النقل ، والاتصالات ، والاعلام فيها • وينبغى ألا نفهم هنا أن جميع المدن الحديثة هى مدن صناعية بالضرورة ، بمعنى انها تشتمل على عدد كبير من المصانع ، أو أن هذه المصانع تشـــكل اساس بنائها الاقتصادى ، ولكننا نقصد ذلك النمط الحضرى الذى ازدهر واتسع نطاقه فى عصر التصنيع ، والذى تاثر بدرجة أو أخرى بنتائج الثورة الصناعية • فالمدينة القديمة ــ مثلا ــ تركزت فى بؤرة ضيقة حيث كان الناس يروحون ويجيئون الى مقار عملهم وسكناهم سيرا على الاقدام ، او باستخدام وسائل نقل تقليدية ، ولكن اختراع السيارة التى تعمل بوســـائل الاحتراق الداخلى أدى الى تحلل الحضرى من ضرورة السكنى بالقرب من مقر عمله ، بل على العكس انطلق الى خارج مركز المدينة طلبا للهدوء . والبعد عن الضوضاء ، وعليه أمتدت حدود المدينة الى ما وراء اسوارها أو حدودها التقليدية • وقياسا على هذا المثال يمكن أن نجد مئات الامثلة التى تدعم القول بان التصنيع قد اثر تاثيرا جذريا فى نمو المدينة ونمطها الايكولوجى •

ورغم أن هناك مدنا ليست صناعية بالدرجة الاولى ، الا أنهـــا تنتمى الى عصر الصناعة او الى المرحلة الصناعية ، على سبيل المثال المدن الترويحية ، والمدن العسكرية وغيرها من المدن التى ليست صناعية فى حد

ذاتها . ونحن نقبل هذا التقسيم على أنه يميز مرحلة تاريخية عن مرحلة أخرى . ومع أن هناك من يذهب الى وجود مرحلة ثالثة هي مرحلة ما بعد التصنيع Post - industrial خاصة في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية ، الا اننا نرى أن الفواصل هنا ليست دقيقة ، والحدود ليست صارمة . وبناء على ذلك فانه تجدر الاشارة الى ما ذكره موريس من أن محاولة اقامة قنطرة — تحليلية — تصل بين عصر ما قبل الصناعة ، يقتضى أن ننظر من البداية في الشروط الضرورية اللازمة لقيام الصناعة ومن أهمها :

(أ) العمل على تنظيم الانتاج على نطاق واسع ، ليصبح انتاجا وفيرا ، وذلك باستخدام القوى الالية ، والطبيعية ، واستخدام موارد التعدين ، بالاضافة الى تطبيق المعرفة التكنولوجية على أوسع نطاق .

(ب) تطوير ما أسماه الائتمان . فتكاليف الادوات ، والمعدات اللازمة للتصنيع باهظة من ناحية ولا تؤتي ثمارها على وجه السرعة من ناحية أخرى . وعلى هذا يمكن القول أن الاقتراض ، والائتمان ، كذلك الادخار والاستثمار ، تعتبر عوامل ضرورية ، خاصة في الحالات التى يعانى فيها أصحاب المشروعات من قصور في رأس المال لا يسمح لهم بالقيام بهذه المشروعات وحدهم ، واعتمادا على مواردهم الخاصة .

(ج) كما يتطلب التصنيع تطوير المعايير التى تشجع الحرية ، والمغامرة ، والتجريب ، وهذه المعايير تتضمن الرغبة في معرفة الجديد من الافكار ، والمهارات ، وروح المغامرة التى تنطوى عليها عملية التخصص في عمل ما هو واحد ، أو انتاج بعينة . أو العمل من خلال تنظيم يتسم بطابع العلاقات غير الشخصية ، والرغبة في التنقل من عمل أو مهنة لاخرى بحثا عن مميزات اقتصادية . هذه كلها تشكل أنماطا معينة من السلوك الذى يشجعه المجتمع الصناعى ، وتساعد على التوافق مع طبيعته .

(د) يتطلب التصنيع تهيئة المجتمع لنسق جديد من التبادل التجاري يقوم على التسويق غير الشخصي للسلع والخدمات ، وكذلك تحديد الاجور والارباح ، على أساس نقدي بحت ، بمعنى أنه لا تتداخل فيه العناصر الشخصية ، أو العاطفية (٩) ٠

ويضيف رايسمان Reisman الى هذه الشروط أن التصنيع يتطلب احلال الايديولوجية القومية محل الايديولوجية القبلية ، أو المحلية ، وترتبط هذه الايديولوجية الجديدة بمجموعة من القيم مثل الحكم على الافراد فى ضوء الادوار التى يقومون بها ، بغض النظر عن مراكزهم الاجتماعية ، أو مراكز اباتهم ، أو ملامحهم الجسمانية أو لونهم ٠ وكذلك التعامل مع الجميع بأسلوب واحد ٠ والحرص على أن تكون علاقات العمل قائمة على أن المسئولية مسئولية الفرد ذاته ، وليست مسئولية القبيلة ، او العائلة، أو الجماعات الاخرى التى ينتمى اليها (١٠) ٠

وقد لا يستطيع كاتب او دارس أن يتناول المدينة الحديثة دون اشارة الى مدرسة شيكاغو فى الولايات المتحدة الامريكية ، لما لهذه المدرسة من اثار بعيدة فى تطوير الدراسات الحضرية ، وقيام علم الاجتماع الحضرى ٠ ولقد كان اهم روادها روبرت بارك R. Park ولويس ويرث ، وارنست بيرجس E. Burgess وروبرت ردفيلد R. Redfeild وقد كانت افكارهم الرئيسية تدور حول الاجابة عن سؤالين أساسيين :

الأول : ما هي القوى غير الاقتصادية التى تعمل على خلق ثقافة المدينة ؟

---

(٩) Morris, R. E. Ibid, pp. 55 - 59.

(١٠) Ibid, pp. 60 - 61.

والثانى : ما هى امكانيات الاختيار الحر ، والتجديد فى ثقافــة معينــة ؟

لكن هذه المدرسة اكتسبت طابعها العلمى بعد الحرب العالمية الاولى، حيث استطاع بارك ان يوجه نظر ويرث وبيرجس نحو الاهتمام بدراسة ثقافة المدينة (١١) ٠

وليس معنى ذلك انه لم تكن هناك كتابات أو دراســـات تهتم بالمدينة ، أو المجتمع الحضرى الحديث قبل اسهامات مدرسة شيكاغو ، ولكن سبقتها كتابات ومؤلفات اخرى ، لعل من أهمها كتاب « المدينة » الذى كتبه ماكس فيبر Max Weber والذى عالج الجذور التاريخيــة للمدينة ، والتطورات التى طرات عليها ، ووظائفها ، وآثارها على الحياة الانسانية ٠ ولكن المهم أن دراسات مدرسة شيكاغو خاصة دراسات بارك وويرث كانت ذات أهمية من حيث اثارتها لعدد كبير من التساؤلات حول الحياة الحضرية ، وحياة المدينة ٠ ومع ذلك فقد شابها قصور علمى مؤكد، يتمثل فى أن علماء هذه المدرسة نظروا الى المدينة الامريكية على انها نموذج للمدينة فى أى مكان من العالم ، ومحك للدراسة العلمية للمجتمع الحضرى ٠ وقد مثل هذا التصور قيدا كبيرا على نمو الاتجاه المقارن فى علم الاجتماع الحضرى من ناحية ، وقصورا فى نمو النظرية الحضرية ذاتها من ناحية اخرى٠ ولقد ادرك علماء المدرسة الامريكية أنفســهم اهمية الحاجة الى دراسات مقارنة — على نطاق أوسع — من أجل سد هذه الثغرات (١٢) ٠

---

(١١) عاطف غيث ، علم الاجتماع الحضرى ، مدخل نظرى ، دار الكتب الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٢ ، ص ٣٦ — ٣٧ ٠

(١٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٠٦ — ١٠٨ ٠

على كل حال شهدت مرحلة النمو الصناعي ، توسعا كبيرا في نطاق المدن القائمة من ناحية ، وظهور مدن جديدة من ناحية أخـــرى · وقد صاحب ذلك تزايد في معدلات الهجرة الريفية الحضرية التي كانت اكثر وضوحا في مدن العالم الثالث · وقد تزايدت هذه الهجرة في ضوء تخلف الريف في هذه البلدان وافتقاره الى كثير من الخدمات الاساسية ، الامر الذي جعل الحياة فيه ضربا من ضروب المعاناه . خاصة وقد أدرك سكان الريف ما تقدمه المدينـــة من تيسيرات وخدمات من ناحية ، وما ينتظرهم فيها من امال وطموحات اقتصادية تتفوق على ما يحققونه في الريف ·

وقد ترتب على النمو الحضري ـ على هذا النحو ـ مشكلات ، وظهرت قضايا تستحق البحث والدراسة لم تكن قائمة في مدينة ما قبل الصناعة، سواء في ذلك المشكلات الفيزيقية ـ كالطرق ، ووسائل النقل والاسكان ، والفضاء ، والمرافق ـ أو الاجتماعية كالاحـــداث ، والجريمة والبغاء والتفكك الاسرى ، ووسائل الاتصال ، والترويح · كـــل هذا وغيره من القضايا السياسية ، والاقتصادية والسيكولوجية ، أصبحت تجذب انظار الباحثين بشكل اكثر من ذي قبل ، وغدت المدينة مجالا خصبا للبحث والدراسة في كل انحاء العالم ·

ومع استمرار هذا النمو ظهـــرت « الميتروبوليس » Metropolis وذهب بعض علماء المدينة الى انه اذا كانت المدينة الحديثة ظاهرة القرن التاسع عشر فان الميتروبوليس تعتبر ظاهرة القرن العشرين ، وبالتالي فان فهم طبيعة التحضر في مراحلة الحديثة يقتضي فهم طبيعة الحياة في الميتروبوليس (١٣) ·

---

(١٣) تطلق كلمة ميتروبوليس على كـــل مركز حضري يشتمل على ــ

ولم يتوقف النمو الحضرى عند مرحلة الميتروبوليس ، ولكنه تخطاها الى مرحلة جديدة أطلق عليها العلماء الميجابوليس Megapolis وكان جين جوتمان Jean Gottman هو صاحب هذه التسمية ، وأطلقها على كل منطقة حضرية تتضمن عددا كبيرا من المناطق الميتروبوليتان • وهناك مصطلح مرادف لذلك هو Conurbation ، ويطلق على كل منطقة حضرية تنشأ عن طريق اختلاط عدة مدن سابقة ، والتحامها معا • وللمدينة العظمى نماذج فى أوربا اكثر مما كان فى امريكا ، حيث وجدت هذه النماذج فى كل من المانيا وهولندا Nertherland (١٤) •

هذا وقد ذهب لويس ممفورد فى مجال حديثه عن مراحل تطــور المدينة ، الى ان مرحلة الميجابوليس تمثل مرحلة بدء انحلال وانهيــار المدينة ، بل وسقوطها ، ذلك ان مؤشرات الضعف تاخذ فى الظهور فى هذه المرحلة ، ثم تتزايد ، فتسود الفردية المطلقة ، والتحكم الرأسمالى ، وينقسم المجتمع الى فئات متنافسة ، ثم متصارعة ويحل الانتاج الالى محل الانتــاج الفنى الاصيل ويتفاقم الصراع بين العمال ، وطبقــة الرأسماليين وينتشر الاضراب ، والتخريب ، والتمرد ، وفى المقابل تقوم الحكومات باعمال القمع ، والتعذيب ، والتشريد •• وغير ذلك من ظواهر

=

١٥٠،٠٠٠ نسمة أو اكثر ، بالاضافة الى المناطق الحضرية الملاصقة لها ، والتى تتكامل مع هذا المركز ، وفى نفس الوقت يمارس المركز الحضرى نوعا من الهيمنة السياسية والاقتصادية ، والاجتماعية ، ويتفاعل مع المنــاطق المجــاورة ، عبر شبكــة من المواصــلات ، والاتصــالات ، والعلاقات : انظر :

Hunt, Elgin, social science, an introduction to the study of society, The Macmillan Company, New York, 1955. p. 211.

(١٤) مصطفى الخشاب ، الاجتماع الحضرى ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ١٢٢ — ١٣٣ •

تدل على تفكك المدينة واتجاهها الى الاضمحلال (١٥)

ورغم الحديث عن هذه المرحلة ، الا أن الاهتمام بالميتروبوليس لا يزال يستحوذ على أفكار العلماء ، والدارسين فى التحضر ، اكثر من غيره • ويطلق على الميتروبوليس أسم المدينة الاشعاعية ، أو المهيمنة • وقد ذكر جراس Gras أن مفهوم هيمنة الميتروبوليس الى ما تمارسه من سيطرة على المناطق المجاورة الواسعة ، وتمتد هذه السيطرة أو الهيمنة الى النواحى السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية وغيرها • ولقد تاثرت الدراسات اللاحقة بهذا التصور الى حد كبير ، وامتد ليشير الى عملية التاثير ، والاعتماد المتبادل بين الميتروبوليس ، والمناطق المحيطة بها (١٦) •

ثالثا : التحضر فى مرحلة ما بعد الصناعة :
Post-industrial Urbanization

لم يدع عصر التحضر الحالى فرصة للعلوم الاجتماعية لملاحقته ، فقد أصبح التطور الذى يحدث من السرعة بحيث يثير من القضايا ، ويولد من المشكلات ما يجعل دراسته أمرا ملحا • فنظرة سريعة توضح أن (٢٢) مليون نسمة عاشوا عام ١٨٠٠ فى مدن حجمها (٢٠٫٠٠٠) الف نسمة ، بينما فى عام ١٩٥٠ عاش نصف بليون فى مدن من هذا الحجم ، وشكلوا خمس سكان العالم بأسره • وفى عام ١٩٧٠ أرتفع هذا العدد الى (٨٠٠) مليون نسمة وشكلوا ربع سكان العالم تقريبا • وتشير

---

(١٥) Glaab, Charles, N. & Brown, Theodere, The Emergence of Metropolis, in: social science and Urban Crisis, Introductory Readings (ed.) by: Victor. B. Ficker and Herbert; S. Graves, Macmillan Publishing Co. N. Y. 1971, p. 21.

(١٦) Ibid; p. 23.

التقديرات السكانية الى انه فى عام ٢٠٠٠ سيعيش واحد من كل ثلاثة سكان فى مدينة لا يقل حجمها عن (٢٠،٠٠٠) ألف نسمة · وفى نفس الوقت سوف تستمر الدول المتحضرة الان فى تحقيق معدل تحضر أعلى · كما ستقفز معدلات الاقامة فى الحضر فى دول العالم الثالث وغيرها بشكل ملحوظ (١٧) ·

ولم يتوقف الامر عند هذه المقـارنات الاحصائية ، والتوقعـات الديموجرافية ، بل انه على الجانب الاجتماعى نجد أن الحضرية كطريقة للحياة قد أخذت تتزايد وتمتد الى مناطق ربما ليست صناعية ، ولكنهـا تتضمن تنظيما اجتماعيا متميزا ، وثقافة مختلفة عن الثقافة السابقة ، فضلا عن الاختلافات فى الشخصية ، والسلوك ، ونمط التفكير ، والعلاقات والانتاج ، والاستهلاك وغيرها ·

وفى ضوء هذا الضع الجديد اصبح يحلو لبعض العلماء والدارسين أن يقسم البلدان المتقدمة ذاتها الى قسمين : قسم يســوده التحضر الصناعى Industrial والاخر هو الذى يسوده تحضر ما بعد الصناعة post-industrial ، وقد اجتهد هؤلاء فى قياس السمات المرتبطة بكل قسم من هذين القسمين ، سواء فى مجال البنية الاساسية ، أو الخصائص الاجتماعية ، وعلى سبيل امثال يذهب انصار هذا الرأى الى أن الدول الصناعية تعتمد فى مجال الطاقة على الفحم والغاز الطبيعى ، والنفط ، أما دول ما بعد الصناعة فتعتمد على الطاقة المستخرجة من هذه المواد مضافا اليها السولار · ومن ناحية اخرى نجد أن الصناعة فى المرحلة الاولى أقل كفاءة فى المجال التنظيمى من الثانية ، ومن ناحية ثالثـة

---

(١٧) U N., Bureau of social affairs, Report on the World social situation, N. Y., 1957, p. 114.

يلعب التخطيط ، والتعاون دورا كبيرا فى مجتمعات ما بعد الصناعة • واخيرا فان النمط الثانى يعتمد على الافـــراد باعتبارهم منتجـين ، ومستهلكين ، أكثر مما يفعل المجتمع الصناعى ، فطالما أن الثانية قد بلغت شأنا كبيرا فى التحضر ، فانه يترتب على ذلك تزايد كبير فى رغبات الافراد ، ومتطلباتهم وامالهم . وطموحاتهم ، وهذا بدوره يخلق ضغوطا جديدة على الانتاج الذى يعمل على دعم طاقاته للوفاء بهذه الحاجات (١٨)•

ويستمر أنصار هذا الاتجاه قائلين انه لكى نتبين هذه الفوارق بين المجتمع الحضرى الصناعى • والمجتمع الحضرى لما بعد التصنيع فانه من الواجب القاء الضوء على ثلاث خصائص أساسية هى :

(أ) النمو الاقتصادى غير العادى •

(ب) التنظيم الرشيد •

(ج) التطلع والحراك ، وان محاولة فحص هذه الجوانب على مستوى المجتمع والفرد ، سوف يتيح الفرصة للتفرقة بين هذين النمطين •

ففى الخاصية الاولى والتى تتوفر فى بريطانيا ، والمانيا الغربية وهولندا ، وبلجيكا ، والدانمارك ، وفرنســا ، واليابان ، واستراليا ، ونيوزيلنده ، والولايات المتحدة فى هذه البلدان نجد شبكة انتاج هائلة ، وشبكة نقل واتصالات على درجة عالية من الكفاءة ، الى جانب وسائل الانتاج ، سواء فى الزراعة او الصناعة • وهذا كله يحقق مستوى حضريا مرتفعا ، ويحقق ثروة كبيرة للدولة والافرد • وبالتالى يتسع نطــاق

---

(١٨) Cousine, N. Albert & Nagpaul, Hans, Urban life, The Sociology of Cities and Urban society; John Wiley & Sons, New York, 1979, pp. 5 - 11.

الاستهلاك ، وتتدعم فعالية الانتاج لمواكبته (١٩)

أما الخاصية الثانية ، فتتضمن الى جانب القدرة الانتاجية ، مقدره على التنسيق الادارى بين مختلف الفروع والتخصصات · واذا كان مفهوم « القوة » Power يعنى القدرة على حكم الاخرين ، فان هذا المفهوم قد طبق فى المدن الحديثة بواسطة هيئات تتخذ القرار ، وتعمل من خلال اطار بيروقراطى رشيد ، وغير شخصى · وهنا نجد أن الدول التى فى مرحلة تحضر ما بعد التصنيع تتبنى سياسات للعمالة الكاملة · والاسكان الجيد للجميع ، وتوفير سبل الرفاهية ، والخدمات الاضافية · وهذا الاتجاه كفيل بأن يحقق شرعية هذه القوة فى المجتمع ، بل أكثر من ذلك يجمع ما بين الصفوة والجماهير فى مركب واحد دون تناقض (٢٠) ·

واخيرا فان الخاصية الثالثة تتضمن : نهذه المدن تمنح الفرصة لدرجة كبيرة من الحراك المهنى للافراد ، كما تتيح الفرصة للتجديد ، الاقتصادى ، فيحدث مثلا ان يقع تغير يؤثر على الجماعات المهنية باسرها ، مثل انتشار الميكنة فى معظم الصناعات ، الامر الذى يؤثر على الفرص المتاحة من ناحية ، كما يؤثر على اوضاع القوة ، والمكانة · ثم أنه اذا كانت المنافسة الفردية تتدعم فى المجتمع الحضرى ، فان الحقوق الفردية مثل الحرية ، والرغبة فى تحقيق مزيد من الانجاز ، والنجاح ، والتعليم ، والتسلية ، والامن والمساوة ، واتخاذ القرار باسلوب ديموقراطى ، كل هذه تصبح موضع تقديس فى المجتمع الحضرى المتقدم (٢١) ·

ومهما يكن من أمر الجدل حول التفرقة ، أو قسمة المجتمع الحضرى

---

(١٩) Ibid; p. 12.
(٢٠) Ibid; p. 14.
(٢١) Ibid; p. 76.

الصناعى الى قسمين ، فاننا لا نرى فروقا حاسمة نستطيع عندها أن نحدد انتهاء مرحلة التحضر الصناعى ، وبداية مرحلة التحضر (بعـــد الصناعى) • وربما كانت الاراء التى ذهبت هذا المذهب تود الا تجعل التحضر فى العصر الحديث متساويا فى كل بلدان العالم بحيث تستوى مدينة لندن ، أو واشنطن او نيويورك من حيث النمو الاقتصـــادى ، والتنظيم الرشيد ، والتقدم الشخصى والاجتماعى ، مع مدن اسيا ، وافريقيا ، وأمريكا اللاتينية •

لعلنا نتفهم الفروق بين مدن العالم المتقدم ، ومدن العالم النامى ولكن على اية حال فان الغالبية العظمى من السمات الحضرية ، أو على الاقل متطلبات التحضر توجد بدرجة او أخرى فى مدن كل من هذين العالمين • ومن ناحية أخرى فان تحضر الكثير من بلدان العـــالم الثالث لا يزال حديثا ، وربما لو اتيحت له الفرصة فى ظل التخطيط الصحيح على ما يقول بوسكوف Boskoff ، فانه يحقق مستويات تقدمية وملائمة •

ثم ان هذه التفرقة ، وما تبعها من تعليق تقودنا الى الحديث عن التحضر فى العالم الثالث ، ومن حيث خصائصه الفريدة ، والمختلفة عن التحضر الغربى •

رابعا : التحضر فى العالم الثالث : Urbanization in the Third World

سبقت الدول الغربية غيرها فى تحقيق معدلات عالية من التحضر الصناعى ، ذلك على الرغم من ان كثيرا من الدول المتخلفة ، ودول العالم الثالث كان يشهد معدلات تحضر عالية فى الوقت الذى كان فيه سكان اوربا من البدو الرحل • الا ان عدم استمرار هذه البلدان فى مســـيرة التطور ، من ناحية ، وخضوعها لفترة طويلة من الاحتلال الاجنبى من ناحية اخرى قد ادى الى تدهور معدلات التحضر فيها • او على الاقل استمرار التحضر فى مدنها على نحو ما كان التحضر قبل الصناعى • لكن

الامر لم يستمر على ذلك ، بل اخذت هذه المعدلات فى التغير منذ خمسينيات هذا القـــرن ، وحتى الان ، فحينما حصلت هذه البلدان على استقلالها السياسى ، بدأت تاخذ بصورة أو اخرى باسباب التنمية والتحديث ، تلك السياسات ذات الاثر الفعال فى دفع معدلات التحضر باعتباره احد اوجهها الهامة أو المعبرة ٠

واذا كان التغير المشار اليه قد دفع ببلدان العـــالم الثـالث الى الاهتمام بالسياسات الحضرية ، وتخطيط المدن ، فانه من ناحية اخرى ادى الى خلق أوضاع جديدة ومتغيرة ، او بمعنى اخر دى الى خلق انماط حضرية ليست مالوفة ، ولم تنل اهتماما كبيرا فى كتابات علم الاجتماع الحضرى الراهنة ٠ وقد فرض هذا الوضع بطبيعة الحال تحديات علمية وعملية ، فى مجالات علم الاجتماع الحضرى من ناحية وأمـام مخططى المدينة ، وواضعى السياسة الحضرية من ناحية اخرى ، فاصبحنا اليوم نتحدث عن التحضر فى العالم الثالث ، ومدنية االم الثالث ، وطبيعة العلاقات الاجتماعية المصاحبة للتحضر فى هذا العالم ، ومجتمعات الجيرة فى العالم الثالث ، ومستقبل المدينة فى العالم الثالث ، وغير ذلك مـن الموضوعات التى تتطلب وعيا وادراكا متزايدا عند دراسة هذه المدينة ، وعند التخطيط لتنميتها ٠

واذا كنا نقول ان التحضر فى العالم الثالث قد أضاف ابعادا جديدة، وربما فرض مداخل جديدة لدراسة المدينة ٠ الا انه لا يترتب على ذ القول بأن مدن العالم الثالث متجانسة فيما بينها ، أو انها متشابهة فى خصائصها الحضرية ، ولكن القول هنا بتباين هذه الخصائص ، مـــع تشابه الظروف التى شكلتها وهو ما يفرض الحاجة لاجراء دراســـات مقارنة على نطا قواسع لطبيعة التحضر ، وابعاده فى العالم الثـالث ٠ وقد أجريت دراسات عديدة من هذا القبيل عن طريق هيئات الامم المتحدة المتخصصة ، فضلا عن دراسات فيليب هوزر Ph. Hauser وكنجزلى دافيز

K. Davis ، وغيرهم وتوصلهم الى ان من أهم خصائص التحضر فى دول اسيا وأفريقيا ، وامريكا اللاتينية أى دول العالم الثالث ـ ما يلى ٠

١ ـ التركز الحضرى : Urban Centralization

ويعنى أن هناك مدينة واحدة ، أو مدينتين تستحوذ على نسبة اعظم من سكان الدولة ككل ، وغالبا ما تكون العاصمة احداهما ٠ حيث نجدها تشتمل وحدها على نسبة كبيرة قدتصل الى نصف سكان الدولة او ما ينيف على ذلك ٠ ومعنى هذا أن التركز يشير الى وجود نسبة كبيرة من السكان فى عدد قليل من المدن ٠ ومثال ذلك أننا نجد عاصمة اورجواى Uraguay تحتوى على (٣٠٪) من سكان الدولة ، وكاراكاس Caraças عاصمة فنزويلا ، وبيونيس أيرس عاصمة الارجنتين Argantina على (٢٩٪) ، وهذه المعدلات تختلف بطبيعة الحال عن المعدلات التى تسود دول أوربا وأمريكا (٢٢) ٠

٢ ـ الهجـــــرة : Migration

كذلك نلمس احتلافا واضحا فى ظاهرة الهجرة ، فقد كانت الهجرة تعنى من قبل ، وفى بداية الثورة الصناعية انتقال أناس من مناطق ذات دخل منخفض للعمل فى مناطق ذات دخل مرتفع ، كما تعنى مزيدا من التحسن والراحة فى ظروف العمل ٠ ولكن فى البلدان النامية تحدث الهجرة من مجتمع زراعى ذى دخل منخفض الى مجتمع حضرى ذى دخل محدود، ولا يتمتع بقدر كبير من التحسن فى ظروف العمل ، وهذا بدوره يعنى نقل كثير من ظروف الفقر ، والجهل ، والمرض ، وانخفاض مستوى المعيشة ،

---

(٢٢) U. N. Report on World social situation, Bureau of social Affairs, New York. 1957.

وبالتراكم تتفاقم هذه الظواهر فى المدن (٢٣) ويطلق جيرالد بريز G. Breeze على هذه الظاهرة ، التحضر الحدى Subsistence Urbanization او تحضر الكفاف ، وهو يشير به الى الحياة الحضرية التى لا يتوافر للمواطن فيها الضرورات ، وحتى هذه الضرورات قد يصعب تحقيقها فى مجالات معينة مثل الاسكان ، والتغذية ، ووسائل الاتصال ، والترفيه والنقل ، والمواصلات (٢٤) .

٣ — الاستفادة من التراكمات الثقافية :

ومن الامور التى تدفع الى الاعتقاد باختلاف سمات التحضر ، وطبيعته فى العالم الثالث عنه فى العالم الغربى ان هذا التحضر فى البلدان الاولى قد تم على رأس مجموعة من العوامل ، والتراكمات الاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية ، والتكنولوجية ، وليس على بلدان العالم الثالث والاقتصادية ، والثقافية ، والتكنولوجية ، وليس على بلدان العالم الثالث ان تبدأ دورة تحضرها من جديد ، ولكنها استفادت وتستفيد بالضرورة مما حققته المدينة الغربية فى هذا المجال (٢٥) .

ومعنى ذلك ان نقطة الصفر فى كليهما سوف تكون مختلفة ، وبالتالى سوف تختلف المراحل اللاحقة من حيث طبيعتها ، ومشكلاتها ووسائل مواجهتها ، فاذا كان التركز الحضرى فى بلدان العالم الثالث من اكثر السمات وضوحا ، واذا كان هذا التركيز يخلق كثيرا من المشكلات ،

---

(٢٣) Cook, Robert, The World great Cities: Evolution or devolution op. cit., pp. 14 - 21.

(٢٤) Ibid., p. 23.

(٢٥) جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية ، ترجمة محمد محمود الجوهرى ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٣ .

فان أهم أساليب مواجهة هذه المشكلات تتمثل فى اعادة توزيع سكان الحضر Decentralization أو الانتشار الحضرى والنتيجة التى تترتب على ذلك أن خصائص التحضر الحاليـــة ، تكون محددة لســـــمات وخصائص التحضر ، بل تكون محددة لمستقبل الحياة الحضرية فى هذه البلدان ، بمعنى أن ما تكشف عنه دراسات وخصائص سكان الحضر ، وما يواجههم من مشكلات مثل سوء التوافق ، وعــدم التكيف للحياة الحضرية ، والتمسك ببعض الرواسب الثقافية ، كل ذلك سوف يمثل منطلقات لدراسات حضرية متعددة ، ومنطلقا لوضع سياسات ملائمة لتخطيط المدينة ٠

٤ ـ عوامل النمـــو :

مدن العالم الثالث ، والمدن الكبرى بخاصة هى حلقة الاتصال مع العالم الخارجى ونتيجة لذلك فقد نمت بسرعة ليس بفعل التصنيع الثقيل ـ كما حدث فى غيرها ـ ولكن بفعل عوامل أخرى مثل ، التجارة الخارجية، وحركة الملاحة البحرية والموانى ، وتركز السلطة السياسية ، وملكية الارض على نطاق واسع ، ومن هنا فان الباحث يلمح فاصلا ثقافيا شاسعا بين هذه المدن وبين مناطق ظهيرها الزراعى من ناحية ، وبينهما و المناطق الريفية من ناحية أخرى (٢٦) ٠

٥ ـ معدلات الزواج والولادة :

هناك معدلات واضحـــة للزواج ، والولادة فى المدن الغربيـــة ، والامريكية ، ومن أهم سماتها أننا يمكن أن نجد عدد المتزوجين فى الريف اعلى منه فى المدن ، وكذلك نجد معدلات الولادة غير الشرعية فى القرى

---

(٢٦) نفس المرجع السابق ، ص ٣٨ ٠

منخفضة ، وفى المدن مرتفعة ، لكن بعض مدن امريكا اللاتينية مثلا يفصح عن معدلات مختلفة عن ذلك ، ويقول بعض العلماء أن استمرار التحضر ، والتصنيع سوف يغير هذه المعدلات لتصبح مشابهة لتلك السائدة فى الغرب ، ومع ذلك فهى سمات خاصة ، ونوعية تنفرد بها بعض مدن العالم الثالث ، ويمكن أن نستخلص منها خصائص فريدة (٢٧) ·

٦ — الاسرة الحضرية فى العالم الثالث :

كشف الكثير من الدراسات عن أن نمط الاسرة الحضرية فى بلدان العالم الثالث يختلف عن نمط الاسرة السائدة فى المجتمعات الغربية هذا النمط الذى افترض من الباحثين أنه أكثر ملاءمة لحياة المجتمع الصناعى الحضرى ، فقد اتضح على سبيل المثال وجود نوع من الاسر يحتل مكانا وسطا بين الاسرة النواة Nuclear Family ، والاسرة الممتدة Extended Family ، وهو النوع الذى عرف بالاسرة الممتدة المعدلة Modified extended Family وهو نمط لا يعتمد على التقارب الجغرافى أساسا ولكن توجد فيه علاقات تقوم على المساعدة المتبادلة بين افراد الاسر ، وتعدد الالتزامات التى يقوم بها الفرد فى هذه الاسرة · كما انها ليست مغلقة بشكل صارم ، لكن بناءها يسمح بالحراك الاجتماعى ، والتنقل الفيزيقى ، كما ان هناك أسرا حضرية فى مدن العالم الثالث لا تزال تنطوى على سمات اجتماعية وثقافية تقليدية ، مثل طرق العلاج الشعبية ، واللامبالاة وانخفاض مستويات التعليم وغير ذلك (٢٨) ·

---

(٢٧) Davis, Kingsly and Casis. Ana, Traits of the Urban and rural populations of Latin America, in: Gibbs, Jack, p. (ed.) Urban research methods, Affiliated East-West press, PVT, New Delhi, 1966, pp. 505 - 506.

(٢٨) Ibid., pp. 523 - 525.

٧ ـ العلاقات الاجتماعية الحضرية :

اشارت دراسات كثيرة الى أنه فى مجال العلاقات الاجتماعية فى الحضر ، لم يحدث تحول كلى الى نمط العلاقات الثانوية فى بلدان العالم الثالث • ولكن كثيرا من الجماعات ، والروابط الموجودة فى بعض مـــدن العالم الثالث تنطوى على قدر كبير من العلاقــات الاولية ، الامر الذى يتعارض مع نظريات التحضر الغربية ، وتقدم انماط العلاقات السائدة فى كثير من مدن الهند ، واليابان ، وغيرهما دليلا على أن العلاقات الاولية لا تزال تلعب دورا بارزا فى المجتمع الحضرى •

٨ ـ وظائف المدن :

حاولت الدراسات التى اجريت على مدن العـــالم الغربى تصنيف الوظائف التى تقوم بها المدن ، أو تصنيف المدن من حيث وظائفها • فهذه مدن ادارية ، وتلك سياسية ، وثالثة ترويحية ، ورابعة تجارية ، وخامسة صناعية ، وغير ذلك ومع أن هذا التصنيف لم يتضمن اقتصار دور هذه المدن على تلك الوظائف وحدها ، ولكن كان يعنى غلبتها على غيرها من الوظائف ، الا أن الامر يختلف فى مدن العالم الثالث ، ومن حيث أننا نجد مدينة أو مدينتين تقومان بكل هذه الوظائف مجتمعة ، بحيث يصعب تطبيق التصنيف السائد فى علم الإجتماع الحضرى عليها •

٩ ـ الدور الحضارى للمدينـــة :

من الامور المسلم بها أن المدينة تؤدى دورا حضاريا بالنسبة للريف، وربمـــا كان هذا هو حال المدينة الاوربية ، والامريكية ، ولكن فى مجتمعات العــالم الثالث ، ومن بينها المجتمع المصرى ـ على سبيل المثال ـ نجد العكس ، فالقرية رافد حضارى هام بالنسبة للمدينة ، ذلك أنها تصب فى المدينة أكثر مما تصب المدينة فيها ، طالما ان حركة الهجرة تتجـه دائما الى الحضر ، ونادرا ما تحدث هجرة عكسية • وهذا بدوره يفرض

اعباء جديدة على مجتمعات المدن فى العالم الثالث ، فضلا عن الاعباء القائمة • كذلك فان هذا الوضع يحول دون تحقيق تقدم سريع فى الحياة الحضرية فى العالم الثالث ، ذلك أن القادمين الى المدينة بخلفياتهم الريفية لا يتكيفون لحياة المدينة بسهولة وعلى المدى القصير • فضلا عن أنهم ينقلون اليها أنماطا ثقافية ريفية وربما تسود فى مناطق المهاجرين للمدينة وربما تتفاعل مع الانماط الحضرية ، وربما تنشأ منهما تركيبة جديدة ، الامر الذى يطرح الكثير من التساؤلات عن الدور الحضارى المتوطن بالمدينة ، كما يتطلب أخذه فى الاعتبار عند دراسة مدينة العالم الثالث (٢٩) •

١٠ ـ الجيرة فى المجتمع الحضرى : Urban Neighborhood

مجتمع الجيرة يشكل وحدة اساسية فى الحياة الحضرية ، ومن الواجب ألا تغفله الدراسات فى هذا المجال • فهو فضلا عن كونه وحدة فيزيقية ، فهو اطـــار اجتماعى فعال فى تشكيل العلاقات الاجتماعيـــة الحضرية • هذا وقد ذهب الكثير من الدراسات الى أن هناك علاقة عكسية بين زيادة التحضر ، وأهمية مجتمع الجيرة ، بمعنى انه كلما كانت نسبة التحضر مرتفعة ، كان الدور الذى تؤديه وحدة الجوار قليلا ، حيث يرتبط التحضر بتزايد العلاقات السطحية ، والثانوية • ولكن على العكس من ذلك ظهرت دراسات عن كثير من بلدان العالم الثالث تشير الى استمرار احتفاظ وحدة الجوار بدورها القوى فى المجتمع ، وبالتالى من الممكن تنفيذ كثير من البرامج الاجتماعية من خلال هذا الاطار ، وهنا تتقدم لنـــا نظرية التحضر فى العالم الثالث شاهدا جديدا على اختلافه طبيعته عن التحضر الغربى أو الامريكى •

---

(٢٩) عبد الهادى والى ، التنمية والتخلف فى المجتمع ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٣ ، ص [illegible]

ولعل اهتمامنا بالاشارة السريعة الى هذه الفوارق يرجع الى أن هذا الامر أصبح متعاظم الاهمية ، وفى نفس الوقت يفرض وعيا متزايدا عند تناول ظاهرة التحضر فى العالم الثالث ٠

خامسا : مشكلات المجتمع الحضرى :

واذا كان الحديث عن الحضرية ، والمجتمع الحضرى ، يجرنا دائما الى مشكلات المجتمع الحضرى ، فانه يعن لى أن أشير فى عجالة الى بعض هذه المشكلات ٠ ولقد أصبح الحديث عن مشكلات المجتمع الحضرى عامة ، سواء فى الغرب ، أو الشرق ، أو العالم الثالث ٠ فتتراوح النظرة اليه ما بين تشاؤم يرى أن الحضرية هى مبعث الشرور والاثام ٠ والامراض ، وتفاؤل لا يزال يؤمن باستمرار امكانية سيطرة الانسان على بيئته مهما تعاظمت مشكلاتها ، ويرى أن الاستسلام لهذه المشكلات يشكل تحديا لكل ما احرزته الانسانية خلال مراحل نموها ٠ وبين هذا وذلك تبقى مشكلات الحضر فى حاجة الى دراسات فاحصة واعية ٠ ولسوف أذكر منها ما يلى :

١ ـ الاسكان الحضرى :

وهو من أهم هذه المشكلات ، فالمدينة تبدأ كبناء أو نمط فيزيقى ، منظم على نحو معين او اخر ، ولكل نمط عيوبه ومميزاته ، فقد يفى بمتطلبات الحياة الاجتماعية الملائمة ، وقد يعجز عن ذلك ٠ واذا أدركنا زيادة معدلات الهجرة الريفية الحضرية فى بلدان العالم الثالث ، وزيادة الهجرة من الخارج الى مدن العالم الغربى ، فان النتيجة تكون فى تفاقم مشكلة الاسكان ذلك انه ما لم يشكل المنزل او المسكن فى المدينة قوة جذب فان النتائج المترتبة على ذلك تكون خطيرة ٠

٢ ـ مشكلة النقل والمرور :

نحن ندرك جيدا أن ايقاع الحياة الحضرية سريع ، فالانضباط

بوقف محدد للعمل ، واللقاءات ، والتجمعات ، كهلا تفرض وجـود شبكة للنقل والمواصلات على درجة من الانتظام والكفاءة تسمح بتوافق الانسان الحضرى لظروف عمله وحياته · وكلما اخذت بلدان العالم الثالث بأسباب النمو والتطور ، فان معدل اقتناء السيارات يتزايد هو الاخر ، وتكون النتيجة ضغطا متزايدا على شبكة الطرق التى صممت دون توقع لهذه الزيادة ، فتتحول المدينة الى منطقة تكدس ، وازدحـام لا يتيح حتى لاصحاب السيارات ، ووسائل النقل الخاصة انجاز أعمالهم فى اوقاتها المحددة · ولما كانت جوانب الحياة الاجتماعية متداخلة ومتساندة فانه يترتب على ذلك قصور فى بعض جوانب العمل ، والخدمات والمرافق ·

٣ ـ الاسواق والخدمات العامة :

وهى فى المدينة تؤدى دورا أساسيا فى استقرار الحياة الاجتماعية ، وسهولة الحصول على متطلبات الحياة · ولما كان التوسع والامتداد فى كثير من المدن قد تم بأسلوب عشوائى ، وغير مخطط فانه لم يأخذ فى الاعتبار أماكن الاسواق ، والخدمات وسهولة الوصول اليها ، ومن هنا نلمس مزيدا من التكدس فى قلب المدينة أو منطقة المركز ، وهذا بدوره يؤدى الى ضغوط متزايدة على وسائل النقل والمواصلات ، ونسق المرور ·

٤ ـ الترويح الحضرى :

وهو ضرورة حيوية لحياة المدينة ، بحيث لا يمكن تصور وجود المدينة ، دون وجود أماكن للترويح مثل دور السينما والمتنزهات والشواطىء وغيرها ، وربما كانت معظم المدن فى العالم الثالث ، وبعض مدن العالم الغربى تعانى من مشكلات الترويح الحضرى واثارها النفسية ·

٥ ـ ويرتبط بما سبق ندرة الاماكن الفضاء ، والخضراء ، خاصة على مستوى الجيرة ، ذلك أن هذه الاماكن تمثل متنفسا للمدينة ، فضلا

فضلا عن انها تساعد على تنشئة احوائها ، وتسمح بوجود أماكن للعب والتجمع خاصة فى مجتمع الجوار ·

٦ ـ المناطق المتخلفة :

وهذه المناطق تظهر بفعل عمليات ايكولوجية كالغزو ، والانتشار والمنافسة وغيرها ، فحينما يتركز السكان فى منطقة من المناطق وتبدا افواج جديدة فى غزو هذه الاماكن ، يبدا القادرون فى التحرك الى مناطق أخرى جديدة اكثر هدوءا وملائمة ، وبالتالى يهجرون بناءاتها ، وتترك دون صيانة أو رعاية ، بينما يستقر المهاجرون في هذه المناطق ، وشيئا فشيئا تظهر مناطق متخلفة ، دون المستوى المطلوب للحياة الاجتماعية ، فتتفاقم فيها الامراض الفيزيقية ، والاجتماعية ، والنفسية ، وتمـــد المدينة بعناصر طفيلية غير منتجة · ولعل تركيز السياسات الاجتماعية ، والخطط الحضرية على ازالة مثل هذه المناطق واعادة بنائها دليل على مدى خطورتها ·

٧ ـ التلوث الحضرى :

وقد ساهمت حركة التصنيع ، وزيادة وسائل النقل والمواصلات فى زيادة معدلات التلوث Pollution ، ولا تزال تجرى دراســـات متنوعة حول وسائل القضاء على هذا التلوث ، وبسببه حدثت كوارث كثيرة وتزايدت معدلات الامراض ·

٨ ـ اللامبــــالاه : Apathy

وهى ظاهرة عدم اكتراث كثير من سكان الحضر بما يحدث فى مجتمعهم ، وتقاعسهم عن المشاركة فى مشروعات عامة تهدف للنهوض بهذا المجتمع · وقد تاخذ اللامبالاة صورا متعددة ، فقد لا يبالى سكان الحضر بالامور الاجتماعية . او الامور السياسيه ، أو المشاركة فى الاتجاهات

العامة والرأى العام — وقد اشار بعض العلماء الى أن من اسهل على الحضرى أن يرفض امورا او ممارسات معينة ، ولكن من الصعب أن يحدد امورا تحتاج لجهد عام ، او يشارك فى مثل هذا الجهد ·

٩ — الامراض النفسية :

وقد اشار كثير من الدراسات الى أن معدلات الامراض النفسية ، والعصبية تتزايد فى المدينة بشكل أكثر من القرية · وقد يرجع ذلك الى عدم التكيف لحياة المدينة ، أو المعاناة الاقتصادية ، او الضغوط التى تفرضها هذه الحياة ·

١٠ — وسائل الاعلام والرأى العام :

لعل من الواضح أن هناك حاجة دائمة لاجراء مراجعة شاملة على خطط وسائل الاعلام ، وسياساته ، ليعبر عن احتياجات سكان المدينة ، ورغباتهم · فتشكيل رأى عام ملائم يعتبر مهمة عسيرة فى المجتمعات الحضرية ، مالم يكن هناك خط واضح ملتزم لوسائل الاعلام ، وتدريب سكان المدينة على ابداء رايهم فى هذا الخط أو الاسلوب ، وهنا تظهر الحاجة المستمرة لاجراء استفتاءات للرأى العام بين وقت واخر ، فضلا عن استخدام الوسائل الاخرى لقياس الرأى العام · ويرتبط بهذه النقطة ايضا الحاجة الى وضع خطة للتعبئة الاجتماعية الشاملة بمجموعة من القيم والاراء التى تخدم الحياة الحضرية ، وتؤدى فيها دورا فعالا ·

١١ — الهجرة الريفية الحضرية : Rural Urban migration

ولعل حديثنا السابق عن التركز الحضرى ، واثر الهجرة فيه ، يوضح أن هناك حاجة ملحة لوضع ضوابط ، وسياسات لهذه الهجرة وسواء تم ذلك عن طريق تصنيع الريف ، او النهوض به ، او تم عن طريق انشاء مجتمعات جديدة ، ومستحدثة ، فانه يجب ان تستمر

المدن خاصة في العالم الثالثفي الملفاة من مشكلات تتحدى كل خطة للنهوض بها .

١٢ — مشكلات الجماعات الخاصة :

تتضمن المدينة عددا كبيرا من الجماعات ذات النوعية الخاصة ، مثل المعوقين ، وكبار السن ، والمتقاعدين ، وغيرهم ممن يواجهون ظروفا خاصة . وهذه الجماعات في حاجة الى مؤسسات ، وسياسات عامة تتكفل بهذه الفئة ، حتى لا يتحول هؤلاء الى طاقات سلبية تعطل من تنميتها ولا تعطيها .

١٣ — التفكك الاسرى :

تشير الدراسات التى اجريت حول هذه الظاهرة الى ان التفكك الاسرى فى المدينة اكثر وضوحا منه فى القرية ، ومن هنا فان هناك ضرورة لمواجهة هذه المشكلة فى ضوء القيم الدينية ، والثقافية ، والاجتماعية السائدة ، وفى ظل القوانين المعمول بها فى المجتمع (٣٠) .

هذه المشكلات وغيرها مما يواجه المجتمع الحضرى ، والحياة الحضرية

---

(٣٠) هذه المشكلات وغيرها وردت بصورة أو أخرى فى معظم مؤلفات الاجتماع الحضرى وشكلت فى كثير من الاحيان قضايا موجهة للكثير من الدراسات التى تهتم بالمجتمع الحضرى ومشكلاته . انظر على سبيل المثال :

Culling Worth. J. B. problems of an Urban society, Goerrge Alleh & Unwin, London, 1972, Vol. 1, Vol. 2, and Vol. 3.

وعاطف غيث : الاجتماع الحضرى ، مرجع سبق ذكره .
ومصطفى الخشاب : الاجتماع الحضرى ، مرجع سبق ذكره وغير ذلك من مؤلفاته ودراساته متعددة .

سواء في الغرب ، أو الشرق ، أو العالم الثالث ، أضافت أهمية متزايدة للدراسات الاجتماعية الحضرية ، وما يترتب عليها من اجراءات وممارسات · وقد عرضنا لها بشكل موجز دون الدخول في تفصيلاتها ، او جذورها ، أو اثارها المتبادلة فليس هنا مجال هذا العرض ·

وربما يتساءل المرء عما اذ كانت هناك استراتيجيات · ومداخل ملائمة لمواجهة هذه المشكلات في المجتمع الحضرى ، الذى اخذ كما أشرنا في الاتساع والامتداد فى جميع انحاء العالم ولكن مثل هذا التساؤل يجعلنا نذهب الى أنه ليست هناك استراتيجيات عامة وموحدة تفى بهذا الغرض · ذلك أنه ببساطة اذا كانت طبيعة التحضر ، وخصائصه ، ومشكلاته قد اختلفت — كما أوضحنا — من مكان لاخر وفقا للظروف التاريخية والاوضاع الثقافية وغيرها ، فانه يترتب على ذلك ان أسلوب مواجهة هذه المشكلات سوف يختلف هو الاخر · ومعنى ذلك أن ممارسات التخطيط الحضرى في أوربا وامريكا مثلا ، قد لا تتلائم مع الواقع الحضرى فى بلدان الكتلة الشرقية أو فى بلدان العالم الثالث · ومن ناحية أخرى فسوف نجد تنوعا داخليا فى كل كتلة من هذه ، وفقا للظروف الخاصة لكل دولة من دولها ·

ومع ذلك فان هناك أفكارا عامة تصلح لتوجيه سياسات القضاء على مشكلات المجتمع الحضرى ·لعل منها ضرورة وجود نظم ومؤسسات حضرية قوية ، تستفيد من مستحدثات العلم والتكنولوجيا ، وتستثمرها الاستثمار الامثل بشكل يجعل حياة المدينة اقل معاناه ، ثم ان هناك حاجة لوجود نمط من التخطيط الصحيح ، الذى يدرك أوجه القصور ، ويشخص أسبابها ، ويختار اسلوب القضاء عليها سواء فى ذلك ما يوجد في الواقع الحضرى الفيزيقى ، أو الواقع الاجتماعى بشموليته · والى جانب ما سبق فان هناك حاجة لاعطاء دفعة قوية لكل المؤسسات الحضرية الرسمى منها والطوعى ·

ومن الناحية النظرية فان البيئة الحضرية اصبحت مجالا لاهتمامات متعددة من جانب مختلف العلوم الاجتماعية •فالجغرافيون مثلا يحاولون شرح مواقع التجمعات السكنية ، والاوضاع البيئية ، والمناخية وغيرها مما يؤثر على أداء المجتمع الحضرى • كما ان يموجرافيين يحاولون قياس حجم السكان ، وتركيبهم وحركتهم ، والتاريخيون يدرسـون مختلف التطورات السياسية والثقافية وغيرها فى المدينة • ويرصدون مختلف التطورات التى حدثت فيها ، وبالاضافة الى ذلك فان الاقتصاديين يرون فى المدينة وحدة انتاجية ، ضمن ادوات الانتاج الاقليمية ، والقومية ، والعالمية ، وعلماء النفس الاجتماعيين يهتمون بظواهر مثل الاتصـال والرأى العام ، والقيادة فى الحضر ، كذلك التيارات العاطفية ، واللاعقلانية التى تظهر فى المدينة من وقت لاخر ، وتاثيرها على هذا المجتمع • كل هذا فضلا عن دراسات علم الاجتماع والانثروبولوجيا • وبناء على ذلك فان دراسة من ناحية ، وتخطيط المدن ، ومواجهة مشكلاتها من ناحية أخرى ، يجب أن تستفيد من هذه المداخل ، والفروع المعرفية المختلفة ، حتى لو كان المدخل الذى تاخذ به هذه الدراسات مدخلا سوسيولوجيا بحتا (٣١) •

---

(٣١) Cousins & Nagpaul, op. cit., p. 20.

استهلال

(بقلم المؤلف) (*)

فى كتابه « الطريق الى أوكسيانا » Oxiana يشير روبرت بيرون R. Byron الى انطباعه الاول عن دمشق قائلا « هنا يوجد الشرق فى شكله القديم المختلط » ·

وكل شخص يلاحظ التحضر فى الشرق الاوسط وقد يقول نفس هذا القول ، وهناك عدد كبير من الدارسين المقتدرين لمدينة الشرق الاوسط ، اعتمدوا فى معظمهم على ما تجمع لديهم من مقالات مدرسية ، ولكن أيا منهم ـ فيما أعتقد ـ لم يحاول تقديم دراسة للموضوع من وجهة نظر واحدة وهذا ما حاولته فى الحقل الراهن ، فقد كتب أساسا لمن يدرسون التغير الاجتماعى · وفى مثل هذا الموضوع الواسع ، فان هناك مشكلات لا يمكن تجنبها ، خاصة بالتنظيم ، والاختيار ، والتعريف ··

وربما كان اعقد هذه المشكلات ما يتصل بالتعريف ، وخاصة مفهوم « الشرق الاوسط » « والتحضر » · فالمناطق التى جمعتها هنا تحت عنوان الشرق الاوسط تتضمن ، ليبيا ومصر ، وبلدان شبه الجزيرة العربية ، واسرائيل ، ولبنان ، والعراق ، وتركيا ، وايران · وأطلقت هذه التسمية على تلك البلدان منذ الحرب العالمية الثانية فقط ، حيث امتدت كمنطقة عسكرية من ايران شرقا الى طرابلس غربا ومن السهل ان ناخذ بالتحديدات الاقليمية التى تطلق هذا الاسم على المنطقة المتوسطة من هذه البلدان ، وهى شبه الجزيرة العربية ، والمشرق ، والعراق ، وتترك الباب مفتوحا للنقاش حول أى من البلدان التى تقع على اطراف هذه المنطقة يمكن ادخاله

(*) ترجم هذا الاستهلال الدكتور / عبد الهادى محمد والى ·

وايها يمكن استبعاده • وبالنسبة لي فقد ادخلت ضمن البلدان التي يشملها هذا المصطلح تركيا ، وايران ، ومصر ، وليبيا ، لان لها علاقات جغرافية وثيقة مع المنطقة الاصلية ، وقد استبعدت بقية بلدان شمال افرايقية • ان التميز بين الشرق الاوسط . وشمال افريقية امر من الصعب تبريره ، في ضوء ما يجمعها من خصائص عامة ، ولكن رغم ذلك فان حدود المكان تعوق ادخال شمال افريقيا هنا • كذلك السودان الذى يحتمل أن تتم دراسته في مؤلف مستقل في هذه السلسلة • أما مصطلح التحضر فقد استخدم بعدة طرق ، منها أنه استخدم عند بعض المؤلفين للدلالة على تزايد نسبة سكان الامة التي تعيش في المناطق الحضرية ، بينما زيادة عدد سكان المدن ، سواء كانت هذه الزيادة أسرع او أقل من معدلات الزيادة في القرى تسمى نموا حضاريا • وقد اطلق اخرون على زيادة حجم الاماكن الحضرية « تحضرا » • ولكن في الدراسة الراهنة لم اتبع هذا الفهم أو ذاك ، حيث ان اهتمامنا هنا يتضمن الظواهر الديمجرافية الخاصة بالمناطق التي تعيش فيها الناس ، الى جانب العمليات الاجتماعيـــة المتضمنة والتي تتطلب الاخذ بعناصر ثقافية مادية وغير مادية ، وبانماط من السلوك والافكار التي نشات في المدينة أو التي تميزها • ولكي نتحاشى الغموض فان مصطلح « التحضر الفيزيقي «Physical Urbanization» سوف يستخدم للدلالة على المكان الذى يعيش فيه الناس ، بينما «التحضر الاجتماعي Social Urbanization سوف يستخدم كلما ثارت تساؤلات عن العمليات الاجتماعية المتضمنة •• وقد اخذت بالتعريف الامريكي ، للمنطقة الحضرية Urban area ، وهو تلك المنطقة التي تشتمل على اكثر من خمسة الاف نسمه • وكما سنرى فان من أهم ملامح الشرق الاوسط أننا نجد تراثا قويا • وهو التراث الخاص بحياة المدن ، او كما يطلق عليه التحضر الاجتماعي • وعلى هذا الاساس فسوف نناقش الخلفية الاجتماعية ، والبيئية للتحضر في الفصل الاول • ولكي نغطي ميدانا

معقدا كهذا ، فان هناك مشكلات خاصة بالاختبار ، والتفسير • فالمادة الاحصائيــة الخاصة بالمنطقة ليست شاملة ومتاحة حتى الان ، وغالبا ما تكون غير موثوق بها ، ولا تسمح بالمقارنة على المدى الزمنى او بين بلدان المنطقة • والمعلومات العامة عن المنطقة متاحة من خلال عدد كبير وغير عادى من المصادر • ونجد هذه المصادر قد وضعت على اسس متعددة بحيث تمتد من المصادر الضئيلة للارصاد الجوية الى التاريخ الاجتماعى ، ولكل من هذه المصادر مناهجها الخاصة ، وافتراضاتها الخاصة ، ونظرتها الخاصة للتساؤلات التى يمكن ان تثار •

ان ما يسعى اليه هذا المؤلف هو شرح الاسلوب الذى تحولت به مدينة الشرق الاوسط الى التحضر الفيزيقى والاجتماعى الحديث ، ويتطلب ذلك البحث فيما اذا كانت العوامل المؤثرة فى هذه المنطقة عوامل خاصــة بها أم هى عوامل التحضر العادية ، واذا كانت مؤثرات خاصة بالمنطقة فان البحث يتطلب التساؤل عن تلك القيم الاجتماعية ـ الحديث منها ، والتقليدى ـ التى تؤلف هذه العوامل ، والمؤثرات • ولقد انطلقت هنا من فكرة مؤداها أن النمو الحضرى نشأ من بدايات عامة فى المنطقة ، ويتجه نحو غايات متشابهة فى جوهرها ، ولكن مع ذلك يجب الا نغفل الاختــلافات فى البناء الاجتماعى للمدن التى تبدو مختلفه ، وبالتالى فقد ضمنت هذه الدراسة عددا كبيرا من دراسات الحالة كأمثلة على التنوع من خلال العملية العامة • ولكن عبر الكتابة كان واضحا اوجه الشبه الحالية بين دولة وأخرى ، سوف تؤدى بمستقبل النمو الحضرى المخطط الى الالتقاء أكثر من السير فى خطوط متوازية • وبالاضافة الى هذه الصعوبة المألوفة التى تتمثل فى وجود تشابهة مقابله اغراء بالحديث عن الخصوصية ، فان هناك مشكلة دراسة نظم اجتماعية بعينها ، مثل العائلة ، والروابــط الطوعية على الرغم من أن المعطيات المتاحة عنها ضئيلة • وأعترف أن

هذا هو السبب الذى جعلنى اعتمدا الى حد كبير على كتابات منشـــورة بالانجليزية .ولقد كنت مدركا لاوجه التصور هذه وغيرها ، واعتقد انه سوف يتم ابلاغى بالمزيد منهـــا .

ف.ف. كوستيللو

الفصل الأول

البيئة والمجتمع فى الشرق الاوسط (*)

فى منطقة كبيرة ــ كمنطقة الشرق الاوسط ــ من الطبيعى أن نجد تنوعا كبيرا فى طرق الحياة والتنظيم الاجتماعى ، ورغم هذا التنوع نجد عناصر دينية ، وثقافية ، واقتصادية تعمل على وحدة هذه المنطقة • واحدا العناصر العامة لهذه الوحدة هو « الاسلام » ذلك الدين الذى يسود كل المنطقة فيما عدا اسرائيل ولبنان • والعنصر الثانى المؤثر فى وحدة المنطقة هو « اللغة العربية » ، « والقومية العربية » باستثناء تركيا . وايران واسرائيل ايضا • وقد جلبت صناعة البترول ثروة طائلة لبعض بلدان المنطقة . بينما بقى البعض الاخر فى عداد أفقر دول العالم • ففى مستهل السبعينيات تراوح نصيب الفرد فى هذه البلدان من الدخل القومى GNP (١) ما بين (٧٠) سبعين دولارا و (٣٥٠٠) ثلاث الاف وخمسمائة دولار • كذلك تتراوح مساحة بلدان الشرق الاوسط ما بين ثلاثين كيلو مترا مربعا ، و (١٫٧٦٠٫٠٠٠) مليون وسبعمائة وستين ألف كيلو متر مربع • أما حجم السكان فى بلدانه فقد تراوح ما بين (٨٠٫٠٠٠) ثمانين الف نسمه و (٣٤٫٠٠٠٫٠٠٠) أربعة وثلاثين مليون نسمه • وهناك عنصر اخر للتنوع يتمثل فى مدى التاثير ، والتدخل الغربى فى بلدان المنطقة (٢) فقد تراوح هذا التاثير ما بين التدخل واسع النطاق مثل الاحتلال الدائم أو الاستيطان كما حدث فى فلسطين وليبيا ، وبين بقاء هذا التاثير فى

(*) تام بترجمة هذا الفصل والتعليق عليه الدكتور عبد الهادى والى •

(١) مختصر لمصطلح Gross Notional Product وهو المنتج القومى الخام (المترجم) •

(٢) Clarke and Fisher, (ed.) Populations of The middle East and North Africa, Landon, 1972 p. 18.

حدوده الدنيا ، كما حدث فى السعودية حتى العصر الحديث ٠

ولنبدأ ألان بدراسة الاختلافات فى الجغرافيا الفيزيقية ، والاجتماعية لهذه المنطقة ٠ فالسمة الاساسية للجغرافيا الفيزيقية فى الشرق الاوسط ، تتمثل فى ان المنطقة عبارة عن سهل Plain منخفض Low-lyin undulating يتجـــه الى الشرق قادمـــا من شمال افريقيـــا عبر الجنـــوب العربى ، والخليج الفارسى Persaion gulf من الشرق ، والبحر الاحمر من الجنوب ٠ وقد أدى اقتراب هذه البحور من بعضها ، الى جانب الاستواء النسبى لهذا السهل الى سهولة تبادل الاتصالات بين بلدان المنطقة ٠ ومع ذلك فاننا نجد فى الشمال سلسلة من الجبال تمتد من الشرق الى الغرب ٠ وتمر من شبه جزيرة البلطيق Baltic Peninsula عبر تركيا ، حيث تطوق سهل الاناضول Anatolian Plateau وعلى الشرق من ايران ٠ حيث تتشعب لتطوق السهل الايرانى ٠ وهناك سلاسل من الجبال صغيرة ، ولكن ذات أهمية كبيرة ، احداها تمر من الشمال الى الجنوب عبر سوريا ولبنان، واسرائيل ، والاخرى فى الركن الجنوبى الغربى ، والركن الشرقى للسهل العـــربى Arabian Penisula ٠ وبشكل عام فان مناخ الشرق الاوسط يمكن تقسيمه الى رطب شمالا ، وجاف جنوبا ٠ مع اختلافات محلية ترجع لدرجة الارتفاع عن سطح البحر ، كما ترجع للموقع ٠ ودرجات الحرارة صيفا تكون ما بين (٣٠ ـ ٣٥) درجة مئوية فى الجنوب ، وترجع أحيانا الى اكثر من (٥٠) درجة مئوية . ولكن فى أقصى الشمال ، وفى المرتفعات تتناقص الى معدل يقل عن (٢٧) درجة مئوية ٠ والشتاء فى معظم مناطق الشرق لطيف أو معتدل ، ودافىء ، فيما عدا المرتفعات التركية ، والمناطق المرتفعة فى ايران ، حيث تكون البرودة شديدة ٠ والجفاف Aridity كما هو معروف يعتبر من اكبر عناصر الوحدة فى الجغرافيا الفيزيقية ، للمنطقة ، وبخاصة ما يصحبه من تناقص فى معدلات الكثافة السكانية ٠ ومع ذلك فان هناك تنوعا يحدث نظرا لوجود مناطق ضيقة يتوفر فيها

الماء بدرجة عالية وبالتالي تتضمن امكانيات اكبر للزراعة المركزه ، والكثافة السكانية الاعلى . مثلما يوجد على ضفاف وادى النيل ، وعلى سواحل البحر الاسود Black sea ، وبحر قزوين Gaspian sea ، والبحر الابيض المتوسط · ويعتبر ذوبان الجليد Snowmelt على جبال الشمال مصدرا هاما من مصادرالمياه في الارض الواطئـــة فى تركيا،وايران،والهلال الخصيب Fertile Crescent . بينما نجد ان شلالات موجودة خارج منطقة الشرق الاوسط ، فى جبال الحبشة Ethiopia تعتبر من اكبر مصادر المياه لسكان مصر المستقرين على امتداد نهر النيل · وتتمثل الاستجابـــة الانسانية لهذه البيئة المتنوعة فى ثلاث طرق للحياة تبدو متناقضة وهى حياة الترحال Nomadism ، وحياة الزراعة المستقرة Settled agriculture وحياة المـــدن Life of towns .

وحياة الترحال ــ باعتبارها طريقة فى الحياة ــ تعنى تنقل الناس والحيوانات ، فى المناطق التى تلعب الزراعة فيها دورا ضـــئيلا ، هذه الحياة ذات أهمية خاصة فى الشرق الاوسط ــ ولا ترجع هذه الأهمية لعدد السكان الذين تشملهم هذه الفئة · حيث لا يتجاوز هذا العدد واحد بالمائه من جملة السكان ــ بقدر ما نرجع الى سمات الرحل ، والرحل العرب خاصة ، والى البناءات الاجتماعية الخاصة بهم ، واثرها على السكان المستقرين Sedentary او غير الرحل · فهناك نوعا من الاستجابة من جانب الرحل لنظام الطقس فى الشرق الاوسط بشتائه الممطر ، وصيفه الجاف ، فالرحل الحقيقيون فى كل من سوريا ، والعراق ، ومصر ، وليبيا ، والبدو فى شبه الجزيرة العربية ينتقلون للسهول فى الشتاء ، ويعودون فى الصيف · بينما فى منطقة الجبال الشمالية تنتقل قبائل الرحل مثل قبائل الكاشكيا Qushkia فى ايران الى المراعى فى أعلى الجبال صيفا ، وتعود للمناطق المنخفضة شتاء فى نظـــام رتيب يطلق عليه الحيـــاة المتنقـــلة Transhumance . ·

ان الظروف البيئية متنوعة جدا ، ولكن بشكل عام نجد أن الدواب محدودة جدا وفى نفس الوقت نجد أن المسافات التى يتعين عليها أن تقطعها شاسعة جدا ومجتمعات الرحل ليست مستقلة بشكل كامل فى حياتها الاقتصادية ، فالانتاج الحيوانى هو مصدر الثروة الاساسى ، ولكن القمح هو الغذاء الدائم فى هذه المجتمعات ، ويتم الحصول عليه من خلال التبادل مع المجتمعات الزراعية ، وقد يمثل الرعى لدى بعض الرحل استجابة دينامية متخصصة للظروف البيئية ، اكثر مما يمثل مستوى أدنى من الحياة الثابته المتقدمة · أو بمعنى اخر تمثل مرحلة وسطا بين مرحلة الصيد وجمع الثمار ، وبين مرحلة الزراعة ·

والوحدة الاساسية فى هذه المجتمعات هى الاسرة ، حيث تتمتع باستقلال واكتفاء ذاتى نسبى · ويتحدد حجم التجمعات الانسانية الى حد كبير فى ضوء المصادر الطبيعية فى منطقة معينة · والوحدة التالية بعد الاسرة هى القبيلة ·وكلما كانت المصادر الطبيعية محدودة كان حجم الوحدة القبلية Tribal صغيرا والعلاقات الاسرية عبر القبيلة قوية،كما يؤدى الزواج الداخلى الى دعمها ، ويعتمد الضبط فى حياة القبيلة على رجل واحد ، وهو الشيخ The Shaikh الذى يمثل مركز التضامن فى القبيلة ، والنظام القبلى ، وهما أمران ضروريان لبقائها فى بيئة قاسية Harsh وتنقل الرحل عادة ما تحكمه اجراءات متبادلة ومتفق عليها بين القبائل . ولكن هناك احتمالا دائما للنزاع حول حقوق الرعى ، والاقامة ، وكنتيجة لذلك فان الاتحادات السياسية الاكبر من القبيلة تميل — مع بعض الاستثناءات الواضحة — الى التفكك ، ويكون عمرها قصيرا ، وفى هذه النقطة نجد أن هناك جوانب فى مجتمع القبيلة جديرة بالملاحظة : اولها كرم الضيافة Hospitality الذى يتضح بجلاء ، كما ان الاتصالات أو العلاقات الاجتماعية العادية تتضح ايضا فى مجموعة من الطرق وانماط السلوك الرسمية · وثانيها أن المرأة فى هذا المجتمع الابوى Patriarchal

ذات مكانة أدنى وينظر اليها فى المجتمع البدوى العربى على أنها دون الرجل فى كل الامور • وأخيرا : فان الكثير من طرق حياة الرحل وسماتهم قد انتقلت الى حياة المجتمعات المستقرة وتم الاخذ بها ، وذلك كنتيجة للغزوات • والفتوحات الدائمة من جانب الرحل على المجتمعات المستقرة عبر تاريخ المنطقة •

ان أحد الاسماء التى أطلقها العرب الرحل على سكان المجتمعـــات الزراعية المستقرة • هى تلك الكلمة التى تعنى ببساطة ، الرعاع Cattle وفى الحقيقة فان حياة القرويين التى ارتبطت بالارض لفترات زمنيـة طويلة ، تتعارض الى حد كبير مع حياة الحرية التى يعيشها الرحل • ومن ناحية أخرى فان حياة الترحال مثلها مثل الحياة الزراعية تتحكم فيها الظروف المتغيرة للطقس والمناخ • فالزراعة تتنوع ما بين زراعـة موسمية فى معظم المناطق الجافة ، حيث يتم الرى عن طريق الفيضانات المحلية ، والامطار وهذا هو نظام الرى المؤقت ، والزراعة التى تعتمد على الرى الدائم والمكثف فى وادى النيل ، أو فى المناطق الساحلية الرطبة على شواطىء بحر قزوين • وبفعل الطقس الصارم فى معظم اجزاء المنطقة فان ادارة الارض ومصادر المياة يجب أن تكون منظمة تنظيما دقيقا ومركزيا وبالتالى فان التحكم أو تنظيم استخدام المياه ـ تلك السلعة النادرة فى المنطقة ـ يعتبر أمرا حيويا بالنسبة للزراعة ، سواء تمت هذه العملية عن طريق المجتمع المحلى فى القرية أو عن طريق ملاك الارض Landlords وغالبا ما تثور نزاعات Disputes بين بلدان المنطقة ، أو على المستوى الفردى حول استخدام المياه •

ولا يتخذ توزيع الارض ، وحقوق المياة نمطا واحدا ، ولكن فى كل منطقة من مناطق الشرق الاوسط تتركز الزراعة فى القرية ، حيث تؤدى القرية وظيفتها كمركز للعمل فى الارض ، وعادة ما تكون القطع المعدة للزراعة مبعثرة فى كميات صغيرة وعلى مسافات مختلفة من القرية • كما أن مسالة

التمسك بالارض (امتلاكا أو استئجارا) · والتمسك بحقوق المياة أو الرى تعتبر موضوعا لاتفاقات تعد بدقة · وقد يستغرق الانتقال من قطعة أرض صغيرة لاخرى ، ومن القرية واليها ، وقتا طويلا ، وكجزء من المصادفات الطبيعية المصاحبة للقحط ، والمرض ، فان الزراعة التقليدية لا تزال تعانى فى كثير من المناطق من القهر المتضمن فى نظم تمليك أوحيازة الارض Land Tenure ، أو استغلالها ، ومن بين أوجه هذا القهر أو الظلم ، ذلك النظام الذى يتقاسم بموجبة مالك الارض والمستأجر المحصول بنسب تتحدد على أساس ما يقدمه كل منهما ، فبينما يقدم المالك الارض والمساء ، والبذور ، والقروض ، والحيوانات ، ويقدم المستأجر عمله ، نجد ان المالك يحصل على خمسة أجزاء من المحصول مقابل جزء واحد للمستاجر · واذا رغب الفلاح المستاجر فى بيع محصوله أو جزء منه للسوق فانه غالبا ما يواجه ببعد السوق ورداءة المواصلات، وتكلفة النقل ، وفضلا عن احتمال تحايل تجار المدن عليه ، وهكذا تكون النتيجة الواضحة ، ان الفلاح لا يتبقى لديه شىء يذكر · وحتى ظهور برامج الاصلاح الزراعى كان الجزء الاكبر من الفلاحين يعيشون على هامش الحياة بل لا يزال كثير منهم على هذه الحالة حتى الان (٣) ·

---

(٣) عرفت مصر الكثير من الوان هذا الظلم فى فترات الحكم العثمانى وفى مرحلة الاستعمار البريطانى ·ولكن بدات هذه الاوضاع فى الزوال بقيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وصدور قانون الاصلاح الزراعى الاول والثانى ، ثم تتابعت قوانين ، وتعديلات لقوانين العلاقة بين المالك والمستاجر ، والتى كانت تهدف اساسا لحماية الفلاح وحفظ حقوقه · وانتهى الامر الان الى أسلوبين اساسين للتعامل بين المالك والمستاجر أولهما : نظام الايجار بالضريبة ، وفيه يدفع المستاجر للمالك ما يعادل سبعة أمثال الضريبة المحددة على الارض سنويا والثانى : نظام الايجار بالمزارعة ، وفيه يتقاسم الطرفان المصروفات والايرادات الخاصة بالارض وهذه النظام استقرت ...

والمركب الثالث فى مجتمع الشرق الاوسط هو الحياة فى المدن • فقد نتج عن التنوع الكبير فى البيئة الجغرافية ، حيث السهول الساحلية ، والجبال ، والصحارى والواحات والسهب Steppes (٤) ، نتج عن ذلك تنوع فى الانتاج الاقتصـــادى ، كذلك وفر الفرص للتبادل والحاجـة للاسواق • ان توزع السكان فى الشرق الاوسط يرتبط الى حد كبير بالمصادر الطبيعية ، كالماء ، والارض الصالحة للاستغلال • وفى الماضى كان سكان الحضر يعيشون فى المناطق التى تتم فيها زراعة كثيفة ، وهذه المناطق كانت متباعدة ويعيش فى المناطق التى تفصلها سكان متناثرون أو قد لا تكون ماهولة بالمرة • ويبدو أن المدن فى هذه المنطقة ـ حتى منـذ العصور المبكرة ـ قد قامت بعدة وظائف ، فضلا عن كونها مراكز للاسواق، فقد كانت مركزا للممارسات الدينية ، والادارية ، كما يبدو ان هذه المدن كانت مؤثرة ـ نسبيا ـ على نحو أكبر من نظيراتها فى مناطق أخرى• ولعل فاعليتها كانت ترجع الى دورها الدفاعى ، هذا الدور الذى ساهم فى المحافظة على مدن مثل حـــلب Aleppo ، وانقـــــــره Ankara وتبريــز Tabriz • كل هذا بالاضافة الى أن بعض الجماعات الصغيرة قد استولت على السلطة ، وحكمت من خلال قاعدة حضرية An urban base والماليـك Mamluks ، والعثمانيون Ottomans يعتبرون أمثلة على ذلك كما سنرى فى الفصل التالى •

وابعد من ذلك فان الاديان السائدة فى الشرق الاوسط ، وهى اليهودية Judaism ، والمسيحيـة Christianity ، والاســـلام Islam كانت لهـا

---

(٤) وتفصل فيها القوانين ، والقضاء • وفى هذ الموضوع صـــدرت مجموعة من المؤلفات والدراسات حول الفلاح والارض فى مصر (المترجم) •

تجمعات حضرية وكان الدور الاساسى لهذه التجمعات دينيا ، كما هو الحال بالنسبة للقدس Jerusalem ومكه Mecca ، وقسم Qom وكربلاء Karbela ، وقد حققت المدن فى هذه المنطقة ثروة من عائدات ظهيرها الزراعى Hinterland ، وذلك من خلال ملاك الارض غير المقيمين فى المناطق الزراعية ومن وقت لاخر ساعد موقع المنطقة عند ملتقى الطرق بين ثلاث قارات على تنمية علاقات تجـارية تقوم على اساس حضرى كامل ، وقد امتدت هذه العلاقات الى الغرب من المغرب Maghreb بـرا وبحرا والى أقصى الشرق حتى الصين ، وعبر الصحراء أو جنوبى الشاطىء الشرقى لافريقيا حتى مابعد الصحراء الافريقية ، وعن طريق البحر الابيض المتوسط أو عبر البلقان Balkans الى أوروبا ·

وعن الناحية التاريخية ، فان مدنا مثل القاهرة Cairo ، واسطنبول Istanbul وبغداد Baghdad كانت لها علاقات واسعة النطاق مع غيرها ، انه فى بعض الاوقات بلغ عدد سكانها مئات الالاف · ولكن اقدار هذه المدن وثرواتها قد تقلبت بفعل تغيرات سياسية ، وتجارية ، رغم انها تشكل مجموعة المدن التى تتمتع بشهرة واسعة خارج المنطقة · ولم تكن هذه المدن تتمتع ــ بالطبع ـــ فى أى وقت مضى بوسائل الحياة الضرورية المعروفة حاليا ، فى مجالات الطعام ، والشراب أو قوافل التجارة الداخلية والخارجية ، لكنها اعتمدت فى الحصول على هذه المتطلبات على منطقتها أو مناطقها المحلية · ان العلاقات الاجتماعية ، والاقتصادية بين المدينة وما يحيط بها تؤثر الى حد كبير فى البناء الاجتماعى الداخلى للمدينة ، وتصلح العلاقات القائمة بين مدينة مثل Kirman (كرمان) والمنطقة المحيطة بها كمثال يفسر هذه القضية ·

ان مدينة كرمان كانت عاصمة ادارية ، واجتماعية ، واقتصادية فى

الجنوب الشرقى لايران ، وذلك فى أوائل الستينيات (٥) ، وتقع فى حوض صحراوى جاف Arid desert basin تبلغ مساحته (٩٠٠) تسعمائة كيلو متر مربع ، وكانت هذه المساحة ماهولة بالسكان باستمرار • ونظرا لضآلة سقوط الامطار فان المدينة قد اعتمدت على شبكة واسعة لما يعرف بالكانات Qanats (وهى قنوات للرى تحت الارض) ويحتاج بناء هذه القنوات • وصيانتها الى راسمال ضخم • كما كانت هناك قواعد معقدة تنظم حقوق الملكية والانتفاع ، وفيما مضى كان اثرياء المدينة هم الذين يدفعون الاموال اللازمة لهذه العملية ، وفى نفس الوقت فقد كانوا يتحكمون فى حقوق الحصول على المياه ، ويتلقون عائدا من هذه العملية ، وقد كانت المدينة عبارة عن نقطة محورية لنمط منظم من الاستيطان الاقليمى • وكانت كرمان أكبر وأقدم موقع للاقامة فى هذا الاقليم ، كما تقع عند سفوح التلال ، وتمثل اكبر منطقة لتخزين مياة الامطار نظرا لوجود نظام الكانات • اما القرى الموجودة فى حوض كيرمان فقد كانت أهميتها أو مكانتها تتحدد وفقا للعمر ، والحجم ، والتلال ، وحقوق استخدام المياه ، ومن ناحية أخرى فان القرى الجديدة كانت اصغر حجما ، واكثر بعدا عن مدينة كيرمان • وهذا النمط المتدرج للاستيطان كان منظما بدرجة عالية، كما تتم المحافظة عليه من خلال الاتصالات المستمرة بين اجزائه • وفى حوض كيرمان ليس هناك وجود للقرى المنعزلة ، والمكتفية ذاتيا • وحتى وقت قريب كانت هناك مناطق على حدود السهل الايرانى الجاف تمتع بخصائص مماثلة لتلك التى يتمتع بها حوض كرمان (٦) لكنه لا يترتب على ذلك القول بان كل القرى فى الشرق الاوسط لها علاقات بالمراكز

---

(٥) English P. M. city and village in Iran, Settlement and economy in The Kirman Besin, London, 1966.

(٦) Costello, V. F. Kashan, A city and Region of Iran, London, 1976.

الحضرية شبيهه بتلك القائمة فى حوض كرمان • ففى كرمان نجد طبقة عليا قائمة على أساس حضرى ، وتتكون من الموظفين ، وملاك الارض والتجار ، ومن يقدمون القروض ، وهؤلاء يحتفظون بالسيطرة الاقتصادية، والاجتماعية على منطقة كرمان باسرها ، وذلك من خلال التحكم فى الارض ، والمياه ، والقروض ، ومن خلال ممارسة القوة السياسية •

ان الوظيفة الاساسية لمدينة كرمان ، والمدن المشابهة لها كانت تتمثل فى انها باعتبارها اماكن مركزية ، يغلب عليها جمع وتصنيع المواد الخام التى تاتيها من ظهيرها الزراعى ، ومع ذلك فان دراسة المدن من المنظور الوظيفى وحدة ، تغطى جزءا بسيطا فقط من الحديث عن أسباب وجودها فكما أوضحنا دور العلاقات البيئية المحلية ، يجب أن نشير الى أن الحياة فى المدينة تتاثر بطبيعة الانساق الكبرى السائدة فيها •

وفى الشرق الاوسط نجد ان اكثر هذه الانساق اهمية هو (الاسلام)، فهو الدين السائد فى غالبية أجزاء المنطقة ، ولقد اثيرت مسالة تفضيل الاسلام للمجتمعات الحضرية على الريفية • وهذا التفضيل يرجع لظروف مذهبية ، وتاريخية (٧) •

ولقد ولد الاسلام فى القرن السابع الميلادى فى البيئة الحضرية والتجارية وهى الحجاز Hedjaz فى منتصف المنطقة الغربية للمملكة السعودية • كذلك اثير ان اهدافه الدينية ، وشعائره يسهل اداؤها فى مجال حضرى ، فعلى سبيل المثال من الصعب أداء الفريضة الاساسية فيه هى صلاة الجمعة ، خارج نطاق المجتمعات الكبيرة المستقرة ، كما انه ليس من السهل المحافظة على عادة حجاب Veiling النساء فى المجتمعات الريفية،

---

(٧) De Planhol, X. Regional Diversification and Social Change in the Middle East. (ed.) R. Antoun & I. Harik, London, 1968.

والبدوية ، كذلك فانه قد اشير ان المسلمين الاول قد نظروا للرحـــل ، والقرويين على انهم مجرد دعم للاسلام من الطبقة الثانية ، وقد ساد هذا الاتجاه منذ ذلك الوقت (٨) ٠

---

(٨) ليس ذلك صحيحاً ، لان الاسلام قد اقر مبدأ المساواة المطـــلوبة بين الناس بصرف النظر عن أصلهم او لونهم ، أو مقر سكناهم٠ وقد طبق هذا المبدأ عمليا في عدد لا يحصى من المواقف ، والمناسبات وحتى مؤلفنا يعود ليقرر هذه الحقيقة في بداية الفصل الثاني ، حيث يقول انه في ظل القانون الاسلامي ليس هناك فرق بين مســـاكن المدينة وساكن القرية ، ولا يترتب على هذه السكنى أية حقوق تفضيلية بين البشر ٠ ولكن ربما يثير البعض مسالة تفضيل الاسلام لسكان الحضر على سكان البدو استنادا الى فهم خاطىء لبعض الايات القرانية مثل قوله تعالى « الاعراب اشد كفرا ونفاقا وأجدر الا يعلموا حدود ما انزل الله » (التوبة ٩٧) او قوله تعالى « وكم من قرية اهلكناها فجاءها باسنا بياتاوهم قائلون ، فما كان دعواهم اذ جاءهم باسنا الا ان قالوا انا كنا ظالمين » (الاعراف ٤ ، ٥) ٠قوله تعالى « تلك القرى نقص عليك من انبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » (الاعراف ١٠١) ٠ ولكن الاية الاولى تدل على غلظة الاعراب ، وان الايمان لا يتسرب الى قلوبهم بسهولة ، وهؤلاء الاعراب غير العرب فالعرب جيل من الناس ، والنسبة اليهم عربي ولبس أعرابي ، وهم اهل الامصار ٠ والاعراب منهم سكان البادية خاصة ، والنسبة اليهم أعرابي ، والاعراب اسم جنس وليس جمعا لعرب ، وهناك العرب العاربة (الخلص) ، والعرب المستعربة الذين ليسوا بخلص (مختار الصحاح ص ٤٢١) ٠والعرب العاربة او الاصلاء هم سكان الجزيرة العربيـــة ، وحضرموت ، واليمن ، والمستعربة هم الوافدون على الجزيرة العربية من اجناس مجاورة سواء من الفرس أو الروم ، وهؤلاء اختلطوا بالقبائل المتاجرة حبا في التجارة وممارسة الحياة الجديدة ٠ ومع ذلك فهؤلاء ، واولئك يستوي امرهم بعد دخولهم في الاسلام ودليل ذلك قوله تعالى « ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الاخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند

وعلى اساس من النشاط التجارى ، والضبط الادارى ، والروابط الدينية ، فإن مدن الشرق الاوسط قد استطاعت بشكل مطرد أن تحافظ على تراثها عبر الاف السنين ، منذ قيام اقدم المناطق الحضرية ، وحتى يومنا هذا • وحينما بدأ النمو الحضرى الحديث بسرعة فى هذه المنطقة منذ قرن ونصف مضى ، كان ذلك معتمدا على قاعدة ثقافية خاصة بهذه المنطقـــة :

الله ، وصلوات الرسول ، الا انها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم ، (التوبة ٩٩) • هذا فضلا عن ان الايات الاولى كان المقصود بها (بنو أسد وغطفان) الذين كانوا بعيدين عن سماع القران ومجالس الذكر ، واشتهروا بالغلظة والجفاء • اما الاية الاخيرة فكان المقصود بها (جهينة ومزينة) الذين كانوا ينفقون في سبيل الله تقربا منه وطلبا لدعوات الرسول ، وهؤلاء يبشرهم الله بأن نفقتهم هذه سوف يكون مردها لهم — أنظر تفسير الامامين الجلالين ، سورتي التوبة ، والاعراف ، (المترجم)

الفصل الثاني

المجتمع الحضري في الشرق الأوسط

في عصور ما قبل الصناعة (*)

[illegible] الشرق الاوسط تكون [illegible] في التطور الحضري [illegible] المراحل التاريخية التي لا [illegible] الحضرية [illegible] الاسلام [illegible] العالم [illegible] بالعصور [illegible] Dark ages [illegible] الامبراطورية الرومانية ، [illegible] ومجموعات المدن الرومانية [illegible] في مصر و الشرق Levant ، و [illegible] الساسانية Sassanian في فارس Persia ، وفي [illegible] الفترة التي تلت ذلك والتي اتسمت بالنمو والازدهار ، من اخرى [illegible] قاد فيها الشرق الاوسط العام الى ثقافة حضرية متطورة . وعبر العصور الوسطى تشعبت الحياة الحضرية في الشرق والغرب بشكل كبير ، وفي نفس الوقت سلكت من هذه الانماط الحضريـــة المتنوعة خطا تطوريا مختلفا تماما (١) . ولقد كان الدين الاسلامي هو المؤثر الاساسي في توجيه التطور في مدن الشرق الاوسط ، والمدن الفارسية في العصور الوسطى . ولكن الامر الذي ثار حوله الجدل هو الى اي مدى ، وبأي طريقة كان هذا التأثير .

(*) قام بترجمة هذا الفصل والتعليق عليه الدكتور عبد الهادى والي .

(١) Hamdan, I. The Pattern of Medieval Urbanism In the Arab world, georaphy XL VIII (1962) 121 - 34.

المدينة الاسلامية : The Islamic city

حينما نتعرض للمدينة الاسلامية ، فان هناك ضرورة للتمييز بين الوظائف المتعددة التى تقوم بها ، فهناك وظيفتها كسوق ، ووظيفتها كمركز رأسمالى ، ووظيفتها كمركز للحج Pilgrimage ، أو وظيفتها كقاعدة عسكرية • كما أن هناك ضرورة لتوضيح جذور هذه الوظائف • فعلى سبيل المثال تختلف المدن التى انشاها العرب الفاتحون ، والحكام المتأخرون ، عن تلك المدن التى كانت قد نشات بشكل تلقائى ، ونعنى بها المدن التى كانت فى الجزء الغربى من العالم الاسلامى بين البحر المتوسط والصحارى العربية ، والتى اشتملت على تراث عام اغريقى ، رومانى ، بيزنطى Byzantium، وهذه ذات خصائص تختلف عن تلك التى توجد فى منطقة الثقافة الفارسية ، بين المحيط الهندى ، والسهول والصحارى التركية (٢) • وفضلا عن هذه المميزات والفروق الوظيفية ، فان هناك ـ بالطبع ـ اختلافا وفروقا فى خصائص المدينة الاسلامية ذاتها عبر الزمن •

ان اهتمامنا هنا يتركز فى التساؤل عما اذا كانت هناك اية ملامح عامة فى مدن الشرق الاوسط الاسلامية ، والتساؤل عما اذا كانت هذه الملامح تؤثر فى نمط الحياة الحضرية اليوم ، وكيف يتم هذا التأثير •• ؟ • وفى البداية سوف يكون من الملائم أن نقارن بين المدينة الاسلامية ومدينة العصور الوسطى الاوربية • وقد اشار فيبر Weber معتمدا على افكاره عن المدينة الغربية ـ الى أن مدينة يمكن ان نميزها بموقعها ، وتحصيناتها، واسواقها ، ووجود محكمة تطبق قانونا خاصا ، وعلاقات حضرية متميزة،

---

(٢) Hourahi; A. The Islamic city in the Light of recent research, in The Islamic city ed. A-Hourani & S. stern, London, 1970, pp. 9 - 10.

واستقلال ذاتي نسبي (٣) • وبينما كانت مدينة ما قبل الصناعـــة Pre - industrial City في العالم الاسلامي ذات سوق ، ومن حولها حائط الا أنها لم تكن تنطوي على مميزات قانونية ، كما لم يكن لها دستور ، ذلك لان القانون الاسلامي يؤكد على ان معتنقية سواسية سواء عاشوا في المدينة أو في الرِّيف . هذا بالاضافة الى أن المدينة لم تكن تطبـــق الحكم الذاتي ، كما لم يكن لها وضع مكاني متميز ، ولقد ناقش حوراني الدور المتعدد multifarious للمدينة في المجتمع الاسلامي ، فأشار الى أن المدينة والظهير الزراعي الذي تحصل منه على غذائها ، والذي تبيع اليه جزءا من انتاجها الصناعي ، يمكن تحليلهما في ضوء علاقات الاعتمـــاد المتبادل القائمة بينهما ، وفي ضوء الاعتماد المتبادل بين الحكومة والمجتمع• وقد كان الريف يحتاج الى حاكم ، وجيش وادارة من أجل تطبيق القانون . والنظام • كذلك احتاجت المدينة الى حاكم ليطبق نوعا من الضبط على الريف ، ولكي يدعم تلك القوانين التي تسمح بقيام حياة حضرية معقدة • ومن ناحية أخرى كانت الحكومة قادرة على دعم نظامها الاداري وتمويل الجيش من حصيلة الضرائب التي تحصل عليها من المدينة• • وقد اتخذت هذه العلاقات المتبادلة شكلا متميزا في مرحلة الحكم الاسلامي في الشرق الاوسط واستند ذلك الى عاملين الاول : يتمثل في ظاهرة احتكار السلطة السياسية على مدى قرون طويلة ، بواسطة الجماعات السياسية العسكرية التي كانت من اصل تركي ، وهؤلاء حافظوا على وجود مسافة معينـــة بينهم وبين الشعوب التي حكموها ممن يتكلمون العربية ، أو الفارسية • والثاني : هو الارتباط الوثيق بين البرجوازية التجارية ، وطبقة العلماء (وهي طبقة مفسري القران الكريم ، والسيرة النبوية ، والقوانين المشتقة من هذين المصدرين) (٤) •

---

(٣) Weber. M. The city, New York, 1958. p. 88.

(٤) Hourani A. op. cit., pp. 16 - 18.

وقد أمدت عوامل الثروة ، والنسب ، Wealth, Lineage and Piety والثقافة ، جماعتى البرجوازيين ، والعلماء بالهيبة ، والشفاعة ، وقد ارتبطت الجماعتان معا بالزواج والمصاهرة ، وقد سهل لهم ذلك الحصول على موقع قيادى حضرى ، ولكن نادرا ما أمدهم بامكانية تحدى ارادة الحاكم وقوته • ولم يكن العنصر الدينى يتضمن سلما طبقيا أو وظيفة كهنوتية ، ولم يتمكن هذا العنصر فى حد ذاته من تحقيق تكامل اجزاء المدينــة فى اطار سياسى كلى ، لكن هذا الامر كان يحدث عن طريق الحاكم الذى ظل على مسافة معينة من بقية المجتمع ، يحكم من خلال جماعة تتضمن عائلته ، اهله ، وموظفيه ، وجيشه ، وحاشيته ، وهؤلاء جميعا كانوا على ولاء لشخصه وحده • ليس هذا فحسب ، ولكن هذه الجماعة الحاكمة قد عاشت فى معسكر ادارى منفصل فى القاهرة ، بينما كان الكثير من أوجه النشاط التجارى مثلا على مقربة من الفسطاط Fustat (فى مصر) •

ولقد كانت ادارة المجتمع الحضرى ، أو حكمه ، تتم عن طــريق حاكم ، والى جانبه موظفون متنوعون ، بعضهم مسئول عن النظام العام ، والبعض الاخر عن العدالة ، بينما يتولى اخرون الاشراف على شئون العبادة • ثم أن رؤساء القرى ، ورؤساء الاحياء فى المدن ، والحرفيون ، ومجتمعات غير المسلمين ، كانوا جميعا مسئولين أمام الحكومــة عن حفظ النظــام ، ودفع الضرائب • وقد كان من الممكن أن تصبح العلاقة بين الحكومة والمحكومين وثيقة ، طالمـا أن الموظفين كانوا يختارون من سكان الحضر ، وطالما انه لـم تكن بين الحاكم ورؤساء المجتمعــات المحلية ، مؤسسات رسمية وسيطة ، ومع ذلك فانه خلال العصور الوسطى لم يكن فى نظام الحكم الاسلامى مؤسسات مشتركة ، كالاتحادات ، والنقابات • وعلى الرغم من وجود ملامح للحياة الحضرية ، خاصة الحمامات والسوق ، والفندق والاسوار ، والبوابة ، تلك الملامح التى انتقلت من مرحلة ما قبل الاسلام ، الا انه لم يبق شىء من ملامح الحياة المحلية

الوحدة . والتي وجدت في العصـــور القديمة (٥) . ولقد كان تزايد النقابات واتحادات الحرفيين ، ونظم الرهبنة ، ومجالس المدن ، وغير ذلك من المؤسسات الرسمية . كل هذه كانت سمات خاصة بحضارة العصور الوسطى في الغرب ، وان غيبة أى من هذه النظم كان أمرا تشترك فيه الحضارة الاسلامية وحضارا ما قبل الصناعة .

واذا كان القانون الاسلامي لم يعرف النقابات ، أو الاتحـادات الا انـه عرف نظام الاسرة كوحدة اجتماعية في مركز متوسط بين الفرد والمجتمع الكلي ، وقد عرف الاســـرة باعتبارها حائزة وناقلة للملكية . وكان للاسرة الحق في المعيشة في حدود منزلها طالما أنها تحصل على ضروراتها الاساسية ـ كالماء والعلاج ـ من قبل المجتمع . لقد طالب الفرد بخصوصيته الكاملة عن المجتمع ، وحقق ذلك من خلال منزل الاسرة ، وبالتالي لم يكن هناك احساس بالتوحد مع سكان الحضر ككل . كذلك انشاء الحدائق ، والاسواق . والحرص على مساحات الفضاء داخل المدينة ، كل ذلك نتيجة لاهتمامات وكرم الجماعات الحاكمة . أو الى حد ما لجهود القادة الدينيين (٦) .

لقد كان الشكل الفيزيقي للمدينة الاسلامية يعكس الى حد ما بناءها الاجتماعي رغم ان تنوع الوظائف التى تقوم بها مدن مختلفة ، الى جانب التنوع أو الاختلاف في الموقع ، والمناخ ومواد البناء ، والفروق الثقافية ، والاختلافات المرحلية ، كل هذه الامور جعلت لكل مدينة نمطا خاصا ، وشخصية متميزة . فبعض المدن طور خطة شاملة فرضها حاكم معين ،

---

(٥) Stern, S. M., The canstruction of the Islamic city, in The Islamic city, (ed.) A. Hourani & Stern, Oxford, 1970.

(٦) Scalon, G. T. Housing and Sanitation· Some aspects of Midieval Islamic Public Services, in The Islamic city, Ibid.

فى وقت معين ، ولكن رغم ذلك فان المناطق السكنية كانت عن خليط عشوائى من الازقة الملتوية twisting Alleyways ووسطها وجدت فناءات مفتوحة ، بطريقة غير مخططة ، استخدمت كسوق ، أو مكان للترويح، او لبعض الاعمال التنفيذية ، أو الشعائر الخاصة بالجنائز، ومع كل هذا فقد كانت هناك عدة ملامح عامة ومشتركة بين معظم المدن ٠

واول هذه الملامح وجود مقر للسلطة العسكرية الحاكمة ، وهو عبارة عن القلعة التى كانت فى الغالب تبنى على موقع محصن بطبيعته ويسهل الدفاع عنه ٠ وفى كثير من الحالات ـ كما فى خورام اباد Khorramabad فى ايران ـ لا تزال هذه القلاع سليمة وتؤدى دورها حتى الان ٠ والسمة الثانية تتمثل فى القصر الملكى الذى يوجد فى المدن الكبرى ، وهو عبارة عن منزل الحاكم ، ، وحاشيته الكبيرة Entourage ، وهذا القصر بمشتملاته ربما يشكل حيا مستقلا ومنفصلا عن غيره ، كما كان الحال فى القاهرة القديمة (الفسطاط Fustat) وقد يشكل الحى الملكى مقاطعة باكملها وسط تجمع حضرى قائم ، مثلما كان قصر (توبكابى Topkapi فى اسطنبول ٠ أما القصور الملكية الصيفية فقد كانت فى بعض الاحيان خارج اسوار المدينة كما هو الحال فى (فان Fin) بالقرب من كاشان Kashan بايران ٠ والسمة العامة الثالثة كانت تتمثل فى وجود مركب من المؤسسات والمبانى المرتبطة بالمسجد المركزى ، والسوق المركزية ٠ حيث كان المسجد المركزى يقوم بوظيفته كمكان للصلاة ، وساحة للعدالة وبؤرة فكريـــة وتعليمه ، هذا فضلا عن كونـــه مقرا لاوجـــه نشاط دنيويه Secular كالمـاكل ، والمشرب والترويح (٧) ٠ وقد اشتمل المسجد المركزى على قبة Dome ، مئذنـــة Minaret وعادة ما كان اكثر مبانى المدينة

---

(٧) Ismail, A. A. Origin, Ideology and Physical patterns of Arab urbanization, Ekistics 195, 1972, pp. 113 - 23.

ارتفاعا • وكانت المدارس الدينية ودور العبادة الاخرى مرتبطة بالمسجد • وعلى مسافة من المسجد ، والقصر الملكى الذى كان مقرا للادارة ، لم تكن هناك مبان رسمية قريبة من عامة الناس أو يسهل وصولهم اليها • وكانت المحكمة غير متميزة فى نمطها المعمارى أو الهندسى عن منازل الطبقـــة البرجوازية (٨) • وعلى مقربة من المسجد وجد مستشفى ، حيث كان الطب فرعا هاما من فروع التعليم ، فضلا عن الحمامات العامة ، ودورات المياه العامة التى كانت منقولة عن التراث الحضرى الرومانى والبيزنطى • وكان الحمام العام مكانا للاتصال الاجتماعى غير الرسمى . حيث كانت تتم فيه اجراءات التطهير ، والرعاية الصحية الى جانب التدليك (المساج Massage) • وفضلا عن ذلك فقد كانت الخلوة فى الحمـــام العـــام تتيح للنسوة فرصة للتلاقى فى جماعات ليناقشن امورهن الخاصة •

ثم كانت هناك أوجه نشاط تجارى بسيطة أو محدودة فى كل المدن ولكن حجم ومدى السلع والخدمات المقدمة كان يختلف وفقا لحجم ووظيفة المدينة • ولقد كان السوق (أو البازار Bazaar) مغطى عادة للوقاية من الظروف الطارئة وبداخل مبنى السوق وجدت المحال التجارية ، وعدد كبير من الاضرحة Shrines ، وفى المراكز التجارية الاكبر وجدت فنادق صغيرة أو نزل Khans or Carevanserais ، مصممة لتتلائم مع لقاءات التجار ومقابلاتهم ، الى جانب تخزين البضائع • وقد اشـــتملت هذه الفنادق على فناء ـ ذو سقف فى بعض الحالات ـ وحول هذا الفناء وجدت صفوف من المخازن ، والمكاتب ، وكانت محصنة ببوابة قوية • اما محال البيع بالتجزئة فقد كانت شبيهه بما هو موجود الان ، من حيث الصغر .

---

(٨) Graber, o. The illustrated Maquamat of the Thirteenth century The Bourgeoisie and the Arts,in Islamic city. ed. A. Hourani & S.Stern, London 1970. p. 213.

والزحام ، وكانت تخطى جدران السوق لانها كانت لصيقة بها ، ويعرض لنا تواشه العصور الوسطى شكل المتجر الذى يبيع الذهب والتبر على انه بمساحة عبارة عن اجزاء صغيرة مفتوحة في الحائط small openings in the wall [illegible] .

والسمة العامة الأخرى لمبنى الشرق الأوسط حتى قبل الاتصال [illegible] الأوربى ، والعربى كانت [illegible] الصحراوية [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في الشكل الذى وجد عليه المنزل في هذه الأوقات كان [illegible] المناخ ، ومتطلبات الحياة الأسرية ، والايديولوجيا [illegible] Ideology . فكثير من بلدان الشرق الاوسط تعيش [illegible] درجات حرارة عالية في نهار الصيف ، مع درجة رطوبة عالية في الليل . أما الرياح الجافة فهى عامة . ومع ذلك فانه كان يتم مواجهة مشكلات المناخ داخل المنزل التقليدى عن طريق عدد من وسائل التكييف . فأجزاء كثيرة المنزل كانت تلائم اوقاتا مختلفة من النهار ، وأوقاتا مختلفة من العام ، حيث كانت كل الحجرات تنفتح على الفناء الداخلى ، وكانت النوافذ فى الحوائط الخارجية قليلة وربما غير موجودة ، وكان الموجود منها صغير الحجم ، هذا فضلا عن أن ارتفاع سور الفناء ، وضيقه كان يجعل المنزل صارمة . وفى ليالى الصيف كان من الممكن ان ينام الشخص فوق سطح المنزل ، وفى نفس الوقت كان هواء الليل البارد الذى يتجمع فوق السطح يهبط فى فناء المنزل ، بينما يساعد الجزء المظلل من سطح الفناء على تبريد المنزل

فى فترة اشعاع الشمس نهارا (١٠) • وكان الضوء يصل للمنازل من خلال شـبكة مثبتـــه على النوافذ بحيث لا تجعل الاضــاءة كثيبة . ولا مبهرة (١١) •

ولقد كان التاكيد على خصوصية الاسرة يعنى الفصل بين الزوار اذا كان ذلك ممكنا ، فقد كان يتم استقبال الزوار ، والاصدقاء الرجـــال فى الحجرات العامـــة ، بينمــا بقيت الحجرات ـ أو الحــرم Haram ضمن مقدسات الاسرة • ومن اجل ذلك كان المنزل يقسم الى أدوار عليا ، وأخرى سفلى • وكان الاصدقاء يستخدمون الادوار السفلى فقط ، أو على الاقل يكون هناك فناء منفصل لحرم المنزل (١٢) • وكان الناس يحافظون على بقاء الفناء محدودا أو ضيقا ، لان الفناء الصغير تسهل حمايته من

---

(١٠) Dunham, D. The Courtyard house, a temperatature regulator, The New Scientist, 1960, 663 - 6.

(١١) Ismail. op - cit., 115 - 16.

(١٢) فى اطار التساؤل الذى اثاره المؤلف فى بداية الفصل عن مـــدى التاثير الذى احدثته ملامح الحياة الحضرية فى المدينة الاســلامية على نمط الحياة الحضرية اليوم ، يمكن أن نشير هنا الى أن هناك الكثير من العناصر الخاصة بنمط المنزل لا تزال مؤثرة حتى الان ، مثل تفضيل السكان فى (دارة) مستقلة ، محاطة بسور عال . والتمسك بوجود فناء يعزل هذه (الداره) عن غيرها والتمسك كلما كان ذلك ممكنا بان يكون المسكن من دورين ، مع تخصيص مكان لاستقبال الرجال ـ واخر للزائرات وتقديس حرم المنزل . وهذه الانماط لا تزال سائدة فى مدن بلدان مثل السعودية ، والكويت وليبيا ، والسودان . وامارات الخليج • وهو نمط ذو تاثير على وحدة الجوار فى هذه المجتمعات من حيث القضاء على عمق العلاقات فيه ، وعدم امكانية تشكيل رأى عام من خلاله . أو تصميم مشروعات عامة تعتمد على وحدة هذا الجوار • وهذا مجال واسع لابحاث عن التحضر والجوار فى هذه المجتمعات (المترجم) •

وهج الشمس • وعلى هذا فان الاسرة الحضرية الكبيرة كانت تعيش أو تستخدم عددا من الفناءات المترابطة ، أما الاسر الفقيرة فلم تكن تستطيع الحصول على مبان قابلة للتقسيم الى حجرات عامة وأخرى خاصة ، فضلا عن أن هذه الاسر لم تكن تستقبل كثيرا من الزوار •

وهكذا لنا أن المدن الاسلامية فى الشرق الاوسط كانت تشترك فى ملامح عامة من حيث الايديولوجيا ، وبناء المجتمع ، والحكومة ، ومن حيث الشكل الفيزيقى • أما من حيث التفاصيل فقد كانت الحكومة . وطرائق الحياة تختلف بالطبع • وسوف نتناول بالدراسة أمثلة لاشكال مختلفة للمدينة لتوضح ما تنطوى عليه من سمات خاصة ، وفى نفس الوقت نوضح كيف كانت كل منها تتضمن تنوعا واختلافا داخل اطار عام واحد • فى سبيل ذلك سوف نتناول نموذجين من العصور الوسطى . تلك التى حدث بعدها تدهور داخلى فى المجتمع الاسلامى ، الى جانب غزو العناصر الاوربية للمنطقة . الامر الذى اثار بعض التغيرات فى طرق الحياة فى اتجاه مختلف عن النموذج التقليدى ، وفى نفس الوقت نتناول مثالا ثالثا يوضح أنه رغم هذه التغيرات فان الشكل العام للتحضر فى المجتمع الاسلامى قد استمر فى أماكن كثيرة حتى القرن الحالى •

ان الكثير من معلوماتنا عن المدن الاسلامية فى عصر ما قبل الصناعة فى الشرق الاوسط قد جاءت من مصادر ترتبط أساسا بالمدن الكبرى ، بينما حصلنا على المعلومات الخاصة بالمدن الاصغر فى الغالب من الاعمال الاثرية Archaelogical التى تحاول جمع الاجزاء المتفرقة معا لتشكل صورة عن الحياة الحضرية ، والمجتمع الحضرى من دراسة المبانى والحرف وغيرها كما هو الحال فى سيراف Siraf على الخليج (١٣) • ولما كان من الصعب

---

(١٣) Whitehouse, D. Excavations at Siraf, Fifth interim Report, Iran x. (1972) pp. 63 - 87.

التعرف على طبيعة التنظيم الاجتماعى ، من خلال الاوضاع الفيزيقية ، والاشكال المرتبطة بها وحدها ، فاننا بناء على ذلك سوف نحرص فى الامثلة التى سنتناولها على الحديث عن تلك المدن التى اعتمدت الدراسات المنشورة عنها على مصادر مكتوبة ·

العصـــور الوســطى :

لقد قدم س·د· جويتين S. D. Goitein صورة شاملة عن المجتمع الحضرى فى الفترة ما بين ٩٦٩ الى ١٢٥٠ ميلادية ، مستعينا بالوثائق الموجودة فى دار الجنيزا بالقاهرة Cairo Geniza (وهى غرفة تحفظ فيهـا الاوراق المهملة) · وقد كان ابناء الطبقة الوسطى من اليهود يودعون فيها خطاباتهم ، وسجلات المحاكم ، وحسابات أعمالهم ، وتراثهم فى الفترة من القرن العاشر الى القرن التاسع عشر الميلادى ، معتقدين أن الكتابات والوثائق التى تحمل اسم الله ، يجب أن تدفن شان الجسد الانسانى ، ولا يجب اعدامها ·

وفى الفترة من ٩٧٠ الى ١١٢٠ م بشكل خاص ، وفى ظل الحكم الفاطمى Fatimids انتعشت مدن شرق البحر المتوسط ، حيث كانت الظروف تسمح بالتجارة الدولية على نطاق واسع · كما كانت تسمح بحرية الاتصال Communication وقد كان المجتمع الحضرى فى هذه الفترة يتمتع بدرجة عالية من حرية المشروع التجارى ، والتسامح الدينى · وقد كان يحكم القاهرة قائد عسكر ى، يساعده مراقب للشرطة ، وقاض للمدينة يتمتع بصلاحيات تشريعية وادارية واسعة · ثم كانت المدينة تنقسم الى مناطق فرعية لكل منها ناظر او مراقب ، وكان هناك نفر من العسس أو حرس الليل Nightwatchmen ، وقوات للخيالة النظاميـــة المرتبة ، مهمتها حفظ النظام ، خاصة فى المناسبات التى كانت تندلع فيهـا الحـــروب بين الجمـاعات المتزاحمـة فى المعـــابد اليهوديـة

Synagogues (١٤) • وقد كانت الشرطة السرية Secret Police أو المخبرين informants مستقلتين عن قاضي المدينة ، حيث كانت لهم اهمية خاصة في مواجهة الجماعات الدينية السياسية ، ذات النشاط التخريبي Subversive •

أما الروابط بين القاهرة ومناطق ظهيرها الزراعي في هذا الوقت ، فكانت تعتمد على الاتصالات الشخصية ، فكثير من ابناء الطبقة الوسطى ، والاغنياء ايضا ، كانوا يمتلكون ويديرون بانفسهم ارضا زراعية ، وكانوا يزرعون الزيتون ، ويربون الاغنام ، ويتعهدون الكروم وما يرتبط به من صناعات ، لكن الشاق من الاعمال كان يقوم به الفلاحون • وربما كانت هناك كراهية فطرية للحياة في المناطق الريفية ، ويذكر لنا جويتين مثالا عن امرأة يهودية قالت فيه إنها لن تذهب مع زوجها للاقامة في منطقة ريفية معينة (١٥) • وقد دمج ابن خلدون ، وهو من اكبر مؤرخي العصور

---

(١٤) Goitein, S. D. Cairo: An Islamic city in the light of the Geniza Documents, in, Middle eastern cities, ed. I. M. lapidus Berkeley and Los Angeles, 1969. p. 91.

(١٥) Ibid, p. 69 and : Goitein, S. D. Mediterranean Society: The Jewish Community of Arab World, Vol. I. Economic Foundations, Cambridge, Mass., 1967, p. 76.

المثال هذا عن سيدة يهودية ، ولا يعني انه كانت هناك كراهية فطرية لحياة الريف ، بل قد يكون الرفض راجعا لادراكها مدى هيمنة الاتجاهات الدينية على المجتمع الريفي في مصر ، وان هذا المجتمع ربما يلفظها ان هي اقامت مع زوجها هناك ، وهناك عشرات من الامثلة على عدم تقبل بعض المجتمعات الريفية لاناس مختلفين في الديانة ، الامر الذي ادى بهؤلاء الى هجرة هذه المجتمعات والاقامة في المدينة حيث الحياة اكثر علمانية (المترجم) •

الوسطى المسلمين ، بين فئتى الفلاحين ، والبدو الرحل ، وأشار اليهم باعتبارهم غرباء ، كما أشار الى أن الزواج بين رجل حضرى وامرأة ريفية، يعتبر امرا غير ملائم ·

وقد اشارت وثائق الجنيزا الى طبقتين اجتماعيتين فقط ، الاولى هى الطبقة العاليا من رجال الاعمال ، او اصحاب البنوك ، والثانية هى الطبقة الدنيا ، وتشمل من يعملون بالاعمال اليدوية ، ولم يشكل عمال الحكومة ، او ذوى التعليم الدينى طبقة محددة المعالم (١٦) · وهذا التقسيم الخام الى طبقة عليا ، وأخرى دنيا يتضمن عدة فئات أو شرائح أخرى · فالطبقة البرجوازية ، متضمنة رجال الاعمال ، والمهنيين انقسمت الى قسمين أو شريحتين ، كذلك الطبقة الدنيا التى كان يشار اليها على انها طبقة المعدمين beggars ، وتضمنت رؤساء الحرف (المعلمين) ،هذه الطبقة كانت تنقسم الى الحرفيين Craftsment ، والعمال ، وفى اسفلها كان الفلاحون ، ومن يعملون فى مهن وضيعه ·

وكان موقع الانسان فى المجتمع يتحدد عن طريق اصلة ، حيث كان الابن يعمل عادة فى مهنة الوالد ، ولكن الى جانب ذلك كان التدين ، والتعليم محكين هامين ، حيث كان الورع الدينى ، وموهبه شرح وتفسير العقيدة Greed ـ سواء فى الاسلام أو اليهودية ـ امرا مشرفا · وهناك أمور أخرى كانت تعزز المكانــة الاجتماعية للشخص ، وأسرته ومن بينها الكمال والاستقامة ، وسمعة العمل ، وشهرة الكرم فى المناسبات العامة · وكثيرا ما ساعدت الموهبه الطبيعية أو حسن الحظ على تنقـل الانسان لطبقة أعلى ، ولا شك ان العكس كان يحدث ايضا · وقد كانت هناك مهن يحتقرها الجميع مثل أعمال النظافة ، والحياكة ، وتحصيل

---

(١٦) Ibid., p. 75.

الضرائب ، والعمل فى الحمامات العامة ، وفى بعض الحالات التى كان ينشأ فيها صراع بين الفئات المختلفة مثل الاوليجاركيه (١٧) الحاكمة فى المجتمع اليهودى ، والطبقة العليا ، وجنود الجيش ، وكان ينظر لافراد الجيش على أنهم ذوى منزلة دنيا لما كانوا يقومون به من أعمال يدوية وضيعة ، مثل جمع المحار oyster والصياغة ، وصناعة الخزف والاعمال التى لا تتطلب أى نوع من المهارة (١٨) ، ولما كان العمل بأجر يشبه الى حد كبير اعمال الرقيق ، فقد نظر اليه على أنه ينطوى على ضعة وخجل • ومن هنا كان كل فرد يحرص على الدخول كشريك فى عمله كلما كان ذلك ممكنا •

ثم ان المرأة كانت تقوم بقدر كبير من العمل ، ليس فقط فى مجال العمل المنزلى الروتينى ، بل كانت تعمل فى الحرف ايضا • وكان ضيق نطاق المشروع الصناعى يسمح باداء أعمال كثيرة بالمنزل • وكانت المهن التى تعمل فيها النساء كثيرة ، منها اعداد العروسين ليوم الزفاف ، والتمريض ، وحياكة ملابس النساء • ولكن لم يكن هناك سيدة محترمة تعمل فى الخدمات المنزلية مقابل أجر ، حيث كان هذا العمل من اعمال الجوارى ، اللائى كن يمثلن قطاعا هاما من القوى العاملة • وفى الواقع نجد أحد الباحثين المحدثين يذهب الى أن وجود الجوارى ضمن حرم المنزل، قد اسهم الى حد ما فى تدهور مكانة المرأة • وحريتها فى المجتمع الحضرى.

---

(١٧) الاوليجاركيه : مصطلح يتكون من اصلين اغريقيين Oligos وتعنى قله ، Arche وتعنى حكم • وتعنى الكلمة فى جملتها حكومة القلة ، وبالذات القلة الفاسدة ، أو مجموعة الجشعين • وذلك فى الاستخدام القديم ، اما الاستخدام الحديث الكلمة فيغلب عليه كونها مرادفة للارستقراطية ، لان الديموقراطيات الحديثة تستنكر استئثار الاقلية بالحكم (أنظر معجم العلوم الاجتماعية ص ٢٢٩) (المترجم) •

(١٨) Ibid. pp. 93 - 92.

وذلك من القرن العاشر الى القرن التاسع عشر (١٩) أما الرقيق الرجال في القاهرة الفاطمية ، فكان معظمهم ينخرط في أعمال مالية وتجارية (٢٠)

وقد شكل المسيحيون ، واليهود الذين عاشوا في ظل الاسلام في هذه الفترة مجتمعات خاصة بهم . تمركزت حول الكنائس المسيحية ، أو المعابد اليهودية . وهؤلاء شاركوا المسلمين في اللغة ، وفي الحياة الاقتصادية ، ومعظم العادات الاجتماعية . ولكن تركت لهم الحرية فيما يتصل بشئونهم المحلية أو الخاصة . كما تركت لهم حرية العقيدة ، وتصريف أحوالهم الخاصة ، طالما كانوا ينتظمون في دفع الضرائب ، أو يلتزمون ببعض الضوابط . وهكذا كانت أعراضهم ، وملكياتهم مصانة ومحفوظة . طالما أظهروا الولاء للرؤساء والقادة ، والمؤسسات المركزية وقد كان القانون شخصيا اكثر منه اقليميا ، فقد كان يتم الحكم القضائي على الشخص وفقا لقانون الطائفة أو الملة التي ينتمي اليها ، وليس وفقا للمنطقة التي وجد نفسه فيها ، وعلى هذا فقد ظل القانون الجنائي هو أداة المحافظة على الدولة وحمايتها . وكان التعليم . والاعمال المتصلة بالصدقة أو الاحسان ، ورعاية الارامل ، والايتام . وتحرير الاسرى ، والرقيق ، كل هذه كان المجتمع المحلي يتكفل بها ، وقد اقتبس جويتن ، واحدة من الروايات الشخصية الواردة في الجينيزا ، وكانت عبارة عن خطاب شكر من رجل يهوى اعتنق الدين الاسلامي موجه لسيدة كانت تمده بالطعام في الاوقات العصيبة التي مر بها ، ثم يقدم لها بعض الارشادات الخاصة بصناعة الكعك الجيد ، وتذكيرها بعدم نسيان اضافة الزنجبيل

---

(١٩) Baer C. Population and Society in the Arab east, London, 1964, p. 34.

(٢٠) Goitein, op. cit., p. 147.

المساخن الى الكعك . وقد تمتعت المجتمعات المحلية المدنية بديموقراطية كافية حتى منتصف القرن الثالث عشر ، حيث فرضت الاقطاعية العسكرية ، ورجال الدين المسلمين سلطانهم على المجتمع باسرة (٢١) .

وقد بنيت الفسطاط Fustat بأزقتها الضيقة ، وحاراتها المسدودة والتى كانت تمثل نصف المدينة على الاقل ، ولم يرد ذكر للمناطق للفضاء العامة المفتوحة ولكن كانت هناك حظائر للماشية ، ومناطق فضاء تستخدم فى بعض الاغراض ، مثل تجفيف الاقمشة ، وهو ما يتم على أسطح المنازل الشعبية الان . ومع ذلك فقد كانت هناك حدائق ، وأماكن للنزهة خارج محيط المدينة ، كما اشارت الوثائق الى وجود بعض الحدائق الخاصة . ولا يوجد دليل واضح على وجود نوع من التقسيم الاجبارى للارض فى المدينة ، ومع ذلك كانت التقسيمات موجودة ، تحمل أسماء مدة أطلقت على الاسواق ، والشوارع ، والميادين ، واشارت هذه الاسماء الى أنواع معينة من التجارة أو الصناعة . ولم تكن التقسيمات صارمة فاليهود والنصارى ، والمسلمون ، كان يمكن أن يعيشوا فى منازل متجاورة ، وكان من الممكن ان نجد مسئولا تنفيذيا يعيش فى شوارع العمال غير المهرة ، والقاضى يعيش فى منطقة سوق المشروبات مثلا . ولقد كانت المنازل جاهزة للتحول الى محال تجارية ، كما أن كثيرا من الصناعات كالغزل والنسج كانت تتم فى منازل خاصة . وقد كان وجود الاطلال والخرائب سمة واضحة تغلب على المدينة ، وقد لاحظها الاوربيون فى القرن التاسع عشر . وقد نتجت هذه الخرائب عن ظاهرة السكن المشترك التى كانت ظاهرة عامة ، مما أدى الى اهمالها وعدم صيانتها ، هذا فضلا عن

---

(٢١) Goitein, A. Mediterranean Society: The Jewish Community of the Arab world, Vol. II: The community Combridge, Mass, 1971, pp. 1 — 5.

ارتفاع ... العمال المهرة ، في الوقت الذى كانت فيه الايجارات منخفضة • ولم يكن استخدام الارض لاغراض متعددة يعنى ان قيمتها موحدة ، بل على العكس من ذلك ، فان التحليلات الخاصة باسعار الارض في الفسطاط تشير الى ان المدينة كانت تنقسم الى مناطق ذات قيمة مرتفعة ، ومناطق أخرى ذات قيمة منخفضة (٢٢) كل هذا رغم الاعتقاد السائد بان مدن ما قبل الصناعة لم تكن توجد بها فروق كبيرة في قيمة الارض (٢٣) وتمثل الشواهد التى لدينا عن مدينة الفسطاط مؤشرات اخرى على ان الخلط بين الاغراض المسكنية ، والصناعية في استخدام الارض يمكن ان يوجد في مدينة ما قبل الصناعة ، هذا الى جانب وجود مستوى ملحوظ لاسعار الارض في هذه المدن (٢٤) •

وفي السنوات التالية لعام ١٢٥٠ ، وحتى بدايات القرن السادس عشر كان المماليك Momluks يحكمون سوريا ، وفلسطين ، ومصر • وقد اعتمدت دولتهم على الجنود المرتزقة ، أو المستبعدين ، فقد دعمت أركان حكمها عن طريق جلب المرتزقة من البلدان البعيدة ليؤدوا بشكل مستمر ادوارا عسكرية وادارية هامة • وقد حل محل حرية التجارة ، والمواصلات الدولية التى تحققت في عهد الفاطميين ، نظام أكثر قمعا وكبتا • وبالتالى تدهورت الموانى البحرية ، وانهارت ، كما اهملت الشواطيء عمدا حتى تكون عائقا لهجمات الاساطيل الاوربية ، والتى استمرت الى ما بعد سقوط أقوى القلاع الصليبية عام ١٢٩٩م •

---

(٢٢) Goitein, An Islamic city in the light of geniza, op. cit., pp. 86 - 97.

(٢٣) Sjoberg, G. The pre-industrial city past and present, New York 1060.

(٢٤) Costello; V. F. The industrial structure of a traditional Iranian city 1973, pp. 108 - 120.

ولقد عرض لا بيدو I. M. Lapidus بشيء من التفصيل للبناء الاجتماعي، والتنظيم السياسي لمدينتي دمشق Damascus وحلب Aleppo خلال العصور الوسطى المتأخرة في ظل الحكم المملوكي ·ويذكر لنا أن الدولة المملوكية كانت تعتمد على نسق عسكري قومي ، وتتضمن طائفة أو طبقة من الجنود المرتزقة ، ولكنهم يملئون قمة الهرم الطبقي في المجتمع · وبعد الصفوة العسكرية Military elite كانت هناك طبقتان كبيرتان هما : البرجوازية المحلية ، والمثقفون الدينيون · ويلي ذلك عامة الشعب الذين يمكن تقسيمهم الى : العمال ، والحرفيين ، وأصحاب المحال التجارية ، وغيرهم ممن يتمتعون بنوع من الاحترام الاجتماعي ، من ناحية ، والفقراء والمتسولون Vegabonds ، وأولئك الذين كانوا يعملون في مهن وضيعة ، من ناحية أخرى · وقد نظم الذين يعملون في أعمال محترمة ، هم والمنبوذون Outcasts مجتمعات محلية ارتبطت ببعض أحياء المدينة · وقد كانت هذه الاحياء السكنية بعيدة الى حد ما من المساجد المركزية ، والاسواق ، وكانت لها أسواقها الخاصة ، وحماماتها الخاصة وغير ذلك من التيسيرات الحضرية · وقد اشتملت قوائم الاحصاء التي جمعت في القرن السادس عشر على سبعين حيا ، فضلا عن ثلاثين أخرى في ضاحية الصالحية Al - Salihyyah كما تضمنت حوالي خمسين حيافي حلب (٢٥) ولقد كان الحجم المكاني لكل من هذه الاحياء مختلفا · ولكن عدد السكان في كل حي كان يصل الى الف شخص تقريبا ·

ثم ان التضامن في وحدات الجوار كان يقوم في بعض الحالات على الوحدة الدينية · فقد عاش اليهود ، والمسيحيون في جماعات خاصة، بينما عاشت الجماعات العرقية الاسلامية كالعرب ، والاكراد Kurds

---

(٢٥) Lapidus L. M. Muslim cities in the later middle ages, Cambridge, Mass. 1967, p. 85.

وغيرهم فى جماعات منفصلة عن بعضها • وعبر الاغلبية العربية المسلمة كانت هناك عوامل تشد الناس للمعيشة معا فى حى واحد منها : الانتماء لاحدى المدارس الفقهية ، أو وجود روابط قرابية ، أو الانتماء الى أصل ريفى واحد • وبشكل عام كانت المجتمعات المحلية تتكون من أغنياء ، وفقراء ، مع انه كانت هناك أحياء اكثر غنى ، وأخرى اكثر فقرا • وقد تكفل الحى بوظائف خاصة فى المدينة المملوكة • فقد شكل وحدة ادارية يشرف عليها الشيخ Shaikh الذى كان يختار من جانب الحكام المماليك فى المدينة ، وكان الشيخ ناطقا بلسان المجتمع المحلى — وكان الحى مسئولا عن اعتقال المجرمين ، فقد قام الشيخ ببعض وظائف الشرطة هذا فضلا عن أن الحى كان يعتبر وحدة ضرائبية ، وكانت معدلات الضرائب موضع تفاوض بين الشيخ والحكومة • وفى أوقات الخطر وعدم الاستقرار كان على الحى أن ينظم اسلوبه الدفاعى الخاص ، فيقيم المتاريس Barricades والبوابات واقيمت الاسوار على حدود الحى خاصة أيام الحكم العثمانى ومع كل هذا الاستقلال المحلى لم تكن الاحياء منعزلة مثل مجتمعات الجيتو Ghettos ولكنها كانت عبارة عن احياء وشوارع متجاورة داخل المدينة .

ولكن كان التضامن المحلى عبر الجيرة مركزا لدرجة أن هناك صراعات وحروبا طائفية كانت تنشب بين الاحياء • وفى بعض الحالات كان المماليك انفسهم يثيرون هذه الصراعات لخدمة اغراضهم الخاصة وكانت هذه الضغائن تحدث فى دمشق وحلب فى الاحياء التى تقع خارج اسوار المدينة بشكل خاص • وكانت أسماء الطوائف تشتق من أصول قبلية ، وتشير الى أن جبروت القبيلة والولاء لها لا يزول بسبب الاقامة فى المدينة • وفى السنوات الاخيرة من الحكم المملوكى ، تلك الفترة التى شهدت عدم استقرار الملوكية ، وخلفائهم فى الدولة العثمانية ، فى هذه السنوات تزايدت معدلات الهجرة الريفية الحضرية بشكل كبير • وكانت نتيجة هذه الهجرة ووجود جماعات حضرية استمرت فى الاحتفاظ بعادات النظام

الاجتماعي البدوي ، أكثر مما اكتسبت عادات الحياة المستقرة (٢٦) .

ومع ان الروابط المجتمعية كانت قوية داخل الاحياء ، الا انه لم تكن هناك روابط نقابية اقتصادية مستقلة ، وكانت نتيجة ذلك وجود مجتمع يمكن فيه توضيح المظالم الاقتصادية بدون العنف الجماعي . ثم ان العلاقات السياسية مع الطبقة الحاكمة الاجنبية كانت محدودة ، وكانت مسائل القصور في المواد الغذائية ، أو نظام الضرائب الفاسد من أهم العوامل التي تشجع اندلاع المظاهرات في الشوارع . والهجوم على المسئولين ومطب المحال التجارية ، وغلق الاسواق ونهبها . ومع أن بعض الاضطرابات كان يمكن أن تتحول الى عصيان وتمرد يعم المدينة ، الا انه كلا منها كان يثور من أجل هدف معين ، مثل اسقاط حاكم ، أو خفض الضرائب . كذلك كانت المجتمعات المحلية تتوحد من أجل غايات محددة ، ولكن بصورة محدودة مثل حالات تغيير شكل الحكومة ، أو حتى حالات التحريض على الثورة الدينية . وابعد من ذلك فان رجال الدين أو العلماء Ulama كانوا يدعمون النظام العام في المجتمع ، وينصحون بالولاء له ..

اما الاشكال الاخرى للروابط الاجتماعية ، فكان من نماذجها جمعيات التآخي Fraternal ، وقد اهتم لابيدوس بنموذجين منها : الاول هو جماعات أو روابط صغار السن من الرجال والتي كانت تعرف باسم Zuar والثاني هو جماعات الصوفية Sufi . ففي دمشق كانت جماعات الشباب هذه تتشكل على هيئة روابط تقوم عضويتها عن اختيار ووعي ذاتي ، وكان يتولى قيادتها رئيس معروف ، وكانت تقسيماتها وفقا للاحياء ، وقد

---

(٢٦) Lapidus; Moslim urban Society in Mamluk Syria, in the Islamic city (ed.) Hourahi & Stern, oxford, 1970, p. 199.

شاركت هذه الجماعات فى الدفاع عن الاحياء ، ودخلت ضد المماليك فى المعارك ضاربة فى بعض الاحيان ، وفى أحيان اخرى أدى بهم اقتناعهم ببعض الاهتمامات الخاصة الى العمل كمساعدين للمماليك • كانوا مثلا يقبلون العمل كجنود بالاجر من اجل كبح جماح البدو وسكان القرى • وكذلك من اجل ابتزاز الاموال من سكان المدن لصالح المماليك • ولما كان هؤلاء يشكلون جماعات منظمة • فانهم كثيرا ما كانوا يؤدون دورا فى وقاية المجتمع المحلى من اخطار السلب ، والنهب ، والقتل • أما الصوفية باعتبارها شكلا اخر من اشكال الروابط الاخوية ، فقد كانت زواياها دينية سرية ، لها تعليمات تصدر عن مشايخ الطريقة وموجهيها • وهناك تصنيف كبير لمثل هذه الاوامر والتعليمات فى الدين الاسلامى (٢٧) •

وقد وجدت جماعة ادنى من الصوفية ، هى جماعة الحرافيش Harafish وهم جماعة الشحاذين Beggars ، الذين ينتمون الى درويش Dervish وينتزمون بأوامره ، وهؤلاء عاشوا على احسان وصدقات السلطان المملوكى • أو على العمل فى مهن وضيعة فى المجتمع ، وقد استخدموا فى بعض الاحيان مثل جماعة الـ Zuar ، فى الحروب الاهلية لصالح المماليك • وقد استخدموا مثل هذه الفرص من أجل السلب والنهب كلما امكن لهم ذلك (٢٨) •

ان تجزء المدن الى مجتمعات محلية صغيرة ، تعيش فى عزلة عن بعضها • وكان كل منها يبتلى بأعمال العنف من جانب المجرمين ، كل هذا كان يرسم صورة واضحة عن التفكك ، وانعدام الامن فى هذه المدن • ومع ذلك فقد كان المجتمع الحضرى فى العصور الوسطى المتأخرة مترابطا — الى حد ما — بفضل الانتماء العام للقيم الاسلامية • وبفضل الاتفاق

---

(٢٧) Levy, R. The Social Structure of Islam, Cambridge, 1952, pp. 89 — 90.

(٢٨) Lapidus, 1970, op. cit., pp. 200 — 203.

على هذه القيم . وقد قام العلماء (٢٩) Ulama بتفسير هذه القيم العامة ، والدعوة للتمسك بها كذلك فان المدارس الاسلامية القانونية او الفقهية المختلفة كانت تشكل احدى دعائم الترابط فى مجتمع المدن وقد كان تنظيم الحياة الاسرية ، والمعاملات التجارية ، والتعليم ، من أعمال العلماء ، حيث كانوا يمثلون صفوة دينية ، ومهنية ، وتجارية ، وادارية فى وقت واحد ، فضلا عن دورهم كمتحدثين باسم أفراد المجتمع أما ادارة شئون الدفاع ، والضرائب ، فقد تركت للمماليك نظرا لعدم وجود تنظيم مجتمعى محلى يشمل المدينة كلها . ويستخلص لابيدس ان سيطرة الحكام الاجانب فى العالم العربى خلال العصور الوسطى ، وبعدها كانت ترجع لنظام المجتمع الذى يتضمن مدنا مثل دمشق وحلب لا يمكن أن تحكم نفسها بنفسها كلية (٣٠) .

وقد كان انقسام المدينة الى احياء متعددة تشبه القرى ، يتضمن

---

(٢٩) العلماء : Ulama اطلقت كلمة العلماء على ذوى الثقافة الدينية ، وقد كان لهم دور كبير فى المجتمع ، مصحوب باحترام كبير ايضا . فقد كانوا ولازال الكثير منهم حتى الان فى المناطق الريفية يسهمون فى فض المنازعات ، وعملية التوريث والقسمة بين ابناء المتوفى ، وكذلك الفصل فى بعض المواقف من الوجهة الدينية ، مثل الطلاق شفاهة وكيفية رد المطلقة ، والافطار فى أيام الصوم لعذر او اخر ، وحكم الدين فى كل ذلك . هذا فضلا عن ادوار اخرى كثيرة دينية . وبعضهم كان متخرجا فى الازهر الشريف ، والبعض الاخر لم يكمل تعليمه الدينى حتى المستوى الجامعى ، ولكن الكلمة كانت تطلق اكثر على الحاصلين على شهادة « العالمية » من الازهر الشريف (المترجم) .

(٣٠) Lapidus, L. M. Cities and Islamic Society, in Middle East cities (ed.) lapidus, Berkeley and los Angeles, 1969, p. 205.

معان أخرى ، طالما انه لا توجد سمة اجتماعية ، او جغرافية ، أوايكولوجية يمكن ادراكها ، والاعتقاد بأنها مسئولة عن جعل المدن مجتمعات محلية قائمة بذاتها • ومن الناحية الاجتماعية فان ولاء السكان في المدينة يتجه نحو مجتمع الجيرة الذى يعيشون فيه أكثر مما يتجه للمدينة ككل ، وقد كان مجتمع الجيرة بدوره ينتمى لاحدى المدارس الفقهية الكبرى (٣١) ، وربما كان يحمل اسم واحدة من هذه المدارس • وفى نفس الوقت كانت هذه المذاهب أو المدارس والجماعات الفقهية لها جماعات مناظرة فى القرى المجاورة وفى القرن الثانى عشر مثلا نشب صراع محلى بين الطوائف المختلفة فى منطقة راى Rey ، وامتد هذا الصراع ليشمل القرى المحيطة بها • وأن العلاقات بين القرية والمدينة كانت قد تدعمت بفعل الروابط الاقتصادية ، الاجتماعية بين الاسر الريفية الحضرية ، حيث كان هناك من قبل نوع من التناغر الذى اتخذ شكلا اقتصاديا ، واجتماعيا ، ودينيا واسع النطاق •

وكانت المدن تعتمد على مناطق الظهير الزراعى الاقليمى الذى يمدها بحاجتها ، ولكن من حيث الوظيفة لم تكن للمدن سمات موحدة • أما التيسيرات الخاصة بالمناطق الحضرية مثل التحصينات ، والاســـواق

---

(٣١) تعددت المذاهب الفقهية فى الاسلام ، الا أنها جميعا اتفقت فى القاعدة الاساسية للدين ، خاصه ما ورد فيه نص قرانى صريح، ولكنها تختلف فيما دون ذلك حسب اجتهاد ائمتها ، ورغم تعدد هذه المذاهب الا أن المشهور منها الان أربعة هى : (١) المذهب المالكى ، وهو مذهب الامام مالك بن انس الاصبحى المتوفى عام ١٧٩هـ (٧٩٥) • (٢) والمذهب الحنبلى ، وهو مذهب الامام احمد بن حنبل المتوفى عام ٢٤١هـ (٨٥٥) • (٣) المذهب الشافعى ، وهو مذهب الامام محمد بن أدريس الشافعى المتوفى عام ٢٠٤هـ (٨١٩) (٤) المذهب الحنفى ، وهو مذهب الامام أبى حنيفة النعمان المتوفى فى عام ١٥٠هـ (٧٦٧)م ويشتهر المذهب الاخير بدقته فى مسئل الزواج ، والطــــلاق ، والتوريث (المترجم) •

وحلقات التصوف ، والمساجد الرئيسية فقد كان يمكن أن توجد ، بل وجدت الان بالفعل فى القرى • ولم يكن حجم المناطق السكنية مؤشرا يعتد به على أهمية المنطقة ، وذلك لان معظم التعدادات السكانية كانت تقديرية ، وكانت تميل فى الغالب للمبالغة ومن ناحية أخرى كانت المدن نفسها عبارة عن تجمعات مركبة ، كما هو الحال فى اصفهان Isfahan حيث كانت مناطق العمال غير المهرة ، ومناطق سكنى اليهود ـ باسم Yahudiah ـ تشكل وحدتان منفصلتان فى القرن العاشر ، وفى القرن السادس عشر أضيفت الى المدينة منطقة خليج أرمينيا Armenian Julfo على الجانب الاخر من نهر سيفيد رود Sefid Rud (٣٢) • ومن كل ذلك يتضح أن الفكرة الاسلامية عن المدينة كانت مختلطة •

التدهور الحضرى : Urban dicline

فى نهاية القرن الخامس عشر ، وبدايات القـــرن السادس عشر ظهرت قوتان هامتان من حيث تاثيرهما على طبيعـــة المجتمع الحضرى الاسلامى فى الشرق الاوسط • الاولى تمثلت فى اتساع نطاق الامبراطورية العثمانية بعد فتح اسيا الصغرى Asia Minor ، وسقوط الامبراطورية البيزنطية Byzantine Empire فى منتصف القرن الخامس عشر • وقد عمل الاتراك العثمانيون على ازالة ومحو كل ألوان التراث الحضرى غير التركى الذى وجد فى فترة ماقبل الاسلام ، خاصة فى سهل الاناضول ، وبعـــد ذلك أطاحوا بالماليك ، ووسعوا نطاق سيطرتهم لتشمل الشرق الاوسط كله تقريبا ـ باستثناء بلاد الفرس ـ والمناطق التى كانت موضع نزاع بينهم وبين الامبراطورية الفارسية • والثانية : أنه فى ظل الحكم العثمانى

---

(٣٢) Lockhart, L. Famous Gities of Iran, Brent Ford, middle sex 1939, p. 14.

فان نقابات الحرفيين Guilds Crafts _ والتى كانت قد وجدت لبعض الوقت فى ظل الحكم الاسلامى _ قد اكتسبت اساســا دينيا قويا • وتضمنت هذه النقابات نظاما صارما للتدرج يشتمل على رؤساء الحرف Masters ، والعمال المهرة اليوميين Journeymen ، ومدربى الصبية والصبية العاديين apprentices • وقد قامت النقابة بتنظيم انتاج السلع من حيث الكيف والكم • فحرصت على اتقان السلع ، ثم تولت عملية بيع السلع فى المدينة وقد كان الحافز الذى يمنح لاعضاء النقابات ضئيلا ، كما كان عدد المتاجر المخصصة لكل نقابة محدودا ، فلم يكن يسمح بفتح المتاجر الا لرؤساء الحرف ، كذلك لم يكن يسمح بأى تغيير فى الطراز او (الموديل Fashion) دون اذن من النقابة كل هذا فضلا عن ان أسعار السلع كانت مثبته بواسطة الحكومة (٣٣) •

---

(٣٣) Gib, H, A. R. and Bowen, H. Islamic Society and the west London, 1950, pp. 281 - 283.

وترجم هذا الكتاب الى اللغة العربية الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى ، وراجعه الاستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم بعنوان « المجتمع الاسلامى والعرب » (دار المعارف فى القاهرة ، ١٩٧٠) •

والكتاب يتكون من ثلاثة فصول رئيسية بالاضافة الى ملاحظة تصديرية للمؤلفين ، ويقع (وفقا للترجمة) فى مائتين وتسع وسبعين صفحة من القطع المتوسط ، استغرقت الملاحظة والفصلين الاول والثانى ثمانية وخمسين صفحة ، بينما استغرق الفصل الثالث وهو أهم فصول الكتاب مائتين وواحد وعشرين صفحة • وقــد ناقش فيه الهيئة الحاكمة ، تلك التى كان العثمانيون يحكمون بواسطتها وطبيعتها ، والظروف السائدة فى المجتمع الاســلامى والجيش ، والاقطاع ، والانكشارية ، وصناعة الاسلحة ، وحكومات الولايات وغير ذلك مما يدخل فى اطار الهيئة الحاكمة ، والاسلوب الذى اتبعته والذى انتهى بانحــلال الامبراطورية العثمانيــة (المترجم) •

وأبعد من ذلك فان النقابات لم تكن مستقلة ، ولكن تطورت فى ظل حماية الحكومة ، كاداة للضبط الفعال على الاقتصاد ، والسكان • وقد كانت فى معظمها عبارة عن كيانات صغيرة قوامها الحرفيون Craftmen مع أنها كانت تتراوح فى الحجم من اثنى عشر الفا ، الى عضو واحد كما هو الحال فى نقابات العمال الذين يصنعون وسائل التعذيب (٣٤) وهناك اوجه شبه بين النقابات الايرانية ، والنقابات التى وجدت فى عهد الامبراطورية العثمانية من حيث الوظائف • ومن أوجه هذا التشـابه ان كليهما تطورت عن كيانات قوامها مجموعة من الحرفيين الذين ينخرطون فى نفس المهنة ، هذا فضلا عن أن الحكومة فى الحالتين هى التى خلقتها لاغراض مالية ، وادارية • وفى ايران كانت النقابات هى التنظيمـات الاقتصادية الحضرية الوحيدة التى تتقرر عليها الضرائب كوحدة ، وكان من حقها أن تختار رؤساءها وموظفيها (٣٥) وفى بعض الحالات شاركت النقابات فى المناسبات الدينية ، وفى كثير من الحالات وجدت مقاه فى السوق أنشأتها نقابة واحدة . ولكن دورها الاجتماعى والسياسى كان ضئيلا • أما أدوارها المالية ، والادارية ، فقد كانت محددة بواسطـة الدولة ، وغير ذلك من الادوار مما كان يمكن أن تقوم به النقابة . فقد كان محددا الى حد كبير •

وفى الوقت الذى كانت فيه الامبراطورية العثمانية اخذة فى التوسع، كانت القوة البحرية الاوربية تنمو هى الاخرى ، بطريقة مشابهة . وفى نفس الوقت ، أى فى بداية القرن السادس عشر ، حينما كان البرتغاليون

---

(٣٤) Baer, G. The administration, Economic and Social Functions of Turkish guilds, Internatianal Journal of middle east studies, I, 1970, pp. 18 —50.

(٣٥) Foor, W. M. The guilds in Iran, An overview from the earliest beginings till 1972. pp. 101 — 102.

Portuguese ينقضون على العالم الاسلامى من خارجه ، ويعملون على خلق نوع من الفوضى فى التجارة مع الشرق · ولقد دخل اول اوربى الى العالم الاسلامى متسللا الى مكه Mecca والمدينـة Medina ، ثم عـاد ليقوم بالاعلان ، والدعاية عن رحلاته (٣٦) ·

ان ما أحرزته المدينة الاسلامية فى مجال التحضر ، خاصـة فى النواحى السياسية ، والعسكرية ، والفكرية ، والفنية ، كان قد اقترب من الذروة فى بدايات القرن السادس عشر ، حتى انه عشية التوسـع الاوربى كانت لدى العالم الاسلامى قناعة بانه لا جدوى من نقل أى شئ عن حضارة الغرب البربرى Barbarian West · وان اسباب التدهور الذى حل بهذه الحضارة ـ والذى استمر على الرغم من التوسـع الفيزيقى للامبراطورية العثمانية ـ كانت متعدده ، ولا تزال تعتبر مجالا للجـدل التاريخى · وحتى بطول العصور الوسطى كان سكان الحضر قد تعودوا على وجود هذا التدهور الذى كان قد تزايد بفعل الغزوات القادمة من وسط اسيا ·

فعلى سبيل المثال كان حجم السكان فى بغداد فى القرن السادس عشر قد تدنى الى ما بين (٥٠) ، (١٠٠) الف نسمة ، وهذا الحجم يمثل عشر حجمها السابق · وأيضا كان الحجم السكانى الكلى فى مصر فى القرن الثامن عشر حوالى مليونين ونصف ، وكان هذا الحجم يمثـل انخفاضا الى النصـف ، لانه كان قد بلغ حوالى أربعة ملايين فى القرن الرابع عشر · هذا فضلا عن تناقص حجم السكان فى كل من سوريا ، والعراق ، والجزيرة العربية · ومن ناحية اخرى انكمشت مساحة الارض المزروعة فى الشرق الاوسط ، نتيجة اهمال الرى فى كثير من المناطق،

---

(٣٦) Saunders, J. The Muslim world on the eye of Europe's expansion, Englewood cliffs, New Jersey, 1966, p. 115.

الامر الذى أدى ايضا الى انكماش التجارة ، ومع ذلك فمن الحتمل أن معاناة المجتمعات الحضرية ، كانت أقل من معاناة المجتمعات الريفية . ولكن الواضح أن الحرفيين قد تناقصوا من حيث الكم والكيف . ومع أنه فى القرن السابع عشر كانت الاسكندرية ، وطرابلس ، وحلب ، وبغداد لا تزال مراكز تجارية هامة . وموضعا للمنافسة بين الاوربيين ،الا أن تحمد مناطق الظهير الزراعى الخاصة بها ، قد أدت الى جعل تجارتها هزيلة (٣٧) .

ومن بين العوامل الاقتصادية التى أسهمت فى هذا التدهور العام ، استنزف موارد الغابات . حيث كانت الاخشاب من أهم المواد الخام فى مجتمعات ما قبل الصناعة ، فكانت تستخدم فى جميع الحرف عن المنازل الى السفن ، الى المحاريث كل هذا الى جانب كونها مصدرا أساسيا للطاقة . وقد كان لازالة كثير من المناطق المرتفعة ، والتركيز المتزايد على اثار سلبية تتمثل فى تاكل التربة أو تعريتها Soil erosin . وحيث أن التوازن الطبيعى والايكولوجى فى المناطق الجافة Arid وشبه الجافة أمر دقيق للغاية ومن السهل هدمه ، فان اعادة تبيئة الارض لزراعة الاخشاب كان وسيظل من الاعمال الشاقة .

ولم يكن بناء المجتمع فى الشرق الاوسط بطبيعته يسبل عملية التغير ، لانه من ناحيته قد عانى من محاولات ضد الغزوات المتتابعة من جانب الصليبيين Crusaders ، والمغول Mogols ، والاتراك Turks وغيرهم ، وقد أدى ذلك الى تحول المجتمعات العربية الى مجتمعات اقطاعية عسكرية Militaristic Feudal ومن ناحية اخرى ، فان قوة

---

(٣٧) Issawi, C. The economic history of the Middle East chicago, pp. 3 - 4 and, Herschlag, Z. Y. introduction to the Modern economic history of the Meddle East, Leiden, 1961, pp. 7 — 8.

[illegible] ، والى [illegible] الامبراطورية العثمانية [illegible]
[illegible] الاوربية [illegible] وفى نفس الوقت [illegible]
الامبراطورية يعانى من الاثار الاقتصادية ، التى احدثها تدفق الذهب من امريكا الجنوبية عبر اوربا . وفى ضوء هذه الظروف ، وكانت السلطة المركزية للامبراطورية تتدهور فى القرن السابع عشر . فضاعفت الأسر والرحل من عمليات سلب ونهب المجتمعات المستقرة ، وعندئذ ظهرت مجموعة من الامارات المحلية الصغيرة local petty dynasties وكذلك ظهرت حكومات شبه مستقلة عن سلطة الامبراطورية . وقد مرت الامبراطورية الفارسية بنفس هـــذا المســـار تقريبـا ، فقد واجهتهـــا ظروف التوسع والانكماش المرحلى ، كما تعـرضت لغزوات دمويـــة عنامـه من جانب الافغانيين Afaghans فى القرن الثامن عشر ، واستمر ذلك حتى بدأت مرحلة التماسك الداخلى ، والاصلاح الذى مارسته اســرة كاجار Qajar فى القرن التاسع عشر .

وبالاضافة الى كل ما سبق فإن الحياة العلمية ، والفكرية للمجتمع الاسلامى فى الشرق الاوسط قد تدهورت ايضا منذ العصور الوسطى ، واصبحت السلطة الدينية أكثر قوة ، وأكثر صرامة . ويتضح ذلك مثلا فى استمرار القادة الدينيين فى التمسك بأمور مثل تحريم التدخين (٣٨)

---

(٣٨) تحريم التدخين فى الاسلام : لم يرد نص مباشر لتحريم التدخين فى الاسلام ، ولكن هذا المبدأ قد استنبط قياسا على مبادىء اخرى ، فهناك مبدأ انه « لا ضرر ولا ضرار » و « ان لبدنك عليك حقا » ولما كان التدخين ضارا بالصحة فهو يدخل فى نطاق الضرر واهمال حقوق البدن . ثم مبدأ التبذير فيمـــا لا ينفع « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين » ثم قوله تعالى « ولا تجعل يدك [illegible]
ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » وغير ذلك من الايات
والاحاديث [illegible]

رغم انه لم يكن هناك نص قرانى يدعم هذا الموقف • ولكن الحكومة العثمانية قد ارغمت تحت وطأة الضغط العـــام أن تترك مســـألة تحريم التدخين سارية ، حتى اذا جاء عام ١٧٢٥ استطاع تجار التبغ أن ينظموا صفوفهم ، ويكونوا نقابة ذات شهرة واسعة ، ويحسب حسابها فى نفس الوقت (٣٩) •

وقبيل بدايات القرن الثامن عشر لم يكن الكفار أو الملحدون يلقون تقبلاً أو احتراما من جانب المجتمع ، لكن المجتمع بدأ يتقبلهم مع بداية هذا القرن وقد أصبحت التجارة متركزة فى ايدى الاقليات غير المسلمة التى لم تعانى من صرامة القانون الاسلامى • وقد شكلت الجماعات غير الاسلامية مجتمعات محلية خاصة بها سميت « ميليتز Millets » (٤٠) وقد سمح لهم بتنظيم شئونهم الدينية ، والاجتماعية والقانونية • وقد تركزت هذه الجماعات فى الاحياء التجارية الكبرى فى الامبراطورية وأخيرا فان وجود هذه الجماعات نفسه هو الذى منح القوى الاوربية ذريعة أو حجة جاهزة للتدخل فى الشئون الداخلية للامبراطورية العثمانية •

مدينة كرمـــان Kirman city

قدم انجلش P. W. English وصفا لمدينة كرمان فى فترة ما

تحريم التدخين ، يشتق من مبادىء عامة أخرى رغم عدم وجود نص صريح أو حديث مباشر (المترجم) •

(٣٩) Gib & Bowen, op cit., p. 292.

(٤٠) Millets يطلق هذا المصطلح على المجتمعات المحلية المسيحية التى وجدت فى زمن الامبراطورية العثمانية خلال الفترة من ١٢٩٩ — ١٩٢٢ ، وكان لكل مجتمع منها اتجاهاته الطائفية ، حيث كان يمثل البطريات شخص الحاكم فى هذه المجتمعات ، وليس على بقية اعضاء المجتمع سوى انجاز الوظائف الدنيوية • « قاموس فيرتشيلد ص ١٩٤ » (المترجم) •

حول عام ١٩٠٠ في دراسة له بعنوان « البيئة والاقتصاد في سهل كرمان Settiment and economy in kirman basin (٤١) ولهذه الدراسة أهميتها هنا لان الملامح العامة للبناء الحضرى فى هذه المدينة كانت فى عام ١٩٠٠ مشابهة لملامح غيرها من المدن الايرانية ذات الحجم المماثل ، وقد كانت المدينة الى حد ما تجارية صغيرة وكانت الاشكال العامة للحياة الحضرية فى المدينة الاسلامية تتشابه مع بعض طرق الحياة التى سادت فى العصور الوسطى • ومن نماذج هذا التشابه وجود نقابات الحرفيين مثلا ، ووظائف هذه النقابات كانت تشبه وظائفها فى الامبراطورية العثمانية •

وكان السجد المركزى ، والقلعة ، والسوق هى المؤسسات الرئيسية الثلاث التى تشكل قلب مدينة كرمان ، فمنذ القرن الرابع عشر والمسجد المركزى هو المكان الرئيسى للصلوات العامة او الجماعية فى المدينة • وعلى مقربة من هذا المسجد وجدت بعض الحمامات العامة التى كان المصلون يمارسون فيها الوضوء Ablution أما القلعة ذات الاسوار ، والتى كانت على مقربة من الجزء الغربى للمدينة فقد ضمت الى داخلها منازل الصفوة السياسية ، والتجارية فى المدينة • ثم كان الحى التجارى المعروف باسم « سوق فاكيل Vakil Bazaar » بين المسجد المركزى والقلعة • وقد كان الجزء الرئيسى للسوق يمتد الى حوالى ستمائة متر ، ويشتمل على مقاعد مغطاه ، وفنادق صغيرة ، وازقة ضيقة ، حيث كانت تتم معظم العمليات التجارية فى المدينة • وقد خطط سوق فاكيل على النمط الفارسى ، حيث خصص فيه جزء لكل حرفة أو تجارة ، ولكن تجار الذهب أو المجوهرات وبائعى الملابس ، وتجار النحاس ، وغيرهم من تجار التجزئة Retail

---

(٤١) English, op. cit., p. 39 - 45.

كانت لهم محال حول ميدانين كبيرين فى السوق • ولم تكن طبيعـة تجارة الجملة Wholesale تتطلب وجود التجار فى شارع عام The roughfare يلى انهم عملوا فى الفنادق ذات الادوار المتعددة والتى تشمل على فناءات مفتوحـة ، ومخازن ومكاتب تتم تهويتها عن طريق الابراج العاليـة والمصممة بطريقة تساعد على جلب الهواء البارد ، ثم توجهه الى الحجرات الموجودة بأسفل المبنى •

ولقد كانت هذه الابراج واحدة من الملامح المعمارية الهامة للمـدن الصحراوية فى ايران ، بالاضافة الى خزانات امياه المقببـه Domed والتى كانت تمد الماء بواسـطة انابيب (مواسير) تمتـد الازقـة ، والحوارى •

وقد اشتملت الاحياء الاسلامية السكنية الاربعة الموجودة داخل أسوار المدينة عادة على أزقة متعرجة ، ذات فتحات مقببة او دائرية ، ومسدودة ، وكان اتساعها يسمح لدابتين فقط بالمرور • وكانت المنازل المشيدة من الطوب اللبن Mud - brick ، تشتمل على فناء واسع ، وتنقسم الى حجرات عامة ، وأخرى خاصة ، اذا سمحت الامكانيات بذلك • وهناك منطقـة فـراغ خارج جدران المنزل تسمح باخفاء ما بداخـله ، من زجاج ملون وملصقات مزخرفة ، وحلى كانت توجد لدى الاثرياء ، والحكام كما كان هذا الفراغ يسمح باخفاء ما يوجد داخل منازل سيدات الطبقة الدنيا ، اللاتى كن يعملن طوال اليوم على انوال السجاد • وفى نفس الوقت توجد حول المنازل فى أحياء اليهود أسوار عالية لحماية هذه المنازل من الإعتداء ، كما كانت تغلق بأبواب (بوابات) ضخمة • وفضلا عن ذلك كانت التسهيلات الضـرورية للحياة الاجتماعية والدينية لليهـود موجودة وسط الاحياء الخاصة بهم ، ومن امثلتها الحمامات ، والمدارس ومحال الجزارة ، والمعابد الدينية • اما حى الزرادشتيه Soroastrains فقد كان سكانه يخضعون لقيود من حيث الملبس ، والضرائب ، وغيرهـا

من الاعيور . وقد كان من المفروض عليهم قانونا أن تكون منازلهم خفيضة بشكل يسمح للعابر أن يلمس سطحها . وقد كان هذا الحى يحكم بواسطة مجلس مشكل من كبار السن الذين لديهم المام بالشئون الاجتماعية ، والدينية . ومن الملاحظ أن هذا الحى كان من اكثر احياء كرمان نظافة ونظـــاما .

ولقد كان بناء المجتمع الاسلامى — الذى شكل اغلبية فى المدينــة قائما على عدة طبقات منفصلة منها : ملاك الارض ، ومن يحتكرون حقوق المياه والقادرين على الاقراض ، وابرام عقود تصنيع أو تسويق السجاد، وهؤلاء جميعا شكلوا الطبقة العليا . وفى نفس الوقت كانت امكانيـــة التنقل الطبقى أو الاجتماعى لهم محدودة . وفى الطبقة الدنيا كان هناك تدرج أو تنوع بين الدخول ، حيث كانت تتضمن فئات وضيعة مثـــل الشحاذين ، ومباشرى دورات المياة . والبغايا ، وغير ذلك . وكانت الاسرة الممتدة Extended Family المشتملة على الزوج والزوجة والابناء ، وزوجات الابناء والاقارب هى النمط العام ، والوحدة الاجتماعية الاساسية فى الطبقة العليا ، والى حد ما فى الطبقة الدنيا ، حيث لم تكن مواردها تكفى للتمسك بنظام عائلى واسع النطاق . أما أوجه التعامل التجارى فقد كانت تنظمها نقابات المنتجين ، كما كان الحال على زمن الامبراطورية العثمانية ، ولكن عنصرا جديدا قد دخـل عليها ، وهو التضامن بين رجال السوق ، والعمال من خلال النوادى الرياضية الفارسية التقليدية ، والتى كانت تعرف باسم زرخانه Zorkhaneh .

وبالاضافة الى ذلك كان الدين من عوامل تشكيل الوحدة الاجتماعية فى كرمان فى القرن التاسع عشر . فكان العلماء يحصلون على مميزات اقتصادية من خلال ادائهم للشعائر الدينية ، وكان لهم تأثير دينى من خلال ادارتهم لشئون التعليم ، والوعظ ، والارشاد الدينى ، وعملهـــم بالمحاكم الشرعية . كذلك كانت القيم الدينية ، والشعائر تغرس فى

المرحلة الابتدائية من التعليم ، وأيضا كان هناك لقاء دينى عـام يحضره الناس فى المناسبات الدينية ، ومن اشهر هذه اللقاءات ذلك اللقـــاء السنوى الذى يمارسون فيه طقوسا حزينة Passion Plays فى شهر محرم حزنا ، وحدادا على استشهاد الامام الحسين (٤٢) • فسكان كرمان شانهم شأن معظم سكان ايران ، وجزء من سكان العراق ينتمون الى

(٤٢) للشيعة فى شهر محرم خاصة فى العشرة الاولى منه طقوس حزن معينة ، تتمثل فى اللعب بالسيوف ، والخناجر ، وربما احداث جروح فى الجسد ، أو النوم على أجسام صلبة (كالمسامير) • ويبلغ هذا الحزن ذروته فى اليوم العاشر حيث يكون الصراخ ، والعويل حزنا على مقتل الامام الحسين بن على • وهو الحسين بن على بن أبى طالب ، وقد استشهد فى معركة كربلاء يوم الاثنين العاشر من المحرم عام ٦١ هجرية ، عن عمر يناهز ستة وخمسين عاما ، وخمسة شهور • وحدث ذلك أثناء خلافة يزيد بن معاوية فقد استحل الحسين الخروج على يزيد بن معاوية لان والده معاوية كان قد انتزع له البيعة فى المســـجد بالسيف • لكن مسلكه فى الحكم جعل الحسين يفكر فى الخروج عليه • وقد وعده أهل الكوفة بالدعم والمبايعة ، فحرج فى حملة عسكرية لاقاه فيها يزيد فى كربلاء حيث قتل الحسين • ولهذه الحادثة جذور أخرى سابقة ، ذلك ان الحسن ، وهو الاخ الاكبر للحسين كان قد بويع بالخلافة بعد موت ابيه على بن أبى طالب ، ولكنه تنازل عنها لمعاوية حقنا لدماء المسلمين على شرط ان تكون البيعة له بعد معاوية لكنه توفى قبل معاوية . وتوفى مسموما على أرجح الاقوال على يد زوجته فى صفر عام ٤٧ هجرية ، حيث كان معاوية ــ حسب الرواية ــ قد وعدها ان يزوجها لابنه يزيد اذا هى دست السم للحسن • ففعلت وهنا قال معاوية قولته المشهورة « ان لله جنودا من عسل » .كل هذه الاحداث ، فضلا عن اعتقادهم بان عليا كرم الله وجهة كان أولى بالخلافة من غيره من الخلفاء الراشدين • وان الخلافة كان يجب ان تستمر بين عل البيت كل هذا جعل الشيعة يتخذون مواقف رافضة فى كثير من الاحيان (المترجـم) •

المذهب الشيعى ، وهو مذهب ينظر للامام على على أنه أول خليفة لمحمد (عليه الصلاة والسلام) ، ويعترضون على الخلفاء الثلاثة السابقين عليه ، كما لا يوافقون على الجزء التقليدى فى الاسلام ، والسلطات التى يفرضها، وهذا الجزء هو الذى يتمثل فى أقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم) • وأعماله ، تلك الاقوال والافعال غير المدونة عنه مباشرة • والشعائر الجنائزية التى ذكرناها تعتبر مفتاحا لكل جوانب حياتهم منذ أن قتل الامام الحسين بن على بايدى المتعصبين من المسلمين Orthodox Muslim ذلك أن هذه الشعائر تؤدى — مع غيرها — دورا فى تأكيد معارضتهم لبعض الجوانب التقليدية فى الاسلام •

ولقد ظل اجمالى عدد السكان فى كرمان ثابتا عند (٤٠ر٠٠٠) اربعين ألف نسمة تقريبا وكان التوازن السكانى — كما يشير انجلش — هو السمة الغالبة على كرمان فى القرن التاسع عشر ، ولو أن الامر لم يعدم وجود هجرات محدودة من المدينة او اليها ، مع قدر قليل من التنقل الاجتماعى (٤٣) خاصة اذا قورنت بالتغيرات التى حدثت فى المجتمع الحضرى المصرى بحلول عام ١٩٠٠ ، حيث يتضح أن هذه المدينة الصغيرة ذات السوق المحدودة (كرمان) لم تمسها تيارات التغير الكبرى فى القرن التاسع عشر ، ومن الواضح أن حياة الفرد فى مدن الشرق الاوسط فى عصر ما قبل الصناعة كانت تتركز أساسا فى الاسرة ، والقبيلة ، والدين ، ووسائل كسب الرزق ، وأن أهمية جماعات مثل الاسرة ، والقرابة ، تعتبر عامة فى معظم المجتمعات الحضرية فى عصر ما قبل الصناعة أما الامر الاعم فكان يتمثل فى تجمع عدد من السكان ، وترابطهم على أساس المذهب الدينى ، أو القبيلة أكثر من ترابطهم على أساس الطبقة وكان الدين بشكل خاص هو الطابع المميز للمدينة فى الشرق

---

(٤٣) English, op. cit., pp. 99 - 101.

الاوسط ، فتاثيره فى الاسرة كان واضحا ، وكذلك فى علاقات الافراد ، والشكل الفيزيقى للمدينة ، ونمط الحكومة الحضرية . والبناء السياسى للمدينة ، وحتى فى المعاملات التجارية ، حيث كانت تحكمها مجموعة من القواعد الدينية والخلقية · أما بالنسبة لاهمية الاسرة ، والقبيلة فهذه يمكن فهمها من خلال تاثير حياة البداوة والترحال على مجتمعات الشرق الاوسط ، وما شكلته من أنماط للحياة فى الصحراء ، وما تفرع عن ذلك من اثار على الحياة فى القرية والمدينة ·

أن كلا من جوانب الحياة الحضرية التقليدية ، سوف يعرض فى الفصول التالية ، حيث نتناول بالدراسة كيف تغيرت هذه الحياة ، وكيف أثرت فى الحياة الحضرية فى الوقت الراهن · فمن المعروف انه منذ القرن السادس عشر وما تلاه تغير الاطار الاقتصادى ، والتجارى الذى كان سائدا فى مدن الشرق الاوسط : واول ما تجدر الاشارة اليه هو تطور العلاقات التجارية بين المدن الكبرى ، تحت تاثير التوسع الاوربى · فعلى مدى ثلاث قرون أو يزيد كانت هذه العلاقات التجارية تعانى من الانكماش المستمر ، رغم أن العلاقات بين المدن ومناطق ظهيرها الزراعى لم تتغير بدرجة كبيرة · وقد استمرت الوظائف الادارية ، والمحلية ، وشئون السوق ، والحج على ما هى عليه · ومع ذلك فخلال القرن التاسع عشر بدأت وظائف كثير من مدن الشرق الاوسط تتغير بشكل جذرى ، ذلك لان المشروعات التجارية الاوربية ــ تدعمها الاحتياجات المتزايدة للثورة الصناعية ــ أخذت تنظر لمناطق الظهير الزراعى نفس نظرتها للمدن ·

وعندما تغير البناء الاقتصادى للمدينة والدولة ، تغير كذلك البناء الاجتماعى ، وصاحب ذلك بحث جديد للمجتمع بواسطة مفكرى الشرق

الاوسط وقادته فى اتجاه يبدو مناهضا للتسليم لفكرة التنظيم الالهى للامور · وسوف يوضح الفصل التالى كيف ان مدينة الشرق الاوســـط الحديثه قد قامت على نسق من العلاقات الاقتصادية ، والسياسية الواسعة وغير الاسلامية · كما يتناول هذا الفصل بعض الاثار الاجتماعية الناتجه عن ذلك فى مجال عملية التحضر ·

الفصل الثالث

النمو الحضرى الحديث (*)

ان الغرض من هذا الفصل هو دراسة العوامل الاساسية المسئولة عن التحول فى طرق الحياة ، وعمليات التحضر من نمط المدينة الاسلامية السابقة على الصناعة الى المدينة الحديثة • ولقد حدث هذا التحول فى القرن التاسع عشر • ولم يحدث نتيجة لتطور طبيعى لمدينة العصور الوسطى المتأخرة ، ولكنه أبعد من ذلك حدث نتيجة للغزو الاوربى الاجنبى وقد حدث التغلغل الاوربى فى البداية من خلال التجارة ولكنه بعد ذلك حدث من خلال الغزو العسكرى المباشر • وقد كانت مصر أول دولة تتعرض للغزو العسكرى عام ١٧٩٨ (الحملة الفرنسية بقيادة نابليون) ، كذلك كانت مصر أول دولة تساق الى الارتباط بالنظام الاقتصادى العـــالمى الجديد ، بينما بقيت بعض الاقطار العربية دون غزو عسكرى أوربى حتى بداية القرن العشرين . وفى نفس الوقت ظلت بعض الاقطار مستقلة بشكل اسمى فقط • وخلال القرن الحالى شجعت كل دول الشرق الاوسط عملية نقل التكنولوجيا الغربية ، والنظم الغربية ، فضلا عن نقل جهود هذه الدول فى تحديث الدولة والمدينة • وعندما تغير المناخ التجارى والصناعى والتقنى ، تلا ذلك حدوث تغيرات أخرى ، من أهمها النمو الســـكانى الحضرى ، ذلك الذى بدأ بطيئا فى مراحله الاولى ، ولكنه تزايد تدريجيا بعد ذلك ، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية • أما الجزء الاخير من هذا الفصل فهو يعالج النمو الحضرى فى الشرق الاوسط ، كذلك النمو

(*) قام بترجمة هذا الفصل والتعليق عليه الدكتور / عبد الهادى محمد والى •

الاقتصادى فى اطاره الواسع ، مع توضيح كيف ان ذلك النمو كان امرا عاما بالنسبة للاجزاء الاخرى من العالم الثالث ٠

القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين :

خلال القرن التاسع عشر تغير البناء الاقتصادى لكثير من دول الشرق الاوسط من اقتصاد قائم على الاكتفاء الذاتى فى متطلبات المعيشة الى اقتصاد موجه للتصدير ومرتبط بالاقتصاد الصناعى الموجـــود فى أوربا ٠ وامريكا ٠ وفى غياب الثروات المعدنية ـ قبل اكتشاف البترول فى السنوات السابقة على الحرب العالمية الاولى ـ كان هناك تاكيد متزايد على تنمية الموارد الزراعية ٠ وقد اتسع نطاق الارض الزراعية بعـــد احياء قوانين تنظيم الرى ، كما حدث فى سوريا والعراق ، أو بناء مشروعات جديدة للرى كما حدث فى مصر ٠ وكذلك ادخل نظام الزراعة من اجل البيع النقدى ، وادخلت تحسينات على هذا النظام ٠ وقد بذلت محاولات جادة فى مجال التنمية الصناعية من جانب بعض المستثمرين المصريين ، ولو أن بعضها كان عقيما ٠ ولذلك عانت فئة الحرفيين الوطنيين من عملية استيراد البضائع المصنعة من أوربا ٠ واضافة على ذلك ساهم رأس المال الاوربى فى توفير متطلبـــات البنية الاساسية للتنميـــة الاقتصادية فى صورة تصدير ، وتيسيرات حضرية ، مثل الامداد بالغاز، والماء، والكهرباء خاصة فى المدن الكبرى ٠ وكانت عمليات التمويل والتجارة فى معظمها فى أيدى رجال الاعمال الاجانب (١) ٠

وحينما بدأ رجال الاعمال الاوربيين نشاطهم ، وتزايد الاهتمام باستيراد جميع السلع الصناعية كانت الاثار المترتبة على ذلك خسارة لكثير من نقابات الحرفيين فى مصر ، والامبراطورية العثمانية ٠ وقد كان

Issawi, op. cit., pp. 9 - 11.

الاتجاه المحافظ لدى هذه النقابات قويا الى الحد الذى يسمح بالمحافظة على بقاء الامبراطورية بعيدة عن التيارات الرئيسية للتنمية الصناعية الاوربيـــة ٠

ولكن بمرور الوقت تم الغاء النقـــابات رسميا فى عام ١٨٦٠ ، وكانت هذه الخطوة غير ذات اثر فى حفز عملية التصنيع وتشجيعها (٢) وقد شهدت مصر فى نفس الوقت معدلات كبيرة للتغير ، لذلك فانه عندما تغير البناء الصناعى تبعه تغير اخر فى البناء الادارى ٠ وقد تمثل هذا التغير الاخير فى اعفاء مشايخ الاحياء من وظائفهم المالية ، والامنية وتحولت هذه الوظائف ـ الى جانب الوظائف التنظيمية للنقابات ـ لتصبح ضمن مسئوليات او سلطات الحكومة المركزية واداراتها المختلفة ، ومن هنا ظهرت طبقة جديدة واثرت على البناء الاجتماعى فى المدن المصرية ٠ وأبعد من ذلك بدأت الاحياء نفسها تفقد اهميتها كوحدات اجتماعية ، حيث أصـــبح التضامن بين سـكانها ضعيفا بفعـــل ظهـور اللاتجـــانس Heterogeneity بينهم ٠ ومع أن هناك أحياء بأكملها كان يسكنها مسلمون الا إن الناس من كل الاديان بدءوا فى الاندماج والمعيشة معا فى نفس الحى ٠ ومن ناحية أخرى بدأت مشاعر العداء ، والكراهية بين الجماعات التى تقيم فى حى واحد تزول بشكل كبير خلال القرن التاسع عشر ٠ ومع ذلك ظلت التنظيمات الدينية المحلية فى المجتمع الحضرى المصرى تحتفظ بحيويتها كوحدات اجتماعية ، شأنها فى ذلك شأن النقابات ، والاحياء وظلت تبدو كما لو كانت أجهزة ادارية ، تستبعد من مهامها الوظائف الدينية التى كانت تقوم بها مجتمعات الاقليات ٠ ومع ذلك لم تكن هذه التطورات مرضية بالنسبة لرجل الدين ، فقد حرموا من العـــائدات

---

(٢) Herschlag, op. cit., pp. 21 - 22.

التى كانوا يحصلون عليها من جمع الضرائب الزراعية . وفقدوا بسرعة الاهمية التى كانوا يحظون بها ، وظلت هذه الاهمية على ما هى عليه فى المجال الاخلاقى (٢) .

وقد تاثرت العلاقة بين الريف والحضر ، بفعل نمو السوق المحلية فى الشرق الاوسط ، وقد ناقش هاريك Harik التغيرات التى حدثت فى مجال العلاقات بين الريف والحضر ، وتوصل الى سؤال حول ما اذ كانت المدينة تهيمن على المجتمع الريفى من خلال النمط الراسمالى القائم على الايجار ، والذى شرحه انجلش فى مجال حديثة عن مدينة كرمان فى الفترة السابقة على القرن التاسع عشر ٠٠ ؟ فقبل هذا القرن كان اقتصاد الكفاف Subsistence economy، يقوم على اساس ملكية الدولة للارض الزراعية، بينما كا المزارعون ، ومشاهير القرية لهم الحــق فى استثمار الارض أو الانتفاع بها • وهذا الحق يتضمن أنهم يستغلون الارض دون تغيير جوهرها ، فهو انتفاع فقط • وفى الاقتصاد الريفى الذى لم يعرف المنافسة كانت الارض مملوكة لمجتمع القرية ، وليس للافراد ، فكان شيخ القرية يدير الارض • ويتعامل مع الفلاحين المستاجرين • وفى زمن الامبراطورية العثمانية ، والفارسية كان المستأجرون يزرعون الارض ، دون أن تكون لهم حقوق ثابتة ، وكان العائد يحصل للدولة مباشرة • ولم تكن الارض تورث للاسلاف ، ثم ان المحاصيل كانت من أجل الاستهلاك المحلى ، وعلى هذا كانت المدينة والقرية على حد سواء مكتفية ذاتيا • وكان من الممكن للقرية أن تبيع المدينة أى فائض لديها • ولكن فى معظم الحالات كانت الحاصلات تنقل من القرية للمدينة فى صورة سداد لضرائب او ايجار اكثر من كونها عملية تجارية أو تبادلية • وكانت الفواكه والخضروات التى

---

(٢) Baer, G. Studies in the social history of modern Egypt, Chicago, 1969, pp. 216 - 220.

لا يمكن تصديرها تنمو فى المدينة أو على مقربة منها • ولذلك نجد أن أكثر من نصف سكان القاهرة كان لا يزال يعمل بالزراعة حتى منتصف القرن التاسع عشر (٤) • وايضا استمر (١٣٪) من سكان كرمان يعملون بالزراعة حتى عام ١٩٥٦ (٥) •

وقد تأثرت شرائح البدو الرحل سواء فى المدن او القرى فى الشرق الاوسط بظهور التجارة مع اوربا فى هذه الفترة ، حيث غامر التجـــار الاجانب بالدخول الى المناطق الريفية من أجل شراء فائض الانتـــاج الزراعى نقدا ، متخطين فى ذلك تجار الجملة فى الموانى ، وأسواق المدينة• وادى النمو السريع للسوق المحلية الى احياء بعض الامصار Towns الاقليمية ، بأن اضاف الى وظائفها السابقة وظائف جديدة فى المجـــالات الادارية ، أو العسكرية ، كما ادى الى نمو السوق وظهور مدن صغيرة (امصار) جديدة ، فضلا عن النمو فى حجم واهمية كثير من الموانى • ويرجع انكماش حجم الســـكان فى بعض المدن الرئيسية الى تدهـور الصناعات والحرف الوطنية • ثم أن عنصر المنافسة قد دخل مجال الاقتصاد الريفى ، بحيث أعطى للارض قيمة نقدية اسهمت فى دخول مبدأ الملكية الفردية للارض الزراعية (٦) • وقد اهتمت سياسة الدولة بمنح التاييد والدعم لمشايخ القبـــائل الذين كانوا شغوفين باستخدام حق الانتفاع الجماعى للارض •

---

(٤) Abu - Lughod, Varieties of urban experience: Contrast, Coexistence and Coelescence in Cairo, in middle eastern Cities (ed.) L. M. Lapidus, Berkelev and los Angeles, 1969. p. 164.

(٥) English, op cit., p. 71.

(٦) Harik, I. H. The Impact of the Domestic Market on Rural - Urban Relations in the Middle East, (ed.) R. Antoun and I. Harik, Bloomington. ind. 1972 p. 379.

ولكن مجتمعات القرى والبادية بدأت تتغير وفقا [illegible]

الى [illegible] الاقتصادية [illegible]

المتمثل [illegible] الحضرى [illegible]

وكانت المراحل الاولى للتحديث فى الشرق الاوسط [illegible] التى [illegible]

نموا فى علاقات السوق المحلية بسوق التصدير الخارج من ناحية ،

وعلاقتها بالتغيرات فى أسواق السلع العالمية ٠ وهنا أصبحت النقود هى

الوسيلة العالمية للتبادل ٠ ودخلت طبقة رجال الاعمال والتجار او

المستثمرين Entrepreneurs الى مجال الاقتصاد الريفى ، سواء كمنافسين

أو متضامنين مع الدولة ٠ اما المدن الصغيرة (أو الامصار) خاصة

فى الاقاليم فقد بدأت تؤدى دورها كسوق لتجارة الجملة بالنسبة لمناطق

الظهير الزراعى ، وكذلك كمراكز ادارية للحكومة المركزية ، التى أصبحت

مسئولة عن الجيش الحديث ، والبيروقراطية المركزية ٠

ولقد ظهرت نتائج هذه التغييرات فيما حدث من تحول فى انماط

الموقع والحجم والبناء الداخلى للمدن فى الشرق الاوسط ٠ وبالمقارنة بانماط

للموقع الحضرى التى وجدت فى القرون السابقة ، كان هناك تغير من

حيث تزايد الاتجاه للمناطق الساحلية استجابة لمتطلبات التصدير ، وفى

ضوء الامكانيات التى وفرتها التحسينات السريعة فى وسائل الاتصال

العالمية ٠ فقد ادى ظهور السفن البخارية ، وخطوط السكك الحديدية والتى

امتلكتها الدولة فى المجتمعات الاوربية الى تعميق التكامل بين المدن التى

تخدمها ، وبين الاقتصاد العالمى ٠ فالموانى البحرية على شواطىء البحر

الابيض المتوسط قد أخذت فى النمو الوئيد فى النصف الثانى من القرن

التاسع عشر ٠ بينما أدى افتتاح قناة السويس ، واقتحام بريطانيا [illegible]

التأسيس الى تشجيع نمو موانى مثل جدة Jeddah ، عدن Aden

[illegible], op. cit., pp. 62 - 78.

والبحرين Bahrein وخورام شهر Khorram Shahr • ويرجع جزء من النمو السكانى لمدن الموانى الى هجرة عدة الاف من السكان من بلاد مثل الهند واندونيسيا ، والصومال الى مناطق الموانى العربية • وكمثال على ذلك نجد أن أكثر من ربع سكان الاسكندرية وبور سعيد ــ فى مصر ــ كان من الاجانب (٨) •

ومع ذلك فقد كان المعدل الكلى للنمو الحضرى بطيئا ، فقد كان الارتفاع فى معدلات الزيادة فى مدن الموانى يتعادل تقريبا معه فى المدن الصغرى ، وكانت الحرف التقليدية اخذة فى التلاشى من المدن دون أن يصاحب ذلك زيادة فى مجال الصناعات الحديثة (٩) • وربما كان ذلك من الاسباب الكامنة وراء عدم حدوث زيادة سريعة فى هذه المدن • فقد كانت مدن مصر الكبرى وعددها (٢٩) مدينة تشتمل على (٠٠٠ر٤٠٠) أربعمائة الف نسمة فى عام ١٨٢١ ، (٠٠٠ر٥٩٦ر١) نسمة فى ١٩٠٧، ولكن نصيبها فى الحجم الكلى للسكان فى مصر ارتفع فقط من (٥ر٩٪) الى (٣ر١٤٪) (١٠) وفى سوريا التى كانت قد شهدت تحضرا فيزيقيا

---

(٨) Issawi, C. Economic change and urbanization in the Middle East. in : Middle Eastern Cities ed. L. M. lapidus, Berkeley and los Angeles, 1969 pp. 108 - 109.

(٩) Ibid, pp. 109 - 111.

(١٠) أى أن اجمالى حجم السكان فى الحضر قد تضاعف حوالى أربعة أضعاف ، ولكنه لم يتضاعف بهذه الصورة اذا نظرنا اليه فى ضوء نسبة السكان الحضر الى اجمالى عدد السكان • وهذا يشير الى انه كانت هناك معدلات زيادة أخرى فى الريف قريبة من معدلات الزيادة فى الحضر • ولولا ذلك ما كانت الزيادة العددية تصل الى حوالى (٤٠٠٪) بينما نسبة سكان الحضر لاجمالى سكان الدولة لم تتجاوز (٠ر٥٠٪) (المترجم) •

عاليا قبل القرن الثامن عشر بوقت طويل ، كانت تشمل حتى ما بين (٢٠ ــ ٢٥٪) من أجمالى سكانها الذين يعيشون فى مدن حجمها أكثر من عشرة الاف نسمة • هذا بينما نجد أن نسبة سكان المدن فى العراق لم تتغير تقريبا فيما بينعامى ١٨٦٧ ، ١٩٣٢ ، فقد كانت تتراوح بين (٢٤ ، ٢٥٪) (١١) وتشير التقديرات السكانية فى ايران الى أن جملة سكان الحضر يمثلون (١٥٪) من جملة السكان البالغ عددهم (٠٠٠ر٦٤٨ر١٣) مليون نسمة ، يعيشون فى مدن يزيد حجمها على (٠٠٠و١٠) الاف نسمة فى عام ١٩٢٧ •

أى أن البناء الاجتماعى الداخلى ، والشكل الفيزيقى لبعض المدن كان يشهد عملية اعادة صياغة مع نهاية القرن التاسع عشر ، فشهدت بعض المدن بداية نمو ضواح Suburbs صغيرة ، خارج حدود المدينة الاسلامية العتيقة ، ولهذا فان بداية التغير فى مدينة ما قبل الصناعة ، قد تمثلت بوضوح فى الامتداد من مواقعها ، وخارج أسوارها الى المواقع الجديدة، حيث تلاشت الحدود القديمة ، وامتدت المدينة الىالمناطقالريفية المحيطة بها•وحيثأن التاثير الغربى كان واضحا على المناطق الساحلية فى الشرق الاوسط، فانالنتيجة قد تمثلتفى أن المدن الساحلية *Coastal Cities* كانت جاهزة لاستيعاب أناس من خارجها ، ولذلك مالت للتغير بشكل سريع قبل المدن الداخلية • وان النمط العام للمدينة القديمة متضمنا ما نشأ حولها من ضواح جديدة وما بدأت تقوم به من وظائف جديدة كان أمرا واضحا فى معظم الحالات • وعلى ذلك فان الدراسات الثلاث التالية والخاصة بمدن ساحلية أو قريبة من الساحل سوف تبين ان هناك مجموعة من الشواهد المتنوعة التى تعتمد على سمات المدينة ، والدولة التى تنتمى اليها • كما ان هناك اختلافات فى الوظائف المتخصصة التى انيطت بالمدينة الحديثة • كما توضح هذه الدراسات مدى الفروق بين أنماط المدن

---

(١١) Issawi Ibid, p. 108.

الاوربية التى أحدثت تأثيرا على كل من هذه المدن ، وتوقيت حدوث هذا التغير ٠

عبدان : مدينة ذات شركة صناعية :
Abadan: An industrial company town

تقع هذه المدينة فى جزيرة عبدان على الشاطىء الايسر لشط العرب Shatt Al - Arab (و نهر قارون Karun River) عند راس الخليج الفارسى. وقد قامت شركة البترول الانجليزية ـ الفارسية Anglo Persian oil company بانشاء المدينة الحديثة وسميت هذه الشركة مؤخرا « الشركة الانجليزية الايرانية للنفط » ٠ وقد حصلت على حق الامتياز فى عام (١٩٠١) ، حيث كان لها حق استخراج وتصدير ، وتكرير النفط عبر منطقة واسعة فى الاراضى الايرانية ٠

وبعد انتاج البترول فى عام ١٩٠٨ تم انشاء خط أنابيب من داخل الحقول الى عبدان ، حيث تم بناء أكبر مصفاة لتكرير النفط ، وأكبر ميناء بترولى فى العالم فى نفس الوقت ٠

وقد استقر فى عبدان بعد ذلك عدد كبير من العمال خاصة من قبائل بختيارى Bakhtiari التى كانت تقيم فى المناطق المحيطة بعبدان ٠ وقد فوضت شركة البترول شركة كوستيان Costain فى بناء عدد ضخم من الاحياء السكنية والمصفاه ، والميناء ٠ وقد اشتملت المدينة فى عام ١٩٣٧ على (٦٠٠٫٠٠٠) ستمائة الف ايرانى ، (٩٥٠) وتسعمائة وخمسين أوربيا (١٢) ٠

وكانت الشركة والمدينة عبارة عن مشروع رائد ، على اعتبار أنها

---

(١٢) Admiralty, Handbook for Persia, London. 1945 pp. 496 - 508.

تلائم بشكل خاص دولة تشهد نموا اقتصاديا سريعا ، ثم ان المدن الصناعية التى تقوم على الصناعات الاستخراجية Extractive مثل عبدان ، يغلب عليها كونها أدوات التقدم الاقتصادى وتهدف الى فتح افاق جديدة لم تكتشف من قبل ، بينما كانت المدن القائمة على أساس صناعة السلع يغلب عليها كونها أدوات للتقدم الاجتماعى ، الذى يهدف الى الارتقاء بالعامل وتشكيله من خلال المثل الاجتماعية الدينية Socio - riligious Ideals للحضارة الصناعية (١٣) . ولقد كان الهدف من انشاء عبدان هو تصفية ، وتصدير النفط ، وليس الارتقاء بمستوى العامل . ويشرح لنا « أدميرالتى Admiralty » فى كتاب صدر له عام ١٩٤٢ الاسلوب الذى يتم به تقسيم الاحياء السكنية بطريقة تنفصل بين العمال المهرة — ومعظمهم من الاوربيين — وبين العمال غير المهرة . وقد قامت شركة كوستيان ببناء الاحياء السكنية بحيث تطوق المصفاة بين الشرق والغرب . ففى الشرق توجد مساكن الايرانيين الاهليين ، حيث كانت توجد « قرية عبدان Abadan Village على مقربة من روافد الميناء . وكانت هذه القرية غير منظمة ، ومزدحمة بالسكان . ولكن وجد على الشمال منها حى احمد اباد Ahmadabad وهو حى جديد ذو شوارع مخططة بطريقة الزوايا القائمة ، وذو منازل تم بناؤها حول الساحات التقليدية .

وقد استوطن كثير من العمال — خاصة المهاجرين والهنود — فى هذا الحى . والانطباع العام الذى يمكن ان تخرج به عن حى احمد اباد الان هو انه وحدة تشبه ثكنة عسكرية . والى الغرب من المصفاه ، وجدت منازل الاوربيين والمتاجر المحلية ، ودور السينما ، والنوادى وحمامات السباحة ، واراض للعب . اما الضاحية فقد كانت تقع الى الخارج وبها

---

(١٣) Porteous, J. D. The nature of the company Town, transactions of the Institute of British Geographers, 51 (1970) pp. 127 - 192.

طرق متسعة ، ومناطق للمرور ، وهى شبيهة الى حد كبير بالضواحى المعاصرة فى انجلترا ٠

وقد نمت فى الحدائق أشجار الطلح (السنط) Acacias والنخيل ، وقد أقيمت حول هذه الاشجار أسوار من أجزاء من نبات الحناء لحمايتها من الشوارع ٠ ومن أن أسقف المنازل كانت مسطحة ، الا أن الحوائط كانت سميكة الى الحد الذى يحقق عزلة المنازل ٠ اما المنازل فكانت تتفق مع النمط الانجليزى من الداخل ، من حيث الابواب المصنوعة من الخشب السميك ٠ وذات الايدى النحاسية المستديرة ، وتركيبات الحمام المصنوعة من الخزف أو الصينى ٠ ورغم أن بالمدينة أكبر مصفاة فى العالم ، فان كل منزل كان يشتمل على مدفئة تعمل بالفحم ، حيث تبلغ درجة الحرارة سبع درجات مئوية فى شهر يناير ٠ وقد اختلف حجم كل منزل وفقا لمكانة سكانه ، ولكن الجميع كانوا يميلون دائما لحب الحدائق ، الحرص على وجود طباخ ، وسائق ، وخادم وغير ذلك من عمال الخدمات الذين كانوا يعيشون فى قرية عبدان الى الخلف من الحى ، كل هذا بالاضافة الى ان الرواتب العالية قد مكنت العمال والموظفين الاوربيين من أن يتعايشوا أو يتوافقوا مع أساليب لم يسبق لهم أن تعودوا عليها فى بلدانهم الاصلية ، والى حد ما أدت هذه الميزات دورها فى تعويضهم عن مشاعر الاحباط التى احسوا بها عند معيشتهم فى عبدان ٠

مصراتة : مشروع استعمارى ايطالى :
Misurata: Italian Colonial enterprise

والمثال الثانى يشير الى اثار الاحتلال العسكرى المباشر ، والحكم الاستعمارى الاوربى لبلدة مصراته فى ليبيا ٠ تقع المدينة الى الشرق من سلسلة من الواحات الموجودة غرب ليبيا ٠ وكانت مركزا هاما لقوافل التجارة عبر الصحراء حتى النصف الثانى من القرن الثامن عشر حيث

كان التصدير يمثل وسيلة سهلة واقل تكلفة لنقل البضائع بين اوربا وغرب افريقيا • لقد اضطر سكان مصراته الى العمل على اعادة تنمية مناطق الظهير الزراعى المحلية من اجل متطلبات المعيشة • وفى نفس الوقت أصبحت أعداد من البدو الرحل تميل للاقامة الدائمة فى منطقة مصراته ، وكان فائض المحاصيل التى تنتجها المزارع الجديدة يباع فى المدينة ،الامر الذى ادى الى تزايد تاثيرها اعتبارها سوقا ومركزا للخدمات فى نفس الوقت • وكانت المدينة تتالف من خليط عادى من المساكن العربية ذات الفناء الواسع ، وتشتمل على سوق • وعندما قام الحكم العثمانى بتصميم هذا السوق ليصبح مركزا اداريا ، قام فى نفس الوقت ببناء عدد من الثكنات العسكرية (١٤) •

— وهذه التغيرات محدودة اذا ما قورنت بتلك التى ظهرت بعد غزو ليبيا فى الفترة من ١٩١١ — ١٩٣٢ من جانب الايطاليين ، حيث أعلنت مصراته كعاصمة اقليمية وأصبحت مركزا للخدمات الاقليمية التى تقدم لعدد من المستوطنات التى نمت محليا لخدمة الاستعمار الايطالى • وقد شرح ج بلاك G. Black كيف تم بناء عدد من المرافق والخدمات الاجتماعية والاقتصادية ، والفيزيقية ، والتى تضمنت مستشفى ، وفندقا ، ومدارس وسينما بالاضافة الى عدد من البنوك ، مذبح (سلخانة) Staughter house ولقد عمل سكان مصراته الاصليون فى وظائف العمال ، بل تم تجاهلهم ولم يكن يقم لهم وزن فى خطط موسولينى • ومن هنا ظهر حى أوروبى توجد به كنيسة خاصة كما هو الحال فى عبدان • وقد بذلت جهود لتجميل المدينة الجديدة ، ولكن على النمط الايطالى ، وغطيت الشوارع بالاسفلت، كذلك صممت حديقة عامة . وشوارع على جوانبها صفوف من الزهور

---

(١٤) Black, G. H. Misurata: Amarket Town in Tripolitania, Department of Geography Research Paper Series, No. 9. University of Durham 1968.

والنباتات البيضاء ، والصفراء • وفى نفس الوقت لم تشهد المدينة القديمة جهودا للتحسين • ومع نهاية الاحتلال الايطالى فى الحرب العالمية الثانية كان عدد سكان المدينة قد بلغ عشرة الاف نسمة • وباختصار كان التأثير الايطالى على مناطق الزراعة اوضح منه على المدينة ذاتها ، لان سكان مصراته الاصليين قد غادروها الى بنغازى ، وطرابلس ، أو الى خارج الحدود ليعودوا بعد ذلك في اعداد كبيرة ، خاصة حينما بدأ الرخاء الاقتصادى غداة اكتشاف البترول فى عام ١٩٦٠ (١٥)•

طرابلس : نمو طبيعي : Tripoli: Indigenous growth

ويختلف نمو مدينة طرابلس فى لبنان خلال الفترة الاخيرة من القرن الاخير من القرن التاسع عشر ، فى أن النشاط التجارى كان محليا بالدرجة الاولى • وقد كان للمدينة تاريخ فى التجارة الدولية حيث ادت دورها كميناء حلب فى بداية عصر الامبراطورية الرومانية ، ولكن فى عام ١٦١٢ قام الباشا — وهو الحاكم العثمانى لمدينة طرابلس — بدفن التجار الفرنسيين — الذين كانوا يقيمون فى المدينة — احياء ، وذلك لسلب أموالهم وقد كان هذا العمل المتطرف عاملا معوقا للتجارة الاوربية لبعض الوقت ، ومع انه كان هناك عدد كبير من التجار الفرنسيين ، وغيرهم من التجار المقيمين فى المدينة فى القرن السابع عشر ، والثامن عشر ، الا أن طرابلس قد نالها نصيب من التدهور العام الذى حدث فى الشرق الاوسط فى هذا الوقت • وقد بدا التاثير الاوربى على طرابلس منذ منتصف القرن التاسع عشر ، فكانت المدينة تضم سكانا يهودا ومسيحيين وطنيين لعدة

---

(١٥) Biake, G. H. Marketing in the Misurata Region of Libya: Tradition and Change; Paper Presented at the Annual Conference of the Institute of British Geographers, Oxford, 1975.

قرون ، ولكن منذ منتصف القـــرن التاسع عشر أصبح المسيحيون هــم المستفيدون الاصليون بعدد من المشروعات الغربية فى مجالات التعليم ، كالمدارس والكليات التى كانت قد بنيت ، سواء فى ذلك مدارس الروم الكاثوليك ، أو البروتستانت الامريكيين (١٦) ·

ومن هذا الوقت كان معظم سكان طرابلس من المسلمين السنيين · ولكن كان هناك يهود مسيحيون وطنيون يعيشون فى أحياء خاصة بهم · وكان معظم المســيحيين من الارثوذوكس الشرقيين · أما العــائلات الارستقراطية المسيحية ، فقد كانوا تجارا فى الاساس وكانوا على علاقة وثيقة بالمجتمعات التجارية فى انطاكية Antioch واللاذقية Latakia والاسكندرية : أما العائلات الآرستقراطية المسلمة فقد كونت ثروتها أساسا من ممتلكاتها فى الظهير الزراعى ، والحدائق الموجودة داخــل المدينـــة (١٧) ·

وقد تزايد عدد السكان فى طرابلس بين عامى ١٨٣٠ ــ ١٩١٤ حيث تغير من خمسة عشرة الف نسمة الى خمسين الفا (١٨) ، وذلك على الرغم من الهجرة الجماعية من لبنان تلك التى حدثت فى نفس هــذه الفترة ، كذلك رغم التدهور الذى حل بطرابلس على عهد الادارة العثمانية ولكن الذى ساعد على النمو السكانى هو إنتاج المحصولات ذات القيمة النقدية فى مناطق الظهير الزراعى ، من أجل أغراض التصدير ، خاصــة الحرير ، وزيت الزيتون ، والتبـــغ ، والقمح ، والموالــح · وقد أدت التحسينات التى أدخلت على وسائل الاتصال الى احداث تحول فى اتجاه

---

(١٦) Gulick, J. Tripoli: A modern Arab City, Cambridge, Mass, 1967, p. 29.

(١٧) Ibid, pp. 27 - 30.

(١٨) Issawi, op. cit., (1966), p. 210.

اقتصاد السوق ، والى احياء دور المدينة كميناء داخلى لسوريا • ففى عام ١٨٩٥ انشئت وصلة للسكك الحديدية الى دمشق ، بواسطة شركة السكك الحديدية الفرنسية • وفى عام ١٩٠٩ تم انشاء طريق جديد للنقل يربط طرابلس ببيروت • وفى عام ١٩١١ قامت شركة السكك الحديدية الفرنسية أيضا بربط حلب ، وحمص Homs بطرابلس • وفى عام ١٩١٠ دخلت هذا الميناء ٢٦٠٥ سفينة (١٩) •

ولقد كانت اثار التوسع التجارى المبكر على البناء الاجتماعى ، والفيزيقى لمدينة حلب اثارا متنوعة ومتعددة • فحينما أنشىء خط الترام الذى نجره الخيل ، والذى يربط المدينة بالميناء ، ويمتد لثلاثة كيلو مترات ، اتجهت مجموعة من الاسر ذات الثراء لبناء منازل جيدة ، وحديثة بين الحدائق والبساتين الممتدة على الطريق ، وذلك بغض النظر عن تحذيرات أولئك الذين قالوا بأن السكنى خارج أسوار المدينة تعرض الانسان لمخاطر قطاع الطرق ، والقتله • وفضلا عن ذلك انشىء المزيد من الطرق الداخلية بين الميناء ، وحوله ، بحيث تلتقى هذه الطرق بالمدينة القديمة • وبعدد كبير من المبانى العامة ، والفنادق الحديثه ، والمنازل الواسعة • كما امتدت المدينة الى خارج أسوارها ، فى اتجاه الطريق الى سوريا ، حيث نمت ضاحية تقليدية حول مركز توزيع الخضروات بالجملة ، ومن الوقائع التى سجلها بيديكر Baedecker عام ١٩١٢ - (ومن المهم أن نشير الى ان لبنان شأنه شأن مصر كان فى طريقه الى جذب السياحة الدولية بأسلوب تجارى) - وجود أربعة عشر مسجدا ، وأربع عشرة كنيسة ، ولما كان المسيحيون يشكلون خمس السكان فقط ، فان هذا العدد الكبير من الكنائس كان يحسب على أساس تعدد الطوائف المسيحية ، بنظمها الدينية المتعددة • وقد تم الابقاء على نمط المدارس

---

(١٩) Gulick, op. cit., (1961), p. 27.

الاجنبية التى وجدت فى القرن التاسع عشر مع نقلها الى مناطق فسيحة وعامة فى الضواحى • وقد ادت المميزات التى جلبتها هذه المدارس للمجتمع المحلى ، الى حصوله على أكبر قدر من عائدات نمو الحركة التجارية بالمدينة ومع نشوب الحرب العالمية الاولى كان معظم سكان طرابلس لا زالوا يعيشون فى المدينة القديمة ، وقد كان المسافرون اليها يرون أن مظاهر العصور الوسطى لا زالت باقية فيها ، فلم تكن تتمتع مثلا بوجود الكهرباء، والميـــاه النقيـــة •

النمو الحضرى الحديث : Modern Urban Development

شهدت الحرب العالمية الاولى انهيار الامبراطورية العثمانية ، وبداية مرحلة من عدم الوحدة فى الشرق الاوسط ، واستمرت هذه المرحلة الان• ولقد كان يمكن أن تنهار الامبراطورية بشـــكل كامل ، وتتســلم القوى الاوربية المنتصرة أجزاءها المختلفة ، ولكن تركيا رفضت مبدأ التقسيم، وواجهت الاهانة التى لحقت بها ، باصلاح داخلى صارم تحت قيـادة كمال اتاتورك Kemal Ataturk الذىتحطلمن اىدور اوالتزام فىالشرق الاوسط • وقد كانت فارس التى سميت الان « ايران » ، والسعودية ، ومصر ، واليمن دولا مستقلة ، ولكن بريطانيا طبقت ميثاق أو معاهدة الوصاية الخاصة بادارة بعض البلدان التى كانت تحت الحكم العثمانى ، وهى فلسطين ، وشرق الاردن Transjordan ، والعراق ، بينما فرضت فرنسا الوصاية على سوريا وقد تحقق الهدف النهائى من الوصاية . وهو الاستقلال الكامل عام ١٩٣٢ فى العراق ، ١٩٤٥ فى سوريا ، ومن عام ١٩٤٨ ووسط أحداث بالغة العنف قسمت فلسطين الى دولتى اسرائيل . والاردن وقد ظهرت قومية محلية مسلحة اعتبارا من ميلاد هذه الدول الجديدة ، تماما كما حدث بالنسبة للمثاليات الخاصة بالاصلاح الاجتماعى فى أوربا ، وكذلك نشأت المشروعات الاقتصادية الوطنية القائمة على الخبرات التقنية ، والتنظيمية ، والمالية للغرب •

عوامل النمو الحضرى : Factors in urban growth

اعتبارا من عام ١٩٢٠ ، وما بعده ارتفع عدد السكان المقيمين فى المناطق الحضرية فى الشرق الاوسط بسرعة ، وتزايد هذا النمو بشكل اكبر بعد الحرب العالمية الثانية • ومن الممكن القول بأن العوامل الرئيسية المسئولة عن هذا النمو يمكن ان تندرج تحت العناوين التالية :

١ — المركزية السياسية •

٢ — النضـال السياسى الداخلى •

٣ — التغير فى أنماط التجارة والعلاقات الخارجية •

٤ — اكتشاف واستغلال النفط •

اولا : المركزية السياسية :

واذا نظرنا الى العامل الاول وهو المركزية السياسية ، فسوف نجد أن عددا من الملامح الخاصة بالادارة فى القارة الاوربية ، خاصة فى فرنسا متضمنة نوعا من التدرج فى السلطات ، والهيئات المعتمدة أو الرسمية ، قد نقلت الى الامبراطورية العثمانية فى القرن الماضى ، كما انتقل نمط ادارى المانى أيضا الى ايران (٢٠) • وهذه النظم انتقلت بالوراثة الى الدول او الحكومات التى قامت فيما بعد • وكانت السمات الرئيسية فيها هى المركزية فى الوظائف الادارية ، ثم ظهرت بعد ذلك الحاجة الى شبكة من التنظيمات الادارية الاقليمية لتخدم سياسات الدول الجديدة كما تطورت مناطق حضرية كنتيجة لوجود هذه الوظائف الجديدة • فضلا عن

---

(٢٠) Wickwar, W. H. Patter: and Problems of Local Administration in Middle East, The Middle East Journal, Summer, 1958.

ان تصنيف هذه المناطق الحضرية كان على أساس قيامها بهذه الوظائف اكثر من كونه على اساس الحجم او الدور الاقتصادى · ولقد كان من نتائج الاستقلال السياسى فى بلدان مثل العراق ، وسوريا ، ولبنان ، تركز الوظائف الادارية ، والسياسية فى العاصمة (٢١) ·

كذلك كانت الضغوط السياسية ، والاقتصادية على الحكومات تاتى دائما من جانب سكان الحضر ، وفى بعض الاحيان — فى الماضى — كان هناك تاكيد متزايد على تنمية الحضر على حساب الريف · وفى فترة ما بين الحربين العالميتين · حدث تطور كبير فى وسائل الاتصال والمواصلات الامر الذى أدى الى تزايد الامن سواء بالنسبة للمدينة او القرية · ولكن الوسائل الحديثة فى تسجيل ، مد شبكات الرى ، والاحلال التدريجى لوسائل المواصلات الميكانيكية محل الجمل كوسيلة للنقل ، كل هذا أدى

---

(٢١) لا يزال كثير من دول العالم الثالث ، وليس الشرق الاوسط وحده ، يعانى من تركز الوظائف السياسية والادارية فى المدينة ، ومن الاثار الناجمة عن عدم التوازن فى النمو بين الريف والحضر · ولعل المرحلة الاستعمارية والتراكمات والرواسب التى خلفتها مسئولة عن ذلك الى حد كبير · فحينما حصلت هذه البلدان على الاستقلال السياسى لم تكن بها كوادر ادارية وسياسية يمكن أن تقوم بادوار بارزة فى نظام لا مركزى · الامر الذى حدا بالصفوة الصاعدة الى اللجوء — ولو مؤقتا — الى المركزية السياسية الادارية · هذا وتحت وطأة التغير فى وسائل النقل والاتصال ، لجأت اعداد كبيرة من السكان فى هذه البلدان الى الهجرة من الريف للمدينة . كم من خطط تمد ، وسياسات توضع لوقف هذا الزحف ، الا أن اثارها سوف لا تضح — فى اعتقادى — الا فى ظل سياسة فعلية لتحديث الريف ، وتصنيعه ، وامداده بالخدمات الاجتماعية الشاملة ، والتى تمد بها المدينة ، فربما يؤدى ذلك الى الحد من تيارات الهجرة الريفية الحضرية · (المترجم) ·

الى تضييق نطاق الشعوب البدوية ، والقبلية كما أن التحول فى الملكية من القبيلة الى الشيخ — فى العراق — قد جعل أحوال الفلاحين تسوء كما حدث فى مصر خلال القرن السابق ، وقبيل الحرب العالمية الثانية أثار التزايدالواضح فى العمالة الحضرية الناتجة عن الهجرة الريفية الحضرية، وعدم وجود نمو صناعى ، أثار ذلك اهتمام السياسيين . والاقتصاديين، وكان له اثر كبير فى تشكيل الوعى السياسى ، كما اتضح فى التغيرات التى حدثت فى الشعارات السياسية (٢٢) .

ثانيا — النضـــال السياسى :

أما العامل الثانى وهو النضال السياسى الداخلى فقد لعب ايضا دورا هاما فى تشجيع النمو الحضرى ، خاصة بين عدد كبير من أناس لايتمتعون بالاستقرار ، فعلى سبيل المثال شهدت السنوات التالية لعام ١٩١٤ إنتقال حوالى (٥٠،٠٠٠) خمسين الفا من الارمن (سكان أرمينيا) ، الى داخل حلب كلاجئين ، وهاربين من المذابح الجماعيـــة التى دبرها الاكـــراد (بتحريض من الاتراك) ، كذلك نتج عن انشاء دولة اسرائيل ان انتقل حوالى (٩٠٠،٠٠٠) تسعمائة الف فلسطينى ، استقر معظمهم فى مدن عمان والكويت ، وبيروت ، والرياض ، فضلا عن أن التقلبات ، وعـــدم الاستقرار الناتج عنها والتغيرات فى بعض النظم قد ادت الى هجـرة أعداد كبيرة من هؤلاء الى الاقامة فى المدن (٢٣) .

ثالثا : التجارة والعلاقات الخارجية :

والعامل الثالث : وهو المتعلق بوسائل النقل والمواصلات ، فقـــد

---

(٢٢) Herschlag, op. cit., p. 163.

(٢٣) F. French, G. E. & Hill, A. G. Kuwait: Urban and Medical Ecology, Heidelberg, 1971, pp. 5 - 6.

افتتحت قناة السويس فى ١٨٦٩ . وبعدها أيضا تطورت حركة النقل الجوى ، وقد أكد ذلك من جديد أهمية الموقع الجغرافى الذى تتمتع به منطقة الشرق الاوسط عند مفترق الطرق بين اسيا ، وأوربا ، وافريقيا ٠ وقد استفادت الموانى البحرية ، والمدن ذات الموانى الجوية الدولية ، والاماكن السياحية ، وأماكن الحج بشكل مباشر من هذه الاوضاع الجديدة كما أن هناك تغيرات أخرى حدثت فى العلاقات الدولية ، والتجارة الخارجية أحدثت بدورها تأثيرا فى النمو الحضرى ٠ وقد كانت الهيئات التى أسهمت فى التغير الاقتصادى فى مصر ، وتركيا فى القرن التاسع عشر ، وبدايات القرن العشرين كانت كلها أجنبية ، وقامت هذه الهيئات بكثير من أوجه النشاط الخاصة بالطبقة الوسطى فى مجال التجارة ، والادارة ٠ وحينما تم طرد الاجانب ، مثل الايطاليين فى ليبيا ، وغيرهم من الاقليات كان الطريق ممهدا لابناء الطبقة الدنيا لكى يقوموا بوظائفهم وهكذا أتاحوا الفرص للمشروعات المحلية للاستمرار ٠ وقد تركزت المساعدات الخارجية فى العصر الحديث فى مجال المدن باعتبارها مركزا للاتصال الخارجى مع الدول التى تقدم هذه المساعدات ٠ وأيا ما تكون المساعدات ، مدنية أو عسكرية ، فان المستفيد النهائى هو فى العادة ساكن المدينة ٠

رابعا ــ اكتشاف النفط :

وأخيرا فان اكتشاف النفط قد أسهم إلى حد بعيد فى النمو ، والتطور الحضرى ٠ ذلك أنه قد خلق فرصا للعمالة المباشرة ، وغير المباشرة ، وجعل رأس المال متاحا للاستثمار ٠ وقد تمثلت العمالة بالمباشرة فى العمل فى حقول البترول ، ومواقع التكرير أو التصفية ، ومواقع التخزين ، مثل عبدان ، والبحرين وكركوك ٠ وحيفا وفى المراحل الاولى لانتاج البترول كانت عمليات التصفية فى معظمها تتم فى الشرق الاوسط ، ولكن التغيرات التى حدثت فى هيكل الطلب ، والتحسينات

التى أدخلت على تكنولوجيا الخزانات ، وكذلك الاعتبارات السياسية ، والاستراتيجية كلها حدت بالدول المستوردة للنفط لان تجعل مراكز التصفية على مقربة من السوق • ولكن فى السنوات الاخيرة حدث العكس حيث تزايدات قوة الدول المنتجة ، الامر الذى جعلها تصر على ان تكون التصفية فى مواقع الانتاج (٢٤) •

أما فرص العمالة غير المباشرة فقد تمثلت بصورة أكبر فى العواصم، حيث أصبح فى مقدور الشركات التى تم تاميمها ان تخلق افاقا عديدة للمشروعات الاقتصادية ان عائدات البترول التى تتراكم لدى دول الشرق الاوسط سواء بطريق غير مباشر ، كان لها تاثير فى مجال الاتساع الفيزيقى للمناطق الحضرية ، وفى مجال نمو السكانى • ولكن توزيع النقود أو العائدات ليس متساويا بين هذه الدول بطبيعة الحال • فالكويت وهى واحدة من أكبر الدول التى تنتج النفط كانت تشتمل على (٨٠٠ر٠٠٠)

---

(٢٤) كما أشار المؤلف ، كانت معظم البلدان النفطية خاضعة للاحتلال المباشر ، وكان فى ذلك تأمين لحصول الدول المستعمرة على حاجياتها من النفط ، ولكن بعد ذلك سعت هذه البلدان للحصول على استقلالها بوسائل متعددة ، وأدركت الدول المستعمرة ان ذلك قد يهدد حصولها على احتياجاتها النفطية ولو على المدى البعـــيد ، ومن هنا كان حرصها على أن تكون مصافى البترول خارج بلدان المنطقة ، ولم يكن الدافع ، ولم يكن الدافع الى ذلك هو التغيرات فى هيكل الطلب ،أو تكنولوجيا الخزانات • فقد كان القطن المصرى يزرع ويحصد فى مصر ، لكنه ينسج ويصنع فى بريطانيا ، وهى حالة مشابهة للحالة الخاصة بالنفط • ومع ذلك فقد أسهم كثير من التغيرات ــ وعلى راسها حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى اقدام كثير من دول الشرق الاوسط على تأميم ثرواتها النفطية ، والحرص على تصفية النفط ، واقامة الصناعات البتروكيماوية على أراضيها ، وليس فى البلدان المستوردة فبدأت المشروعات هنا وهناك ، وبالتالى كانت لها اثار مباشرة وغير مباشرة فى النمو الحضرى الحديث • (المترجم) •

ثمانمائة الف نسمة عام ١٩٧٠ ، وهذا الحجم لا يقارن بالطبع بحجم ليفربول ، او بريطانيا ، أو كليفلاند ، أو أوهيو • كذلك فان بترول ايران ينفق على حوالى (ـ ر٣٢) اثنين وثلاثين مليون نسمة بينما تركيا التى يبلغ سكانها اكثر من (ـ ر٣٧) سبعة وثلاثين مليون نسمة ليس لديها فى الواقع اى عائد من تصدير البترول •

نمو ســـكان الحضر : Uban Population growth

يجب التاكيد اذن على أن نمو المدن فى الشرق الاوسط ، يتم من خلال عدد من الظروف المتنوعة ، رغم أن الطبيعة التعسفية للحدود بين هذه البلدان لم تمنع كـــلا منها من النمو او التزايد السكانى (٢٥) • وسوف نتعرض للتفصيلات الخاصة بمعدلات النمو الحضرى بالنسبة لكل دولة ، وسوف يتسلسل هذا العرض تنازليا على أســـاسا الحجم ، مع ان المادة المتاحة تبدو مختلفة جدا ، من حيث الشكل ، والمراحل الزمنية التى حدث فيها النمو فى كل دولة ، الامر الذى يجعل امكانية المقارنة بينها عسيرة •

تركيـــــا : Turkey

فيما بين عامى ١٩٣٥ ، ١٩٥٠ ارتفع حجم ســـكان الحضر من (٦ر١٧٪) الى (٧ر١٨٪) فقط من اجمالى السكان وتتضمن هذه الزيادة زيادة عددية قدرها (٣ر١) مليون نسمة •ولكنفى الفترة من١٩٥٠،١٩٦٥ مليون نسمة الى (٣ر٩) مليون نسمة ، مشكلا بذلك (٨ر٢٩٪) من اجمالى

---

(٢٥) Clarke, B. [illegible] Changing Population Patterns, in: Population of the Middle East and North Africa, (ed.) J. I. Clarke & W. [illegible], London, [illegible], p. 18.

تزايد عدد السكان فى الحضر بمعدل (١٣٨٪) أو بزيادة عددية من (٤ر٥) السكان • وفى المدة من ١٩٦٠ — ١٩٦٥ وحدها تزايد سكان المناطق الحضرية بمعدل (٥ر٢٢٪) فى الوقت الذى كانت فيه الزيادة فى المناطق الريفية (٤ر٧٪) • وكانت معدلات الخصوبة فى المدن التركية الكبرى اقل من معدلاتها فى المدن الصغرى • والمعدلات فى المدن الصغرى أقل حى الاخرى من معدلات الخصوبة فى المناطق الريفية • ومعنى هذا أن الهجرة الريفية الحضرية ، تلعب دورا حاسما فى النمو الحضرى (٢٦) •

مصـــــر :

فى عام ١٨٩٩ كان سكان الحضر فى مصر لا يزيد على (٤ر١) مليون نسمة ، وكان يمثل (٥ر١٤٪ من جملة السكان البالغ عددهـــم (٧ر٩) مليون نسمة : وبين عامى ١٩٢٧ ، ١٩٦٠ كان هناك ارتفاع سريع فى السكان ، خاصة فى الحضر ، حيث ارتفع الى (٤ر١٢) مليون نسمة ممثلا (٠ر٤١٪) من جملة السكان البالغ عددهم (٣٠) مليون نسمة فى عام ١٩٦٦ (٢٧) •

ايـــــران : Iran

ارتفع عدد سكان الحضر فى ايران من (١ر٢) مليون نسمة الى (٢ر٣) مليون فى الفترة من ١٩٠٠ — ١٩٤٠ رغم ان هذا العدد كان يمثل (ر٢١٪) من جملة السكان : ولكن القطاع الحضرى من السكان تزايد

---

(٢٦) Dewdney, J. Turkey, Recent Population trends, in Populations of the Middle East and North Africa op. cit., p. 54.

(٢٧) Mountjoy, A. B. Egypt: Population and Resburces, in: Populations of Middle East and North Africa, Ibid: p. 301.

بحيث أصبح يمثل (٠ر٣١٪) من اجمالى السكان فى عام ١٩٥٦ ٠ كما أصبحت هذه النسبة تمثل (٠ر٣٩٪) عام ١٩٦٦ ٠ وقد تزايد عدد المدن الكبرى ذات الحجم السكانى (٠٠٠ر١٠٠) مائة الف نسـمة فاكثر ٠ وأصبحت هذه المدن تمثل (٦ر٦٠٪) من اجمالى سكان الحضر ، بعد أن كانت تمثل (٢ر٥١٪) فى نفس الفترة المشار اليها ٠ وقد كان اجمالى حجم السكان فى الحضر عام ١٩٦٦ (٦ر١٠) مليون نسمة ، مقـابل (٥ر١٦) مليون نسمة هم اجمالى سكان الريف ٠ وقد كان المعدل السنوى للزيادة فى الحضر هو (٩ر٢٪) وفى الريف (٦ر١٪) ولـما كانت الخصوبة من المناطق الحضرية الكبرى اقل منها فى المناطق الريفية ، فان هذا يجعلنا نفترض ان الهجرة مسئولة عن الفارقات التى حدثت فى معـدلات النمو بين الريف والحضر (٢٨) ٠

العـراق : Iraq

ظل حجم سكان الحضر فى العراق ثانيا فيما بين عامى ١٨٦٧ ، ١٩٣٠ عند مستوى (٠ر٢٥٪) من اجمالى السكان ، رغم أن عدد المقيمين فى المدن قد ارتفـع من (٠٠٠ر٣١٠) ثلاثمائة وعشـر الاف نسمة الى (٠٠٠ر٨٠٨) ثمانمائة وثمانية الاف ، ولكن معدل الزيادة السنوية فى المدن بين عامى ١٩٥٧ ، ١٩٦٥ كان (٧ر٥٪) مقابل معدل الزيادة العامة فى السكان وهو (٥ر٣٪) ٠ وكان من الواضح ان الخصوبة فى المناطق الحضرية اعلى منها فى المناطق الريفية (٢٩) ٠ وبحلول عام ١٩٦٥ حدثت تيارات

---

(٢٨) Clark, op. cit., pp. 88 - 90.

(٢٩) فى ضوء النظريات الاجتماعيـة والثقافية فى السكان تعتـبر معدلات الخصوبة المشار اليها فى العراق شذوذا عن قاعدة انه لما كان سكان الحضر اكثر تعليما ــ وثقافة ، فانه يترتب على ذلك ان معدلات الخصوبة تتضاءل فى الحضر عنها فى الريف ، وهو العكس

هجرة اضافية ترتب عليها أن اصبح عدد سكان الحضر (٣ر٦) مليون نسمة مشكلين بذلك (٤٣ر٩٪) من اجمالى السكان البالغ عددهم (٨ر٢) مليون نسمة (٣٠) ٠

سـوريا : Syria

ارتفع اجمالى عدد السكان فى سوريا ما بين عامى ١٩٤٠ ، ١٩٦٠ من (٢ر٥) مليون نسمة الى (٤ر٢) مليون ثم الى (٥ر٣) مليون فى ١٩٦٥٠ وفى ١٩٧٠ بلغ اجمالى عدد السكان (٦ر٩) مليون نسمة ٠ وتدل الشواهد على ان النمو الحضرى كان سريعا حيث ارتفع من (٣٧ر٠٪) من اجمالى السكان عام ١٩٦٠ ليصبح اكثر من (٤٠ر٠٪) عام ١٩٧٠ ٠ وكانت دمشق وحلب اكبر المدن حجمـا عام ١٩٧٠ ، فكانت دمشـق تشتمل على (٨٣٥ر٠٠٠) ثمانمائة وخمسة وثلاثين الفا ، وحلب على (٦٣٩ر٠٠٠)

ما حدث فى العراق ٠ ومع ذلك فان صحت المعطيات التى اعتمد عليها المؤلف فان ذلك قد يكون راجعا الى بداية تغيرات اجتماعية واقتصادية لم تبلغ منتهاها بعد ، او ان يكون سكان المناطق الحضرية مهاجرون من الريف لم يتكيفوا بعد لحياة المدينة ، ولم تحدث التاثيرات الاجتماعية والثقافية اثرها فى خفض معدلات الخصوبة بينهم ٠ واخيرا ربما تكون راجعة الى تخلف الاخذ بتعليم الاناث ، ذلك ان تعليم الاناث يرجىء سن الزواج فى الغالب الى ما بعد الانتهاء من التعليم ، حيث أن معدل الخصوبة هو (نسبة حالات الولادة التى لا تزال على قيد الحياة من المولودين لكل الف امرأة فى مرحلة العمر من أربع عشرة الى أربع وأربعين) وبالتالى فان تاخير سن الزواج سوف يلغى من حساب هذا المعدل الولادات التى كان يمكن ان تتم فى ثمانى سنوات تقريبا (المترجم) ٠

(٣٠) Lawless, R. I. Iraq: Changing Population Patterns, in: Populations of Middle East and North Africa, op. cit.,

ستمائة وتسعة وثلاثين ألفا (٣٠) ٠

العربية السعودية : Saudi Arabia

تشير التقديرات الى أن الزيادة فى سكان الحضر بالسعودية ، وصلت الى (١٧٠٫٠٪) فيما بين عامى ١٩٣٢ ، ١٩٦٣/ ١٩٦٢ ٠ حيث اصبح عدد السكان الحضر حوالى (٨٠٠٫٠٠٠) ثمانمائة الف نسمة بعد أن كان (٣٠٠٫٠٠٠) ثلاثمائة الف ثم أصبح عدد سكان الحضر فى ١٩٦٩ / ١٩٧٠ (١٫٣) مليون نسمة ٠ وقد قدر حجم سكان الحضر بحوالى (٢٤٫٠٪) من اجمالى السكان البالغ عددهم (٣٫٣) مليون نسمة عام ١٩٦٢ / ١٩٦٣ ، وانه تزايد بحيث اصبح يمثل (٢٨٫٠٪) من اجمالى السكان البالغ عددهم (٤٫٠) مليون نسمة عام ١٩٦٩/ ١٩٧٠ (٣٢) ٠

---

(٣١) Dewdney, op. cit., pp. 130 — 142.

(٣٢) تغيرت هذه المعدلات فى المملكة العربية السعودية ، حيث تشير نتائج التعداد العام للسكان لعام ١٩٧٤ الى أن جملة سكان المملكة يبلغون (٧٫٠١٢٫٦٤٢) مليون نسمة ومن بين هؤلاء بلغ تعداد سكان المناطق الحضرية (٢٫٦٨٥٫٣٥٦) مليون نسمة ممثلين بذلك حوالى (٣٨٫٥٪) من جملة سكان (التعداد العام لسكان المملكة العربية السعودية لعام ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م ، الرياض ص ٤) ٠ والمثير للدهشة هنا ذلك التغير الهائل فى سكان الحضر من ١٩٧٠ (١٫٣) مليون الى ١٩٧٤ (٢٫٦) مليون أى بنسبة (١٠٠٪) وكذلك التغير الهائل فى اجمالى السكان من (٤٫٠) مليون الى (٧٫٠) مليون نسمة فى نفس الفترة وهو ما لم يناقشه المؤلف ، ولكن ربما يكون ذلك راجعا الى الاخذ بسياسات الرعاية الصحية المجانية وتعميمها على كثير من أرجاء المملكة ، وهى أمور تؤدى الى طفرة سكانية واسعة وربما تثير ايضا بعض علامات الاستفهام حول بيانات التعداد المذكور . واسلوب اجرائه (المترجم) ٠

لبنـــــــان : Lebanon

ان عدم وجود احصاءات يمكن الاعتماد عليها بالنسبة للبنان يجعل المقارنة عبر الزمن صعبة • فمن الوضح أن سكان بيروت عام ١٩٧٠ كانوا (٧٠٠،٠٠٠) سبعمائة الف نسمة نسمة ، أو مليون بالنسبة لبيروت الكبرى • وهذا الحجم يشكل (٤٠،٠٪) من اجمالى سكان الدولة (٣٣) وقد افترض يوكى Youkey (٣٤) أنه على المدى الطويل لم تكن هناك اختلافات هامة فى معدلات الخصوبة بين المناطق الريفية والحضرية فى لبنـــان

اســـــرائيل : Israel

اشتملت اسرائيل داخـــل حدودها العسكرية عام ١٩٤٨ على (٨٧٣،٠٠٠) ثمانمائة وثلاثة وسبعين الف نسمة • ومن بين هؤلاء عاش (٧٣،٦٪) فى المدن • ومع ذلك ارتفعت هذه النســـــبة عام ١٩٦٧ الى (٨١،٦٪) من اجمـــالى عدد السكان البالغ عددهم (٧ر٢) مليون نسمة . وقد كانت الهجرة من الخارج الى اسرائيل مسئولة عن ارتفاع الحجم الكلى للسكان فيها (٣٥) •

الاردن : Jordan

تشير الاحصاءات المتوفرة عن الاردن ، والتى ترجع الى عام ١٩٦١

---

(٣٣) Fisher, W. B. Lebanon, an Ecumenical Refuge in: Populations of Middle East and North Africa, op. cit., p. 150.

(٣٤) Yaukey, D. Fertility Differences in a Modernizing Country Princeton, 1961.

(٣٥) Blake. G. H. Israel: Immigration and dispersal of Population, in: Popuiastions of the Middle East and North Africa op. cit., pp. 191 — 194.

الى ان نسبة سكان الحضر وصلت الى (٩ر٤٣٪) من اجمالى عـــدد السكان البالغ عددهم (٧ر١) مليون نسمة (٣٦) ٠

ليبيـــــا : Libya

كانت هناك فترات عارضة شهدت انفجارا سكانيا فى المدن الليبية خلال الستين سنة الاولى من القرن الحالى ٠ ولكن بعد عام ١٩٦٠ حينما بدأت تظهر عائدات البترول كان هناك ارتفاع مماجىء فى معدلات النمو ان عدد السكان الذين كانوا يعيشون فى أماكن حضرية حجمها اكثر من (٠٠٠ر٢٠) عشرين الف نسمة قد ارتفع ليشكل (٠ر٢٥٪) من اجمالى السكان بعد أن كان يشكل (٠ر١٨٪) فقط ، وذلك فى الفترة من ١٩٥٤ ـ ١٩٦٦ ٠ وكان الحجم الكلى للسكان عـــام ١٩٦٦ (٨٤ر١) مليون نسمة (٣٧) ٠

الــــــكويت : Kuwait

لقد كان سكان الحضر يمثلون (٠ر٩٤٪) من اجمالى السكان البالغ عددهم (٠٠٠ر٤٦٧) اربعمائة وسبعة وستين الف نسمة عام ١٩٦٥ ٠ ومن المحتمل أن تكون هذه النسبة الاستثنائية العالية قد بقيت على ماهى عليه حتى عام ١٩٧٠ ، الذى تزايد فيه اجمالى عدد السكان الى حوالى (٠٠٠ر٨٠٠) ثمانمائة الف نسمة ٠ ومن بين هؤلاء السكان قرابة ليسوا مواطنين كويتيين أصلا ٠ بل هم مهاجرون ، أو ولدوا فى مجتمـــع

---

(٣٦) Fisher, W. B. Jordan: A demographic Shatter - Belt, in: Ibid, pp. 212 — 213.

(٣٧) Hartley, R. G. Lybia: Economic development and Demographic Responses. in: Ibid pp. 325 — 328.

المهجر (٣٨) ·

امـــارات الخليج : The Gulf States

وقد بدأت الدويلات الصغيرة على الخليج الفارسي ، تفصح عن نفس نمط التحضر الموجود في الكويت ، وهو التحضر المتراكز · وفي كل من هذه الولايات نجد أن العاصمة تهيمن على الصورة الحضرية · وقد تم التحكم في الهجرة الوافدة الى هذه الدويلات مؤخرا · كذلك فان امكانية الهجرة الريفية الحضرية ، قد تم تضييق نطاقها بحيث يسمح بها فقط للذين يعيشون داخل حدود هذه الولايات (٣٩) ·

واذا حاولنا تلخص الوضع بالنسبة للشرق الاوسط ككل ، فسوف تظهر امامنا بعض النقاط :

اولا : اصبح النمو الحضرى يتم بمعدلات اسرع منذ عام ١٩٦٠ · وقد ظهرت زيادة كبيرة فى مدن الموانى ، والعواصم · فعمان مثلا تضاعف حجمها لاكثر من عشر اضعاف عام ١٩٦٦ عما كانت عليه عام ١٩٣٠ · كما ان طهران Tehran قد اضافت (٢ر١) مليون نسمة الى حجمها خلال عشر سنوات فقط (١٩٥٦ — ١٩٦٦) · والقاهرة والاسكندرية كلاهما تضاعف فى الحجم الفترة من ١٩٤٧ · وتمثلان الآن حوالى خمس سكان مصر ككل ·

ثانيا : فى معظم دول الشرق الاوسط يعيش اكثر من ثلث سكانها فى المدن ، وهذا يجعل من الشرق الاوسط منطقة فيزيقية اكثر تحضرا

---

(٣٨) Hill, A. G. The Gulf States. Petroleum and Population Growth: in: Ibid pp. 242 — 73.

(٣٩) Ibid. pp. 212 — 273.

من معظم مناطق افريقيا الاستوائية ، أو مناطق شرق ، وجنوب شرق ، وجنوب اسيا ٠

ثالثا : توضح مناقشاتنا السابقة للتحضر فى بعض بلدان الشرق الاوسط أن نسبة السكان الذين يعيشون فى الحضر ، تميل الى الارتباط العكسى بحجم الدولة ، وترتبط مباشرة بحجم الجزء الجديد ٠ وهنا يشير كلارك J. Clarke الى ان التراث الحضرى ذو علاقة ضئيلة بالمستويات الحالية لسكان الحضر (٤٠) ٠ ودليل ذلك أن الاردن يشتمل على نسبة من سكان الحضر أعلى من سوريا (٤١) ٠

---

(٤٠) Clarke. op. cit., p. 28.

(٤١) التعميم الثانى والثالث هنا يثيران الكثير من وجهات النظر ، فالتعميم الثانى يعتمد — كما هى العادة — على عدد السكان المقيمين بالحضر ٠ وهذا المقياس قد يكون مضللا ، لانه ليس هناك مستوى معين ، يطبق على كل بلدان العالم ، ويستخدم لتحديد المدينة بناء على عدد سكانها ٠ ففى فرنسا مثلا نجد أن المدينة تطلق على كل موقع يصل عدد السكان فيه الى ألفى نسمة ، وى ايرلنده (١٥٠٠) وفى الولايات المتحدة (٢٥٠٠) وفى بلجيكا خمسة الاف ٠ وفى هولندا واليابان ، والهند ، واليونان حوالى خمسة الاف فاكثر وفى سوريا ألفين ، وفى الاردن خمسة الاف وفى تونس عشرة الاف ٠ وبناء على ذلك فان اى تعميم لمستوى التحضر أو نسبته اعتمادا على عدد السكان قد يؤدى الى نتائج خادعة من حيث الاشارة الى أن احدى الدول بها نسبة تحضر مرتفعة ، بينما تبدو غير ذلك اذا قورنت بدولة أخرى ومن هنا فان القول بأن الشرق الاوسط به معدل تحضر أعلى من بلاد أخرى ، قد يحتاج الى تطبيق مقاييس أخرى لدعمه ، والتاكد منه هذا فضلا عن أن معظم مؤلفات علم الاجتماع الحضرى تواجه مقياس التحضر على اساس عدد السكان بانتقاد متزايد ، كما ان التعميم الثالث هو الاخر يثير الكثير من الجدل ، فالدول التى تعرض لها المؤلف فى الشرق الاوسط ، والتى تتضمن معدلات تحضر مرتفع هى فى الحقيقة دول ليس بها عدد

=

رابعا : أما النقطة الاخيرة التى تجدر الاشارة اليها فهى أنه على الرغم من أن العدد الاقل نسبيا من سكان الحضر يوجد فى دول الشرق الاوسط الكبرى ، لولا أن هذه الدول تشتمل على المدن الكبرى ، وكذلك على معظم سكان الحضر • فتشير أحدث الاحصاءات الى أن عدد المناطق الحضرية التى يزيد حجمها على (١٠٠٫٠٠٠) مائة ألف نسمة والتى توجد فى مصر ، وتركيا ، وايران هو (٤٥) خمسة وأربعون مدينة ، بينما كان هناك ثمانى عشرة مدينة فقط من هذا الحجم فى باقى دول المنطقة •

الهجرة الداخلية والنمو الحضرى (٤٢) Migration and urban growth

ان المدى الذى يرجع فيه النمو الحضرى فى الشرق الاوسط للهجرة

=

كبير من المدن ، وليس بها ظهير معين ، وانما تعتمد فى رفاهيتها على النفط ومشتقاته • مثل الكويت ، وامارات الخليج ، وقطر ، والبحرين ، والكويت العاصمة قد تكون هى المدينة الوحـــيدة ، وباستثناء بعض الجزر لا توجد بها قرى ، وكذلك الامارات العربية المتحدة •

ومعنى ذلك انه ليس ضروريا ان يرتبط مستوى التحضر عكسيا بحجم الدولة • كذلك فان القول بأن التراث الحضرى ذو علاقة ضئيلة بمستويات التحضر الحالى ليس صحيحا • فالقاهرة والاسكندرية ، وبغداد ، ودمشق ، وهى مدن ذات تراث حضرى • لا تزال كذلك بالنسبة لمدن الشرق الاوسط • وان العلاقة بين التراث الحضرى ، والمستويات الحاليــة للتحضر قد تصـــلح موضوعا موضوعا لدراسات متعمقة أخرى للكشف عنها (المترجم) •

(٤٢) نود أن نميز هنا بين ثلاثة انواع للهجرة السكانية وهى :

١ ـ الهجرة الداخلية ويطلق عليها Migra.ion وهى انتقـــال السكان من مكان لاخر داخل الدولة •

٢ ـ الهجرة الخارجية ، ويطلق عليها Emigration وتعنى هجرة السكان من داخل الدولة لخارجها •

٣ ـ الهجرة الى الداخل ويطلق عليها Immigration وتعنى هجرة السكان من خارج الدولة لداخلها (المترجم) •

الداخلية ، والحد الذى يعتمد فيه هذا النمو على الزيادة الطبيعية بمعدلاتها المختلفة بين المناطق الريفية والحضرية ، امور غير موثوق بها • ذلك أنه لا يوجد — على الاقل — نمط موحد للتحضر عبر المنطقة • فعلى سبيل المثال نجد أن معدلات الخصوبة في الريف والحضر المصرى متقاربة الى حد كبير • ولكن معدلات الوفيات فى الحضر اقل بكثير منه فى الريف • ولهذا فاننا نجد أن امدن تتزايد بسرعة أكبر لان معدلات الولادة فيها أعلى من معدلات الوفاة (٤٣) • وفى كثير من بلدان المنطقة نجد أن الاختلاف او الفروق فى معدلات الخصوبة والوفاة ، وكذلك الهجرة الاختيارية ، تخلق تركزا بين صغار السن ، وكبار السن فى المناطق الريفية • كما أننا نجد تركزا لمعظم فئات العمر اليافعة ، والنشطة فى المدن الاكبر

وقد يفهم من مناقشاتنا — ضمنيا — أن الهجرة والزيادة الطبيعية مستقلتان عن بعضهما ، ولكن الامر ليس كذلك بالطبع ، فان تتابع الاحداث بالنسبة للمدن الكبرى يوضح لنا أن النمو السريع ناتج عن الهجرة ، وعلى ذلك نجد انه عبر جيل واحد يوجد معدل مرتفـــع للزيادة الطبيعية فى المدينة عنه فى الريف ، ويرجع ذلك الى هجرة الشباب للمدينة من ناحية ، وانخفاض معدلات الوفاة من ناحية أخرى • فالهجرة تشكل عاملا هامــا فى نمو بغداد ، وطهران ، والقاهرة ، وغيرها من المدن الكبرى • وفى نفس الوقت تعتبر مقدمة للزيادة الطبيعية مستقبلا

وتقدم الكويت تفسيرا لهذه الظاهرة ، فالتمييز فيها بين الوطنيين والمهاجرين امر قائم على أساس الفروق فى المواطنة او الجنسية • لذلك فان من الممكن فصل الاحصاءات الخاصة بالمهاجرين للكويت ، ومقارنتها

---

(٤٣) Abu - Loghod, Urban — Rural Differences as a Function of the Demographic Transition — Egyptian data and an Analyticalmodel, American Journal of Sociology 69, 1963.

باحصاءات السكان الاصليين كذلك تقدم لنا للكويت مثالا يستحق النظر على أن صناعة النفط قد استطاعت ان تجلب الى قلب الصحراء مدينة كبيرة وهو أمر كان نادرا من قبل فالكويت كانت مشيخة صغيرة فى القرن التاسع عشر ، تعتمد على صيد اللؤلؤ Pearl وبناء السفن لهذا الغرض ، وعلى الحرف المحلية ، وأعمال التخزين المتذكرة فى ميناء الكويت ، وقد وضعت تحت الحماية البريطانية عند نهاية القرن التاسع عشر ، وكان لذلك تأثيره عليها ، ولم يكن للزيادة الطبيعية أثر كبير حتى عام ١٩٥٠ اذ ان الزيادة السكانية كنت ترجع للهجرة أكثر مما كانت ترجع الزيادة الطبيعية • ولما كانت الكويت لا تشتمل على سكان ريفيين لان المناطق الموجودة داخل الدولة عبارة عن صحارى ، فان الجزء الاكبر من الهاجرين يأتى من خارج البلاد • وقد تزايد عدد السكان من حوالى (٦٠ر٠٠٠) ستين الفا عام ١٩٣٠ الى (١٠٠ر٠٠٠) مائة الف مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، والى (١٦٠ر٠٠٠) مائة وستين الفـــا عام ١٩٥٢ ثم (٢٤٦٧ر٣٢٩) الف نسمة عام ١٩٦٥ ، وتشير التقديرات الى أنها بلغت حوالى (٩٠٠ر٠٠٠) تسعمائة ألف أو مليون نسمة عام ١٩٧٦ •

وقبل اكتشاف البترول كان سكان الكويت عبارة عن خليط علمانى Cosmopolitan Blend من البشر ، من مناطق الخليج الساحلية ، وجنوب اسيا ، ومن شرق افريقيا ، واختلطوا جميعا فى المدينة (٤٤) • ولـم يكن هناك تمييز بين الكويتى وغير الكويتى حتى عام ١٩٤٨ ، حيث صدر قانون المواطنة والجنسية ، وقد كان اكتشاف النفط هو الدافع لهذا التمييز • وقد بدأت الكويت فى تصدير النفط عام ١٩٤٦ ، وعندما كانت القوة العاملة فى شركة بترول الكويت تتكون من (١٥٥٢) فردا ثم تزايد هذا العدد ليصبح (٨٧٥٣) فى عام ١٩٤٨ • ولقد اكتسبت

---

(٤٤) Franch, G. E., & Hill, op. cit., p. 2.

المدينة ومرافقها قوة دفع هائلة فى عام ١٩٥٠ ، كما ارتفعت مستويات المعيشية ، والرفاهية بعد عملية توزيع عائدات النفط على مواطنى الكويت على نطاق واسع • وقد شكل غير الكويتيين — أو المهاجرين — فى عام ١٩٥٧ قرابة (٤٥,٠٪) عن اجمالى السكان ، وارتفع عددهم فى ١٩٦٥ الى (٥٣,٠٪) • ثم حدث تغير تدريجى بالنسبة للبلاد التى يرد منها المهاجرون عما كان فى بدايات هذا القرن • فقد كان مصدر الهجرة هو دول الخليج ، وايران ، وعمان ، وباماكن أخرى • ولكن فى السنوات الاخيرة قلت نسبة هؤلاء مع ان عددهم لم يقل (٤٥) ، وتزايدت نسبة العرب القادمين من مناطق ابعد ، كالاردن ، وسوريا ، ولبنان ، ومصر •

ان التمييز بين جماعات المهاجرين على اساس الوطن الاصلى يمكن أن يتضمن نوع العمل الذى يتوقعه المهاجر عند وصوله ، ويتضمن كذلك البناء الديموجرافى لهذه الجماعات • ومن بين التغيرات فى البناء الديموجرافى التى أشار اليها هل Hill (٤٦) للفترة بين عامى ١٩٥٧ — ١٩٦٥ أن نسبة الاناث غير الكويتيين الى الذكور غير الكويتيين ، قد تغيرت من (٢٧٤) أنثى لكل الف ذكر ، ذكر ، لتصبح (٤٢٢) انثى لكل ذكر • وان اى تغير فى اتجاه التوازن بين معدلات النوع يشير الى أن عددا أكبر من الاسر كانت تهاجر الكويت بكل افرادها • كذلك فان من الممكن القول بان المعدلات العالية للولادة بين غير الكويتيين سوف تؤدى الى موازنة المعدلات العامة للنوعين ، طالما أنه يتوقع ولادة عدد متساو

---

(٤٥) ويرجع ذلك لاكتشاف النفط واستخراجه من هذه البلدان ايضا • ومعنى أن نسبتهم قد انخفضت ولكن عددهم لم يقل ، ان المهاجرين للكويت من البلاد الاخرى قد تزايد بشكل ملحوظ (المترجم) •

(٤٦) Hill, A. G. The Gulf States, Petroleum and Population Growth, op. cit.,

تقريبا من الذكور والاناث • كما نجد أن معدلات التعلم بين المهاجرين قد ارتفعت هي الاخرى مما يشير الى تزايد الماس نحو تقبل عملية الهجرة والمولفقة عليها • ولا يزال هناك تناقض بين الايرانيين ، والسوريين ، والعمانيين • وغيرهم من ولايات الخليج التى يميل ميزان السكان فيها نحو الذكور بمعدل (٧٠ر٠٪) أما فى الكويت ، والاردن ، والسعودية ، ولبنان ، والعراق فقد كان هذا الميزان يميل فها بمعدل من (٦١٪) الى (٦٤٪) • ويبدو التناقض فى أن الفئات الاخيرة ، كانت لديها توقعات لفرص عمل أفضل من الفئات الاولى ، حيث أن لديهم مستويات أفضل من التعليم ، والتدريب الفنى • وبالتالى فان الرواتب الافضل التى يمكن أن يحصلوا عليها تعنى أنهم يستطيعون بسهولة أن يجلبوا معهم اسرهم او من يعولونهم •

ان المدى الذى يمكن أن ننسب فيه النمو السكانى السريع فى الكويت الزيادة الطبيعية ، والهجرة معا ، يمكن الكشف عنه اذا ما فحصنا معدلات الولادة ، والوفاة والخصوبة • ان الخدمات الصحية فى الكويت لها ما يشابهها فى منطقة الشرق الاوسط ، ويمكن مقارنتها بكثير من الخدمات الصحية فى أوربا • لذلك فان السكان الذين كانوا يعانون من معدلات الوفاة العالية قبل عام ١٩٤٦ قد حصلوا على مميزات الاستمتاع بالخدمات الصحية الحديثة ، تلك التى اصبحت ميسورة للكويتيين وغير الكويتيين خلال سنوات قليلة ، ومن هنا انخفضت معدلات الوفاة بسرعة • خاصة بين الاطفال ، ولذلك نجد أن بالكويت قاعدة عريضة من صغار السن فى الهرم السكانى ، حيث توجد بها اكبر نسبة من الاطفال فى العالم (قياسا على حجمها) ان معدلات الولادة الخام Crude Birth Rates (وهى عدد حالات الولادة لكل الف من السكان) — لغير الكويتيين اقل بكثير منها لدى الكويتيين • وذلك يرجع الى أن غير الكويتيين هم من الذكور غير المتزوجين ، أو المتزوجين خارج الكويت • كذلك فان معدلات

الوفاة منخفضة بين غير الكويتيين • حيث أن عددا كبيرا منهم من الشباب فى جماعة العمر المنتعشة اقتصاديا ، وليسوا فى المراحل التى تتسم بالعامرة مثل صغار السن ، أو بالخطورة مثل كبار السن • ومن ناحية أخرى ، فان معدلات الزيادة الطبيعية • (وهى عبارة عن الفروق بين معدلات الولادة الخام ، ومعدلات الوفاة (الخام) ــ أعلى بين غير الكويتيين ، ومعدلات الخصوبة ــ (وهى نسبة حالات الولادة التى لا تزال على قيد الحياة من المولودين بالنسبة لكل الف امرأة فى مرحلة العمر بين اربعة عشر ، وأربعة واربعين) ــ هذه المعدلات اعلى بين غير الكويتيين أيضا (٤٧) •

وهكذا نرى أن تحديد الاهمية النسبية للهجرة من الخارج الى داخل البلاد ، أو الزيادة الطبيعية يعتبر أمرا غير ميسور ، سواء أخذنا فى الاعتبار بالتعريف الدقيق للمهاجرين من الخارج الداخل ، كما استخدمناه هنا ، أو كانت العملية متضمنة الهجرة الداخلية أيضا • ويمكن أن يقدم لنا نموذج الكويت دليلا على أهمية الزيادة الطبيعية الوطنية ، ودورها فى زيادة سكان الحضر ، ولكن نفس الاهمية يمكن ان تمنح أيضا للهجرة القادمة من الخارج ، سواء فى قدوم المهاجرين الى داخل المدينة أو فى اتجاباتهم داخلها •

حجم المدينة والنمو الاقتصادى :

City Size and Economic Development

ان التركيز على سكان الحضر فى واحدة أو اثنين من المدن الكبرى لدول الشرق الاوسط • مفترضين ــ كما هو الحال دائما ــ وجود نوع من التركيز الزائد فى السكان ، والمرافق الحضرية ، ان التركيز على هذا

---

(٤٧) Hill, A. G. Ibid., pp. 249 — 255.

الامر قد أثار بعض الجدل · فتركيا ، وايران ، والعربية السعودية ، هى الدول الوحدة التى يوجد اقل من (٠ر٢٠٪) من سكانها ـ سواء الريفيين أو الحضريين ـ فى اثنين من مدنها ألكبرى · وقد لوحظت العـــلاقات المنتظمة بين حجم المدينة ، ومكانتها فى الدولة ، فى كثير من الحالات فى المجتمعات المتقدمة · وقد قام زيف Ziph (٤٨) بصياغة هذه العلاقة على النحو التالى :

حينما يتم ترتيب المدن تنازليا وفقا للحجم ، ويتم عرضها فى رسم بيانى معد على ورقة لوغاريتم مزدوج ، وكون حجم السكان على محور Axis ، وامكانة على المحور الاخر ، فان الرسم يشكل خطا مستقيما· أو بطريقة أخرى ، فان سكان المدينة الكبرى الثانية يجب أن يشكل نصف سكان المدينة الكبرى الاولى ، وسكان المدينة الكبرى العاشرة يجب أن يشكل عشر سكان المدينة الكبرى الاولى ··· وهكذ · ويقدم لنا هاجيت Haggett مؤشرا اخر لكى نتمكن من البرهنة على أن سلسلة المكانة الحجم Rank - Size وانتظامها أمر يمكن التعرف عليه بالنسبة لـمدن مختلفة ، وفى فترات زمنية مختلفة ·

ان تركيا تعتبران الدولتين الوحيدتين اللتان تشتملان على توزيعات للمدن وفقا للحجم · وهذه التوزيعات تؤيد فرض العلاقة بين الحجز والمكانة ومع ذلك فانه فى البلاد التى تحتوى المدينة فيها على أقل ن خمس السكان ، وباستثناء البحرين ، كانت المنحنيات تتشابه فى جلاء من حيث تاكيدها على هذه العلاقة ، وذلك بصرف النظر عن الحجم ·

اما فى البلاد التى تحتوى المدينة الرئيسية فيها على أكثر من خمس

---

(٤٨) Berry, B. J. L., The Human Consequences of Urbanization, London, 1973.

السكان مثل ايران ، والعراق ، والكويت ، كانت توجد بها مدينة مهيمنة واحدة ، وهى الحالة التى يطلق عليها الاولوية Primacy ، بينما فى مصر وسوريا توجد مدينتان مهيمنتان ، وهى الحالة التى تعرف أحيانا بالاولوية المزدوجة Dual Primacy .

ولكن ما هو مغزى هذه التوزيعات بالنسبة للتنمية الاقتصادية ، والتغير الاجتماعى ٠٠ ان النتيجة الريئسية للاولوية الممنوحة لمدينة او اكثر من العالم النامى عامة هى ما عرف بالطفيلية Parasitic (٤٩) حيث تستهلك المدينة الكبرى نسبة متفاوتة من ثروة الدولة ٠ وقد قسم هوزيلتز Hoselitz (٥٠) المدن الى فئتين : الاولى هى المنتجة Generative ، والاخرى هى الطفيلية Parasitic (٥١) ٠ ويطلق الاسم

---

(٤٩) Breese, G. The City in newly developing Countries, Readings on Urbanism and Urbanization, Englewood Cliffs, New Jersey, 1959.

وقد نقل هذا الكتاب الى العربية وقدم له الاستاذ الدكتور محمد الجوهرى بعنوان ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية . دار نهضة مصر للطبع والنشر ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر . القاهرة ، ١٩٧٢ (المترجم)٠

(٥٠) Hoselitz, B. F., Generative and Parasitic cities, Economic Development and Cultural Change 3. 1955, 278 — 299.

(٥١) يشير هوزيلتز الى ان المدينة المنتجة هى تلك التى يعود تاثيرها بالفائدة على النمو الاقتصادى للاقليم ، او الدولة التى توجد فيها، وتعتبر عاملا أساسيا فى التقدم الاقتصادى القومى ، والطفيلية هى التى لا تؤثر اقتصاديا فى اقليمها او يكون اثرها ضارا بالاوضاع الاقتصادية لهذا الاقليم (انظر : احمد الخشاب ، الاجتماع الحضرى مكتبة الانجلو ص ٨٦ ، ومحمد الجوهرى مجتمع المدينة فى البلاد النامية (مترجم) ص ١٠٧ ، وانظر أيضا مقال بيرت هوزيلتس ٠

الاول • على المدن التى تسـاعد فى عملية دفع النمو على امتداد الاقليم الذى تقع فيه ، بينما الطفيلية تؤدى دورا معوقا مثبطا اكثر من كونه دافعا أو حافزا على النمو • وان العامل الاساسى فى دور المدينة الطفيلية هو تشتيت Dissipation الثروة التى تنتجها المناطق المحيطة فى استهلاك حضرى غير انتاجى •

وترتبط فكرة الطفيلية هذه بالتحضر الزائد Over - Urbanization والذى يتضمن أن كثيرا من البلدان غير الغربية تشتمل فى المراحل الاولى لتطورها الصناعى على نسبة عالية من السكان الذين يعيشون فى المدن وهذه النسبة اعلى من المرحلة التى تمر بها هذه الدول فى مسار التنميـة الاقتصادية ، وبالتالى لاتستطيع أن تضطلع بها بكفاءة • ان التحضـر الزائد (بالمعنى الفيزيقى) يطلق على النتيجة النهائية لعملية الهجـرة الريفية الحضرية المتتالية لمن لا يعملون ، أو لمن يعملون فى أعمال دنيا ، بهدف الحصول على فرص أفضل للعمالة فى الحضر • وأيضا فان التقارب Juxtaposition بين المركز الحضرى الصغير المتطور ، وبين المركز التقليدى الكبير الذى يعمل فيه المهاجرون ، ان هذا التقارب يعتبر مسئولا عن الحالة التى تعرف بالاقتصاد المزدوج Dual economy ان مفهومـات الطفيلية ، والتحضر الفيزيقى الزائد ، والاقتصاد المزدوج كانت موضع بحث من جانب عدد من العلماء الاجتماعيين ، الذين توصـلوا الى ان

= The City; The Factory and Economic Growth, in: Hatt. p. and Reiss, A. Cities and Society. ed. The Free Fress. New York 1951. pp. 537 — 554.

وانظر كذلك الفصل السابع ، والثامن والتاسع من كتاب هوزيلتس النواحى الاجتماعية للنهضة الاقتصادية ، ترجمة لجنة من الاساتذة الجامعيين ، دار الافاق الجديدة ، بيروت (المترجم) •

هذه الظواهر مسئولة عن نشأة الاغتراب Alienation ، والانومى أو
اللامعيارية Anomie ، والتفكك الاجتماعى Social disorganization (٥٢).

وقد طبقت جانيت أبو لغد مفهوم التحضر الزائد على مصر (٥٣)
حيث وجدت أن التحضر الزائد بالمفهوم الذى أشرنا اليه أقل وضوحا بين
(٠ر٣٥٪) من اجمالى سكان المدن فى هذا الوقت ، ولكن الامر الاكثر وضوحا
هو التركز الزائد Over Concentration فى المدينتين الكبيرتين ، القاهرة
والاسكندرية والوضع بالنسبة لمصر يقدم شاهدا اخر على عملية تشتيت
اتفقت كانت تذهب لتحديث القاهرة ، والاسكندرية خلال القرن التاسع
اتفقت كانت تذهب لتحديث القاهرة ، والاسكندرية خلال القرن التاسع
عشر ، الامر الذي ساعد بشكل تدريجى على افلاس Bankruptey
الدولة ، وبالتالى الى الاحتلال الاجنبى (٥٤) ولقد كان ذلك قبل بدء
تيارات الهجرة الريفية الحضرية فى القرن الحالى بوقت طويل ، وتشير
جانيت أبو لغد الى أن الاسباب التى تجعل التركز الزائد غير مرغوب
هى أسباب اجتماعية واقتصادية . فالازمة التى تواجهها هذه المدن الكبرى
فى استيعاب الاعداد الغفيرة من المهاجرين ، خلال تحولها من الطريقة
الريفية الى الطريقة الحضرية كاسلوب للحياة ، يمكن أن تضاف الى
التكلفة الاقتصادية المتزايدة للفرد ، من حيث الامداد بالخدمات الحضرية

---

(٥٢) Berry, B. J. L. op. cit., pp. 98 — 99.

(٥٣) Abu - Lughod, J., Urbanization in Egypt; Economic Development and Cultural Change, 13, 1965, pp. 313 — 343.

(٥٤) Abu - Loghod, J. Tale of Two Cities: The Origins of Modern Cairo, Comparative Studies in Society and History, 1965, pp. 429 - 967.

والخاصة ، طالما أن عدد السكان يتجاوز نقطة الحجم الامثل Optimum Size بعدة مئات من الالاف ، وهنا أثير جدلا حول كون الحجم الزائد . وعدم ملاءمة المراكز الميتروبوليتان ، أمور تمنع المدن الاصغر من تقليدها ، ام أن التركز السكاني في موقع حضري معين يجب أن يؤدي الى الاسراع بتحسين ظروف الحياة الريفية .

وهناك معلومات أخرى عديدة عن الشرق الاوسط عامة ، قدمها شارل عيسوي حيث سجل أن طهران في عام ١٩٦٥ كانت تستهلك (٤٠ر٠٪) من جملة الطاقة الكهربائية في الدولة ، (٥٠ر٠٪) من منتجات النفط. كما أ نبغداد عام ١٩٥٣ كانت تشتمل على (٦٥ر٠٪) من جملة أطباء العراق ، واسطنبول في عام ١٩٥٠ كان بها (٢٥ر٠٪) من أطباء تركيا . وقد دار التفسير الرئيسي الذي قدمه عيسوي حول المركزية الادارية Administrative Centralisation مع نمو في التخطيط الاقتصادي . ونمو مستمر في البناء البيروقراطي . ومن بين ماثر هذا التركز انه يشجع ذوي المواهب من الناس على الانتقال الى المراكز الميتروبوليتان . حيث يحصلون على عائدات اكبر . ولكن على الجانب الاخر نجد أن انتشار الثقافة الجديدة الى باقي اجزاء الدولة محدود .

ومع ذلك فقبل أن نتناول توزيعات حجم المدينة في الشرق الاوسط — بما تتضمن من ميل لتركز سكان الحضر في واحدة أو اثنين من المدن قبل ان نتناول هذه التوزيعات وننظر اليها على أنها انحراف عن قاعدة ارتباط مكانة المدينة بحجمها Rank - Size - Rule . وقبل ان نصف المدن الكبرى في الشرق الاوسط بأنها طفيلية ، فاننا يجب ان نقرر ما اذا كان مثل هذا التوزيع ينطبق على أوضاع التحضر في هذه المنطقة . وقد

استخلص بيرى Berry (٥٥) بعد دراسة أجراها لعملية النمو الحضرى فى (٣٨) دولة متضمنة نماذج من كل أنحاء العالم أن انماط ارتباط اهمية المدينة بحجمها ، انما هى نتيجة للنمو الحضرى فى الدول ذات الحجـــم الاقل من المتوسط العام ، وهى تلك التى ليس لها تاريخ طويل فى التحضر الفيزيقى ، وتمثل النمط البسيط فى الاقتصاد والسياسة • وعلى العكس من ذلك فان التوزيع العادى يعتبر نتيجة لتطور المدينة فى الدول ذات الحجم الاكبر من المتوسط العام ، وهى التى لها تاريخ طويل فى التحضر الفيزيقى ، والتى تمثل النمط الاقتصادى • والسياسى المركب • وينتهى الباحث الى ان الفرض القائل بان نسبة السكان المقيمين فى المدن ، أو درجة النمو الاقتصادى ترجع لتوزيعات الحجم هذا الفرض لم تدعمه الشواهد الامبيريقية وفى ضوء ذلك التحليل القائم على ارتباط المكانة بالحجم فى الشرق الاوسط ، لا يزال من الواضح عدم وجود نمط بسيط ، فاسرائيل والعربية السعودية لاتنتميان الى أى من الفئات الثلاث التى تفسر التوزيع العادى للسكان فى مدنهما وفى نفس الوقت نجد أن اهمية المدن أو مكانتها فى ايران لا يمكن ان تعزى لحجمها ، أو لتاريخ التحضر او للتكامل السياسى •

ان تفسير ظاهرة كون معظم دول الشرق الاوسط لا تمدنا بشواهد تؤكد التوقعات الخاصة بتوزيع المدن على اساس حجمها ، يمكن انيكمن فى وجود ظروف مختلفة لسوق العمالة فيها ، اذا ما قورنت باسواق العمالة فى العالم المتقدم • وقد قام بيرى بمقارنة سوق العمل فى العالم المتقدم،

---

(٥٥) Berry, B. J. L. City Size Distribution, and Economic Development. Department of Greography Research Paper No. 2. Chicago; ..1961.

بنظيرتها فى دول العالم الثالث بوجه عام (٥٦) • فالنمو الصناعى فى الولايات المتحدة ، ودول غرب أوربا قد وجد اساسا فى مناطق أو اقاليم تعتبر نوايا ، أو مراكز اقتصادية ، وحينما دعمها عبر فترة زمنية من النمو الاقتصادى ، نتج عن ذلك قصور كبير فى العمالة ، ومعدلات عالية فى الاجور • وتحولت مراكز الصناعات ذات الكثافة العمالية العالية الى مراكز حضرية أصغر ، أو مناطق تقع على حدود أو مناطق امتداد المدن، الامر الذى ادى الى تشجيع النمو بعيدا جدا عن قلب المدينة ، وفى نفس الوقت فان الاقاليم فى الولايات المتحدة ، والامبراطوريات الاوروبيـــة الاستعمارية قد اتجهت الى التخصص وفقا لما تدره من موارد ولذلك فان المدن ، وما يدعمها من صناعات ثانوية أصبحت مناطق فرعية متخصصة تتداخل ، وتتكامل فى الاقتصاد القومى الامبريالى • وان هذا النسق المتوازن للمدن ، والذى ادى الى التخصص فى وظائف كل مدينة ، من خلال المجال الذى تؤثر فيه ، أدى بالتالى الى ظهور مواطن اصغر تقوم كل منها بوظائف اقليمية ، ومن هنا فانها تتضمن توزيعا عاديا للمكانة القائمة على الحجم • وفى مثل هذا النسق فان مواقع المدن كانت متباعدة Spaced بشكل منتظم وفقا للحجم ، بحيث تكون الكبرى أكثر بعدا بينما المدن الصغرى أكثر قربا وقد أصبح من المفترض ان مثل هذا النسق بما يتضمن من علاقات يساعد على تحقيق الوحدة القومية بمفهومها الاقتصادى والسياسى •

وعلى العكس مما سبق ، كان وضع المدن الرئيسية فى الشرق الاوسط ، حيث كانت عملية انتقال الصناعة من العاصمة للاقاليم محدودة،

---

(٥٦) Berry, B. J. L. The Human Consequences of Urbanization op. cit., pp. 91 — 99.

لان الاجور فى المدن الكبرى ظلت فى مستوى منخفض لكثرة انســياب المهاجرين لهذه المدن ، وبالتالى لم يكن هناك حافز للقضاء على التركز، وظلت المشروعات الجديدة باقية فى المراكز الميتروبوليتان ، رغم جهود الحكومات لتخطيط الاقتصاد القومى ، والنمو الاقليمى • وكما يقول بيرى كان تزايد أهمية المدينة أمرا له فوائده من حيث كونه مؤشراً على النمو الاقتصادى ، رغم انه يحدث فى مكان واحد ، ويؤثر فى عدد كبير من ناحية اخرى ، فان تعميم التكلفة بالنسبة للفرد فى مجالات التعليم ، والنقل العام ، والخاص . والامداد بالطاقة ، يجعلنا نفترض أن المدن ذات الحجم المتوسط والتى تتكون من حوالى (١٠٠ر٠٠٠) مائة الف نسمة ، قد تظهر بها هذه الخدمات بفاعلية اكثر من الميتروبوليس ، او المدينة الصغير • ولكن فى المدن التى تتكون من اكثر من مليون نسمة ، تصبح تكلفة هذه الخدمات عاليـــــة (٥٧) •

ويمكن أن نسوق بعض الافكار الاخرى الخاصة بمنطقة الشرق الاوسط ، فلقد نوقشت انساق التحضر فى المنطقة فى اطار الحدود القومية التى يرجع عمرها الى حقب قليلة ، وهذه الحدود قد رسمت بشكل تعسفى فى المقام الاول فمدن العراق ، وسوريا على سبيل المثــال ، قد أقيمت على أساس المتطلبات الاقتصادية ونظم النقل الخاصة بالمدينة الحديثة ، وذلك فى اطار حدود قومية تم رسمها وتثبيتها منذ نهاية الحرب العالمية الاولى فقط • وفى البلاد التى تكون الاتجاهات الريفية فيها قوية ، فانه يكون من المناسب دراسة الانساق الحضرية الاقليمية ، مثلما ندرس الانساق القومية • فقد اشتمل النمط الحضرى فى ايران مثلا ، قبل القرن

---

(٥٧) Morrill; R. L. Spatial Organization of Society, Belmot. Calif, 1970, p, 157.

الحالى ، على مجموعة من المدن الاقليمية التى توجد حول منطقة زراعية عقيمة تقع وسط ايران ، وعلى العكس من مصر ، نجد أن السيطرة المطلقة للعاصمة الايرانية ترجع تاريخيا الى القرن الحالى • وعلى المستوى الريفى نجد أن هناك مدنا مثل اصفهان Isfahan ، وشيراز Shiraz ، وهذه ذات أهمية فى ضوء التوزيع القائم على العلاقة بين الكثافة والحجم • وحتى عند المستويات الاقليمية الادنى مدنا مثل قم Qom ، يزد Yazd وكرمان Kirman • وهذه يبلغ حجم كل منها عدة أضعاف أكبر موطن فى الاقليم الذى تقع فيه (٥٨) وأن السبب فى وجود هذه الانماط وما يشبهها هو الثغرات أو الفواصل التى توجد فى مناطق الظهير الزراعى للمدن ذات الاحجام المختلفة أن البيئة الجغرافية شبه الجافة قد جعلت الحياة فى الريف غير امنة اذا كانت خارج المناطق التى يسهل ريها ، وزراعتها زراعة مكثفة ، هذا فضلا عن وجود فواصل مكانية بين المناطق المستقرة (٥٩) • ان وجود المستوطنات فى شكل دائرى حول الموارد يعتبر سمة عامة فى جغرافيا الاستقرار • فالاقامة عند مناجم الفحم ، أو حول مصادر المياه ، تؤثر فى كل حالة على حجم ، وعمق العلاقات بين المستوطنات •

ان تحليلنا يوضح ـ الى حد بعيد ـ أن التحضر الفيزيقى فى الشرق الاوسط يشترك فى بعض الخصائص مع أجزاء أخرى من العالم الثالث كما يوضح أن النمو الحضرى المعاصر قد نتج أساسا عن اتساع نطاق

---

(٥٨) Clark, B. D. & Costello, V. F. The Urban System and Social Patterns in Iranian Cities. Transactions of the Institute of British Geographers 59. 1973. pp. 99 - 128.

(٥٩) Issawi: C. ..Economic Change and Urbanization in the Middle East, op. cit., p. 118.

للشروع الرأسمالي • وهذا هو العامل الاساسي الذي يميز التحضر المعاصر عن التحضر في مرحلة ما قبل الصناعـــة • إن التحضر الاجتماعي في الشرق الاوسط ، عبارة عن ظاهرة النمو السكاني الناتج عن الهجرة والزيادة الطبيعية معا ، وإن بعض هذا النمو قد حدث حول مراكز حضرية، وجدت في عصر ما قبل الصناعة ، والبعض الاخر حدث في مواقع جديدة ولذلك فان الحجم الحالي لسكان الحضر غالبا ما يتضمن علاقة من نوع ما مع تراث الحياة الحضرية ، وتقاليدها • وعلى الرغم من ذلك ، فان الحياة الحضرية التقليدية تمدنا بنموذج معين للسلوك في الحياة الحضـــرية المعاصرة ، وكذلك فانه مسئول عن بعض أنواع التحضر الاجتمـــاعي الخاصة بمنطقة الشرق الاوسط • وسوف توضح الفصول التاليـــة النتائج الاجتماعية للنمو السكاني في الحضر ، وتهتم أساسا ، بأسباب انتقال الناس للمدن ، وماذا يحدث لهم حينما يهاجرون اليها •

الفصل الرابع

الهجرة الريفية ـ الحضرية (*)

لاحظنا من قبل أن البيانات الاحصائية تشير الى ان اعداد المهاجرين في بعض المدن ، ليست على نفس الدرجة من الاهمية بالنسبة للنمو الحضري مثل الاهمية التي تحظى بها الزيادة الطبيعية ، ومع ذلك فان هجرة الشباب المتزوجين باطفالهم واقامتهم في المدينة تشكل عاملا أكثر اهمية في سرعة النمو الحضري • يضاف الى ذلك ، ان خطوط الاتصال بين القرية والمدينة ، واسباب حركة المهاجرين ، والاماكن التي يعيشون فيها عندما يصلون الى المدينة ، كلها عبارة عن جزء متمم لعملية التغير الاجتماعي التي تحدث فيها •

الاتصال بين المدينة والقرية :

تعتبر الهجرة المستمرة الى المدينة واحدة فقط من العديد من نماذج الحركة والاتصال بين سكان الريف وبين المدينة • لن سكان الريف يتنوعون من قرية لقرية ومن بلدة لبلدة • كما ان العوامل التي تعوق الاتصال في منطقة معينة تعمل على تسهيل الاتصال في منطقة اخرى ويمكن ملاحظة تنوع القرى من حيث الخصائص الاجتماعية وما ينتج عن هذا من تنوع أنماط الاتصال • ويفترض تصنيفه فرنو R. A. Fernea حوالي اثنتي عشرة فئة من القرى ، معتمدا على درجة التنظيم القبائلي فيها ، وكذلك على التاثير الحضري ، والسيطرة أو الاستقلال السياسي

(*) قام بترجمة هذا الفصل والتعليق عليه الدكتور غريب سيد احمد •

أو الاقتصادى لها (١) ٠

ومثال ذلك ان القرى التى تاخذ بالتنظيم القبائلى ومع ذلك تخضع للسيطرة السياسية من جانب المدينة ـ مثل قرية كالوروان kallorwan وقرية الدروز Druze فى لبنان ـ نجد أن روابط المصاهرة القبائلية (٢) تربط القرية بالمدينة من خلال السياسات القومية ٠ وفى نفس الوقت فان القرى ذات التنظيم القبائلى والتى تحتفظ بمبدأ الملكية الخاصة لمصادر الثروة ووسائل الانتاج ـ مثل العديد من تلك القرى التى وصفها بارث F. Barth فى جنوب كردستان Kurdistan ـ ربما تكون على درجة

---

(١) R. A. Fernea Gaps in the Ethnographic Literature on the Middle Eastern Village: A Classificatory Exploration in Rural Politics and Social Change (ed.) R. Antoun & I. Harik, Bloomington, Ind, 1972, pp. 75 — 98.

(٢) يستخدم بعض العلماء كلمة « قرابة » ، لتشير الى رابطة الدم ٠ ويميل الاتجاه الحديث الى اغفال هذه الكلمة لتجنب الدلالات البيولوجية التى تشير اليها ٠ والواقع أن هذا المصطلح ـ « قرابة » يحتاج الى تحديد أكثر نظرا لاستخدامه بطريقة فضفاضة تضم الاصهار الى جانب الاقارب المباشرين الذين تقوم بينهم روابط الدم ٠ والواقع أن كلمة « قرابة » تشير الى كل الاشخاص الذين ينتسبون الى نفس السلف سواء كان هذا السلف رجلا أو امرأة - وعلى هذا فان التمييز بين « القرابة » و « المصاهرة » ناشئ عن التمييز بين الروابط الدموية الطبيعية والزواج ٠ وعموما ، فان دراسة الانساق القرابية تقتضى بالضرورة دراسة الناحيتين : القرابة بمعناها الضيق ، والمصاهرة أو العلاقات الناشئة عن الزواج ٠

انظر فى ذلك : د٠ احمد ابو زيد ، البناء الاجتماعى ، الجزء الثانى : الانساق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٦٧ ، ص ٢٦١ ـ ٣٩٢ (المترجم) ٠

عالية من الاستقلال عن المراكز الحضرية (٣) وثمة نموذج اخر متمثل فى تلك القرى التى تعيش فى ظل درجة عالية من التاثير الحضرى ، والسيطرة الاقتصادية من جانب المدينة ، مع غيبة التنظيم القبائلى ، مثل القرى التى توجد حول المدن التقليدية التى تقع فى السهل الايرانى الرئيسى .

وتعتبر مدينة كاشان Kashan احدى المدن المتشابهة فى عديد من مظاهرها من مدينة كرمان Kirman أو قم Qom او يزد Yazd أو سمنان Semnan . كما أن المنطقة الادارية التى ترتكز حولها كاشان هى منطقة شهر ستان Shahrestan التى تغطى جزءا من جبال كرجاس Kargas وجزءا من السهل الرئيسى . وحتى وقت قريب كانت الطبقة العيا الحضرية هى التى تحكم هذه المنطقة ، حيث تمتلك حقوق حيازة الارض والمياه ، وحق ابرام عقود السجاد ، بالاضافة الى كونها المصدر الوحيد للتسليف . وتبرم العقود بين الملاك والقرويين وتحافظ على تنفيذها عن طريق وكلاء يسافرون من المدينة الى القرية . وتسمح الطبوغرافيا والتقارب الطبيعى بتسهيل تبادل الاتصال فى الاراضى المنخفضة Lawlands ، ولكن الاتصالات فى الاراضى المرتفعة Highlands تقتصر على الافراد والجماعات التى تعيش فى الاودية Valleys وتنقطع هذه الاتصالات أحيانا فى فصل الشتاء بسبب تساقط الجليد على الجبال المحيطة بالمنطقة ، وتصبح المداخل الاكثر سهولة لهذه الارض المنخفضة وللمدينة ، هى تلك الطرق التى تقع فى أسفل الوادى . أما الاودية الاكثر انعزالا وبعدا فتحافظ على استقلالها الاقتصادى عن المدينة : فالقرويون أنفسهم يمتلكون الارض وينسجون السجاد وفق ما يتراءى لهم . وتعمل المدينة على التحكم فى منطقة شهر ستان من حيث التوظيف الادارى

---

(٣) F. Barth, Principles of Social Organisation in Southern Kurdistan, Oslo, 1953.

والسياسى الذى يحدث فى القرى ، كما يلجأ المقيم فى هذه القرى الى المحاكم الواقعة فى المدينة عند الفصل فى المنازعات مع استثناءات قليلة. ولكل الوزارات فروع فى المدينة ، ومن خلالها ينفذ ما يصدر من قرارات حكومية ، مثل الهيئات التعليمية والهيئات الصحية ، ووسائل الضبط البيروقراطى (٤) فى القرى .

وتستخدم الحافلات غالبا فى الانتقال بين القرى ومدينة كاشان كما أن للعديد من القرى الكبرى وسيلة نقل خاصة بها ، وملكيتها جماعية أو لاحد أغنياء القرية ، وبالطبع فالقرى الاكثر اتساعا والاكثر قربا من مدينة كاشان لها أكثر من وسيلة انتقال . وتبدأ رحلات الحافلات الى المدينة فى الصباح وتعود فى المساء ، الا أن القرى الاكثر قربا من المدينة لها رحلات متعددة أثناء اليوم . وفى حين أن زيارات أهل القرى للمدينة خلال أيام الاسبوع تكون غالبا من أجل شراء الحاجيات وممارسة بعض الاعمال. ففى أيام الجمعة — وهو يوم صلاة الجماعة فى المسجد عندما تكون المحال مغلقة — تأخذ غالبية الزيارات صفة اجتماعية . وان عددا من القرويين يستخدمون الدواب للركوب والعمل فى الحقول المحيطة بالمدينة . كذلك فان المقيمين بالمدينة يزورون القرى ، وخاصة خلال فصل الصيف ، حيث

---

(٤) ومن خصائص التنظيم البيروقراطى وجود نسق متسلسل يحدد الوظائف والاوضاع لمن يقعون فيه ، كما يوضح مختلف درجات السلطة الممارسة التى يعترف بها وتتضح شرعية لا يراودها الشك . وبهذا يصبح ثم تنظيم متسلسل — أيضا — للسلطة فالبيروقراطية تعنى مجموع موظفى أو أجهزة السلطة التنفيذية والبيروقراطية Bureaucracy مشتقة من الكلمة الفرنسية Bureau أى المكتب أو مكان تنفيذ الشئون الحكومية . ويتطلب هذا التنفيذ وجود سلم ادارى من أجهزة وموظفين يقومون بعملية التنفيذ هذه ، ولكثرة درجات هذا السلم تتعقد عملية التنفيذ مما يجعل البيروقراطية تتسم بالتعقيد وتأخير تنفيذ الاعمال (المترجم) .

يسافر العديد منهم الى الجبال هربا من حرارة الاراضى المنخفضة — وغالبا ما يذهب هؤلاء مع أقاربهم وذويهم • وفى الغالب يذهب النساء والاطفال ، دون الرجال • وبالرغم من ان نمط الطرق الحالى فى محافظة كاشان قد تم توسيعه ليلائم متطلبات حركة مرور وسائل النقل الحديثة ، الا انه من حيث الشكل لا يزال على ما كان عليه فى القرن التاسع عشر وربما القرن الثانى عشر ، حيث كانت حدود المدينة مماثلة تماما لحدودها الحالية ، وهكذا ، فان هذا النمط من الهجرة الصيفية الذى لم يكن عاما فى الشرق الاوسط منذ عدة قرون ، قد اوجدته زيادة الثروة • كما أن سيطرة المدينة ، أو سيطرة مدينة بعينها مثل كاشان ، ليست مسألة جديدة • ففى عام ١٨٨٩م تعرف براون E. G. Browne على عبارتين يستخدمها السكان بنفس المعنى ، ومازال هذا الاستخدام مستمرا حتى اليوم • وهاتان العبارتان ظهرتا له عندما ناقش لهجة محلية لاحدى القرى مع أحد المزارعين حيث كانت اجابة الاخير « انى أذهب الى المدينة » و « انى أذهب الى كاشان » (٥) •

وتعتبر كاشان مثالا جيدا لتوضيح النقطة التى بينها نادر L. Nader (٦) من ان الاتصال الذى ينجم بفعل مصالح فردية أو شخصية يتجه فى الغالب من المدينة الى القرية ، بينما يتجه الاتصال الذى ينشأ عن عدم اهتمام شخصى أو فردى — فى العادة — الى أن يكون اتصالا متبادلا بين الحضر والقرى • وتتمثل الحالة الاخيرة ، على سبيل المثال أيضا ، فى القرويين اللبنانيين الذين يدخلون فى اتصال مع سكان المدينة عندما تقف جماعتين متصارعتين من القرويين ضد اى شخص بدور الوسيط بينهما اذا كان من خارج القرية • وقد يحاول هذا الشخص ايجاد

---

(٥) V. F. Costello, Kashan: A City and Region of Iran, London, 1976.

(٦) L. Nader, Communication Between City and Village in the Middle East. Human Organisation, 24, (1965), 18 - 24.

حلول للمشكلة بطريق غير رسمي بعيدا عن المحكمة • ولا ينجح فى حل مشكلة العداء بين هاتين الجماعتين الا فى مكان محايد ، بعيدا عن القرية ذاتها ، وغالبا ما يحدث هذا فى منزل الوسيط نفسه ، الذى قد يكون محاميا • أو سياسيا ، أو مثلا للحكومة ، أو غير ذلك ، والذى قد يكون سلوكه هذا فى مقابل مال ، أو للوصـــول الى منزلة Prestige (٧) أرقى او لتأييد سياسى •

اســـباب الهجـرة :

يمكن تلخيص الاسباب الاساسية للهجرة من الريف الى الحضر بشكل ملائم فى ضوء عوامل « الجذب Pull » وعوامل « الطرد Push ويختلف التوازن بين هذه العوامل ـ فى الواقع ـ من فرد لفرد ومن إقليم لاقليم • وعند تناول المجموعة الاولى من هذه العوامل ، يتضح أن المقيمين بالقرى ، وبالمدن الصغرى ينجذبون الى المدن الكبرى نظرا لما يعتقدونه من أن حياة افضل وأكثر اشراقا تنتظرهم • وترى جانيت أبو لغد أن عددا كبيرا من الشباب ، تنحصر مطامحهم فى التعليم او معرفة القراءة

---

(٧) يشير مصطلح « المنزلة Prsstige » الى نسبية الوقار الذى يتحصله الفرد عن طريق تمايز التقويمات • ورغم هذا فهناك اتجاه تصبح فيه عناصر نسق الجزاء ذات علاقات متكاملة فى داخل نسق الرتبة القائم على الوقار حيث يمكن أن يطلق عليه « التدرج الطبقى » وتشير « المنزلة » لدى دافيز الى القيم المتصلة بأية مكانة اجتماعية Social Status • وهذه القيم نسبية من حيث ارتباطها بالبنـــاء الاجتماعى ، كما يرتبط الدور Role بالوقار Esteem. •

أنظر فى ذلك : غريب سيد أحمد ، الطبقة الاجتماعية ، الجزء الاول ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٢ ، ص ١١٦ ، ١٣٧ وكذلك :
Kingbley Davis, A Conceptual Analysis of Stratification, A. S. R., Vol. 7, No. 3, 1942. pp. 309 - 321.

(المترجم) •

والكتابة ، ويهاجرون الى القاهرة بحيث يندمجون بسرعة فى الحيـــاة الحضرية (٨) · كما أوضحت دراسة حوافز المهاجرين الى طهران فيما بين عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٦ أن ١٧٪ منهم هاجروا اليها بحثا عن عمل افضل ، وأن ٢ر٥٪ بسبب التعليم · وقد جاء كثير من هؤلاء من مدن أخرى الا أن ٧٢٪ جاءوا بحثا عن عمل أو بحثا عن عمل أفضل · فاجور العمال المرتفعة فى طهران ، أكثر منضعف ما يتقاضاه نظرائهم فى بقية القطر كانت الحافز الأقوى للهجرة · كما كان الزواج حافزا لنسبة ١١٪ مـــن ٢٣٥٫٠٠٠ مهاجر كانوا موضوع الدراسة اذ تعتبر الزيجات المترتبة على الهجرة سمة عامة · حيث يعود الذين سبقت هجرتهم الى طهران بمصاحبة زوجاتهم بعد ذهابهم الى قريتهم الاصلية أو مدينتهم الاصلية للزواج(١٠)·

وفى مراكز النمو الاقتصادى بالشرق الاوسط ، خاصة المناطق المرتبطة بصناعة البترول مثل الكويت ، نجدها تمثل جذبا للمهاجرين · الا أن توفر فرصة العمل لا يتضمن فى حد ذاته امكانية حدوث هجرة واسعة النطاق ، حتى ولو كانت المنطقة قروية فقيرة مثل ريف الشرق الاوسط فبعض دول الخليج Gulf تفرض قيودا على المهاجرين لتقليل الاعداد التى تعيش فى المناطق الحضرية · وتتضح هذه الحالة ، مثلا فى مدينة كاشان ، اذ لا تحدث الهجرة بمدى واسع من المناطق الريفية الى المدينة ، وذلك برغم أن المدينة تتوسع توسعا سريعا فى صناعة النسيج الحديثـــة ، والاقتصاد المزدهر ، والروابط الوثيقة بالمناطق الريفية المحيطة بها · وعلى أساس هذه الحقيقة ، تعتبر كاشان منطقة جذب مثالية للمهاجرين القرويين ، الا ان عوامل الجذب لمدينة طهران اعظم ، او ان ترك المناطق

---

(٨) J. Abu - Lughod, Migrant Adjustment to City Life: The Egyptian Case, American Journal of Sociology, 57 (1961), p 23.

(٩) H. Bahrambeygui. (Tehran: An Uraban Analysis), Unpublished M. A. Thesis, University of Durham, 1972, pp. 49 - 50.

الريفية ليست حافزا قويا بالمرة للهجرة الى كاشان (٩) ٠

ويلاحظ أن المهاجرين الى بغداد Baghdad ، وخاصة من المناطق الجنوبية من العراق ، يتحركون أيضاً لاسباب اقتصادية فى الاساس الاول فالدخل الشهرى للمهاجر الى بغداد ـ بغض النظر عن خبراته وتدريبه ـ يمكن أن يعادل دخله السنوى من العمل بالزراعة فى منطقة العمارة Amara وأبعد من ذلك فان المهاجر ينتقى نوعية العمل الذى يرغب فيه ، وهو لايعمل فترة طويلة لحساب مالك الارض ، ولا يجعل دخله يذهب الى المرابين ٠ ولقد إجرى عزيز M. Azeez مقابلات مع مهاجرى (العمارة) كشفت عن أن بعض المهاجرين كانوا يعيشون على السرقة فيها . ولكنهم أصبحوا الان أصحاب متاجر وبدالين ناجحين فى بغداد (١١) ٠ كما أن ارتفاع دخل المهاجرين أدى الى تحسين نوعية الغذاء الذى يتناولونه ٠ وتتميز منطقة العمارة ببيع مختلف أنواع الفاكهة والخضروات فى المدينة ، ومن ذلك أنواع البطيخ الذى يوجد عائما على سطح البحر أو المستنقعات وينظر الى الخدمات التعليمية والصحية على أنها عوامل جذب هامة فى بغداد ، وفجاة يصبح مهاجروا المدينة هم المستفيدين من المشروعات الحكومية الخاصة بتحسين الاسكان وتنقية المياه ، وخدمات النقل والكهرباء وغيرها٠ ولقد كتب المهاجرون ـ الذين أجريت معهم المقابلات ـ الى أقاربهم وأصدقائهم فى القرى يصفون لهم طريقة الحياة المقبولة والمريحة فى المدينة ٠ ونتيجة لهذا افتقد العديد ممن يعيشون فى منطقة (العمارة) حماسهم للعمل بالزراعة وفى المشاركة فى الحياة الريفية ٠ ومع ذلك

---

(١٠) V. F. Costello, 1976, op. cit.,

(١١) M. M. Azeez, (Geographical Aspects of Rural Migration from Amara Province Iraq, 1955 - 1964), Unpublished Ph. D Thesis, University of Durham, 1968.

فان ٢٠٪ من الذين اجريت معهم المقابلات فى بغداد قالوا انهم مقتنعون بالعودة الى (العمارة) (١٢) ٠

وخلال القرن الحالى كان من النادر أن يخلو الشرق الاوسط مـ عمليات الاضطراب السياسى التى تنتج عنها حركة سكانية واسعة النطاق نحو المدن ٠ فقد أدى انشاء اسرائيل فى عام ١٩٤٨ الى تشتت الفلسطينيين على نطاق واسع ٠ ووجد الكثير منهم طريقة الى بيدون فيل Bidon Villes فى بيروت Beirut ، لكى يكونوا مجتمعاتهم المحلية الخاصة الى جوار مواطنى بيروت ، والى جوار أولئك الذين يعيشون فى المناطق المبتلاة بالفقر فى جنوب لبنان (١٣) وهناك مثال اخر للانتقال الاجبارى للمجتمعات المحلية التركية من جزر ايجين Aegean Islands الى المناطق الرئيسية التركية تنفيذا لمعاهدة لوزان فى عام ١٩٢٣ ٠فلقد وصلت مجموعة مكونة من حوالى أربعمائة شخص فى اخر الامر الى مدينة بودروم Bodrum بحيث احدثوا تحولا فى الكثير من مظاهر الحياة المحلية والاقتصادية المحلى،وعلموا المواطنين تناول أطعمة جديدة مثل الطماطم الناضجة والاسماك البحرية ، التى لم تكن تؤكل من قبل ، سواء لانهم لم يخبروها أو لسبب المعتقدات الخرافية المحلية التى تدور حول هذه الاطعمة (١٤) ٠ ومثال ثالث يتمثل فى حركة رجال القبائل الكردية Kurdish الى المراكز الرئيسية للامبراطورية العثمانية خلال السنوات التى سبقت الحرب العالمية الاولى ٠ وقد كان نمو الطبقــة

---

(١٢) Azeez, Ibid, pp. 267 - 327.

(١٣) ويحدث هذا الانتقال الاجبارى بين المجتمعات المحلية فى أوقات الازمات والحروب ، ومثال ذلك ما حدث بالنسبة لمدن القناة ـ السويس والاسماعيلية وبور سعيد ـ اثناء الحرب ، حيث انتقل سكان هذه المدن الى مدن أو قرى أخرى قد تكون بعيدة عن الوطن الاصلى حفظا للامان (المترجم) ٠

(١٤) F. Mansur, Bodrum: A Town in the Aegean, Leiden: 1972, p. 10.

المتطلمة الكردية الذى تلى ذلك ناتجا عن نماء واحياء الوعى القومى الكردى • وحديثا جدا كان القتال بين القوى الوطنية الكردية والقوى الحكومية العراقية وتحطم القوى الكردية بواسطة السلاح الجوى العراقى، بمثابة عامل معجل لحركة المهاجرين من القرى الى المراكز الحضرية فى المناطق الكردية من العراق • (١٦) كما كان للسياسات الحكومية الخاصة لتوطين البدو واستقرارهم اثرها فى كل مكان • ففى ظل رضا شاه Reza Shah ١٩٢٥ — ١٩٤١) اجبرت بعض القبائل الايرانية على ارسال نسبة من أطفالها الى المدارس الاولية • ومكث بعض هؤلاء بالمدن ووجد فيها عملا واستقر هناك ، وعاد بعضهم الى قبيلته بعد أن أكمل تعليمه (١٥) • كما أن التجنيد الاجبارى فى القوات المسلحة كان يركز على الشباب لتدريبهم على الحضارة الالية وتلقينهم أساليب التعليم الحديثة • وحدث هذا فى كل كان بالشرق الاوسط ، حيث يتحرك هؤلاء الشباب بعيدا عن موطنهم ، ويقضون بعض الوقت — عادة — فى ثكنات الجيش بالمدن • وهناك أيضا موقف اخر فى اسرائيل ، حيث بدأ العديد من المهاجرين القرويين فى الحركة الى المدن لاول مرة • وكانت المعدلات فى ذلك أقل بالنسبة للمهاجرين الاوربيين والمهاجرين من امريكا الشمالية عما هو الحال بالنسبة لليهود المهاجرين من شمال افريقية ومن اليمن •

والى جانب عوامل الطرد المؤثرة فى الهجرة والتى كانت عوامل سياسية

---

(١٥) R. I. Lawless, Iraq: Changing Population Patterns, In Populations of the Middle East and North Africa, (ed.) J. I. Clarke & W. B. Fisher, London, 1972, p. 104.

(١٦) J. I. Clarke & B. D. Clark, Kermanshah: An Iranian Provincial City; Centre for Middle Eastern and Islamic Studies, Publication No. I, Department of Geography Research paper Series No. 10, University of Durham, 1969, p. 22.

فى أصولها ، فهناك الضغوط الاقتصادية المحركة (١٧) وتختلف كثافة هذه الضغوط من بلد لبلد ومن اقليم لاقليم فالهجرة من الريف الى الحضر فى تركيا Turkey لم تسجل فى التعدادات كما هى بالفعل ، الا أن هناك شواهد بأنها كانت أعظم على الاطراف الساحلية للدولة عما هو الحال فى داخلها • وفى الداخل تتعاظم الهجرة الى الغرب عما هو الحال بالنسبة للشرق • وهذا يعكس الاختلافات الاقليمية الملحوظة فى مستوى التطور الاقتصادى ، اذ تقدمت عملية تحديث Modernizatoin الزراعة فى المناطق الساحلية وكفاءتها فى الغرب عما هو الحال فى الشرق • فكثافة سكان الريف أكبر فى محافظة ترابزون Trabzon على ساحل البحر الاسود ، حيث يساعد تنوع المحاصيل على دعم أو تلبية متطلبات عدد كبير من السكان فى تركيا ، بشكل يمكن النظر اليه على انه نوع معتدل من الازدهار وبالرغم من ذلك فثمة مؤشرات على وجود ضغوط معينة على الموارد بفعل الهجرة المتدفقة نحو الغرب (١٨) ، وفى ليبيا ايضا تظهر أنماط مختلفة من الهجرة سواء داخل كل محافظة أو بين المحافظات • فثلاثة أرباع المهاجرين المسجلين فى تعداد عام ١٩٦٤ جاءوا الى منطقة طرابلس

---

(١٧) وفى دراسة اجراها الدكتور عزت حجازى على مدينة القاهرة ، يوضح أن اكثر المحافظات غير الحضرية طردا الى القاهرة — وهى محافظات المنوفية والقليوبية والغربية وأسيوط وسوهاج — هى ، فى حالة الثلاث الاولى ، أقربها الى العاصمة واكثرها ، وبالتالى اقلها توفيرا لفرص العمل • وهذا يتمشى مع مالوحظ من ان القرب المكانى بين مركزى الطرد والجذب عامل هام من عوامل التشجيع على الهجرة ، كما يؤكد الدوافع الاقتصادية للهجرة (انظر : عزت حجازى ، القاهرة : دراسة فى ظاهرة التحضر ، المركز القوى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ١٩٧١ ، ص ٢٦) (المترجم) •

(١٨) J. Dewdney, Turkey, London. 1971, p. 174. & I. Dewdney: Turkey: Recent Population Trends, in Populations of the Middle East and North Africa, (ed.), J. I. Clarke & W. B. Fisher, London, 1972, pp. 48 - 65.

Tripolitania ، التي تمثل اكبر تركز من سكان القطر • اذ سارت الغالبية الى مدينة طرابلس Tripolis ، التي تمتاز بموقع رئيسي لا تتميز به ارضها الزراعية من خصبة — وفي الاقليم الساحلي الى الشرق من طرابلس تؤدي قلة جداول المياه الى مزيد من الضغط على الموارد ، وبالتالي ينتقل عشرات الالوف من السكان الى طرابلس ، ويساعد على ذلك سهولة النقل والمواصلات • وفي فزان Fezzan ، تلك المحافظة الليبية الى الجنوب داخل الصحراء ، نجد شبكة مصارف المياه صعبة ، وجداول الماء مرتفعة، والاستخدام الزائد للارض وتأثير عملية التبخير ، كل هذا يتسبب في احتمالات انخفاض خصوبة الارض وتحولها الى ارض ملحة Saline وبالتالي انخفاض ساحة الارض المزروعة الى ٥٠٪ اعتبارا من عـــام ١٩٠٠م (١٩) •

هذه الامثلة التي سقناها من تركيا ومن ليبيا توضح أن الاتجـــاه المتزايد للهجرة من المناطق الريفية يحدث عندما يكون ثمة ضغط اقليمي أو محلي للسكان على الموارد المتاحة — وربما تكون هناك عوامل تسهم في حل جزئي بعض المشكلات الريفية ، منها تيسير ارسال المهاجرين القرويين في المدينة حوالات بريدية الى قراهم • ويشيع هذا الاتجـــاه بالنسبة للقرويين في بلدنا مصر وفي لبنان ، حيث يعملون بعيدا عن قراهم ، ولكنهم يحافظون على موسم معين أو مناسبات محددة ليقيموا مع ذويهم اقامة دائمة ، اذ قد يحتفظون في القرى بالسجلات السياسية والادارية والقانونية مما يجعلهم لا ينفصلون كلية عن قراهم ، وفي السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر ، لفتت القرويون اللبنانيون المهاجرون من معقراتهم

---

(١٩) R. G. Hartley, Libya: Economic Development and Demographic Responses, In Population of the Middle East and North Africa, (ed.) J. I. Clarke & W. B. Fisher, London, 1972, pp. 323 — 332.

التى كونوها فى المدن ، ما يسهم فى تحسين بعض المرافق والمشكلات القائمة فى القرى مثل رصف الشوارع ، ولقامة خزانات للمياه ، وبناء اسطح مغطاة بالاسمنت ، وما شابه ذلك (٢٠) ٠

وقد تغيرت لتجاهات الحكومة نحو القطاع الريفى بمجيء القـوى والحكومات الاصلاحية والشعبية وحدث هذا التغير فى تركيا كنتيجة للانتخابات التى أجريت عام ١٩٥٢ حيث وصل الحزب الديموقراطى الى الحكم ، وفى كل من تركيا ومصر وأيران والعراق وغيرها من البلاد كان مقياس الاصلاح الزراعى متمثلا في محاولة تحسين الاراضى الزراعية ٠ ان استصلاح الارض عن طريق مرسوم حكومي يحول الارض فى الغالب من سيطرة الملاك السابقين الى مستاجرين او الى ملاك جدد ٠ولقد اصبحت الاعمال التى كان يقوم بها ملاك الارض السابقين والتى تمثلت في الامداد برأس المال ، والاقراض ، وتسهيل تحقيق فائض زراعى ، كل هذه الاعمال أصبحت الان — بعد تطبيق الاصلاح الزراعى — تتم عن طريق التسويق التعاونى ونظم الاقراض والائتمان الحكومى ٠ وفى نفس الوقت يتضمن الاصلاح الزراعى عملية تحديث الزراعة فى بعض المناطق ، وغالبا ما يكون ذلك من خلال دمج بعض أجزاء الرقعة الزراعية فى منطقة ما ، واستخدام الالات ، وتحسين مشروعات الرى وتوسيع مدلها ، وايجاد محاصيل جديدة ، وتصبح الاهداف الرئيسية لهذه الاجراءات من وجهة نظر الحكومة منحصرة فى رفع انتاجية الهتكار من جانب وانتاجية العامل الزراعى من جانب اخر ، كما تنحصر الاهداف فى انتاج محاصيل جديدة تهدف الى زيادة الاقتصاد ورفع الدخول الريفية يضاف الى ذلك ما تقدمه الحكومات من خدمات صحية وتعليمية وغيرها من جوانب الرعاية الاجتماعية ، وتهدف

---

(٢٠) R. Antoun & I. Harik, Rural Politics and Social Change in the Middle East, Bloomington, Ind, 1972. pp. 8 — 10.

كل هذه الاجراءات الى حدما ـ الى المحافظة ـ على استمرار المزارعين فى مناطقهم الزراعية • وبعيدا عن الاقامة بالمدن (٢١) •

الا أن الاثار المترتبة على هذه السياسات قد تكون على عكس ما تهدف اليه الحكومات • فالتميز بالاصلاح الزراعى فى عديد من أجزاء العالم توضح أن الدخل الفردى فى المناطق الريفية يمكن أن يرتفع فقط على المدى الطويل اذا ترك الناس الارض • وقد ينطبق هذا أيضا على أجزاء من الشرق الاوسط • اذ تتطلب الميكنة عددا أقل من العمال ، أو حدا أدنى منهم دون زيادة ، اذ تتاح لهؤلاء نفس منابع الثروة التى كانت للكثرة • وفى ظل برنامج الاصلاح الزراعى الاخير فى ايران لا يسمح بالعمل فى الارض الا لتلك الاسر التى تمتعت بحقوق استئجار وزراعة الارض من قبل • وبالتالى يستثنى عمال الزراعية ، والعمال غير الزراعيين من التمتع بهذا الحق ، الامر الذى يثير وعيا طبقيا أفضل ، ويمدهم بحوافز اضافية لترك القرى (٢٢) • وتعمل الحكومات أيضا على توسيع نطاق الارض الزراعية من خلال مشروعات الرى واستصلاح الاراضى الصحراوية وردم المستنقعات واستصلاحها • ومن المشروعات المذهلة فى هذا المجال السد العالى بأسوان فى مصر ، الا أن نمو السكان فى هذه الحالة يتجـــاوز مجهودات الحكومة ، حيث انخفضت مساحة الارض الزراعية بالنسبة لكل فرد بأكثر من ٢٥٪ فيما بين عام ١٩٤٧ وعام ١٩٦٥ (٢٣) •

---

(٢١) بمعنى خفض معدلات الهجرة الريفية ـ الحضرية (المترجم)

(٢٢) I. Ajami, Social Clases, Family Demognaphic Characteristics and Nobility in Three Iranian Villages, Sociologia Ruralis 9, 1969, pp. 62 — 72.

(٢٣) A. B. Mountsoy, Egypt: Population and Resources, in Populations of the Middle East and North Africa, (ed.), J. I. Clarke & W. B. Fisher, London, 1972, p. 310.

وثمة منطقتين متناقضتين يمكن استخدامهما كمثالين لتوضيح هذه المشكلة الرئيسية للضغط السكانى على منابع الثروة • احدهما فى ايران ، والاخرى فى الاراضى المنخفضة الواقعة بين دجلة والفرات • أولا، يقول بوين جونز H. Bowen Jones عن ايران •

فى القرى العليا والاراض المرتفعة فى صوب جبال زاجروس Zagros والبورز Alburz وعلى الجبال الرئيسية المعزولة فى تيزرجان Tezergan وفى كوه لثافتان Kuh-L-Toftom بمنطقة بلوخستان Boluchistan وكما هو الحالى فى كل مكان فى الارض المرتفعة بالشرق الاوسط ، يبدو الازدهار والخصوبة كعوامل تساعد على الاقامة والسكنى ، واذا ما قورن ذلك مع الارض المنبسطة المنخفضة • ومن المهم انه يبدو للمسافر أن ثمة وفرة زراعية لما يراه من بعض الاشجار ، وبساتين اللوز والمشمش ، والمصاطب الزراعية المدرجة وما يتبع ذلك من تنوع زراعة الحبوب والبقول والنباتات وحتى اذا كانت معدلات الانتاج متطورة فقط عن طريق العمل اليدوى النشط والرخيص الذى يؤدى الى تطوير وتنمية الخصوبة اكثر وأكثر ، فان النمو السكانى يتزايد أيضا فى مواجهة منابع الثروة المقيدة بصلابة الارض التى يمكن استخدامها طبواغرافيا • وهنا يكمن التناقض بين الوفرة الظاهرية وبين الفقر الحقيقى •••

وفى أقاليم مثل تلك التى توجد فى ظروف ايكولوجية واقتصادية واجتماعية سيئة • كما هو الحال فى عديد من المناطق المتشابهة التى وجدت فى العالم القديم والصالحة لزراعة محاصيل شبه استوائية ، تلك الاقاليم الممتدة من ايبريا الاطلنطية Atlantic Iberia شرقا الى اليابان Japan ، يعمل المزارعون الايرانيون بالقرى الجبلية على ايجاد بدائل قليلة تعتمد على منابع الثروة الزراعية المحلية ، وذلك استصلاح الارض بقدر المستطاع طالما يتوافر الماء ، ومع ذلك فهذه المناطق لا تخلو من الامراض والكوارث المستمرة • ويعنى التركيز القوى على أدوات الانتاج المختلفة فقط

لنهايتها مستمرا وتزايدا للطاقة البشرية ، وما يصاحب ذلك من ارتفاع متوقع لامتصاص الفرص الاجتماعية والاقتصادية التي تعمل على اصلاح حال المزارعين في المجتمعات المدنية المستصلحة . وثمة حقيقة تأسيسية مؤداها ان تعدد الاقاليم البالغة الصغر من هذا النوع ، والتي تكتظ بالسكان القرويين او يؤدي الى انخفاض مستوى حياة المزارع . وليست هناك احتمالات لتعديلات في الملكية ، او تحسينات في التكنولوجيا يمكن ان تؤدي الى تخفيف حدة هذا الوضع الذي ينطوي على علاقة بين مجال الاختيار وثلاثة احتمالات . أهمها الهجرة للمدن ، وهو الامر الذي يحدث الان عالميا وبمعدلات متزايدة » (٢٤) .

ان الموقف الذي تم وصفه هنا يعم المناطق المرتفعة بالشـــرق الاوسط . الا ان الاراضي المنخفضة الواقعة بين دجلة والفرات Tigris — Euphrates تمثل صورة مغايرة .

ويختلف الموقف في ريف العراق عنه في غيره من بلاد الشرق الاوسط ، اذ يلاحظ انخفاض في القوى العاملة الزراعية نتيجة للهجرة من الاماكن الريفية الى المدن . ان الاسباب وراء استمرار الهجرة ـ رغم ان المساحة الزراعية المتاحة بالنسبة للفرد متزايدة ـ هذه الاسباب تنظيمية الى حد كبير ، فقد كان الشكل التقليدي لملكية الارض قبل عام ١٩٣٢ شكلا قبائليا ، فكل قبيلة تشكل قطعة من الارض وتستخدمها للزراعة او الرعي . ويعتمد حجم الملكية القبائلية على حجم القبيلة وقوتها . ويعتبر رئيس القبيلة او شيخها عضوا عاديا يحصل على مكانته بسبب ما يتمتع به من صفات

---

(٢٤) R. A. Fernea, Land Reform and Ecology in Post — Revolutionary Iraq: Economic Development and Cultural Change 17, 1969, pp. 356 — 81.

قيادية خاصة فقط الا أنه في ظل قوانين ١٩٣٢ — ١٩٨٣ الخاصة بتوطين الارض Jand Setlement اغتصب الشيوخ ملكية الاراضي عن طريق تسجيلها بأسمائهم هم • وهكذا تغيرت العلاقـــة التي كانت بين شيخ القبيلة وأعضائها ، لتصبح علاقة بين مالك ومستأجرين (٢٥) اذ أصبحت الظروف جائرة في الريف — ولكن قانون الاصـــلاح الزراعي في عام ١٩٥٩م ، بالرغم من أنه يهدف الى تحطيم القوة السياسية لملاك الارض ، الا أنه قد أدى الى كثير من الخلط وعدم الاستقرار ، ويرجع ذلك الى حد ما للتغييرات المستمرة في السياسات والاشخاص ، الامر الذي انعكس في النهاية في تغير عملية التوزيع (٢٦) ، وبالتالي شجعت على تزايد معدلات الهجرة •

أن ما أحدثته الهجرة من حرمان العمل الزراعي من اليافعين — وهم الاكثر فئات السن نشاطا وحيوية • قد أدى بدوره الى قصور حاد في القوى العاملة الزراعية ، فضلا عن انكماش الرقعة الزراعية ، وتدهـــور في انتاج المحاصيل • ففي الوقت الذي يتزايد فيه المجموع الكلي لسكان العراق ، يوجه اجمالي دخل البترول نحو ايجاد مشروعات متنوعة للتنمية والاتجاه الى استيراد المواد الغذائية لسد الحاجات ، بالاضافة الى أن المشكلات الطبيعية للمنطقة التي تروى ثم تتغير بفعل استصلاح الارض • وتعتبر عملية الارالحة Fallow (٢٧) المتضمـــة للارض بمثابة بديل للاستخدام المركز للارض التي يجب أن تروى ، ذلك الاسلوب بسبب ملوحة

---

(٢٥) F. Baali, Agrarian Reform in Iraq: Some Socio — Economic Aspects, The American Journal of Economics & Sociology 28, 1969, pp. 61 — 76.

(٢٦) Lawless, op. cit., pp. 112 — 15.

(٢٧) نظام بموجبه يتم حرث الارض وتركها موسما زراعيا كاملا بدون زراعة بقصد عدم انهاكها (المترجم) •

الارض وانخفاض مستوى خصوبتها ، الا اذا كانت هناك عمليات صرف باهظة التكاليف • وبدون استغلال الوقت وسياسات الصرف هذه ،والخبرة بزراعة محاصيل تريح الارض ـ كاستخدام ملاحة (لصناعة الملح) ـ واعادة حرث منحدرات التلال وتدريب المشرفين على الاوض فليس هناك من مفر الا مصادرة الاراضى واعادة توزيعها على المعدمين كعملية تشجيع لبعض مئات الالوف من المهاجرين الريفيين التى المدينة للعــــودة الى قراهم (٢٨) •

ولا يمكن القول بان كل المهاجرين الى المدن الكبرى بالشرق الاوسط قد جاءوا من القرى الريفية ، فقد جاء بعضهم من مدن صغيرة أو تقليدية ومن ثم كانت المعدلات المرتفعة نسبيا لنمو المدن الكبرى والنمو البطىء للمدن الصغيرة والمتوسطة الحجم • الا أن ثمة اختلافات اقليمية داخل القطر الواحد فى هذا المظهر • ومثال ذلك التناقض الواضح بين المدن الشمالية والغربية فى ايران من ناحية ، حيث تتميز بكثافة سكانية عالية نسبيا فى الاراضى الزراعية ومعدلات عالية من الهجرة الى المدن بغض النظر عن حجم المدينة ، وبين المدن الجنوبية والشرقية من ناحية أخرى ، وهى الاجزاء الاكثر جدبا فى القطر ، والتى تتميز بكثافة منخفضة نسبيا لسكان الريف ومعدلات منخفضة ـ أيضا ـ للهجرة الى المدينة او حتى الهجرة النهائية بعيدا عن مدن بعينها (٢٩) •

---

(٢٨) R A. Fernea and E. W. Fernea, (Iraq), Focus 4, 1969, pp. 193 — 5.

(٢٩) B. D. Clark & V. F. Costello, The Urban System and Social Patterns in Iranian Cities, Transactions of the Institute of British Geographers, 59, (1973), pp. 101 - 5.

وتعتبر الهجرة بعيدا عن مدينة اران بيدجول Aran bidgol بالمنطقة الشمالية من ايران مثلا على تجاوز النمو السكانى لمنابع الثروة المحلية بطريقة تشبه أوضاع القرى التى نوقشت فيما سبق · وبالرغم من ان التعداد يصنف سكان هذه المدينة على أنهم حضريون اذ يبلغ تعدادها ٢٢٢٦٤ نسمة فى عام ١٩٦٦ ، فانهم لا يقومون بوظائف حضرية متخصصة · انها فى واقع الامر عبارة عن قريتين لا تبعد الواحدة منها عن الاخرى أكثر من عشرات قليلة من الامتار ، وتتجمعان معا لاهداف ادارية فقط · كما أن منابع الثروة الاساسية للحياة فى اران بيدجول كانت الى وقت قريب معتمدة على الزراعة وصناعة السجاد وقد تدهورت احوال الزراعة فى السنوات الاخيرة ، بسبب التدهور الذى حل بجداول المياه التى تزايد المنسوب فيها بفعل استخدام المضخات الالية · واضطر عدد من السكان الذكور للهجرة بصمة ، مؤقتة الى المدن الكبرى لكى يساعدوا اسرهم فى موطنهم الاصلى · بينما وجد اخرون عملا بصانع النسيج الحديثة القريبة من مدينة كاشان ، حيث يروحون يجيئون عبر الصحراء· واقتصر توظيف النساء فى الغالب على نسج السجاد فى البيوت عن طريق عقود مبرمة بينهم وبين تجار كاشان ·

وثمة مؤشرات قليلة فى مدينة اران بيدجول على نمو الحياة الاقتصادية المحلية · اذ تم اقامة العديد من المستوصفات والمدارس بتمويلات مالية حكومية كما شيد المقيمون انفسهم بنايات حديثة ولكنها قليلة · وكان التحسين فى الخدمات الصحية ملحوظا ومؤثرا فى انخفاض معدل الوفيات حيث ارتفع معدل السكان فيما بين عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٦ الى ٤٠٪ وذلك بالرغم من عامل الهجرة · وكانت كثافة السكان بالنسبة لمن يقيمون فى الهكتار الواحد فى القرى الصغيرة كثافة عالية · وفى نفس الوقت فان قصور المبادرات المحلية كان يرجع — جزئيا — لهجرة الشباب من هذه المدينة ، خاصة المتعلمون الذين تخرجوا فى المدارس ·

المهاجرون فى المدينـــــة :

ان الحياة الاجتماعية للمهاجرين الذين يقيمون فى المدينة ، والطريقة التى من خلالها تنتظم علاقاتهم الاجتماعية ، تخضع كثيرا لتاثير الظروف الديموجرافية والاقتصادية أيضا يعيشون ، كما أنهم يؤثرون فى المدينة من خلال حراكهم الجغرافى - والمهاجرون الى المدينة موضوع حسن بالتأمل والمناقشة : الا أن نظرة متعمقة للدراسات التى أجريت حولهم توضح مدى قلة البحوث المنشورة عنهم . وتضح جانبت أبو لغد Abu — Lughad عددا من الفروض التى تدور حول تكيف القرويين للحياة فى القاهرة ، اذ تتضح قضية مؤداها أن القرويين يميلون الى الاقامة بالقرب من الاطراف الريفية الحضرية للقاهرة وفى أجزاء من التجانس الدينى والعراقى ، وبدرجة عالية من الامية والخصوبة . كما يقيمون فى كافة الاماكن التى تتشابه مع ريف مصر عموما . كما كان ثمة فرض بأن هذه المناطق التى عاش فيها القرويون الذين سبقت هجرتهم ، تقدم المعونة للمهاجر لكى يواجه مؤثرات التحول من القرية الى المدينة (٣٠) . ولقد أجرى بيترسون K. K. Peterson اختبارا لهذه الفروض فى القاهرة ، حيث وجد أن المهاجرين يميلون الى السكنى فى الاطراف الريفية الحضرية ، ولكنهم لا يوجدون بنسبة عالية فى مناطق تتسم بارتفاع معدلات الامية أو التجانس الدينى . وأبعد ذلك فان المهاجرين الذين وصلوا للقاهرة حديثا ، لم يكونا يتشابهون كثيرا فى تفضيلهم الاقامة فى هذه المناطق ، أو فى مناطق أخرى ذات مستوى اقتصادى واجتماعى منخفض (٣١) . وأيضا كانت هناك شكوك حـول

---

(٣٠) J. Abu — Lughad, (1961), op. cit.

(٣١) وهناك شواهد عديدة على أن الهجرة الكثيفة من الريف الى القاهرة تعمل باطراد على ترييف المدينة Ruralization ، أو على الاقـــل =

كون المهاجرين من قرى معينة يتجمعون معاً في مناطق متميزة خاصة بالقرويين الذين سبقوهم للهجرة ، ذلك ان بعضهم كان يعيش في عزلة تامة عن قرنائه القرويين (٣٢) ٠

ان اتجاه المهاجرين للتركز في مدن الشرق الاوسط وفقا لمواطنهم الاصلية يختلف من مدينة لمدينة وكذلك خلال الزمن في المدينة الواحدة فلقد اوضح المسح الذي اجرى في طرابلس بليبيا عام ١٩١٧م بأن أسرا من اقليم مصراته Misurata واقاليم اخرى ، قد عاشت في جماعات ٠ وبعد ذلك ، احتفظ الايطاليون بأجزاء من المدينة – مثل جاردن سيتي – من اجل اقامة الاوروبيين ٠ وفي مدن الاكواخ Shanty Towns والتي بدأت تتزايد فجأة خارج الاسوار العالية المحصنة التي بناها الايطاليون لم يكن هناك تمايز واضح بين المهاجرين على اساس موطنهم الاصلي ، ولكن بعد درجة معينة من التركز وفق محل الميلاد : فالمهاجرون من المنطقة الصحراوية يميلون الى التركز في المدينة القديمة وفي عدد معين من مدن الاكواخ القائمة خارج المدخل الجنوبي لها .(٣٣) ٠ وفي المدن المتباينة في الحجم

=

الحيلولة دون اكتساب المدينة للطابع الحضري بسرعة ٠ ففي تعداد عام ١٩٦٠ لم يختلف حجم الاسرة في محافظة القاهرة عن نظيره في الجمهورية كلها ، وفي معظم المحافظات الاخرى ، اختلافا كبيرا – والمعروف ان حجم الاسرة يميل الى التناقص مع تقدم التحضر في المجتمع او اكتمال التحضر للمدينة (انظر : عزت حجازي القاهرة : دراسه في ظاهرة التحضر ، ١٩٧١ ، ص ٥٦ (المترجم) ٠

(٣٢) K. K. Peterson, Villagers in Cairo: Hypotheses Versus Data, American Journal of Sociology, 77, (1971), pp. 560 - 73.

R. S. Harrison, Migrants in the City of Tripoli, Geographical Review, 57, (1967), pp. 397 — 423.

مثل القاهرة وأصفهان ، يميل المهاجرون الى الحياة فى جانب المدينة الاقرب الى موطنهم الاصلى •

وحتى بدايات الستينيات من هذا القرن كانت مساكن المهاجرين الى بغداد تبنى فى الاماكن الفضاء القريبة من مركز المدينة ، وكذلك فى الضواحى Out Skirto ومما سهل عملية اندفاع المهاجرين الى المنطقة الرئيسية بالمدينة تلك الاسر الحضرية التى أمدتهم بالماء النقى والكهرباء• وهذا يؤكد على أن تكون الاتجاهات Attitudes محايدة • فقد قال الروائى فى قصة جابر J. I. Jabra عن فلسطينى متعلم اغترب فى بغداد ، بعد زيارة صديق له فى ضاحية ما ، قال الروائى :

كان الطريق مهجورا وصحراويا الا من سيدتين قرويتين ترتديان ملابس سوداء وتقيمان فى كوخ من الطوب اللبن على بعد مائة ميل تقريبا • ولم يلتفت احد الى هاتين السيدتين اللتين تقيمان فى هذا الكوخ ، حيث لم يكن لاى منهما اسم او ملامح مميزة فى الوجه ، بل كانتا تشبهان الحيوانات التى لا يهتم بها أحد ، (٣٤) • وبعد طوفان المهاجرين القرويين الى بغداد والذى ارتفع فى الخمسينات قام هـؤلاء المهاجرون ببناء اكواخ حول المدينة • وبلغ نطاق الاشجار والمنطقة الصالحة للزراعة حوالى كيلو مترين شرق دجلة • وحتى عام ١٩٥٦ كانت المنطقة حضنا لهذا الطوفان بالرغم مما يتخللها من ماء ملوث ورائحة كريهة (٣٥)• وبقيت البيوت على حالها حتى ازيلت وفق برنامج الاسكان الحكومى •

وعلى العكس من ذلك ، لا يوجد وجه شبه بين مدينة طهران وتلك المدن المكونة من الاكواخ وبالرغم من أن المدينة منطقة جذب قوية بالنسبة

(٣٤) J. I. Jabra, Hunters in a Narrow Street, London, 1960, p. 177.

(٣٥) R. I. Lawless, op. cit., p. 120.

للمهاجرين من كل انحاء ايران · فالقادمون الجـدد يتم استيعابهـم فى مشروعات صناعة النسيج الاخذه فى التوسع فى المدينة · حيث استقرت الغالبية من للفقراء فى المناطق الجنوبية ، التى كانت عبارة عن أطراف صحراوية وبعيدة جدا عن الجبال الباردة فى الشمال · واتسمت هـذه المناطق بارتفاع معدلات الامية والخصوبة ، وكانت أيضا أكثر ازدحاما بالنسبة لعدد الاشخاص فى كل هكتار (٣٦) ·

وتفترض الدراسات التى اجريت بالعينة أن أماكن اقامة المهاجرين قد تغيرت فى غالب الاحوال · ففى طهران يعيش الكثيرون فى فنادق بجنوب المدينة . وبمكنهم الانتقال من فندق لاخر · ويعيش مهاجرون اخرون مع اقاربهم لبعض الوقت · وكثير من العمال يعيشون فى فندق واحد مع بعضهم البعض اذا كانوا من قرية واحدة · فلقد تركوا أسرهم فى موطنهم الاصلى بالقرية · وهناك حوالى ٥٠٪ من المهاجرين الجدد الى طهران قد انتقلوا من مساكنهم بعد ستة اشهر · وقد كان هؤلاء موضوع عينة لبحث اجرته منظمة الصحية العالمية وقسم الصحة العامة بجامعة طهـــران ·

ومن الممكن تحديد عدد من المراحل لبيان حركة الاشخاص الى المدينة وداخلها · حيث تتسم كل جماعة فى كل مرحلة بخصائص اجتماعيه وديموجرافية متمايزة ومتنوعة · ويذكر داروتت Darwent مثل تلك المراحل التى اتضحت فى مشهد Mashad ويمكن ملاحظتها فى بعض مدن

---

(٣٦) H. Bahrambeygni, 1972; op. cit.

الشرق الاوسط (٣٧) • تتمثل المرحلة الاولى للهجرة الى بعض المدن مثل مشهد أو اصفهان ، في أن المهاجرين لا يقيمون بالمناطق الرئيسية بالمدينة القديمة • وهناك تركز دائم وتكرر للذكور الذين يعيشون حول المناطق الرئيسية القديمة لمدن الشرق الاوسط • ففي اصفهان ومشهد يعرفه عديد من هؤلاء الناس بأنهم مهاجرون حتى وان لم يصطحبون معهم اسرهم • فهم يعيشون في فنادق او منازل مكونة من غرف مستقلة يستأجرونها في مركز المدينة القديمة . أو يعيشون مع أقاربهم وذويهم من القرويين • وتتمثل المرحلة الثانية للهجرة في ايجاد انواع من الاتصالات الوثيقة بين المهاجرين والمدينة ، كما تتمثل في تكوين الاسر خلال فترة زمنية أطول ، وينتقل المهاجرون في هذه المرحلة من المناطق الحضرية الصغيرة الى مناطق محيطة بالمدينة ، أو ينتقلون من المدينة القديمة الى ضواح جديدة •

وقد حدث مثل هذا في مدينة طرابلس بليبيا ، اذ تحرك المهاجرون في فترة ما قبل الوجود الايطالي الى المدينة القديمة ، وبالتالي شكلوا تجمعات ليس فقط عن طريق الاقامة وانما أيضا عن طريق المهنة • ويبدو أن الذين يأتون من قرية جبيل Jebel من منطقة تاكبال Takbal يعملون في صناعة الخبز (٣٨) ، مثلما جاء معظم البوابين أو الحمالين الى القاهرة من قرية موشا Musha (٣٩) ولقد انكمشت سرعة النمو الحضري •

(٣٧) D. Darwent, Urban Grouth in Relation to Socio — Economic Development and Westernisation - A Case Study of the City of Mashad, Iran, Unpublished Ph. D. Thesis, University of Durham, 1965.

(٣٨) R. S. Harrison, op. cit., p. 400.

(٣٩) G. Baer, Population and Society in the Arab East, London, 1964, p. 223.

والتطور الاقتصادى فى فترة الوجود الايطالى ، وما نتج عن ذلك ، فى مدينة طرابلس القديمة • اذ تمثلت نشأة المدينة الحديثة فى وجود المهاجرين الذين تحركوا الى القسم الحديث منها بينما استقر الفقراء من المهاجرين الجدد فى الاجزاء القديمة من المدينة او فى الاكواخ المحيطة بهـا (٤٠) •

الا ان ثمة حركة عكسية اتجهت من مدن الأكواخ المحيطة بالمدينة نحو المركز ، ويبدو هذا واضحا فى مدينة بيروت • فبعد حرب ١٩٦٧ حدث تناقص سريع فى المجتمع المحلى اليهودى الذى يقيم فى بيروت ، والذى يقع فى جانب قريب من جراند سيريال Grand Serail حيث هاجر هؤلاء اليهود الى الولايات المتحدة وكندا • وتحركت مجموعات كبيرة من الاسر الكردية من مدن الاكواخ لتشغل المساكن الخالية فى هذه المنطقة وبينما كانت الاسرة اليهودية الواحدة تعيش فى شقة واحدة ، يعيش الان من أربع الى ست أسر كردية فى نفس الشقة (٤١) •

ويمكن تحديد انماط الاستيطان التى يعيشها المهاجرون فى مدن الشرق الاوسط ، بثلاثة انماط من الاستيطان الحضرى المتحول ، والتى وصفها تيرنر Turner (٤٢) • وبيرى Perry (٤٣) بعد أن توصلا

---

(٤٠) Y. A. Elkabir, The Assimilation of Rural Migrants in Tripoli, Libya, Unpublished Ph. D. thesis, Case western Reserve, 1972, pp. 67 — 83.

(٤١) A. Bourgey & J. Phares, Les Bidonuilles, de, Agglomeration de Beyrouth, Revue de Geographie de Lyon, 48, 1973, p. 109.

(٤٢) J. C. F. Turner, un Controlled Urban Settlement: Problems and Policies, United Nations, New York, 1968.

(٤٣) B. J. L. Berry, The Human Consequences of Urbanisation, London, 1973, p. 88.

الى نتائج عامة من خلال دراسات أجريت على العالم الثالث . ويطلق على النمط الاول « رؤوس الجسور Bridge Heads » وهم دون الدخل المنخفض .

ويقطن أصحاب هذا النمط مع الذين يصلون حديثا ، وهم ذوى مهارات متواضعة تتطلبها السوق فقط . انهم يتجهون الى أن يقيموا فى بيوت قديمة بمركز المدينة أو فى مجموعة مخيمات أو أكواخ متجاورة . مرتبطين بكان عملهم الذى يمكن أن يحصلوا عليه . أما النمط الثانى فيتمثل فى « الاقوياء Conpolidators ذوى الدخل المنخفض » ، الذين يميلون الى الاقامة بعيدا عن مركز المدينة ، وبالرغم من اسكانهم التقليدى ودخلهم المحدود فان لديهم ما يكفيهم لسد ضروريات حياتهم . أما النمط الثالث فيتمثل فى تلك « المنطقة المتخلفة المرجو اصلاحها Slums of hope وغالبا ما تكون منطقة اكثر تنظيما وتخطيطا ، ويتجه اصحاب هذا النمط الى تحسين نوعيتهم ببذل الجهد خلال سنوات الاقامة التي تتيح لهم دخلا يواجه ذلك . ويعطى المقيمون فى النمط ـ الثالث للاستيطان اولوية للاسكان . وللتعليم . ولنوعية الخدمات . ويطلق على هؤلاء اسم « المتمسين-لكانة ذات دخل متوسط Middle - Income status Seekers كما يقول بيرى Berry ، ويتمتعون بالتامين الاقتصادى ، ويرغبون فى البحث عن مكانة اجتماعية أفضل من خلال اختيار مكانهم أو موقعهم (٤٤) .

---

(٤٤) وفى القاهرة ، لا يقتصر ميل المهاجرين من مناطق معينة على التركز فى تجمعات سكانية فى مناطق بالذات فى العاصمة . بل انهم يميلون الى التركز فى مهن معينة ايضا نظرا لانهم غالبا ما يعتمدون على اقاربهم أو معارفهم فى الحصول على العمل . وبهذا يساعد عمل المهاجر فى تدعيم ارتباطه مع أهل بلدته فى القاهرة ومعارفه من

وتتماثل انماط الاستيطان الثلاث هذه فى تفاصيلها ، مع ما وصفه يونس الكبير Elkabir ١٩٧٢ فى طرابلس بليبيا • وتمثل النمط الاول فى منطقة تسمى الهضبة El - Hadba التى تتميز بالمساكن الفقيرة المبنية من الصفائح عن استخراج البترول ، وقطع من الحديد المموج والنفايات ، وقطع من الخشب • وتتميز هذه المنطقة بعدم كفاية امدادات الماء والخدمات الصحية والتعرض للامراض ، كما أن كثافة السكان فيها مرتفعة • والازدحام الزائد يجبر المقيمين على الترفيه عن أنفسهم فى الازقة والاراضى المهجورة بعيدين عن المنزل ، بينما تظهر مشكلات أخرى مثل ارتفاع معدل الجريمة وانتشار البغاء • وبالرغم من وجود شيخ المنطقة الذى يفترض أن يكون عماد السلطة الادارية ويتطلب بعض الاحترام ، الا أن المقيمين بهذه المنطقة يشكون من عدم تجانس الجوار ، كما يشكون من التوترات الاسرية — داخل الاسرة وبين الاسر — مما يدى دائما الى منازعات عنيفة •

اما المنطقة التى تسمى الهانى El Hani فلا تتشابه مع منطقة الهضبة من حيث الظروف المادية ، ولكنها توصف بانها أكثر تكاملا من الناحية الاجتماعية • فالشيخ كان مصدر النصح والعون فى الجوار ويستطيع أن يربط بين المنطقة وبين المدينة ، والحياة الاسرية مستقرة الى حد ما ، ولا تكون الجريمة أو البغاء مشكلة • ويبدو أن الهانى أصبحت أن المناطق المتخلفة التى يرجى اصلاحها •

=

المهاجرين • وتدور حياة المهاجرين اليومية داخل التجمعات الريفية حول الاسرة والجيرة •

(أنظر : عزت حجازى ، القاهرة ، مرجع سابق ، ص ٥٤)

(المترجـــم) •

وليس لمحل الاقامة من النمط الثالث اسم معين ، وقد وصفه يونس الكبير بارتباطه بجنوب مركز طرابلس • انه يتفق مع مناطق الدخل المتوسط التى وصفها تيرنر Turner • فكثافة السكان اكثر انخفاضا عنها فى مدن الاكواخ ، ويتكون المسكن من عدة طوابق ، وتتخذ بعض البيوت طرازا اوروبيا الى حد ما • وتتمتع هذه المنطقة بوفرة الماء النقى • ويبدو أن المقيمين هنا على درجة عالية من المشاركة الاجتماعية والجوار • وتقل حالات الطلاق اذا ما قيست بمنطقة الهانى او الهضبة ، وعموما فالحياة الاسرية اكثر استقرارا (٤٥) •

هذه هى الظروف الطبيعية التى يعيش المهاجرون خلالها • فكيف ينظم هؤلاء وغيرهم حياتهم ؟ وكيف يتكيفون مع المجتمع الدائم التغير فى مناطق التوسع الحضرى السريع ؟ هذا هو موضوع الفصل التالى •

(٤٥) Y. A. Elkabir, op. cit., pp. 79 — 81.

الفصل الخامس

التوافق الاجتماعي في المدينة (*)

ناقشنا في الفصل السابق النواحي الديموجرافية لنمو سكان الحضر من خلال الهجرة والزيادة الطبيعية ، وكيفية ارتباط هذا النمو بعمليـــة التحضر الاجتماعي التي من خلالها يكتسب الناس عناصر الثقافة المادية وتتميز المدينة بوجود انماط معينة من السلوك والافكار • وتمدنا الاسرة بمؤشرات هامة للتغير الذى يلحق بعملية التحضر ، وعلى هذا تركز اهتمامنا بادىء الامر على موقف اكثر أهمية يتضمن التغيرات الديموجرافية ويؤثر على بنائها • كذلك يدخل الفرد في شبكة من الروابط الاجتماعية أكثر اتساعا من الاسرة ، وذلك من خلال جماعات القرابة ، والتنظيمات القبائلية والطوعية • وهذا كله يشكل اساسا للفعل الاجتماعي للفرد ، كما يلعب دورا معينا في الاتجاهات المتغيرة والانغماس في الحياة الحضريـــة • ومن الممكن أن نجد تشابها بين دور هذه الروابط الاجتماعية الواسعة النطاق في المجتمعات الحضرية في الشرق الاوسط ـ وبين شبكة العلاقات الاجتماعية المماثلة في المناطق الصحراوية الافريقية فما الذى يميز الشرق الاوسط ، أو بمعنى اخر العالم الاسلامي ، وهل التغيرات التي تحدث في وضع المرأة هي التي من شأنها أن تكسب دورها طابعا تقليديا في المجتمع ؟ كما تناولنا الاسرة لدراسة التغيرات التي تحدث في تصور شرف العائلة وكيف يؤثر هذا على وضع المرأة بصفة عامة • وكذلك انصب اهتمامنا بميدان اخر وهو الاتصال والسياسات التي تؤثر على انماط السلوك والافكار في الحياة الحضرية •

(*) قام بترجمة هذا الفصل التعليق عليه الدكتور / غريب سيد احمد

لاسرة والتغير الديموجرافي :

ترتبط خصائص النظام العائلي التقليدي في الشرق الاوسط . بالاختلافات الايكولوجية بين طرق الحياة البدوية ، والريفية والحضرية ، ويكفي لايضاح ذلك ان نضع في اعتبارنا نمطا تصوريا يستوعب هذا التنظيم • ذلك النمط الذي ينظر الى العائلة الابوية الممتدة التي تعيش في مسكن واحد ، والتي تتكون من رجل وزوجه واطفالهما قبل الزواج • وأبنائهما الذكور المتزوجين وزوجاتهم وأطفالهم • وفي هذا النمط الابوي تصبح السلطة ابوية والانحدار والنسب في خط الاب ، ويفضل الزواج الداخلي بين أعضاء القبيلة او العائلة الممتدة • ويشمل هذا البناء النمط العربي الذي يتضمن ما ينبغي أن تكون عليه الاسرة ، ومع ذلك فليس من الضروري أن ينطبق هذا على الواقع ذاته • ولقد كان هذا النمط منتشرا في بلدان الهلال الخصيب أكثر مما كان عليه في مصر (١) • •

---

(١) Baer, 1964, op. cit., p. 58.

هناك اتجاهين اساسيين في الزواج الى اختيار الزوجة من داخل الجماعة القرابية ذاتها ، والاتجاه الى الزواج من جماعة أخرى غريبة ويطلق على النوع الاول (١) الزواج الاندوجامي Endogamy ، اما الثاني فهو ما يسمى بالزواج الاكزوجامي Exogamy • ويؤدي كل من هذين الاتجاهين وظيفة هامة في التنظيم القرابي ويعمل بطريقته الخاصة على دعم الحياة الاجتماعية والمحافظة على البناء الاجتماعي الكلي • هذا ، وقد اختلفت درجة القرابة المحرمة باختلاف المجتمعات ، فاتسعت حينا ، وضاقت حينا آخر • وكان معظم قبائل العرب يحبذ زواج الفرد من غير عشيرته الاقربين سعيا وراء العزة والمنعة ، وربطا للقبائل بعضها ببعض ، واتقاء للاضرار الوراثية التي تؤدي اليها الزواج بالقريبات ، وقد أقر الاسلام ذلك • ولكنه مع ذلك لا يحرم الزواج بالقريبات الافي دائرة القرابة المحرمة • وتقتصر على أربع طبقات وهي : أصول الفرد مهما علوا ، وفروعه مهما نزلوا ، أبويه مهما نزلوا ، والفروع المباشرة

=

وبالمثل فان العائلة الممتدة تعيش فى منزل واحد او مجموعة منازل متصلة ومتجاورة سواء فى الحضر أو الريف • انها وحدة من حيث الملكية، ويستحوذ الاب على رئاسة الاسرة ، رغم قوانين الوراثة الاسلامية التى تشترط تقسيم الميراث على الاطفال على أساس ان « للذكر مثل حظ الانثيين » ، ويتقاضى البنات نصف ما يناله الذكور • ومن المتوقع ان يكون ميراث الاطفال قليل جدا فى الطبقات الفقيرة ، وكانت العائلة الممتدة ضعيفة ، وكانت تتضمن مزارعيين وعمالا زراعيين أكثر مما كان لدى الاسر التى تمتلك الارض سواء كانت كبيرة او صغيرة •

ومع ذلك فقد أثار بيترسون (٢) شكوكا حول ما اذا كانت العائلة الممتدة هى النموذج المنتشر فى مصر قبل عام ١٩٠٠ وخلال القرن العشرين، حيث عملت الظروف الديموجرافية على تعويق ظهورها • ويتزوج الشاب المصرى سواء فى القرية أو فى المدينة فى سن متاخرة تصل الى ما بعد الخامسة والعشرين • أما بالنسبة للمعدل العام للوفيات فان متوسط وفيات الذكور فى مصر يتراوح بين ٣٢ سنة ، ٣٥ سنة بعد الزواج السابق

=

لاجداده « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم واخوانكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت » (النساء ـ ٢٣) •

راجع فى ذلك : د• أحمد ابو زيد ، البناء الاجتماعى ، الجزء الثانى : الانساق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٦٧ ، ص ٣٤٩ وما بعدها • وكذلك : د• على عبد الواحد وافى ، معجم العلوم الاجتماعية الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ٣٠٦ • (المترجم) •

(٢) K. K. Petersen, (Demographic Conditions and Extended Family Households: Egyptian Data), Social Forces (1968), 531 — 7.

الاشارة اليه (٣) .

وعلى هذا يولد أبناء الرجل عندما يكون في اخريات حياته ، وحتى اذا عاشوا تحت ظروف ارتفاع معدل وفيات الاطفال والمراهقين ، فانه لا يحتمل أن تستمر حياته حتى يشهد زواجهم . وتتشابه هذه الظروف في بقية الشرق الاوسط ، بحيث ليس من المعقول افتراض أن العائلة الممتدة ظهرت بشكل نادر في التطبيق أو الواقع .

وسوف يكون التعميم حول حجم الاسرة وحجم المقيمين في منزل واحد مضللا ، طالما أنه ليس هناك مستوى محددا للاسرة أو المعيشة الحضرية ولقد توسع كل من جوليك وجوليك (٤) في ذلك من خلال دراسة تنوع التنظيم الاجتماعي المنزلي في مدينة اصفهان الايرانية . ويعرفان « أهل البيت Household » بأنهم جماعة من أناس يعيشون معا في مسكن واحد ويعدون طعامهم معا ويأكلونه معا . وقد كانت المجتمعات السكنية التي اختاراها للدراسة من أحياء اصفهان القديمة والجديدة . وكان كل منهما يشتمل على ما بين واحد الى ست أسر وقد أتضح أن ثلاثة أرباع الازواج والزوجات حضريو المولد .

---

(٣) ومعنى هذا أن معدل طول العمر هو ٥٧ الى ٦٠ سنة ، وهو معدل يمكن الشك فيه . وخاصة أن ما اشاره نيترسون حول معدل الوفيات واوقات الزواج مثار شك ايضا ذلك أن الريف المصري — حتى الان — يشهد معظم حالات الزواج في وقت مبكر عما يذكره بيترسون . واذا كان قد اعتمد على احصائيات سكانية مصرية فقد اعتمد على تعداد ١٩٦٦ بالعينة الذى يوضح مؤشرات عن دراسة لعوييت بنسبة تمثيل يمكن الشك فيها (المترجم) .

(٤) J. Gulick & M. E. Gulick, Varieties of Domestic Social Organization in the Iranian City of Isfahan. Annals of the New York Academy of Sciences 220 (1974), 441 — 69.

ويتراوح حجم الاسر ما بين شخص واحد وتسعه عشر شخصا يشكلون سرة مركبة ويعيشون معا ، ولكن درجة تعد العلاقات بين أعضاء الاسرة المركبة لا تتزايد بتزايد حجم الأسرة وقد تبين أن عدد الاسر المتساوية فى الامتداد أو الحجم (من حيث الاقامة) ، وكذلك الاسر السلالية (التى ينحدر فيها الافراد عن أصل عام واحد) التى تتناول طعامها معا ، صغيرة جد ا• وبالاضافة الى ذلك فان وضع الاسرة كان دائما عرضــة للتغير ، ولقد أوضحت دراسة جوليك وجوليك لعـدد (١٤٠)أسرة مركبة أن (٤٧) منها قد تغيرت منخلالحركة الافراد أوالاسر منها او اليها ، وذلك على مدى عام واحد ، أما بالنسبة للاسرة النواة المكونة من زوج وزوجه وطفل واحد تتحرك الى طهران لكى يحصل الرجل على وظيفة ، بينما أم الزوجة التى تعيش فى أسرة مركبة ، تتحرك مع اطفالها الى بيت اخر كانت تمتلكه فى اصفهان • ومن بين التنقلات المتعددة التى تم تسجيلها كانت أربع أسر نووية مترابطة ، وتتضمن اخـوة متزوجين ، ووالدتهم التى كانت توصف من جانب زوجة الابن على انها مثيرة للمتاعب • ومن بين هذه الاسر النووية تحركت واحدة الى الخارج بينما تزوجت ابنتها وتركت الاسرة •

وسواء أقام اعضاء الاسرة الممتدة معا أو لم يقيموا ، فانهم فى الموقف الحضرى او الريفى كانوا وما زالوا يرتبطون معا عن طريق التزامات وتوقعات متبادلة • اذ يتوقع الاخوة البالغون الابقاء على المساعدة المتبادلة والمخلصة خلال حياتهم ، بالرغم من احتمال أن يكون أحدهما رئيسـا لاسرته النواة الخاصة به • ومثال ذلك أنه فى الاسر المتعلمه ، يتوقع أن يقوم اكبر الاخوة الذى يعمل فى وظيفة ما بمساعدة مالية لتعليـم اخوته الاصغر منه فى حالة معسرة الاب • وتعتبر الفتاة غير المتزوجة تحت الرعاية المباشرة لابويها ، وأخوتها ، وأخواتها المتزوجات ، حتى يصبح زوجها مسئولا عنها هو واخوته • وتمثل الفقرة التالية عن جابرا

Gabra توضيحا لهذه المسئولية فى حدها الاصى ، وما تتضمنه من حادثة خيالية وقعت فى بغداد عام ١٩٤ • وحدث المشهد فى فندق حيث يقتل رجلا أخته بسكين ، « وبينما نحن فى حيرة هل نطلب الطبيب ، أم نطلب الشرطة ، صاح زميل طويل يرتدى زيا بدويا على يوسف وهو فوق جثة الفتاة قائلا « انها مسألة شرف •• ! حسنا ما فعلت يارجل ••• انه لامر جميل أن ندرك اننا لم نفقد شرفنا بعد • حسنا ما فعلت يارجل ••• ! ثم سار بخطوات الشامخ الرأس ، مرفوع القامة المنتصر على عدوه المغلوب ، وأمسك بطرفى عباءته ولمها ومضى بعيدا •••

يقول عدنان : « وانصرف عنها ولم ينظر اليها باندهاش • فالفتاة نائمة مع رجل ، وأخيها الغاضب جاء ليعرف شيئا ما • ذلك هو ما كان ينبغى عليه أن يفعله • ومالم يفعل فسوف يكون مثارا لضحك اسرته واصدقائه » •

« أنها لم تكن زوجته ، وبالتأكيد فانه لم يستملها الى ذلك » •

ولقد قلت : « ان كل ما فى الامر ثلاث أو اربع سنوات فى السجن » •

وشرح عدنان : « أننا نعيش فى المدينة ومع ذلك نتبع قانون الصحراء » •

واننا مكبلون بقيود بالية من التقاليد القبائلية • لقد سمعت ما يقوله البدوى ، اليس كذلك » •

« وهكذا يجب أن يكون الحب هنا مثيرا حدا ، مثيرا جدا » (٥) •

---

(٥) Jabra (1960); op. cit., pp. 45 — 6.

فاذا طلقت المراة او ترملت بدون اولاد فانها تعود الى رعاية اخوتها. وتعتبر هذه الالتزامات جزءا من شرف العائلة ، والفشل في مواجهتها ، اذا عرفه الاخرون يكون من شانه ان يجلب العار للاسرة (٦) . ولاتعتبر الرغبة في المحافظة على شرف العائلة صفة خاصة بالعرب في منطقة الشرق الاوسط ، فعند أتراك البودروم Turki of Bodrum يطلق على كل انسان خارج الاسرة اسم الغريب ويالتالي يصبح موضوعا للانكار . وحتى النساء من خارج الاسرة واللاتي يتزوجن داخلها يعتبرن - غريبات ، ومن اللاتي يجعلن الاسرة عرضة للسخط العام اذا ما جلبن أيما الخزى والعار بأى طريق (٧) . وعلى العموم فهناك اتصال ، ولكن بدون التزامات محددة، بين الاسرة وخط قرابة الام ، والخالات المتزوجات ، الاخوات المتزوجات وأبناء العمومة الاناث .

وتميل الحركة الى المدن تحطيم بناء الاسرة الممتدة حيثما وجد وفي العادة فان جيل الشباب هو الذى يتحرك ، وبمجرد وجودهم في المدينة فانهم لا يعتمدون كثيرا على ملكية الاسرة من الناحية المالية .أو على المهنة التقليدية للاسرة بل انهم يرسلون الى قريتهم ببعض ما يخفف عنها ، وبحيث يمكن ان تعتمد الاسرة عليهم بدلا من أن يعتمدوا هم على الاسرة . وتمتد هذه التغيرات ايضا الى مظاهر اخرى للبناء التقليدى للاسرة مثل سيادة دور الاب . والاب بصفته رئيسا للاسرة فانه يدفع مهر ابنه ومن ثم فله الكلمة الاخيرة في أمر الزواج واختيار العروسة بعد مناقشة وتنسيق ذلك مع اسرة الزوجة ، وله أيضا أن يحدد يوم الزفاف . كما أن الزواج الداخلى ، وخاصة بين اطفال الاخوة لا يزال أمرا مشجعا

(٦) J. Gulick, Tripoli: A Modern Arab City, Cambridge, Mass, 1967, p. 131.

(٧) F. Mansur (1972), op. cit., p. 220.

ومطلوبا ، ولكن الترتيبات العملية للزواج تتدهور ببطء ، سواء في المدينة أو القرية . فهناك ارتفاع معدل تاخير سن زواج الانثى المتعلمة ، حيث كانت ستة عشر سنة ، وعند الطبقات الغنية يمكن أن تحصل بعض النساء على استقلال مالي من خلال مواصلة العمل في وظيفة معينة .

وقد اتسم الاطار الديموجرافي للتغير الإجتماعي بارتفاع معدلات الزيادة الطبيعية ، بسبب انخفاض معدلات الوفيات ، وزيادة عدد الاشخاص المعدمين اقتصاديا ، الشباب منهم الكبار على حد سواء ومن الممكن أن تعمم هذا حول سكان الحضر ككل ، ومما يساعدنا على ذلك أن نتناول بعض البلدان بشيء من التفصيل في البداية ، ففي تركيا مثلا ، ترتفع الفروق بين المدن الرئيسية والمناطق الريفية بحيث تصل معدلات المواليد الى ٢٤ في الالف في المدن وتصل الى ٤٩ في الألف في القرى حسبما تبين احصاءات ١٩٤٥ (٨) . وتتدرج الخصوبة في الانخفاض من المدن الكبرى الى المدن الصغرى ومن ثم الى القرى وذلك من خلال النظام القومي لعيادات تنظيم الاسرة وضبط النسل ، ولقد أشارت بندكت Bendict الى أنه في المدينة الصغيرة أولا Ula قد حصل الرجال الذين يعرفون عن ممارسات ضبط النسل على معلوماتهم حينما كانوا في الجيش (٩) . وكنتيجة لذلك فان سكان الحضر في تركيا اقل شبابا ، حيث يقع ٣٥٪ في فئة اقل من ١٥ سنة ، في الوقت الذي بلغت فيه هذه الفئة ٤٢٪ على المستوى القومي (١٠) وتتناقص أيضا معدلات النوع في المدينة والقرية،

---

(٨) F. C. Shorter, Information on Fertility, Mortality and Population Growth in Turkey, Population Index 34 (1968), pp. 3 21.

(٩) P. Benedict, (Ula, The Decline of a Regional Centre), Unpublished ph. D. thesis, University of Chicago, 1970, p. 157.

(١٠) J. Dewdney (1972), op. cit., p. 59.

حيث تسجل الاحصاءات أن كل ١١٦٨ رجل يقابلون ١٠٠٠ أنثى في المدن، بينما تقابل كل ٩٥٧ رجل في المناطق الريفية ، وهذا ناتج عن الهجرة المستمرة للرجال الى المدن .

ويسود نمط مشابه فى ايران ، اذ تنخفض الخصوبة فى المدن وتتزايد فى القرى ، كما تتزايد نسبة الصغار والكبار فى القرى ، وتغلب نسبة الذكور فى المدن ، حيث يوضح تعداد ١٩٦٦ أن كل ١٠٠٠ امراة يقابلهن ١٠٨٤ ذكر فى المدينة ويقابلهن ١٠٦٥ فى المناطق الريفية . وبالمثل فى سوريا تنخفض الخصوبة ويزداد معدل الشباب ويصل معدل الذكور الى ١٠٦٣ لكل ١٠٠٠ امراة فى المدينة ، بينما يصل الى ١٠٥٠ فى المناطق الريفية . وتتطرف فى ذلك المدن الفردية . حيث يتضح فى جدة بالمملكة العربية السعودية أن كل ١٣٢٦ ذكر يقابلهم ١٠٠٠ أنثى فى عام ١٩٦٣ ، الا أن ذلك لم يوضح أن هناك شيئا ما فى الشرق الاوسط يشبه الاستيطان الافريقى بحيث تمثل هجرة الذكور ست أو سبع أضعاف هجرة النساء ، وقد يبدو واضحا فى بعض المدن البترولية فى الخليج الايرانى Persian Gulf .

ولقد قامت جانيت ابو لغد (١١) بتحليل جيد للحالة الديموجرافية فى مصر من خلال طرح مجموعة من الاسئلة والقضايا الهامة التى توضح الفروق فى الخصوبة بين الريف والحضر . ومن المفيد فى اطار دراستنا عن الشرق الاوسط أن نختبر بعض القضايا التى تشتق من شمال أمريكا

(١١) J. Abu - Lughod, Urban - Rural Diferences as a Fuction of the Demographic Transition: Egyptain Data and an Analytical Model, A. J. S. 89 (1963) pp. 476 — 90.

عن الفروق الريفية الخصوبة ، مع التركيز على ما أكدته المناقشة الاصلية لجانيت أو لغد والتى ترتبط وثيقا بمصر ٠

واول هذه القضايا أن الخصوبة فى الحضر أقل منها فى المناطق الريفية وكذلك تتميز الاسرة الحضرية بصغر حجمها عن الاسرة الريفية ٠ ولا ينطبق هذا على حالة مصر ، طالما انماط الخصوبة الريفية والحضرية متساوية أساسا ، كما هو الحال فى ليبيـــا ولبنـــان ، ولكن هناك دلائل على انه فى تركيا وايران وسوريا والسعودية توجد معدلات خصـــوبة منخفضة فى المدن ٠

ثانيا : ان معدلات الوفيات منخفض فى المدن بالشرق الاوسط ، على العكس من شمال أمريكا واوربا خلال مراحل النمو الحضرى السريع فى القرن التاسع عشر ٠

ثالثا : فى مصر وبعض البلدان الاخرى التى تتضمن فروقا طفيفة بين الخصوبة فى الريف والخصوبة فى الحضر ، نجد أن الزيادة الطبيعية مسئولة عن الجزء الاكبر من النمو الحضرى ، على الرغم من وجود علاقة وثيقة بين الهجرة الزيادة الطبيعية كما سبق أن رأينا ٠

وفى النهاية ، فان السبب فى الزيادة الطبيعية يرجع أساسا الى انخفاض الوفيات عما هو الحال فى افريقيا الاستوائية ، وأن عدم توازن معدلات النوع أقل وضوحا كما أن سكان الحضر أقل ترحالا ٠ وتتميز المدن بقدمها ولها نواة محلية يسكنها الاهالى الوطنيون ٠ ولهؤلاء بعض القيم المتشابهة مثل الهاجرين ، وبخاصة الاهتمام بالروابط الاسرية ، وهم فى اغلب الاحوال من دين واحد وهو الاسلام ٠

التوافق الاجتماعى – المهاجرون والجماعات المهاجرة :

ولقد رأينا أن التوافق مع حياة المدينة يميل للتاثر بالظـــروف الديموجرافية والاقتصادية التى يقيم الناس فيها ، وكذلك بحراكهم

الجغرافى فى المدينة • ورغم أن عملية الهجرة غير منظمة اجتماعيا فانها تتاثر بالمكان الذى يحيا فيه المهاجر ، سواء مع اقاربه او بدونهم ، وكذلك تتاثر بامكانية حصوله على عمل والخلفية التى يتمتع بها الفرد •

ولقد أوضح الكبير (١٢) ان بعض المهاجرين فى طرابلس بليبيا يعانون من انعدام التوجيه الاجتماعى • اذ تعمل حركة المهاجرين وكذلك اهالى طرابلس الى خارج المدينة القديمة على هدم الروابط بين المهاجرين القدامى والذين يصلون حديثا ويتحركون بادىء الامر الى داخل المدينـــة القديمة • ويعمل تنوع المدن الحضرية الجديدة فى الحكومة على التعجيل بهذه العملية ، فقطاعات البترول وغيرها تمنع اى تركز لجماعات اقليمية من المهاجرين عن طريق المهنة مثلما حدث فى الماضى • وبالتالى يذكر (الكبير) أن لدى المهاجرين شعور بعدم الصلة ، وخاصة المهاجرين حديثا. ويشكو العديد منهم فقدوا الشعور بالانتماء الى مجتمع محلى • وكذلك يعمل الحراك الجغرافى فى المدينة على خلق شعور بعدم التواصل الاجتماعى Social discontinuity فى مدن الاكواخ Shanty Towns وسواء ارتبط هـدم مدن الاكواخ بمشروع اسكان حكومى او لم يرتبط ، فان النتيجة تكون هدم علاقات الجوار القائمة وخلق مشكلات خاصة بالتوافق (١٢) •

ومن ناحية اخرى فان ارتباط المهاجرين فى القاهرة باقرانهم القرويين يمكن ان يساعد على تخفيف اثار هذه النقلة (*) • فقد يحدث تغير مثير

---

(١٢) Y. A. Elkabir (1972), op. cit.

(١٣) Elkabir, Ibid. p. 71.

(*) وللجيوب الريفية فى المدينة تاثيرات هامة فى حياة المهاجرين من القرى ، فهى تحمى المهاجر من الصدمة الحضارية ، والتى تاتى من انه بقيمة المحافظة ومهارته التقليدية ، غالبا ما يواجه حضـــارة

=

في ظروف عمال المهاجرين • وقد افترضت (١٤) جانيت أبو لغد أن الرجال قد يجدون أن عبء الضرائب في العمل البدوي الحضري اكثر منه في العمل الزراعي • وفي نفس الوقت فإن النساء خارج القرية قد يحدث أن حجم العمل المطلوب منهن أقل • وهؤلاء الرجال الذين يعملون في مصنع كبير مع قوة عمل غير متجانسة سوف يدخلون في روابط من أطر مختلفة . ومع ذلك فالمهاجرين يعملون غالبا في عدد كبير من المشروعات التجارية البسيطة في القاهرة ، حيث يجدون العمل عن طريق أبناء قريتهم • ولقد تاكدت هذه الافتراضات الى حد ما عن طريق دراسة امريكية للمهاجرين أجراها بيترسون (١٥) فاعمال كثير من المهاجرين الاميين كالباعة المتجولين أو ملاك المحلات الصغيرة ، لا تتطلب تكيفا شديدا مع ايقاعات العمل الجديد ولكنهم يندمجون من خلال أعمالهم هذه مع اقرانهم القرويين ، الذين استطاعوا الحصول على عملهم بالجهد الذاتي • وتعلب النظم الرسمية خاصة مكاتب العمل دورا ضئيلا في توافق المهاجرين الى القاهرة ، ولكن اكثر أنواع المساعدة في هذا الاطار هو العلاقات مع الاقرباء ، أما اقلها فهو ما يأتي من الجيران غير الاقرباء •

متطورة في قيمها بشكل واضح جدا ومتقدمة في تكنولوجيتها الى حد بعيد •وتساعدهم هذه الجيوب في التكيف مع الحضارة الجديدة بمعاونتهم في الاستقرار في مسكن . والحصول على عمل ، والتعرف على المدينة واساليب الحياة فيها • كما تعطل هذه الجيوب • ذوبانهم في الحضارة الجديدة ، نظرا لانها تقدم لهم بديلا عن حضارة المدينة، وتمارس نوعا من الضبط لتفاعلهم معها • (انظر : عزت حجازي ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٥٥) •

(المترجم) •

(١٤) J. Aba - Lughod (1961), op. cit.,

(١٥) Peterson (1971), op. cit.,

وتؤكد ثقافة الشرق الاوسط على دور الاتصالات والعلاقات الشخصية ، وارتباطها بنسق العلاقات الذى يقوم على جماعات القرابة ، بحيث يرتفع عدد الارتباطات الاولية ليصل الى مئات وربما الاف الافراد الذين قد لا يعانون كثيرا من اثار اللاانسمية ٠

وعلى ذلك فان المشكلة بالنسبة للحضريين القدامى عادة ما تكون فى كيفية تحاشى العلاقات ، والالتزامات خارج اطار الحصول على مسكن أو اطار الاسرة ٠ ٠

ولا تزال الرغبة فى الخصوصية Privscy تلك التى لعبت دورا هاما فى تشكيل سمة المدينة التقليدية فى الشرق الاوسط ـ تلعب نفس الدور حتى الان ٠ وانه لامر بالغ الصعوبة أن نبحث عن منازل الاشخاص فى بعض المدن لعدم وجود نظام فعال لترميم المبانى فضلا عن عدم معرفـــة الجيران لها ٠

وتلعب الجماعات القرابية دورا اكثر اتساعا من دور الاسرة فى تكيف المهاجر وهذا الدور يمكن فهمه اذا ألقيت نظرة متعمقة لفناءاتهـا التقليدية ٠ فالولاء للجماعات القرابية التى تنتسب الى جد أعلى واحد ، استمر تأثيره ما بين ثلاثة وسبعة أجيال ، هذا الولاء يعتبر مسالة عامة فى المجتمعات العربية فى الشرق الاوسط (١٦) ٠ ومثل هذه الجماعات التى تعيش فى أسر ممتدة فى الريف تميل للاقامة فى منطقة عامة ، وقد تكون لهم دار ضيافة خاصة بهم ، وكذلك فرن oven ، وجـــــرن threshing floor خاص ٠ واذا ما دعت الضرورة فانهم يلتئمون سويا من أجل الحماية والامن ٠ ويطلق على هذه الوحدة القرابية فى فلسطين

---

(١٦) Baer (1964), op. cit., p. 169.

اسم الشبكة Hamala ولها أسماء مختلفة فى الاماكن الاخرى • وفى الوضع الحضرى فيما قبل الصناعة ، كما رأينا تتجه هذه الجماعات القرابية الى التجمع معا فى شكل حلقات سكنية متداخلة ، الا أن الحراك لسكنى قلل من عمومية انتشار ذلك النمط وقد يرجع ذلك الى أن معظم علاقات الناس مع هذه الوحدات القرابية الاكثر اتساعا تتجه الى التعييب ، فهى تقوى وتضعف وفق المتطلبات التى تفرض عليهم من جانب الاقارب غير المباشرين ، وكذلك وفق مهارتهم فى تجنب هذه المتطلبات أو الاعباء • وبينما توجد مميزات سياسية تمارس من خلال الاتصالات القرابية ، كما هو الحال فى لبنان ، فان حقوق القرابة من ناحية الاب تتسع (١٧) وبالنسبة للمهاجرين الجدد الفقراء الى المناطق الحضرية ، فربما تعمل الجماعات القرابية على مساعدتهم لتقوية وضعهم الاقتصادى والسياسى عن طريق مصادر تقوية لهم ، ففى الاسر القديمة فى لبنان يحافظ الاعضاء الفقراء على ارتباطاتهم بالاقارب الاغنى أو الاكثر تأثيرا •

ان ما تؤديه العضوية فى مثل هذه الجماعات من دور ملطف فى مجال تكيف المهاجرين للحياة الحضرية يتضح بالنسبة للمهاجرين من منطقة العمارة الى بغداد ـ وفى العادة يكون لدى المهاجر بعض الافكار حول الفرص المتاحة فى بغداد قبل أن يترك منطقة العمارة ، سواء من خلال ملاحظاته الشخصية أثناء زيارته للمدينة أو من الاتصالات الاوليــة مع أقاربه وأصدقائه • وربما يكون الاتصال محدودا بين الاسر المهاجرة فى العمارة والسكان فى بغداد ، ويحدث ذلك مثلا اذا جاءوا من مناطق معزولة مع قليل من الاصدقاء أو الذين يرتبطون بهم ارتباطا وثيقا ، أو عندما يكونوا فقراء ولا يستطيعون الذهاب مباشرة الى بغداد ، فالمهاجرون يتحركون

---

(١٧) Gulick (1967), op. cit., p. 136.

الى العاصمة على مراحل ، وأحيانا يقضون سنوات حول اقليم كوت Kut يدخرون المال ويجمعون المعلومات عن المدينة الكبيرة ٠ ويحدث هـــذا أيضا بطريقة أكثر شيوعا لدى المهاجرين الاكبر سنا والاقـل تعليما (١٨)٠

وبمجرد وصول المهاجر من العمارة الى بغداد فانه يحاول أن يعيش مع اقربائه ، وبمرور الزمن يقيم مع رفاقه الذين جاء معهم من القريـــة وخلال هذا الوقت يستطيع المهاجرون أن يقيموا اتصالات اكثر ، ويبحثون عن العمل ويتعرفون على مظاهر الحياة الحضرية مثل الاسواق والمكاتب الحكومية ٠ وقد يتلقى بعضهم العون من تنظيمات خاصة معتمدين على الاتحادات القبائلية التى انشئت فى مدن الاكواخ لمساعدة المهاجرين الجدد، وأحيانا يمتد نشاط هذه الاتحادات لكى تقدم مصـروفات جيب لهؤلاء المهاجرين ، وبالمقارنة بظروفهم فى قراهم الاصلية فهناك تجمعات أكبر فى مدن الاكواخ ، وقد تشغل قبيلة معينة منطقة واسعة فى العمارة ، وهنا يكون لدى الاسرة منازل عديدة ٠ وفى مدن الاكواخ سيطرت المحافظة على الولاء لمشايخ القبيلة ، رغم دورهم فى الماضى فى اضعاف بعض المناطق، الا أن قوتهم الاقتصادية والسياسية تستخدم الان ، ويجمع أعضاء كل قبيلة الاموال لبناء بيوت الضيافة للشيوخ ، التى تستخدم كمقار للاقامة، وعليهم أن يمدوا الشيوخ بالاموال ٠ ان بيوت الضيافة وارتفاع عدد المقاهى التى يمكن أن يتقابل فيها الرجال ويناقشون أمور مجتمعهم الخاص ، والعلاقة القوية بين القبيلة والشيخ ، كلها أمور تساعد بالفعل على توثيق العلاقات القبائلية بين المهاجرين اذا ما قورن ذلك بالموقف فى القرية ٠ وابعد من ذلك فلقد ذكر عزيز أن تنوع المؤسسات الدينية التى اقيمت فى مدن الاكواخ ، تقدم خدماتها بصفة عامة مركزة على البعد الدينى أكثر

---

(١٨) Azeez (1969), op. cit., p. 263.

مما هو موجود فى المكان الاصلى للمهاجرين · ويتضح الارتباط بين رعماء الدين وملاك الارض فى بغداد ، ويبدون مما متمثلين فى مظهر التأثير الاخذ فى الارتفاع فى البيئة الجديدة · ويرى عزيز أن قوة حياة القبيلة كحركة نحو مزيد من الامن فى الحياة الاجتماعية للمهاجرين ، قد قوبلت بتحديات من جانب المجتمع الحضرى الذى تخضع أفكاره للتغير بسرعة ملحوظة (١٩) ·

وهكذا يتعرض المهاجرون من العمارة للاخفاق فى أن يعيشوا الحياة الاجتماعية الحضرية بفضل تأثير تنظيمهم الخاص ، على العكس من مناطق أخرى فى ايران الذين يكونون فى أعداد قليلة نسبيا والذين لم ينتظموا بعد ، ومن ثم تكون أمامهم فرصة أقل لكى يندمجوا اجتماعيا · ولذلك فقد يصبح تكيفهم للحياة فى المدينة أكثر صعوبة وربما أكثر ألما ·

ان دور المنظمات الطوعية فى الحياة الحضرية فى الشرق الاوسط لا يزال أمرا غير مؤكد · فالروابط القبائلية ، ومجتمعات المعونة المتبادلة والجمعيات الثقافية ، موجودة ، الا أن الشرق الاوسط لا يبدو أنه يتضمن وفرة من المؤسسات التى تلعب دورا هاما فى حضر افريقيا من خلال المدى الواسع للعضوية على أساس السن والجنس والقبيلة والمدينة والمهنة والطبقة الاجتماعية · وليست هناك بحوث كثيرة منشورة توضح دور هذه المؤسسات فى الشرق الاوسط · فالمهاجرون من العمارة التى ذكرناها من قبل اكدوا أن الروابط القبائلية قد ساعدتهم فى التوافق مع حياة المدينة، بالمثل توضح عينة من المهاجرين الى القاهرة جاءوا من صعيد مصر

(١٩) Ibid., pp. 231 — 3.

أن قرابة نصفهم أعضاء فى روابط خاصة بهم (٢٠) وتنحصر مهمـــة هذه الروابط فى تقديم العـون والتسهيلات لاعضائها الذين جاءوا مـن القرى ، والذين يسهمون تدعيمها (٢١) والمهاجرون الذين يعملون فى مهن أعلى ينضمون لعضوية الروابط اكثر ممن يعملون فى مهن أقل أجـــرا العاطلين • ويوضح بيترسون أيضا ان العضوية فى نقابات العمال ، والاندية الترفيهية ، والمجالس الدينية وغيرها من الجمعيات تقل عنـــد الذين يعملون لحسابهم أو العاطلين •

ولقد أشار باتر Baer (٢٢) ان الاندية والروابط المتنوعة فى معظم مدن الشرق الاوسط العربى هى تنظيمات اجتماعية مفككة تحل بدلا منها الشبكة فنادرا ما يكون لها تأثير الروابط الطائفية أو المرتبطة بمجتمع محلى معين • ويمكن تعزيزها عن طريق هذه الروابط ، كما هو الحال فى لبنان من جمعيات خيرية ومساهمة النساء والطوائف • ومن ناحية أخرى يذهب (الكبير) الى القول بأن الروابط الطوعية لا تلعب دورها فى تكيف المهاجرين الريفيين فى طرابلس (٢٣) •

التوافق الاجتماعى ـ التغير الشخصى :

يمكن أن نتساءل عن كيفية تأثير حياة المدن فى الشرق الاوسط فى تغيير أسلوب حياة الفرد بعيدا عن خبرة الناس فى الجماعات القبائلية مثلما يوجد فى بغداد ؟ ان الاجابة على هذا السؤال تتعقد وفقا للاهمية المستمرة لانماط الحياة الحضرية فى مجتمعات ما قبل الصناعة فى عديد

---

(٢٠) Petersen (1971), op. cit., p. 570.

(٢١) Abu - Lughod (1961) op. cit., p. 26.

(٢٢) Baer (1974) op. cit., p. 200.

(٢٣) Elkabir (1972) op. cit.

من المدن ، ووفقا لضرورة التمييز بين التغيرات الاجتماعية وخاصـــة بالنسبة للمدينة والعمليات العامة للتغير الذى سيطر على مجتمع الشرق الاوسط ، ويذهب ليرز Lerner الى أن الحياة الواقعية فى المدينة ليست ضرورية فى حد ذاتها لنمو المظهر الحديث أو أسلوب الحياة الحديث • وببساطة فان ليرنر يفترض ان معرفة القراءة والكتابة ، وأسلوب عرض المادة الاعلامية يثير أو يحفز القدرة على التقمص الوجدانى لدى الناس وهذه القدرة بدورها تثير الحركة العقلية ، والانفتاح للتغير الذى هو من سمات الشخصية الحديثة • ان الحراك النفسى هو الناحية الاساسية للتغير الذى يصاحب التحديث ، والتقمص الوجدانى (٢٤) وهو القدرة على أن يرى الانسان ذاته فى موقف شخص اخر وهو الوسيلة التى عن طريقها يحدث التغير • ان القضية التى يؤكد عليها ليرنر مؤداها أن نموذج التحديث العام ، الذى يتبع منطقا تاريخيا مستقلا ، هذا النموذج يمكن تطبيقه على الشرق الاوسط (٢٥) فكل مظهر فى عملية التحديث يميل

---

(٢٤) التقمص الوجدانى Empathy هو القدرة على تقمص مواقف الاخرين، وتخيل الشخص انه يقوم بأدوارهم فى الحياة ، ويستخدم هذا المصطلح فى التحليل النفسى ليشير الى العملية النفسية التى تمكننا من ادراك ما لدى الاخرين من أحوال نفسية غريبة على أحوال الانا، لدينا ومن ثم فهى ضرب معرفى من التعيين الذاتى كما يستخدم أطباء النفس الفسيولوجى هذا المصطلح بوصفه أداة أساسية فى التشخيص ، وخاصة فى الفصام ، ومن حيث أن الطبيب فى موقفه من المريض يضع جانبا المنهج الاستدلالى الاستقرائى للاغراض ، ويبطل واقعة فى المريض ، واذا به يعانى ما يشبه الفصام • (أنظر: مصطفى سويف ، معجم العلوم الاجتماعية ، مرجع مذكور ، ص ١٧٢) (المترجم) •

(٢٥) D. Lerner, The Passing of Traditional Society. Modernising the Middle East, London, 1964, p. 61.

الى توليد شكل تال عن طريق بعض المكانيزمات الذهبية أو التلقائية التى تعمل نحو مستقل • والمرحلة الاولى هى مرحلة التحضر النفسى ، الذى يتضمن تحول الناس من أماكن متفرقة فى الظهير الزراعى الى مراكز حضرية ، بحيث يحتاجون الى نمط الاتصـــال غير شخصى ومن ثم معرفــة القــراءة والكتابــة • ومعرفــة القـــراء والكتابــــة Literacy هى الدليــل والموجه للمرحلة الثانيـــة للتحـديث • انها المهــــارة الاساسية التى يتطلبها نسق الاتصال الجماهيرى ، وحينما يصبح فى المجتمع أكثر من ١٠٪ من سكانه يعيشون فى مدن وأكثر من ٤٠٪ متعلمون فلابد أن تظهر رغبات ومستويات اشباع جديدة ، والمرحلة الثالثة للتحديث هى مرحلة المشاركة الجماهيرية وهذه حينما تبدأ يجب أن تتلوها مرحلة رابعة وهى مرحلة المشاركة السياسية •

ولقد طور ليرنر تنميطا أو تصنيفا للتحول من الشخص التقليدية الى الشخصية الحديثة اعتماد على المعطيات التى حصل عليها من المقابلات التى أجراها فى الشرق ، خلال عامى ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ • فمن ناحية هناك من لديهم آراء فى موضوعات متنوعة ومن هؤلاء المجدد ، والكوزموموبوليتان، والحضرى ، والمثقف والثرى •

وعلى سبيل المثال فان الشابة اللبنانية التى تعلمت فى مدرســة أجنبية فى بيروت ، قد شعرت بالاسى لوجود الجنود الامريكان فى كوريا ، بينما نجد أخرى معجبة بالموسيقى الشعبية الامريكية الى حد كبير ، وثالثة تهتم اهتماما بالغا بحجم ميزانية الولايات المتحدة الامريكية ، ورابعة يراودها القلق حول ما اذا كانت الولايات المتحدة يمكن أن تمنح أكثر ، وشرح لنا أحد كبار العاملين فى الجهاز المدنى بالاردن احتياج الشخص الكوزموبوليتانى لعدد من محطات الراديو المحلية فيقول :

« ان البرامج الموسيقية التى يتم بثها عبر تركيا تتنوع مع كل ليلة ،

فان لديهم مقطوعات موسيقية تختلف من حيث سرعة الاداء • ففى احدى الامسيات يختارون نماذج رقيقة جدا من موسيقى التانجو التركيـــة واليونانية • وتكون فى الحقيقة حزينة ومؤثرة ، بينما يتم بث موسيقى ساخنة كالجاز Gaz والموسيقى ذات الايقاع المطرد أو السوينج Swing فى ليلة أخرى ، وهذه عادة ما تكون حماسية • وفى مناسبة أخرى يبثون مقطوعات ممتازة من القيثارة الاسبانية ، غالبا ما يبثون موسيقى كلاسيكية مثل موسيقى بيتهوفن وشوبرت (٢٦) •

وبالنسبة لهذا الشخص ولقرنائه تصبح وسائل الاعلام الجماهيرية أداة لا غنى عنها للحضارة الحديثة • وعلى الجانب الاخر فان الشخصية التقليدية هى شخصية أمية (غير متعلمة) ريفية ، غير مشاركة ، وتهتم فقط بالامور الشخصية • فالراعى التركى يصدم حتى عندما يسأل عن رئيس الحكومة أو البدوى الاردنى عن رأية فى الشئون العالمية فيجب ببساطة أنه يهتم بالاخبار التى تتعلق بحياته المنزلية ودوابه ، لانها تشكل حياته وارتباطه بهذا العالم ، لكنه لا يهتم بشىء اخر غير ذلك لانه لا يطلب منه الاهتمام بما يخرج عن دائرة شواغله •

وهناك جماعة أخرى فى تنميط ليرنر ، وهم من يرون بمرحلة تحول Transitionals ، وهم يشاركون الى حد ما فى التقمص الوجدانى والحراك المكانى أو الفيزيقى Physical Mobility للانســــان الحديث • ولكنهم يفتقدون المركبات الاساسية للاسلوب الحديث ، وخاصة التعليم • ولقد وجد ليرنر أن الاشخاص الاميين الذين يعيشون فى المدن تكون لديهم اراء أكثر تنوعا اذا ما قيسوا بأولئك الذين يعيشون فى القرى ، بينما اذا كان

---

(٢٦) Ibid., p. 345.

لدى هذه الجماعة الاخيرة قدر كبير من الاستفادة مما تقدمه وسائل الاعلام فانهم يميلون الى أن يكون لديهم اراء أكثر من أولئك الذين لا يستفيدون من هذه الوسائل •

وتولد غالبية المتحولين فى القرى أو فى المدن الصغيرة ولكن كلها تقريبا تقييم من المراكز الحضرية (٢٧) • وهكذا يبدو ثمة ارتباط بين الحراك الفيزيقى والتغير فى الاتجاهات •

ومع ذلك فظاهرة التقمص ينظر اليها على انها خاصية شخصية تظهر أساسا لدى الجماعات المتنوعة اجتماعيا ، وتحدث هذه الظاهرة فى سن الخمسين لدى الباعة الاميين ، وبنفس القدر فى سن العشرين لدى الطـــلاب (٢٨) •

وتتحدد الحركة الكلية للمهاجرين الى المدن ، كما راينا . بعوامل دينية واجتماعية واقتصادية ، الا أن قرار كل فرد من أجل الحركة واستيعابه

---

(٢٧) Ibid., p. 162.

(٢٨) ولا يقتصر الصراع على علاقة المهاجر بالمدينة أو بعبارة أدق ظروف الحياة فى المدينة ، ولكنه يتعداها الى بعض العلاقات الهامة فى حياته • ففى تقديرنا أن صراع القيم بين الاجيال أوضح فى حالة المهاجرين الريفيين وأبنائهم الذين ولدوا فى المدينة منه فى حالة الاباء والابناء الحضريين • وليس من العســير اختبار صدق هذا الغرض فى دراسة مقارنة لصراع القيم بين الاجيال فى مجموعة من الاباء والابناء الحضريين ومجموعة أخرى للمهاجرين من الريف والابناء الذين ولدوا فى المدينة • فبالنسبة لعدد غير قليــــل من المهاجرين الى العاصمة ـ اذن ـ يقتصر الحراك على الحراك الجغرافى الذى لا يتبعه حراك اجتماعى ، أى تعديل الى الاحسن فى المستوى الاجتماعى الاقتصادى للفرد • ولا حراك نفسى ، أى تعديل فى البناء النفسى للمهاجر بحيث يكتسب مقومات الشخصية الحضرية النمطية (عزت حجازى ، القاهرة ، ص ٥٩) (المترجم) •

داخـــل الحياة الحضرية يعتمد على دوافعــه وطاقاته الخاصة • ولقد قام ليفين (٢٩) بتحليل مظهرين من مظاهر التمثيل الحضرى assimilotion وهما المشاركة فى الحياة الحضرية والتغيرات التى تحدث فى الاتجاهات الخاصة بالحياة الاجتماعية الحضرية ، وذلك بهدف ادمـــاج المحددات الثقافية ـ الاجتماعية العامة للهجرة ، مع المحددات الفيزيقية • ولقد كان المهاجرون الذين تمت دراستهم من الذكور الذين سيسكنون فى شقق بوضع اليد Care takers فى أنقرة وهؤلاء كانوا ـ يعيشون فى مناطق الطبقة الوسطى بعيدا عن غير القرويين الذين يقطنون فى منازل مبعثرة، هذا فضلا عن أن لديهم حساسية خاصة للتفكك الذى ينتج عن الحركة الى داخل المدينة • وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم ليرنر فى تصنيفه اسم (السكان الذين هم فى حالة تحول Trans itionals) •

ولقد وجد ليفين أن كبار السن أقل مشاركة فى الحياة الحضرية . وكلما زادت سنوات حياتهم فى المدينة حدثت اتصالات ثقافية جديد ، حسبما كان متوقعا ، الا أنه لم يكن ثمة تناقض واضح فى اتصـــالهم بقراهم الاصلية طول الوقت • وفى الحقيقة كلما زادت اتصالات هؤلاء المقيمين بوضع اليد Care Takers بقريتهم الاصلية ، سواء من خـــلال الخطابات أو الزيارات الشخصية للقرية • أو زيارة أصدقائه من القرية فانه تتزايد درايته بوسائل الاتصال كما تتزايد اتصالاته بالناس فى المدينة • فهناك اذن علاقة ايجابية بين الاتصالات الثقافية القديمـــة والاتصالات الثقافية الجديدة لهؤلاء الناس المنعزلين نسبيا اذا ما قورنوا بأولئك الذين يعيشون المدن فى جماعات قبائلية وكذلك فانه بغض النظر

---

(٢٩) N. Levine, Old Culture - New Culture: A Study of Migraunts in Ankara, Turkey, Social Forces 51 (1973), pp. 355 - 68.

عن اتصالاتهم بقراءهم فان هناك علاقة ايجابية بين التعليم ومدى احساسهم بالتكيف ، وعمرهم ، وعدد السنوات التي يعيشونها في انقره • ولم تتضح أية علاقة بين مستوى الدخول لهؤلاء السكان Care Takers ، أو حجم القرى التي جاءوا منها وبين معدلات اكتسابهم الثقافة الحضرية •

وتبين هذه النتائج أن أولئك الذين جاءوا الى المدينة يخضعون بالعقل التغير ويوافقون على انهم سوف يصبحون من سكان المدينة • وقد اتضح بصفة عامة أنه كلما زاد الفرد من اتصالاته في المدينة فانه يغير من معتقداته واتجاهاته وتوقعاته الاجتماعية نحو المعتقدات والاتجاهات والتوقعات ذات الوجهه الحديث وبخاصة اذا نظرنا الى نزعته المحافظة نحو المرأة ، والطموح الاقتصادي له ولابنائه (٣٠) •

ويتناقض اتجاه تسامح هؤلاء السكان بالنسبة للنساء مع الاتجاه التقليدي لسكان الحضر ، الذي كان بدوره يتضمن قيوداً أقوى مما كان في القرى • وينتهي لينين الى أن عدم اتاحة وظيفة ما في المدينة ليس معوقا اقتصاديا يجعل الناس يهاجرون من المدينة الى القرية مع انهم قد اكتسبوا خصائص ثقافة المدينة اذ أخذوا بالتحديث من خلال مشاركتهم في حياة سكان المدينة وغيروا من اتجاهاتهم ومعتقداتهم بما يتفق مع اساليب حياة المدينة •

---

(٣٠) ولقد درس (برايهو) اثر حياة المدينة في وضع المرأة ، وفي بعض الاتجاهات الاجتماعية • ففي المدينة تتمتع النساء بحرية أكثر على الحركة والاتصال ، ويقبل ازواجهن ذلك كشيء مرغوب فيه • وقد حدثت تغيرات في الرى وفي تقييم التعليم • كما اختفت القواعد الطائفية الملزمة ، وأصبحت الفروق الطبقية على اساس الثروة أكثر ظهورا ، واشد وطأة • (بوتومور ، تمهيد في علم الاجتماع ، ترجمة وتعليق د• محمد الجوهري واخرون ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٢ ، ص ١٣٣) • (المترجم) •

ولقد درس يونس الكبير فى طرابلس بليبيا عددا كبيرا من المهاجرين الذين يعملون فى مهنة واحدة لكى يبين مدى توافقهم (٣١) • حيث تام بقياس التوافق عن طريق مؤشرات للتحديث مثل الدرجة العالية من القدرة على التقمص ، والاتجاه المرغولا فيه نحو تحرك النساء ، وعدم التمسك الشديد بالامور الدينية ، ودرجة المشاركة والتفاعل فى حياة المدينة • فهناك بعض الارتباطات القوية بين نتائجه والنتائج التى توصل اليها ليفين • اذ وجد (الكبير) أن كبار السن من المهاجرين يقل توافقهم للحياة الحضرية ، وكلما كثرت سنوات معيشة المهاجرين فى طرابلس زاد توافقهم ، وكلما صغر سنهم زاد توافقهم أيضا ، وكلما زادت اتصالات المهاجر مع الذين ولدوا فى طرابلس ، ارتفع مستوى التعليم ، وتتعاظم درجة التوافق كلما استخدم المهاجر وسائل الاتصال الجماهيرية وارتفع مستوى المهنة التى يعمل بها ، وكذلك بالمقارنة بين المهاجرين الذين يعيشون فى أرقى ثلاث ضواح للمهاجرين — التى بيناها فى الفصل السابق — وبين غيرهم من سكان المدينة ، تتضح درجة عالية من التمدن ، واستقرار أسرى أقوى • وبالمثل أكد سنايبرج على أهمية الخبرة التى يكتسبها المهاجرون فى مراحل اقامتهم المبكرة بمدينة أنقرة عند تحديد تمدن النساء المهاجرات الى هذه المدينة بمقارنتهن بنساء أربع قرى باقليم أنقرة (٣٢)•

وتوضح نتائج هذه الدراسات بالاضافة الى تلك التى جمعها ليرنر أن هناك سمات معينة ترتبط بالتمدن وتوجد بصفة عامة فى المدينة • الا

---

(٣١) Elkabir (1972) op. cit.,

(٣٢) A. Snaiberg, Rural - Urban Residence and Modernism: a Study in Ankara Province, Turkey, Demography 7 (1970), pp. 71 — 85.

انه رغم اتصالها بأسلوب الحياة الذى يمكن ان يطلق عليه صفة (حضر) فان ذلك موضوع اخر قائم بذاته ·

وتؤكد النتائج ايضا على امكانية وجود نموذج عام للتحديث الاجتماعى Soial Modernization يرتبط بالهجرة والتغير الاجتماعى ويمكن تطبيقه فى الشرق الاوسط وفى أجزاء اخرى من العالم النامى · ومع ذلك فان هذا لا يقودنا فى حد ذاته الى فهم عملية التحضر الاجتماعى فى الشرق الاوسط · اذ يهمنا السؤال عما يتضمنه الغد من قيم اجتماعية تقليدية أو حديثة بغض النظر عن تطور روح سكان الحضر التى تميز هذه المنطقة وعلى هذا يمكننا تعمق مظهرين للتغير الاجتماعى يؤثران على جميـــع مستويات مجتمع الشرق الاوسط ، وهما الاتجاهات نحو النساء والاتجاهات نحو وسائل الاتصال الجماهيرى · ومن ثم توضح مظاهر التغير فى الجماعات الاجتماعية التى تبدو فى الدين وفى السياسات وفى بعض النظم الاجتماعية التقليدية الاخرى ·

مـــكانة النســـاء :

يختلف عالم المرأة عن عالم الرجال فى معظم المجتمعات ، وعادة ما يكون مقيدا بشكل ضيق · ان ما يميز الشرق الاوسط هو أن هذه الاختلافات تأخذ طابعا نظاميا · والاسلام مسئول جزئيـــا عن هذا ، ففى النظم الاسلامية ، تعطى الافضلية للذكر · فالطلاق وتعدد الزوجات موضوعين يعطيان تأثيرا سلبيا على مكانة النساء فى الاسلام (٣٢) · ويتأكد دور تبعية المرأة عن طريق التحريم التقليدى للطلاق عن طريق الزوجة وأن تكون تحت امرة الزوج ومستعدة لذلك · وبالرغم من ذلك فان معظم أقطار

---

(٣٢) Baer (1964) op. cit., p. 35.

الشرق الاوسط أصبح له قوانين حديدة تعمل على تقوية وضع النســاء وترفع من امكانية النساء على طريق أزواجهن ، وتعدد الزوجات نادر الان ومن المحتمل أنه قد انتهى • وعلى أى حال فان الاتجاهات التقليدية نحو النساء ليست دينية فى أساسها ، بل انه يبدو ارتباطها بقيم دنيوية غير دينية مرتبطة بتصور شرف العائلة (٣٤) •

لقد ناقش دود P. Dodd بشيء من التفصيل شرف العائلة فى المجتمع العربى الا أن كثيرا من تحليلاته يمكن تطبيقها بالنسبة للمجتمعات التركية والايرانية ، فشرف العائلة صفة مميزة للافراد وللاسرة كجماعة، ويحدد مبدئيا عن طريق قرابة العصب agnates مثل : الاب ، الاخ ، أخ الاب (العم) ، أبناء العمومـة ، الذين يرتبطون عن طريق الدم أكثر من ارتباطهم عن طريق الزواج ويمتد شرف العائلة ليشمل نطاقا أوسع من السلوك والافعال ، مثل الصوت المرتفع والظهور فى الاماكن العامة ، التى ترتبط فقط بالجنس ويعتبر شرف العائلة حـــق للذكور وهو موضوع يتعلق بالسمعة أكثر منه بالواقع • والنســـاء يتحملن مسئولية التقيد والارتباط بدستور هذا الشرف • فالقيمة العليا توضع على أساس الشرف وضرورة حمايته تقع على كامل النساء وافعالهن ، وبالتالى تتسع دائرة أعمال الرجال بحيث تشمل تلك الانشطة المتضمنة فى المظهر العام ، وأغلب المهن ، والانشطة السياسية والحربية ، ويجب أن يكون هناك فصل بين النوعين فى التعليم ، كما يجب أن تخضع أنشطة النساء للرقابة والاشراف : فى المنزل ، والعمل فى الحقول ، والزيارات ، ورعاية الطفل ، وفى المدينة مثل الصناعية يكون التأكيد على خصوصية الاسرة وسريتها

---

(٣٤) P. C. Dodd, Family Honour and the Forces of Change in Arab Society, Internationa l Journal of Middle East Studies 4, (1973) pp. 54.

قد اثر على طراز المنزل ونمط العلاقات الصناعية على مستوى الاسرة ٠

وهكذا يضيق العالم التقليدى للمرأة فى مجالات لا تعرض شرف العائلة للمخاطرة : مثل المنزل وانماط الاتصال الخاصة بين نساء مختلف البيوت ٠ والرجال من خارج الاسرة ليم مدخل محدد يصلون منه ولايقتربون من المدخل الثانى ٠ وبالتالى ، فالنساء مدخل محدد لمجال حياتهم ، ورغم أنهن يعملن فى الارض ، لكنهن لا يقتربن من الاماكن العامة للاتصالات(٣٥) ففى مدينة تقليدية صغيرة مثل اولا Ula فى تركيا ، تعمل النساء فى مجالات التبغ ، لكنهن يجب أن يصلن الى أعمالهن فقط عن طريق الذهاب منفردات عبر ممر خلفى دون أن يجذبن الاهتمام اليهم (٣٦) ويوردليرنر من خلال مقابلة أجــراها مع أحدى الفلاحات اللبنانيات الاميات بعض الكمات عن العمل اليومى للنساء التقليديات ٠

بالسؤال كيف تحصل على أخبارها ، اجابت : « من الجيران ، عند المخبز عندما أعود بالخبز ، وعندما أذهب للحصول على مياه الشرب ٠ (من الذى يقص عليك الاخبار عندما تكونين عند هذين المكانين؟) جميع النساء اللاتى يذهبن هناك ٠ (عم يحدثونك غالبا ؟) عمن سوف تتزوج ؟ ومن سوف ترزق بطفل ٠ ومن ستذهب الى طرابلس ، وكذلك عمن يتنازع مع من ولماذا » (٣٧) ٠

وهكذا ترى كيف يتناقض هذا مع الفتاة الطالبة اللبنانية التى كانت متهمة بحجم ميزانية الولايات المتحدة !!

---

(٣٥) C. A. O. Van Nieuwenhuijze, Social Stratification and the Middle East, Leiden 1965. p. 71.

(٣٦) Benedict (1970) op. cit.,

(٣٧) Lerner (1964) op. cit., p. 177.

ومن الناحية التقليدية ، فان نمط العلاقة بين الرجال والنساء فى الحياة الخاصة تكون محكومة بالسلطة الرسمية للزوج على الزوجة ، وينعكس هذا جزئيا على سلطة الاخ على الاخت • ويمكن أن تتصـــل النساء بعدد محدود من الاقارب الذكور ، الذين يختلفون عن النساء من حيث السن ، وكلما تقدم بهن السن (حيث يقل اغراؤهن كثيرا) كان لهن أن يلتقين بأناس أكثر • واذا غاب الزوج ، أو الذكور عن الاسرة فيمكن للزوجة (استثناء) تمثيل المنزل بالنسبة للزائرين الذكور ، بحيث يتحدد وضعها التمثيلى هذا (٣٨) الا أن عدم مشاهدة الزائر ربما ينفذ على أساس محادثة من خلف باب المنزل المغلق • وعندما تغادر المرأة المنزل فان حماية الخصوصيات أو السرية يظل محافظ عليها عن طريق حجاب أو غطاء الرأس والعنق ، أما فى الاقطار التى يعتبر الحجاب غير كاف يستخدم كساء (عباءة) تغطى المرأة تماما • فبينما يحرم النظام الحكومى فى أتاتورك Ataturk بتركيا وفى رضا شاه Reza Shah بايران الحجاب فيقال أن بعض نساء الحضر لا يتركن المنزل أبعد من أن ينكشفن فى الطريق العــــام •

فالمكانة التقليدية للنساء على انهن تابعات عن طريق الطبيعة التى تصاحب مجتمعات الشرق الاوسط تؤكد على خصائص الشجاعة للذكور ، وكذلك التفاخر والعدوان يكون من سمات الرجال • ويمكن أن نطلق على هذه المجتمعات اسم « ثقافات غرور الذكور male Vanity cultures » • فالرجل القوى هو الصورة الرمزية المفضلة فى دنيا العرب والاتراك والايرانيين • وربما تتكرر الاعلانات التى ترى فى المدن العربية عن نضال الذكور ، ففى ايران تعتبر الزورخانه Zorkhaueh منزل القوة ، هى النظام المرغوب والهام

---

(٣٨) Van Nieuwenhnijze; op. cit., p. 72.

بينما تعتبر المصارعة فى تركيا هى الرياضة القومية • ان عزلة النساء تعتبر عاملا مساعدا على انتشار الجنسية المثلية homosixuality والتســـامح تجاهها (٣٩) •

واذا اتجهت الحركة نحو المدن الى توسيع بناء العائلة فنحن نتوقع تغيرات فى الاتجاهات نحو النساء ، فطالما أن علاقات الدم ناحية الذكر تقل أهميتها بحيث لا تسمح للعائلات أن تراقب سلوك المرأة وما يمكن أن يكتنفه من مخاطر نحو شرف العائلة ولقد اتضح ذلك من خلال النتائج التى توصل اليها لنين والكبير وسبق مناقشتها ، وان الرجال يتجهون لان يكونوا اكثر تقدمية وأكثر قبولا نحو تحرر النساء كلما طالت مدة حياتهم فى المدينة • وبالاضافة الى ذلك ، فقد يحدث هذا عند التحرك بعيدا عن وجود النساء العاملات بالزراعة التى تعتبر وحدات أســاسية فى قوى العمل الكلية وبالتالى تحصل على حرية أكثر • ومثلما يحدث فى كثير من الاشياء ، فان درجة التحرر التى تصل اليها النساء تعتمد على المصـــادر الاقتصادية للاسرة • اذ يزداد تحرر النساء اللائى تتحمل اسرهن تعليمهن لفترة أطول ، رغم ما تسببه نفقات التعليم من تقليل فى الدخل • فجمعيات الاصلاح المبكرة ، مثل اتحاد النساء فى مصر يعتمد على الطبقة العليا والحضرية • ولقد أوضحت جانيت أبو لغد تاثير تعليم النساء المصريات الحضريات على الخصوبـــة (٤٠) • فالتعليم يعطى النساء حرية اختيار انشطة غير تلك التى تحددها ادوار العمل والجنس • وربما ازداد التعليم وتقدم فى حضر الكويت عن أى مكان اخر فى الشرق الاوسط ، مما اتاح متنفسا للنساء فى التدريس (بحيث يمكن فصلهن عن

---

(٣٩) Baer (1964) op. cit., p. 42.

(٤٠) J. Abu - Lughod, Urbanization in Egypt, Economic Development and Cultural Change 13 (1965), pp. 313 - 43.

طريق الجنس ، كما هو الحال فى الطلب) . ولكن هناك متنفسا قليلا فى التجارة ، بحيث تبدو ثمة معوقات للتغيرات فى وضع المرأة .

وعلى حد ما ذهب اليه دود Dodd فان التحضر الفيزيقى السريع لا ينتج فى حد ذاته من تغير تقييم شرف العائلة أو من الاتجاهات نحو النساء — ولقد أوضح دود أن المناقشة التفصيلية تشير الى أن تجاهل الاسم ليس سمة عامة فى مدينة الشرق الاوسط . فبالنسبة لمعظم الناس نجد أن أسلوب الحياة السائدة يقوم على التفاعلات مع أشخاص معروفين . وفى ضوء التحضر التقليدى يتضح وجود نموذج لحياة المدينه فى ثقافة الشرق الاوسط يقوم على عزل المرأة الحضرية ، وأن حجاب النساء هو علامة مميزة فى كثير من أجزاء العالم العربى . وعلى ذلك يؤكد دود نظرته الى تاثير التحضر الفيزيقى على أساس البناء الاسرى وعلى أساس اختبار احصائى تجريبى يتضمن معدلات المواليد وعدد اخر من الافتراضات .

وأكثر هذه الافتراضات حسما ، افتراض المرء أن التغير فى قيمة (شرف العائلة) ينعكس بالضرورة فى تغير معدل الميلاد . ويغطى هذا الافتراض سلسلة سببية معقدة يمكن تلخيصها كما يلى : يتضمن (شرف العائلة) مجموعة من المعايير التى تتطلب زواجا مبكرا لجميع النساء البالغات ، تغيير النشاط ، تجاهل انماط عددية من المهن ، وعدم مواصلة التعليم . وترتبط عملية تربية الاطفال بمعايير شرف العائلة هذه، مما يرتبط بانجاب الابناء وعلى ذلك فان البناء الاسرى التقليدى يترتب عليه معدل مواليد مرتفع جدا . والتقليل من حدة أى من هذه المعايير سوف يترتب عليه معدل مواليد منخفض .

والافتراض الثانى هو ان معطيات معدلات المواليد ثابتة ودقيقة (٤١) .

(٤١) Dodd (1973) op. cit., p. 49.

واذا اخذنا مصر ولبنان كمثالين ، فان دود يفترض أن عدم وجود فروق ريفية حضرية فيما يرتبط بالخصوبة هو شاهد على أن المعايير التقليدية مازالت مسيطرة على المناطق الحضرية • وحتى اذا لم يحدث هذا الافتراض المؤقت (التجريبى) • فبالرغم من بقاء أنماط الخصوبة الريفيـة والحضرية ثابتة فى ليبيـا ، ففى أقطـار عربية أخرى مثل العراق (٤٢) ، فان الخصوبة ترتفع فعليا فى المدن — وخارج الشرق الاوسط العربى ، وفى تركيا وايران ، ويلاحظ انخفاض الخصوبة فى المدن •

وليس هناك اتجاه متميز ناحية النساء فى مدن الشرق الاوسط ، الا أننا جميعا فى عمومنا توضح أنه حينما تذهب النساء الى مقهى أو صالة شاى أو محل مثلجات ، فان هذه الاماكن تقسم فى العادة الى قسمين منها قسم خاص للعائلات ويكون فى طابق أعلى أو قسم معزول داخليا • والذكر الذين لم يصطحبوا عائلاتهم يجب أن يكونوا خارج هذا القسم من الناحية الاخلاقية ، ويمكن للمرأة أن تدخل حتى وان كان يصاحبها ذكر واحد من أسرتها • ولا يطبق هذا فى الفنادق الغربيـة والبارات والمطاعم • وتتضح الاختلافات بين المدن فى الكويت وطرابلس ولبنان ، ففى الاخيرة تذهب النساء الى السينما ثنائيات ، تتحجب فى الضوء ، وبمجرد دخولها تستطيع أن تتحدث (٤٣) ، بينما تقسم دور السينما فى مدينة الكويت الى قسمين أحدهما خاص بالعائلات والاخر للرجال الذين لم يصطحبوا عائلاتهم • وفى العادة فان الاتجاهات أكثر محافظة فى المدن الريفية عن المدن العاصمة • وهذا يختلف أيضا من منطقة حضرية الى أخرى • ففى الشمال الغربى فى طهران تصبح الملابس الغربية عاديـة

---

(٤٢) L. Joned, Rapil Population Growth in Baghad and Amman, Middle East Journal 23 (1969), pp. 209 - 15.

(٤٣) Gulick (1967) op. cit., p. 5.

بالنسبة للنساء ، ولكن فى مناطق الجنوبيه ... التى لا تصطحب معها ثوب يغطيها تتعرض للمصايفه .

التوافق الاجتماعى : الاتصال والسياسة :

يمكن القول بصفة عامة بأن الاتصال ، وخاصة الاتصال الجماهيرى يلعب دورا هاما فى عملية التحضر الاجتماعى ، ولقد ناقش (الكبير) هذا ووصل الى أن الاتصال الجماهيرى والتعليم والمهنة هى عبارة عن مقاييس لمتغير مستقل عام يطلق عليه « الاتصال » (٤٤) . ويعتبر السن والتكامل بمثابة عاملين موفقين يعملان على تسهيل تأثير الاتصال على تمثيل المهاجرين . نلقد نظر (الكبير) الى التعليم كمظهر خاص للاتصال يختلف عن الاتصال الجماهيرى الذى أصبح نظاما رسميا يضع فى اعتباره التزامات الجمهور والخدمة ، ويتطلب مشاركة الجمهور وتوجه جماعة سن خاصة ، ويمكن ملاحظة نفس وجهة النظر هذه بالنسبة لاهمية الاقتراب من وسائل الاتصال الجماهيرية أو استخدامها ، حيث وضع ليرنر عددا من الارتباطات بين التعليم والاتصال الجماهيرى (٤٥) .
ويفترض ليرنر أن أولئك الذين يقرءون الصحف ، يتجهون أيضا الى مشاهدة الافلام السينمائية باستمرار وكذلك يستمعون الى الاذاعات وغيرها من وسائل الاتصال . ولقد كان الاختلاف فى الوصول الى البيئة (أو الجماهير) فى المناطق الريفية والمدن بمثابة السبب الرئيسى للاختلافات فى التحديث بين الريف والمدينة .

ففى المدينة كثير من الذين لا يقرءون الصحف أو حتى يشترون راديو أو تليفزيون قد يذهبون بانتظام الى السينما . ولقد اكد ليرنر على دور

---

(٤٤) Elkabir (1972) op. cit., pp. 193 - 4.

(٤٥) Lerner (1964) op. cit.,

السينما في نقل المعلومات عن أساليب الحياة الجديدة . ونقتبس بعض الكلمات من المقابلات التى أجراها مثل : « الفيلم يكاد يكون معلما لنا ... فهو يقص علينا ما تفعله وما لا تفعله » . « انها ادوار تمثيلية فيها يعيش الغنى ويعد المفتاح الرئيسى لهذه الادوار وكيف يمكن للاخرين تمثيلها » (٤٦) . وتوضح بيانات المسح الذى أجراه ليرنر فى عامى ١٩١ ـ ١٩٥٢ أن التليفزيون قام ببعض وظائف السينما . فلقد تحولت المدينة الصغيرة مثل اران بيدجول Aran Bidjul فى وسط ايران من حقبة الراديو الى التليفزيون . فلم تنشا دور سينما فى المكان . والان يمكن ان يصل الارسال التليفزيونى من طهران الى بقية الاماكن .

وعلى الرغم من التحكم فى سائل الاتصال الى درجة ما عن طريق الحكومة فى كل بلد بالشرق الاوسط فان هناك امكانية لزيادة تاثيرها على اساليب الحياة او الاتجاهات السياسية والحقيقية أن أهمية وسائل الاتصال الحديثة فى الحياة السياسية كانت معروفة مبكرا فى تركيا عن طريق كمال اتاتورك Kamal Ataturk الذى أنشأ بيوت الناس Peapl's houses فى القرى لكى يتجمع فيها الشعب ويضعون الراديو فيها لكى يسمعون الاخبار . ولقد وصف هاكر J. Hacker تاثير السينما على اساليب الحياة والسياسة فى عمان Amman فى أواخر الخمسينات من هذا القرن بما يـــــلى :

« يشاهد الفيلم فى عمان على انه تسلية بصفة خالصة . فمدخل الشاهدين يتجه نحو مشاهدة أفلام شارلى شابلن وحقبة مارى بيكفورد قبل الانتاج الذى تنفق عليه استديوهات A F U فى أواخـــر العشرينات وتقوم الانتقادات لتناقش الفيلم ككل فنى . ولا يهتم الناس فى عمان

---

(٤٦) ibid, p. 235.

بالفيلم كفن ، لا بالافلام على انها دعاية ، أو انها تصنع أو تحلى مشكلة اجتماعية ما • انهم يذهبون لمجرد التسلية مثلما يجلسون حول الراوى فى مقهى • وغالبية الافلام المعروضة امريكية سواء متاثرة بالاتجاه الغربى أو بالمدرسة التاريخية الخيالية فى الدراما ، مثل افلام روبين هود أو بن هور • وواضح أن الشباب فى سن العاشرة وما بعدها او العشرينات من عمرهم يختارون افلام الحركة بحيث يمكنهم أن يتوحدوا مع شخصية البطل او المغامر •ومن السهل جدا فهم اللغة الاجنبية عن فهم الفيلم النفسى الذى يتضمن حوارا دقيقا وافلام العنف أيضا مرغوبة • والافلام العربية فى العادة من النوع الحساس ، تهتم بالحب والخيانة والطلاق ، والافلام الوثائقية غير مرغوبة ، ولا تدرك جيدا ، وقيمتها غير معروفة •

ويحتاج الفيلم لفترة حتى يستوعب الظروف الصعبة ، ولكن له تأثير واضح عليهم بطرق أخرى ، وبعيدا عن تعودهم على استخدام تفاصيل الحياة الغربية • ان قيم ومشكلات العالم الغربى كما تتمثل فى الافلام الغربية بعيدة عن أسلوب حياة الاردن ولذلك فهى تمر على المشاهدين دون أن يدركوها أو يلاحظوها » (٤٧) •

ويستمر المؤلف فى الحـــديث عن السينما والراديو اللذين أصبحا أدوات ذات تأثير قوى فى تشكيل وصياغة الرأى والسلوك • وشكوك بعيدة حول اهمية وسائل الاتصال فى انجاز التغيرات السريعة فى اساليب تفكير الشرق الاوسط قام بتجميعها روس Roos حيث وجد أن الاتجاهات السياسية قد تتغير فى ريف تركيا بسرعة اكبر عن طريق انتشار وسائل الاتصال والتعليم • وتعتبر القنوات غير الرسمية المتعددة للاتصال بين

---

(٤٧) J. M. Hacker, Amman, Department of Geography Research Papers Series No. 3. University of Durham, 1960, p. 96.

المدينة والقرية ذات اهمية بالغة فى هذا الشأن (٤٨) ·

وتذهب جانيت أبو لغد الى أن مدى امكانية الاختلافات فى تغيرات الاتجاهات السياسية يرتبط بمكانة المهاجرين وطريقهم الى المدينة فى مصر (٤٩) وهذا يفترض أولا أن أولئك الذين يبقون كمقيمين فى القرى المصرية يكادوا ان يطوروا من اتجاههم الحقيقى نحو المشـــاركة فى السياسات المحلية كقوى حقيقية تمارس ضبطا على الاقسام المحلية ، وهذا يرفع من التحول الى مستوى القرية · وهكذا ايضا الفلاحون الذين يتحركون الى المدينة بينما يتركون اصولهم فى القرية ، فالمهاجر الذى يتحرك دائما لاجل مستوى تعليمى أعلى سوف يدخل فى الصفوة الحضرية ذات التعليم العالى أو القوى التى توجه السياسات القومية او على مستوى أقل سوف يجد دورا اقتصاديا فى القطاع الصناعى الواسع المدى ويصبح بالتالى مشاركة فى السياسات من خلال انشطة اتحاد العمال مثـلا · واولئك الذين يتحركون الى المدينة من خلال خدمات الجيش وبالتالى يمكثون بها سوف يصبحون مشاركين فى السياسات بقدر كبير او ضئيل ، معتمدين على ارتباطهم بقريتهم الاصلية · او بمهنتهم فى مكان العمل · ويضطر المهاجرون الفقراء ان يتركوا القرية بحثاً عن فرصة اقتصادية بارتباط معظمهم بمهن غير ماهرة فى قطاع صناعى صغير المدى بمقارنتم بالانتاج الحدى والمشروعات التجارية · ويرغب بعض الناس ان يبقوا غير سياسيين ويلاحظون السياسات القومية ووسائل الاتصال ، رغم أنهم قد يدخلون فى أعمال ادارية وغيرها من انشطة السياسة الجماهيرية ، او فى سياسات

---

(٤٨) L. L. Roos, Attitude Change and Turkish Modernisation, Behavioural Science 13. (1968), pp. 433 - 44.

(٤٩) J. Abu - Lughod, Rural Migration and Politics in Egypt, in Rural Politics and Social Change in the Middle East, (ed.), R. Antown 8 I. Harik, Bloomington, 1972, pp. 315 - 34.

لحد احياء المدينة في القاهرة او الاسكندرية (٥٠) . وهناك الشعب الذي يملاء الشوارع بحثا عن احداث جماهيرية مرغوبة مثل الجنازة التي حدثت في القاهرة عام ١٩٧٥ لام كلثوم ، المغنية العربية الشهيرة ، بحيث احتشد جمع غفير يمكن مقارنة حجمه بذلك الذي شيع جنازة تشرشل أو ستالين .

وبالرغم من أن عملية التحضر الاجتماعي للأفراد ربما تتنبه للارتباط بضعف الممارسات الدينية عامة ، فإن العكس يمكن ملاحظته في الجماعات القبائلية ، كما هو الحال عند الفلاحين في العمارة في بغداد ، الذين يرتبطون مع جماعات طائفية . ولقد أوضح خوري F. I. Khuri أن نهضة الطوائف المحلية لدى المهاجرين الريفيين تتضح في ضاحيتين في لبنان، بحيث يتم التحول من الولاء السياسي العائلي الى الولاء الطائفي Sectarian allegiance وربما يصل الى مرحلة الولاء القومي (٥١) . ويكمن هذا الاطار في طبيعة السياسات القروية ، التي تتحدد بصورة كبيرة عن طريق الصراعات التي تحدث بين الجماعات العائلية في لبنان ، وكذلك في اماكن اخرى بالشرق الاوسط ، وخاصة عندما يتعهد شرف رئيس العائلة او قيادتها تسلك كما لو كانت هيكلا سياسيا واحدا . وقد تقوم عائلات اخرى بالامداد او السلوك في دور له منزلة الوسيط . فاقسام القرية محددة بمختلف الوظائف اذا سكنتها فقط جماعات عائلية مختلفة . ويمكن أن تصبح هذه العائلات محلية في داخل القرى ، رغم ما يوجد من تقسيم طبقى داخل الجماعات العائلية . فالرأى العام للقرية

---

(٥٠) Ibid., pp. 329 — 31.

(٥١) F. I. Khuri, Sectarian Loyslty Among Rural Migrants in Tow Lebanese Suburbs : A Stage Between Family and National Lebanese Suburbs: A Stage Between Family and National Allegiance, in Rural Politics & Social Change in the Middle East, (ed.), R. Antoun & I. Harik, Bloomington, 1972.

لا يدعو العائلات لان تدخل فى صراع الا أن الصراع يحدث لاسباب خاصة وتتصل بالروابط الاقتصادية أو روابط المصاهرة عن طريق الاب أو الام على احداثه • وتعتبر الطائفة الدينية عنصرا عاما فى السياسات القومية ، ولكن اهميتها تتضاءل فى القرى • فالمسلمين الشيعه Shiite Muslims والمسلمين السنيين Sunni والمسيحيين المارونيين Maronite Christions وغيرهم يعيشون معا فى سلام فى نفس القرى ويتزاورون ويتبادلون الهدايا ويدافع بعضهم عن البعض • ويقتصر النشاط السياسى والمنافسة على الجماعات العائلية داخل الطائفة الواحدة ، وليس بين الطوائف •

ولقد وصف خورى التغير فى هذا الموقف فى ضاحيتين من بيروت وهما الشياح Shiyah والغبايرى Ghbbayri ، اللتين كانتا حتى عام ١٩٥٦ فى مجلس بلدى واحد وهو الشياح Shiyah • ومنذ الحرب العالمية الاولى والمارونيون لهم نفوذهم على الشيعة فى بلدية الشياح هذه ؛ وهناك وحدة فى الهدف تجمع الاثنين حيث يعملان فى مشروعات اقتصادية واحدة • وهو انتاج الحرير ، الذى اخذ فى التدهور منذ العشرينات من القرن الحالى ، وتتغير نسبة الاعضاء بين الطوائف عن طريق هجرة الشيعة وخاصة الى المنطقة الجديدة المسماه الغبايرى ، والتى وجدت فى أواخر العشرينات ، داخل المجلس البلدى • ويتاكد الاختلاف فى الضاحيتين مع نمو بيروت وتطور هذين المجتمعين المحليين ، وتتنازع المنطقتين على الانساق على مشروعات التنمية •وفى عام ١٩٥٦ انقسمت المنطقتين ليكون لكل منهما مجلس بلدى مستقل • ويرى خورى ان العامل الاولى فى نمو هذا المجلس البلدى الطائفى كان انتقاله من العائلة الى الطائفة من خلال المهاجرين الوافدين الجدد الى هاتين الضاحيتين •

فالمعيشة فى بيروت مؤجرة والعمل فى أعمال البيع ، يجعل القادمين الجدد لا يندمجون فى موضوعات الملكية والميراث ، والرى الذى يثير الصراع العائلى فى القرى ، وليس من الضرورى أن يعيشوا مرتبطين

بعائلاتهم الخاصة · ان استخدام العائلة الجدير بالاحترام كان محمودا بالنسبة اليهم على أنه وسائل للمشاركة فى الشئون المحلية ، حيث أنهم يعتبرون أنفسهم ثانويين بالنسبة لاهتمامات الاكبر سنا ، فينشئون العائلات فى الضواحى ، وهكذا يشارك المهاجرون فى السياسة من خلال الولاء العام للطائفة · وفى كل من الضاحيتين فان الاعلان العام للانتماء الطائفى ، مثل الانتماء الى الشيعة يلعب دوره فى مناحية الغبايرى ، او الانشطة الخاصة بحزب المارونيين فى الشياح · فهذا الانتماء أكثر انفتاحا خلال السنوات من ١٩٣٠ الى ١٩٥٠ عما كان من قبل ولم يعد مغلقا كعالم القرية حيث يحترم الناس المشاعر الدينية لجيرانهم ·

الفصل السادس

المهن والتدرج الاجتمــاعى (*)

يمكن ملاحظة تداخل الاهداف والاهتمامات الحديثة والتقليدية فى الاسرة والزواج ومدى اهتمام الجماعات بالنواحى السياسية والدينية اذا ألقينا نظرة على طبيعة المهن والتدرج الاجتماعى فى المدينة • حيث يظهر الاتجاه السائد لدى الجماعات القبائلية والسياسية الى أن يكون مركبا من الحركة نحو السياسات الحزبية ، فى الخط الطبقى بطبيعة الحال ، واعادة التأكيد على المصالح القبائلية أو السياسية أو الدينية • وفى الفصل الراهن ، سوف نتساءل عن مدى امكانية تفهم بناء المجتمع الحضرى من حيث كونه يتكون من جماعات متعدد ومستقلة ولكنها متبادلة الاعتماد فى نفس الوقته ، ومن ناحية أخرى نتساءل عن كيفية تغيره نحو مجتمع ينتظم وفق خطوط طبقية ترتبط بالمهنة والثروة ، اى أنه نموذج من المجتمع الذى يمكن توقع وجوده كنتيجة لانتشار الراسمالية • وسيكون محور المناقشة عن مصادر الثروة التى تأتى من المدينة ومن يستفيد بها ، بحيث نهتم أولا ببناء اقتصاديات الحضر •

بناء اقتصاديات الحضر :

لقد كانت ملكية الارض الزراعية هى المصدر الرئيسى للثروة فى مجتمع الشرق الاوسط فى الماضى ، وكذلك كان مصدر الثروة فى التحكم فى انتاج الارض من خلال الضرائب على العقود الزراعية أو التجارية ، أو التجارة طويلة الاجل • ولقد أصبحت ملكية الارض أقل أهمية ـ نسبيا ـ كمصدر للثروة منذ أن تحولت اصلاحات الارض الى الفلاحين المزارعين، ومنذ أن وجدت ويسرت وسائل اكثر ربحا للحصول على الثروة • وكان نمو الصناعات أحد هذه الوسائل ، وكان المصدر الاخر هو البترول أو منتجاته ، وهناك اختلافات اساسية من حيــث تأثير البترول على

(*) قام بترجمة هذا الفصل والتعليق عليه الدكتور / غريب سيد احمد •

اقتصاديات الدولة حتى بين الدول الصغيرة مثل ابو ظبى ودبى ، وهما دولتان من دول اتحاد الامارات العربية • وكانت ابو ظبى شياخة صحراوية بسيطة ، تعتمد على الرعى والزراعة البسيطة ، وعلى الصيد والتهريب كوسيلتين للحصول على الثروة ، بينما كانت دبى قبل اكتشاف البترول مركزا تجاريا مزدهرا فهى تقع على الخليج وتعتبر مدينة ذات طابع ايرانى تقليدى ، وبعد انتاج البترول بعشر سنوات فى هاتين الشياختين أصبح التأثير على طرائق الحياة واضحا ، اذ أصبحت ابو ظبى مدينة جديدة ذات صفة تجارية ونتج عن ذلك انشاء دولة حديثة ولكنها صحراوية على اية حال • بينما كانت دبى اكثر استعدادا لبذل الجهد من أجل ايجاد الثروة عن طريق توسيع وتحديث المدينة القديمة ، ولكنها احتفظت وعملت على زيادة وظائفها التجارية الهامة • وفى ابو ظبى سكان من بدو الصحراء الذين استفادوا من البترول فجأة ، بينما فى دبى رجال اعمال حضريين عرب • ومع ذلك فكلاهما تهتم بالتأكيد على بدويتهما وخاصة من خلال تشجيع وسائل التسلية والرياضات التقليدية مثل سباق الهجين والصيد بالصقور •

واصبحت هناك امكانية أخرى للحصول على الثروة من خلال الفرص المتعددة للمضاربة على الارض ، هذه العملية المصاحبة لنمو المدن ، سواء عن طريق شراء الارض للبناء فى محيط المدينة • أو عن طريق تجديد المنطقة المركزية وتنميتها ، كما كان هناك مظهر اخر للتغير الهام فى أساس القوى الاقتصادية وهو ازدياد تدخل الحكومة فى الشئون الاقتصادية ، وخاصة من خلال التاميم المستمر للصناعة الرئيسية وهى صناعة النفط او صناعة الصلب • ففى مصر وليبيا والعراق يبدو القطاع الخاص فى بعض مظاهره انه مقيد او تحت سيطرة الدولة • ولم يكن هذا مختلفا عن الموقف الذى كان سائدا أوقات حكم الامبراطورية العثمانية • فالدولة تتحكم الان فى كثير من أقطار الشرق الاوسط فى المصادر المتاحة من الارض والملكية التى كانت فيما مضى وفقا لاهداف دينية [illegible]

تلك الـ ـمنة الـ ـرورية للعمال الحضريين من أجل تسيير احوال الدولة الحديثة تؤدى الى نمو البيروقراطية بشكل لا يتوقف . وهكذا فان المهن الفنية ، والحدمية تتزايد أهميتها باستمرار باعتبارها وسـ ـلة لدعم الاقتصادى .

ويمكن تقسيم بناء الاقتصاديات الحضرية فى الشرق الاوسط الى ثلاثة قطاعات يتميز كل قطاع منها بتنوع وسائل الحصول على اسباب العيش الخاصة به وهذا التقسيم يشبه تقسيم بيرى Berry (١) الذى يرى أنه ينطبق على معظم مدن العالم الثالث . يشمل القطاع الاول العمال العاطلين الذين يمارسون النشاط الاقتصادى فى شوارع المدينة ، ويضم هذا القطاع الباعة الجائلين ، وبائعى اوراق اليانصيب والعمال المرتزقة ، والبغايا والقوادين . ويستحوذ هذا القطاع من المشروع الفردى من ١٠ الى ٤٠ فى المائة تقريبا من قوى العمل الحضرى . كما ان طبيعة أعمالهم او عدم وجود هذه الاعمال . تبدو غير محددة الصورة فى تعداد المهن او التعداد الرسمى للصناعة . ويوضح مسح جماعة المهاجرين الى القاهرة أن من ٢٢ الى ٣٦ فى المائة يعملون بأنفسهم كباعة متجولين (٢) . ويوضح

---

(١) Berry (1973) op. cit., p. 91.

(٢) Petersen (1971) op. cit, p. 565.

يميل المهاجرون من الوجه القبلى الى العمل فى الخدمات الشخصية أو أعمال البناء أو الاعمال التى لا تتطلب مهارات خاصة ، فى حين أن المهاجرين من الوجه البحرى يعملون فى مهن أكثر تنوعا ويفسر هذا الانتخاب أحيانا بتفوق سكان الوجه القبلى على سكان الوجه البحرى - بصفة عامة - فى حالتهم الصحية ، وبالتالى قدرتهم على بذل المجهود الذى تحتاجه أعمال البناء . وذلك بفضل خلو منطقة الوجه القبلى من الامراض المتوطنة فى الوجه البحرى الذى تستنزف طاقة من يصابون بها . وليس ضغط الوافدين الى =

مسح جماعة المهاجرين الى بغداد أن نسبة عالية تعمل فى البناء ، وفى الخدمات البلدية مثل كناسى الشوارع ، والحمالين أو الباعة المتجولين الذين يعرضون سلعهم بالمنازل من باب لباب (٣) . وتتركز المنافسة من أجل العمل وليس هدف الكسب أكثر من كونه حدا أدنى للبقاء . واذا كان هناك نمو فى الاقتصاد الحضرى ، فان كثيرا من المهاجرين ينجذبون نحو المشروعات الفردية على مستوى أدنى أما اقتصاديات نموذج السوق الشرقية التقليدية الذى يعتمد على مشروعات الاسرة فتتمثل القطـــاع الثانى . فالمشروعات الصغيرة المتعددة تنتج سلعا للسوق الجماهيرى الفقير مستخدمة المواد الخام المنتجة محليا . أما انتاج السلع الترفيهية، مثل السجاد للسوق الاكثر ثراء ، يمكن اعتباره ايضا حصة عامة لدخل الاسر (٤) . والقطاع الثالث ، هو القطاع العام ، ويشمل المشروعات الرأسمالية المركزة ، والوظائف الحكومية والمهنية . وللقطاع العام للاقتصاد الحضرى وحدات اقتصادية كبيرة تستخدم توظيف رأس المال بمجال واسع ، وعلى مستويات عالية من التكنولوجيا والكفاية الانتاجية ، وتوظيف الناس بالاجر أو المرتب خلال ساعات منتظمة .

وتنعكس الموازنة بين هذه القطـــاعات الثلاثة الى حـــد ما فى

=

القاهرة على فرص العمل وعجزها عن الوفاء باحتياجاتهم باقل من ضغطهم على الخدمات وعجزها عن تلبية مطالبهم . ويبدو نقص فرص العمل فى العاصمة عن الطلب عليها تضخم ظاهرة الباعة الجائلين . (انظر : عزت حجازى ، القاهرة ، ١٩٧ ، ص ٥٠ ، ٥٣) (المترجم) .

(٣) Azeez (1968) op. cit., p. 284.

(٤) V. F. Costello, The Industrial Structure of a Traditional Iranian City, Tidjschrift Voor Economische en Social Geog-[illegible] 2 (1975), pp. 105 - 20.

الاحصاءات الرسمية لمكانة العامل · ويمكن استخدام التغيرات فى مكانة العمال كمقياس لتعرية قطاع الاقتصاد التقليدى عن طرق القطاع الحديث الذى أخذ يحل محله كما حدث فى ايران مثلا · ويمكن اعتبار الموظفين الذكور اكثر المقاييس صدقا حيث يمثلون الجماعة الاكثر حجما فى حضر ايران عام ١٩٦٦ ، ويمثلون ٤٦٪ من اولئك الذين يشملهم العمل · اما لدى ذويهم بدون أجر فيمثلها ١٢٪ عام ١٩٦٦ من قوة العمل فى المجتمع الريفى ، ولكن اهميتها العديدية قليلة فى المدن · وهناك اختلاف من مدينة لاخرى ، وليس هذا مرتبطا بحجم المدينة · ومثال ذلك ان ٤٦٪ من قوة العمل فى مدينة (قم) يقومون بتوظيف ذاتى بينما نصل هذه النسبة فى مدينة عبدان الى ٥ر١٪ فالتوظيف الذاتى والذين يعملون لدى ذويهم بدون أجر unpaid family workers يمثلان معا نموذجا فى القطاعات التقليدية القصيرة المدى ، وقد انخفضت نسبة الذكور الذين يمثلون قوة العمل فى المجتمع الحضرى فى هاتين الفئتين من ٣٢٪ الى ٢٧٪ فيما بين عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٦ ، بينما ارتفعت فى المجتمع الريفى الايرانى من ٦٢٪ الى ٦٤٪ · وأكثر من ذلك · فان الارتفاع فى معدلات موظفى الحكومة فى الحضر تتنقص مع قلتهم فى المجتمع الريفى بايران وبالتالى فان المرشد الى القطاعات الحديثة والتقليدية للاقتصاد فى المناطق الحضرية والريفية كان اكثر تركيزا فى الفترة ما بين ١٩٥٦ ، ١٩٦٦ ، وفى المدن ذات الاحجام المتقاربة ، رغم انه ليس حجما مطلقا بالتأكيد ، لانخفاض القطاعات التقليدية ·

العمالة والمهن :

يعتبر اى تقسيم لسكان الحضر الى اشخاص أكثر فاعلية اقتصاديا وأشخاص ليست لديهم الفاعلية الاقتصادية هو تقسيم تعسفى الى حد ما ، وخاصة فى القطاعات الاقتصادية التقليدية التى تمثل الاسرة فيها الوحدة الاساسية للنشاط الاقتصادى · فاذا دخلت الاسرة فى شكل معين

من أشكال الصناعة المنزلية فان جميع اعضائها ربما يعملون داخلها فى وقت معين أو غيره • وقد تشمل الصناعة المنزلية Household industry الانتاج من اجل السوق أو انتاج السلع فى البيت من أجل الاستهلاك المنزلى • والنوع الاول من الانتاج ربما يكون جزءا من النسق الاكثر تنظيما لانتاج وبيع السلع ، بينما النوع الثانى ينفصل كثيرا عن أى نسق اقتصادى غير النسق الخاص بالاسرة • وتوضح الدراسة التى اجراها سنايبرج Snaiberg على النساء المهاجرات من الريف الى الحضر فى (أنقره) أن الانتاج المنزلى من اجل الاستهلاك المنزلى يعتبر خاصية مميزة لساكن المناطق الريفية ، أما ساكنى المناطق الحضرية فلديهم فرص أكبر لاستمالة الزبون غير الدائم (٥) تنوع معدلات النشاط الاقتصادى فى المدينة باختلاف النوع والسن . كما تتأثر بالبناء الديموجرافى للسكان • كما تختلف المعدلات أيضا باختلاف البلد ذاته • ووفقا للتقديرات فان ٤٠٪ من المجموع الكلى لسكان العراق يعملون ، و٣٣٪ فى ليبيا ، و٢٤٪ فى سوريا ــ رغم أن النساء العاملات لم يقدر عددهن فى الاحصاءات الرسمية• ومن ناحية اخرى ، ففى الاقتصاديات الواسعة المزدهرة فى الخليج الايرانى قد تصل معدلات نشاط الذكور البالغين الى ٩٠٪ وباختصار ، فان النسبة الغالبة من سكان الشرق الاوسط فى جماعات الشباب ، والاتجاهات التى تقيد المحافظة على وظيفة المراة باستثناء عملها فى الحقول وفى البيت ، أو فى بعض الوظائف الخاصة بالتعليم ، تعنى أن معدلات النشاط الاقتصادى فى المدن والقرى منخفضة بينما ترتفع معدلات السن والنوع •

كم يبلغ عدد الاشخاص الذين يمارسون نشاطا اقتصاديا ويعملون بالفعل ؟ رغم أن الاحصاءات السكانية الرسمية توضح انخفاض معدل

---

(٥) Snaiberg (1970), op. cit., p. 81.

العاطلين انخفاضا ملحوظا ، الا أنه يمكن الاعتقاد بصفة عامة بأن عدم وجود فرص للعمالة هي أحد المشكلات الاساسية التي تواجه مدن الشرق الاوسط وغيرها من اجزاء العالم النامي • ولقد حاول بارتش W. H. Bartsch توضيح هذا التناقض عندما اجرى دراسة حالة على منطقة فقيرة في جنوب طهران (٦) • فالاسئلة التي وجهت للعاطلين تتطلب في العادة استجابة لمقاييس النشاط بالنسبة للعمالة المناسبة التي تبذل في الاسبوع السابق على مقابلة الباحث ، بحيث يقول بارتش أن الكثير من الاشخاص لا يبحثون عن عمل بجدية طالما أنهم يعتقدون أنه لا يوجد عمل أو أن معلوماتهم ضئيلة بالنسبة اليه • ولا تستفيد معظم بلدان الشرق الاوسط باستخدام العاطلين ، اذ يجب على الشخص أن يخلق العمل لنفسه لكي يضمن حدا أدنى لبقائه ووجوده أو حتى يرضى بمستوى معين اذا كان عضوا في أسرة أو بيت يسهم في مصروفاته • ولقد درست هذه المنطقة على أنها جزء من مجتمع محلى نموذجي لقيمين بمناطق مختلفة أعيد اسكانهم عن طريق الحكومة ولقد أوضحت الدراسة أن أكثر من ٨٥٪ من أرباب الاسر ، وأن ٨٣٪ من أزواجهم ريفي الاصل • وهم من حيث البناء العمري اكثر شبابا عما هو الحال بالنسبة لطهران ككل ، ومعدلات النشاط الاقتصادي أكبر • ونسبة عالية من النساء والاطفال يبحثون عن عمل اضافي لزيادة دخل الاسرة عما هو الحال في المناطق الافضل حالا • وتوضح الاسئلة التي وجهت للعاطلين الذين لم يشترطوا شيئا في سبيل البحث عن عمل أن ٣ر١٤٪ من الذكور في النشاط الاقتصادي قد أمضوا عشر سنوات وأكثر بدون عمل ، وتمثل هذه النسبة ٨ر٤٪ فيما يتعلق بطهران، وأن ٢ر٥١٪ من النساء كن غير عاملات ومن يعملن بالنشاط الاقتصادي

---

(٦) W. H. Bartsch: Unemployment in Less Developed Countries A Case study of a poor District of Tehran, International Development Review 13 (1971) pp. 19 - 22.

وقت اجراء الدراسة ، يقابلهن ١ر٤٪ بالنسبة لطهران • ويتزايد التوظيف الذاتى تزايدا ملحوظا فى هذه المنطقة اذا ما قيس بالنسبة لطهران فان أكثر من ٨٠٪ من الذكور الذين يعملون لحسابهم يلجاون الى هذا العمل بعد فشلهم فى الحصول على وظيفة باجر • ويفترض بارتش ان هذا يكون أحد أوجه البطالة المقنعة disguised unemploynent • فكثير من العاملين بأجر كانوا فى وظائف غير منتظمة ، وربما كان هذا يتطلب ان يعملوا لحسابهم من وقت لاخر •

ويبدو ان نموذج العمالة هذا والنشاط الاقتصادى يعم المناطق الاكثر فقرا لمدن الشرق الاوسط ، وخاصة المدن المتروبوليتان والعواصم الكبيرة • ان وضع العمال المقيمين بالنسبة للغالبية العظمى من العمال هو بالتأكيد أفضل فى المدن عنه فى القرى فأى نمو فى قطاعات المشروع المشترك أو الاسرى للاقتصاد الحضرى يعمل مباشرة على احتمال انخفاض قطاع المشروع الفردى بحيث يقع عديد من المهاجرين داخل الاقتصاد الحضرى، ويحصلون على الاجور التى تكفل لهم الحياة والبقاء • وأكثر من ذلك فان المتطلبات الشرعية من أجل كفالة التامين الاجتماعى عن طريق اصحاب العمل قد تكون له نتيجة عكسية بالنسبة لاهدافهم • ومثال ذلك ان العمال فى ايران يعفون من اعمالهم بعد فترة قصيرة من المصانع الصغيرة والورش لكى يتجنب صاحب العمل دفع نفقات التامين الاجتماعى التى تحصل عن طريق القانون بالنسبة للعمال الذين يحصلون على أجـــر دائم (٧) • وهكذا تصبح دورة العمل سريعة بالنسبة للمهاجرين الذين وصلوا حديثا الى المدينة ، ومن ثم تصبح فرص الحصول على وظيفة دائمة واكتساب مهارة مهنة معينة محدودة — فالامداد المستمر بالعمالة الرخيصة لا تحفز المشروعات الحديثة لكى تتحرك بعيدا عن المدن الرئيسية ، وعلى

---

(٧) Ibid.

العكس بالنسبة للخبرة الغربية للتصنيع الحضرى اذ ترتفع الاجور فى المدن الرئيسية بالنسبة التى تتحكم فى الصناعات التى تركز على العمالة لتغيير مناطق الدخل المنخفض ولكى تجعل بتاثيرات النمو (٨) ٠

ويعكس البناء المهنى لكل مدينة وظائفة الى حد ما ٠ وباستثناء المراكز الصناعية الرئيسية مثل ارجلى Eregli ، ومدينة صناعة الصلب فى شمال تركيا ، فان اغلب المدن تتمتع بنسبة عالية للتوظيف فى قطاع الصناعة من الدرجة الثالثة ، لانجاز وظائف خدمية ٠ كتركيز البيع ، والخدمات ، والمهن الفنية والكتابية فى العاصمة توضحه بيانات الجدول رقم (١) بالنسبة لايران ، حيث تعقد مقارنة بين البناء المهن لطهران وبين مدن أخرى ترتيبها من حيث الحجم الثالثة ، والثالثة والعشرين ، والثالثة والثلاثين ، والثالثة والاربعين ، فالعمالة الزراعية فى المدن الايرانية هى الفئة المهنية الوحيدة التى ترتبط ببساطة وبطريق مباشر بحجم المدينة ٠ ويوضح الجدول أن هناك اختلافات يمكن ملاحظتها بين ما يمكن أن يطلق عليه مدينة أولية تخدم على أنها عاصمة الوطن وبعض المدن الاصغر مع ملاحظة المدخل المتضمن فى المهن والتكنولوجية وتلك التى لم تصنف بعد ، ولكن فوق كل هذا فان البناءات المهنية مدهشة وليست متباينة فقـــط ٠

---

(٨) Berry (1973) op. cit., p. 97.

جـــدول رقم (١)

ويبين المهن الرئيسية من خلال النسب المئوية للسكان العاملين لمدة عشر سنوات واكثر في مدينة طهران واربع مدن ايرانية عام ١٩٦٦

	طهران	مشهد	مزد + سليمان	سارى	ماهاباد
المجموع الكي للسكان (بالألف)	٢٧١٩	٤٠٩	٦٥	٤٤	٢٩
الجماعات المهنية الرئيسية					
١ ـ غير مصنفين	٧ر٦	٩ر٩	٧ر٤	١٣ر٦	١٥ر٨
٢ ـ الانتـاج	٤٠ر٧	٤٦ر٩	٣٩ر[illegible]	٣١ر٧	٣٤ر٥
٣ ـ الزراعـــة	١ر٢	٣ر٩	٣ر١	٥ر٦	٢ر٤
٤ ـ المهن الفنية والتكنولوجية	ـر٩	٥ر٦	٩ر٢	٧ر٥	٥ر٧
٥ ـ الخدمات	١٥ر٤	١٣ر١	١٧ر٧	١٧ر٨	١٣ر٧
٦ ـ أعمال البيع	١٥ر١	١٤ر٦	٩ر٩	١٣ر ـ	٢٠ر٣
٧ ـ اعمال كتابية	١١ر ـ	٦ر ـ	١٣ر٣	٩ر٩	٨ر٥

المصدر : مركز الاحصاء الايرانى : التعداد القومى للسكان والاسكان ١٩٦٢

المهنة والطبقة الاجتماعية :

ويجب أن تنوقع بمقومات النســـق الطبقى فى تلك التمايزات بين المهن ، طالما أن المهنة تحدد الدخل الى درجة كبيرة وبالتالى تحدد اسلوب الحياة ، وانها تتحدد الى درجة كبيرة عن طريق التعليم • لقد رأينا فى الفصل الثانى أن المجتمع الحضرى التقليدى ، كان ينقسم الى طبقتين على القمة الحاكم ، واسياد الارض ، والبرجوازية التجارية ورجالى الدين الموســرين ، يليهم القســم الكبير من جماهير العمــال ذوى المكانـــة المحترمـــة وذى المكانـــة غير المحترمـــة ولقد ارتبـــط التغير الحديث من هـــذا التقســـيم البسيط نســـبيا بعدد من الدراســـات التى ركــزت على العمليـات المتشـــابهة التى ظهـــرت فى المجتمـــع الغربى خلال التحول من المجتمع قبل الصناعى وما صاحبه من خصائص اجتماعية وديموجرافية واقتصادية ، الى المجتمع الحضرى الصناعى ، وما صاحبه من مجموع الملامح والسمات المتميزة التى وضع على ضـــوئها مصطلح « الحداثه Modernism » ، ويرى ليرنر Lernar فى النموذج الذى وصفه أن الانتقال من المجتمع قبل الصناعى الى المجتمع الحديث كان يتبعه منطق تاريخى مستقل ، شكلته الثقافة فى كل مكان (٩) • ومع ذلك يميز سنابيرج Saniberg من أن المرء لا يستطيع أن يطلق الصفة المجازية للانسان «الحديث» وبالتالى يخلق نموذجا مثاليا سوسيلوجيا جديدا(١٠)•

وتفترض دراسة شابيرج لمحافظة انقرة الاختلاف المتزايد بين التنظيم الريفى والحضرى أو المورفولوجيا الاجتماعية باعتبارها مؤسسات صناعية فخلال فترة التحول بين المجتمع قبل الصناعى التقليدى والمجتمع الصناعى الحديث كان ثمة تغير من التدرج الطبقى الاجتماعى وفق محكات الانتمـاء بمعنى المحكات المرتبطة بالقبيلة والاسرة والثروة المتوارثة الى التدرج

---

(٩) Lerner (1964) op. cit.

(١٠) Saniberg (1970) op. cit., p. 83.

الطبقى الاجتماعى الذى يعتمد على محركات الاكتساب (١١) • اذ يرقى الانسان فى الحياة من خلال ما يغتنمه بمجهوده الشخصى اكثر من تلك التى يكتسبها عن طريق القرابة ، ولقد ناقشنا الحراك العقلى فى الفصل الخامس وارتباطه بالحراك الاجتماعى • وعلى ما يذهب سنايبرج ، فانه فى فترة الانتقال (التحول) تعطى التنظيمات الطوعية وسائل الحصول على المركبات التعليمية والاقتصادية للمكانة الاجتماعية وتعطى الاختلافات فى اقامة هذه التنظيمات تناقضا كبيرا فى وصول ساكنى الحضر والريف الى درجة من التحديث • وكنتيجة لذلك فان هناك ارتفاعا فيما يسمى بالكثافة الطبقية للوسطى وارتفاعا فى التمايز الطبقى الاجتماعى داخل المدينة وبين المدينة والقرية • وبسبب التمايز فى الانجاز الاجتماعى الاقتصادى بين سكان الريف وسكان الحضر ، فهناك اختلاف فى معدلات تغير الافراد والاسر نحو التحديث (١٢) •

ومن ناحية اخرى فلقد وضع جاكوبز Jacobs فى اعتباره — من خلال دراسته لعملية نمو ايران — أنه من المفيد تقسيم المجتمع الى مراتب تتحدد عن طريق الوصول الى الداخل أو اى مصادر مادية اخرى ، حيث

---

(١) يمكن قياس الحراك الفردى من اعلى او من اسفل السلم الطبقى عن طريق كيفية لوصول الى مكانة معينة ، عن طريق الانجاز • أو عن طريق الانتساب • اذ يحصل الفرد على المكانة المنسوبة اليه بالميلاد حيث تتوفق مكانته مع مكانة الاسرة التى يولد فيها • فالاسرة تحدد محل اقامته ودينه وقوميته وأسلوب حياته من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية التى يمر بها • اما الحراك عن طريق الانجازات فيحصل الفرد على مكانته من خلال ازدياد أو نقصان الثروة او درجة التعليم او المهنة وما الى ذلك (أنظر : غريب سيد احمد ، الطبقات الاجتماعية ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٢ ، ص ٨٥) (المترجم) •

(١٢) Sznaiberg (1970) op. cit.,

يتدرج هرم الترتيب الطبقى الى ثلاث طبقات افقية ، ولكنها طبقتين تتمايزان عن طريق الوصول الى الامان أو البعد عنه (١٣) . اذ تتميز الطبقة العليا بخصائص طبيعية للشجاعة والقيادة . وهى توجد بشكل قاطع لدى أعضاء الاسر الفاضلة العليا من الناحية التعليمية والاخلاقية، بحيث ترتبط برضا شاه Reza shah وكذلك لدى الاسر القديمة . اما بقية أفراد المجتمع الذين لا يبالون بالثروة أو المهنة ، فهم « تابعون » حيث ينقصهم الامان المرتبط بالسلطة السياسية . ولا ترتبط الطبقة المتوسطة بمصالح وسياسات عامة ويمكن توضيح التقسيم الاقتصادى للطبقات بالنظر الى دراسة هالبرن Halpern التى أجراها فى مصر ولاحظ أن التحكم فى الدولة وفى قوى التغير الاجتماعى أكثر فعالية من الملكية فالافراد يشكلون الطبقة الاجتماعية فقط ، اذا لعبوا دورا عاما فى العلاقة بالتغير الاجتماعى ، وتتحد الطبقة الوسطى الجديدة فى مصر — كما يقول هالبرن — عن طريق افكارها وسلوكها وتقدمها المهنى ، المرتبط بالتحديث (١٤) .

ويمكن أن يكون هناك تداخل بين المحكات التقليدية والحديثة فى التمايز الاجتماعى ، ففى طرابلس ولبنان ، يتطلب الحصول على المنزلة Prestige والقوة Power فى العادة عضوية متميزة فى الطائفة أو الاسرة ، كما يتطلب ايضا الحصول على الثروة ، وهى المؤشر الوحيد الاكثر اهمية كعامل من عوامل التمايز الاجتماعى . واذا ضيف القوى السياسية الى الثروة يصبح لدى لفرد اساس لاحتلال منزلة اعلى

---

(١٣) N. Jacobs, The Sociology of Development Iran as an A Sian Sase Study, N. Y., 1966.

(١٤) M. Halpern, Egypt and the New Middle Class, Comparative Studies in Society and History (1967) p. 98.

عموما (١٥) ·

يضاف الى هذه النقاط التى أثيرت حول التدرج الطبقى الاجتماعى بلدان معينة تلك المناقشة التى اثارها فان نيوويهنجيز Van Nieuwenhuigze الذى افترض أن دراسة مجتمع الشرق الاوسط يجب أن تمتد جذورها الى الدراسة الكلاسيكية لحضارة الشرق الاوسط · فالطريق الحاسم الذى من خلاله يرتبط مجتمع الشرق الاوسط لا يمكن أن يطلق عليه ما يسمى بالتدرج الطبقى كما يفهم فى الغرب · بل أن هناك نموذج لمجتمـــع مركب له سمة التعقيد ، فهو مجتمع كلى تلتقى فيه المجتمعات المحليـة البدوية والريفية والحضرية عند ثقافة محددة · فالاسلام وهو الدين الذى يحدد المراحل التكوينية لمجتمع الشرق الاوسط المعاصر ، لا يتضمن وجهة نظرا للترتيب الطبقى ولا يعطى أساسا للتفكير فى المجتمع فى ضوء التدرج الطبقى · فالتركيب الاساسى للعقيدة والدين والاصل الجغرافى والانحدار القرابى فى مجتمع الشرق الاوسط لم يكن فى الماضى متميزا بالتكامل وهكذا لم تحاول الامبراطورية العثمانية ممارسة القوى لكى تتمثل المجتمعات التى تخضع لها انذاك · فالاحتفاظ بالسمات الثقافية المركبة يعوق نمو التدرج الطبقى الاجتماعى وخاصة بعد ظهور تاثير النمـــوذج الغربى ·

---

(١٥) Gulick (1967) op. cit., p. 177.

وفى هذا تؤكد اتجاهات دراسة التدرج الطبقى على اهمية « القوة » كمحك للقياس الطبقى · فلقد أمكن تحديدها رقميا عن طريق التقويم الذى يضعه اعضاء المجتمع المحلى شاغلى مراكز القوة حسب تدرج هذه المراكز · ورغم هذا ، فليست هناك طريقة مرضية لوضع مقياس القوة من جانب ، كما أن القوة تتقدم على البعد المهنى من جانب اخر حيث يستمد مركز القوة الوضع المهنى الذى يشـــغله صاحبه (راجع كتابنا عن الطبقات الاجتماعيـــة ، ص ١٧٦) (المترجم) ·

وأصبحت نتيجة ذلك غموض وميوعة وتنوع مقياس المحكات الاجتماعية التى تتضمن الوصف الكلى الشامل لاتساقها ويرى فان نيو ونهجز أنه لا يمكن فهم بعض التغيرات الهامة فى القطاعات المتوسطة للمجتمع التى يمكن أن تنعكس فى ترتيب الفئات الاجتماعية · اذ يستمر البناء التقليدى للصفوة الحاكمة ruling elite والجماهير العريقة ، مع استمرار وجود الطبيعة الثانوية له (١٦) ·

ويمكن ملاحظة انتشار التحضر واعادة تنظيم المجتمع من المدينة الى القرية فى أحد المؤسسات الحضرية وهى المقهى · فصالات الشاى والمقاهى ظاهرة عامة فى مدن ما قبل الصناعة فى الامبراطورية العثمانية والفارسية · فهناك أماكن يستطيع أى من الذكور مقابلة الاخرين فيها بعيدا عن منزلة ، وهذه المناطق محايدة · ولقد كانت هذه الاماكن فى وقت ما للاستمتاع والتدخين والمحادثة وتناول المشروبات ، الا أن بعضها اصبح فى البلدان الحديثة بمثابة أماكن للقاء من أجل الحديث فى مشروعات العمل · وكان المقابل لهذه الاماكن فى الريف هو بمثابة دار الضيافة ، حيث يجتمع الاصدقاء والاقارب · ففى القرى التركية مثلا ، يذهب الناس فى العادة الى دار الضيافة هذه بدعوة خاصة · وفى دور الضيافة كثيرا ما يحدد المضيف من يزوره من رؤساء العائلات ذات التاثير ، واصحاب الارض ، والمراتب التقليدية ومن السن والمرتبة الاجتماعية ، ومن يمكن أن يتبادلوا اطراف الحديث دون غضاضة · ولقد صاغ بيلى Beeley هذا بقوله : كبار السن يتحدثون ، والشباب يستمعون ، والصبية يستكون ، (١٧) · وكلما كان المضيف ذو قوة وتاثير استطاع ان يستقبل

---

(١٦) Van Nieuwenhuijize (1965), op. cit., pp. 9 - 10 & pp. 25 - 8.

(١٧) B. W. Beeley, The Turkish Village Coffeehouse as a Social Institution, Geographical Review (1970), p. 479.

أكبر عدد واهم نوعية من الضيوف (١٨) ٠

ولقد أصبحت المقاهي العامة شائعة في أجزاء كثيرة من الريف التركي ، وخاصة منذ انشاء الجمهورية في عام ١٩٢٣ ٠ وقد انتشرت ببطء من المناطق الغربية الى المناطق الشرقية ، حيث كان سكان الحضر يعيشون في المناطق الغربية وباستخدام مصطلحات ليرنر Lerner وما قدمه بيلي Beeley, من وصف للقرى التي بها مقاه كما لو كانت « حديثة » ، والقرى ذات المقاهي ودور الضيافة على انها « تقليدية » وتلك التي بها دور ضيافة فقط على أنها تقليدية « أيضا ٠ فالمقاهي مفتوحة للجميع بدون دعوة وتستخدم كملتقى عام تناقش فيه الموضوعات الاجتماعية والاقتصادية ٠ ولقد أصبحت المقاهي في بعض القرى مرتبطة بأحزاب سياسية خاصة ٠ وفي المقهى لا يحدد السن أو الثروة من الذى يتحدث ومن الذى يستمع ٠ ان ذلك يتحدد في العادة بمن هو أكثر تعلما ، والشباب في الغالب اكثر المتحدثين ورغم أن الاحزاب السياسية على مستوى القرية ترتبط غالبا بالمناقشة بين الجماعات العائلية ، ومن ثم فان زائرى دور الضيافة يرتبطون بحزب معين أحيانا ٠ فان الاتجاه الغالب يبتعد عن الشكل القديم للمجتمع الاجتماعي ويتجه نحو نظام جديد ٠ ان الرغبة المتزايدة نحو المقهى ، كمؤسسة حضرية ، هي علامة لاعادة تنظيم المجتمعات الريفية وفق محكات جديدة للقبول الاجتماعي الذى يحفز اليه المجتمع الحضرى ٠

---

(١٨) تتعدد دور الضيافة أو المنازل في حالة وجود اكثر من عائلة كبيرة، وتفتح دور الضيافة في كثير من المناسبات كالاعياد والمآتم وعقود القران ومجالس الصلح ، واستقبال بعض الزوار الذين يتطلب استقبالهم عددا مثل المرشحين والنواب وغيرهم ٠ وفي شهر رمضان يفتح الدور أو المنزل ليليا ، ويجب أن يكون به مقرئ للقران الكريم حيث تقدم مشروبات تقليدية للزوار ، أهمها القهوة ([illegible])

ويقف حديثنا عند هذه النقطة فقط لتوضيح صعوبة تصوير التكوين الطبقى بالنسبة للمجتمع الحضرى فى الشرق الاوسط • ولكى نتجنب مشكلة تطبيق وتبرير وضع مشروع للتدرج الطبقى الاجتماعى فمن اليسير تبنى مدخل امبيريقى ووصف النماذج المتنوعة لاسلوب الحياة السائد لسكان الحضر • وفى الحقيقة ، فان خاصية اسلوب الحياة تتضمن الخوض فى المنابع الاقتصادية والسياسية وكذلك الطموحات المتنوعة الى حد ما ، يختلف مدى تنوع أساليب الحياة وفقا لحجم المدينة والاهمية العامة للنسق السياسى والاقتصادى القومى •

الجماعة ذات الدخل المرتفع :

ترتبط المنزلة الاجتماعية والاقتصادية العليا ــ غالبا بالصفوة فى مجتمع الشرق الاوسط ككل ، وهى توجد فقط فى المدن ، مراكز الثروة والقوة • والصفوة جماعة صغيرة جدا ، فالصفوة فى ايران مثلا ، معروفة بألف أسرة والاسرة الملكية فى المملكة العربية السعودية تبلغ حوالى ٥٠٠٠ خمسة الاف شخص وتتركز الملكية أو التحكم فى النسبة الغالبة للثروة الكلية لكل بلد فى ايدى الصفوة ويأتى أولا الرجال الذين يحتلون مركزا وزاريا ، ثم من يرتبطون بالمراتب العليا فى الخدمة المدنية • وفى العراق وسوريا وليبيا ومصر واليمن الجنوبية ، حيث يسود نظام الحكومات الاشتراكية ، فهناك اناس يمكن تصنيفهم وحدهم كصفوة • وتحاول الصفوة البيروقراطية الحكومية التى توارثتها تركيا من الامبراطورية العثمانية أن تبقى نفسها فى مواجهة التحديات التى تواجهها من قبل المنافسة المتعددة الوجوه ، بينما فى الكويت فان بيان الرواتب المفتوح عليا بالنسبة للمواطنين الكويتيين فى الخدمة المدينة ، يضعهم فى أعلى المكانات سواء بالنسبة للمتعلمين منهم أو غير المتعلمين (١٩) •

(١٩) G. E. French & A. G. Hill, Kuwait : Urban and [illegible]dical Ecology, Heidelberg, 1971, c, 43.

وبالاضافة الى الصفوة السياسية والبيروقراطية ، توجد الاسر مالكة الارض فى بعض الحالات ٠

وباستثناء بعض شيوخ القبائل فليست هناك ارستوقراطية ريفية تمتلك ارضا فى الشرق الاوسط ٠ فملاك الارض كانوا جماعة جديدة ظهرت اثناء حكم الامبراطورية العثمانية واستقر نجاحها بعد التغيرات التى حدثت فى نظم تمليك الارض ٠ ويترتب على ذلك استقلالهم بحيث يســلكون كممثلين فى هياكل تشريعية جديدة فى العواصم ٠ فقد شغل أصحاب الارض أو الوظائف الهامة والاساسية فى الحياة المدنية والقومية فى الدول العربية قبل الثورات الاجتماعية والتى استمرت الى حد ما فى ايران ومشايخ الخليج الفارسى ولبنان ٠ وقد تداخل مع تلك العائلات التى تملك الارض التجار والملاك الفعليون او رجال الصناعة والمتعهدون (٢٠)٠ ومع ذلك فليس هناك صراع اقتصادى وسياسى بين هذه الجماعات ، اذ قد يقوم الافراد وعائلتهم تبتنفيذ الانشطة التجارية والصناعية ، حيث يظهر فى لبنان مكاتب اتحادية (مندمجة) التجارة والصناعة ، وفى ايران تتراكم الثروة من ملكية الارض والصناعة التقليدية والتجارة فى ناحية واحدة ، وفى كاشان تتجلى فى تركزها فى الصناعة الحديثة ٠ وفى مدينة أولا Ula التركية الصغيرة تركز الجماعة المالكة للارض قواها الاقتصادية عن طريق جماعة تجارية عدوانية وتسلبها القوى السياسية عن طريق نظام متعدد الاجزاء منذ الحرب العالمية الثانية ، جماعة ملاك الارض هؤلاء هم المعرفون بالجاز aghes الذين يسعون للضبط أو التحكم السياسى والتجارى ويسيطرون على كثير من أوجه الدفاع الاجتماعى (٢١) ٠

---

(٢٠) Baer (1964) op. cit., op. cit., pp. 207 - 10.

(٢١) Benedict (1970) op. cit., pp. 202 - 7.

وبالرغم من اقامة اعضاء الصفوة السياسية والاقتصادية الذين لهم اهمية قومية فى مدن العواصم ، فاننا اذا تدرجنا الى مستوى الادنى فى هرم الترتيب الطبقى سنجد أن لكل مدينة صفوتها الخاصة • فالصفوة فى كيرمان Kirman هى جماعة صغيرة غير متجانسة جاءت من جميع أقسام المجتمع : جماعة العلماء ulama التقليدية وهم ملاك الارض والشباب الذين تلقوا تعليما غربيا فى العادة ، وهم اعضاء فى عائلاتهم ، يرتبطون مع تجار الجملة للاستيراد والتصدير (٢٢) فقادة المجتمع المحلى متشابهون فى الثروة والقوة والتأثير فى الشئون المحلية • ينضاف الى الجماعة ويعلو عليها ممثل الحكومة فى المحافظة ومساعدوه ، وهو الذى يعيش فى الوظائف الخاصة بالحكومة المركزية والذى يحكم المدينـــة وتوابعها •

وليس من السهل ملاحظة اساليب حياة الصفوة ، طالما أن تراث الحياة الخاصة المحافظة الذى ينفصل عن الحياة العامة مازال باقيا فى المجتمع الحضرى • فالاغنياء يستطيعون ان يبذلوا جهدا يســـيرا فى المحافظة على اسرارهم • وتقع بيوتهم الحضرية فى اماكن تحوطها اسوار عالية ، ويعمل بها عدد من الخدم والطباخين وعمال الحدائق ، ويعيش بعضهم فى كوخ مظلم بالحديقه • ولا يؤدى الرجل أو المرأة من الطبقـــة العليا اى عمل ، ويمكن النظر اليه على أنها عقيم ، مثل بعض انماط العمل اليدوى مثلا كالطبخ أو الكنس أو غسيل الاطباق أو الزراعة • ونساء الطبقة العليا ، وخاصة المسنات منهن اللائى لا يعملن فى اعمـــال المنزل او تربية الاطفال ، سوف يبذلن طاقتهن فى جمعيات الاحسان ، حيث تعمل نسبة عالية من النساء فى ادرة هذه الجمعيات أو أنهن يقضين وتتهن

---

(٢٢) P. W. English, City & Village in Iran: Settlement and Economy in the Kirman Basin, London, 1966, pp. 72 - 4.

في الترف التافة مثل لعب الميسر (القمار) في البيت • ولقد اعطى جابر Jabra التفسير التالى المرتبط بالنساء الغنيات في بغداد ، كما كتبت امرأة مسلمة من الطبقة العليا في العشرين من عمرها :

تستقبل الام طوفانا من النساء الزائرات كل يوم ثلاثاء ويلعبن الورق ويشربن الشـــاى والليموناده ويتحدثن ، ويتحـــدثن مثـل آلاف الببغاوات عن الازواج والاطفال والعشاق والعشيقات ، ويحدث ذلك منذ الصباح وحتي منتصف الليل ، بحيث يمكنك التفكير في ان كل الليالي العربية قد تختلف في شكل اولئك النساء البجيفات • وأخيرا يذهبن تاركين وراءهن حديثهن وقصصهن عن الجنس والنقود وشائعاتهن ، مخلفين أطباقا وأكوابا متسخة وبقايا الطعام وقشر الفستق والبندق(٢٣)•

وتتمثل الخاصية الاخيرة التى يمكن ملاحظتها عن الصـــفوة في مدرتها الشخصية للحصول على عمل • فعلاقات المواجهة أهميتها • وحتى الشخصيات الاكثر قوة يمكنها الوصول مباشرة الى الزائر الاكثر تواضعا ومثال ذلك ان حاكم عبدان منفصل عن العالم عن طريق السكرتارية والمكتب ومن هم على مرتبة الوزراء فقط ، وكما يقول جوليك Gulick فان بعض الناس يتمكنون بمهارة من فن المراوغة (٢٤) •

الجماعة ذات الدخل المتوسط :

تشمل الجماعة ذات الدخل المتوســـط المهنيين وضباط الجيش ، والمديرين والمشرفيين وصغار التجار والكتبة المتعلمين • ان حجم الجماعة تخميني الى حد ما ، ولكن في معظم المدن يمكن أن تكون أصغر مما هو بالنسبة لنظيرها في أوربا • ولنأخذ اولا الجماعه ذات التقاليد العريقة ،

---

(٢٣) Jabra (1960) op. cit., p. 141.

(٢٤) Gulick (1967) op. cit., p. 135.

ذات الوظائف الدينية ، فهي تتضمن وظائف القضاه الشرعيين ، وائمة الصلوات العامة ، ومقيمي الاحتفالات ، والوعاظ والمدرسين ولقد قل تاثير الفئة الاولى من الوظائف الدينية عن طريق النظم الحديثة للقانون ، ففي تركيا يتم الفصل في النزعات التجارية والنقابية عن طريق الرجوع الى قانون المعاملة التجارى الاخلاقى الذى حل محلة قانون علمانى (مدنى) يرتبط باسس التقاليد ، ولكنه يطبق عن طريق موظفى الدولة فاستثناء او تقنينوات المكانة الشخصية ، والمواريث وما يسمى فى بعض البلدان ادارة أراضى الوقف ، كل هذا تحت مسئولية الدين • ومع ذلك فالوضع الاقتصادى قد تدهور منذ الغاء ضريبة الزراعة ، بينما انتشار الامية والتعليم المدنى (الدنيوى) وضـــع نهايـــة لسيطرة الدين في هــذه المحافظة (٢٥) •

ولقد أرتقى شأن الطبقات المتعلمة تعليما حديثا خلال القرن الحالى فغالبية خريجى معاهد التعليم المدنى (الدنيوى) قد عملوا فى وظائف عن طريق الحكومة • وكانت هناك نتائج متعددة للتوسع فى البيروقراطيات الحكومية : حيث أرتفع معدل عدد الوظائف الحكومية فى مصر ٦١٪ خلال أربعة عشر عاما من ١٩٤٠ / ١٩٤١ حتى ١٩٥٤ / ١٩٥٥ • وترتفـع منزلـــة Preatige الوظيفة الحكومية لدى عامـــة الناس وخاصة فى العاصمة (٢٦) ، وكما هو متوقع ، فقد نمت وظيفة التدريس بسرعة كبيرة حيث احتل التعليم مكانة عليا • فى كل قطر • وقد ادى التوسع فى التعليم العالى الى زيادة مفرطة فى عدد بعض نوعيات الخريجين كما هو ملاحظ بين خريجى الحقوق والعلوم الانسانية • والمتوقع أن يستغرق هذا العدد فى الاجهزة البيروقراطية • وتقل أعداد الاطباء وخريجى الهندسة وغيرها

---

(٢٥) Baer (1964) op. cit., pp. 214 - 16.

(٢٦) Ibid. pp. 217 - 18.

من معاهد التعليم الفنى والعلمى عن الاعداد الهائلة السابق الاشارة اليها وتنفرد المهن للطبيــة ، اذ نقـل منزله الوظائف الفنية عن الوظــائف البيروقراطية ، وهذا يؤدى الى ابقاء عملية التحديث البنائى فى القـرى والمدن حيث لا تتاح الاعداد الكبيرة لتبادل الخبرة الاجنبية • وتعتبر فئة ضباط الجيش أحد الجماعات ذات الدخل المتوسط مع تاثيرها خارج معدل حجم هذه الجماعات • وعموما فان الطبقة الوسطى فى اصلها ، تعتبر ضباط الجيش بمثابة رواد الحركة الاخذ بأساليب الحياة الضريبية والاصلاح الاجتماعى فى عدد من البلدان ، يلاحظ هذا فى مصر وفى تركيا •

وتتمتع المدن الصناعية الحديثة بعنصر اجتماعى فى العملية التقنية• فالشخص الذى يعمل فى شركات البترول الوطنية المتحدة ، قد تلقى تعليمه فى حالات كثيرة فى أوربا فى أمريكا الشمالية ، ليشكل أحـد الجماعات المتميزة • والذين يعيشون فى مدن مثل عبدان أو كيرمان شاه يستطيعون العيش غالبا معتمدين على ذاتهم تماما ، من الناحية الفيزيقية والاجتماعية ، داخل الضواحى (الاطراف الا سرية) التى انشأتها شركة البترول الايرانية الانجليزية من قبل • حيث توجد منشآت للموظفين مثل حمامات السباحة ، وملاعب التنس والمراكز الترفيهية حيث تؤدى العاب كثيرة مثل (سنوكر) • وبالمثل انشأت شركة العراق للبترول أندية لموظفيها فى طرابلس ولبنان • ولقد تحمل المواطنون أنفسهم مسئولية بناء هذه المنشآت للتمكن من تعيين الفنيين الاجانب وما يناسب أسلوب حياتهم حتى يقوموا بتنفيذ الخطط الصناعية بسرعة • ويبدو أن أغلب الاتصالات الاجتماعية متمثلة فى دائرة شركات التوظيف ، حيث تنفذ تسهيلات للترفيــه عن طريق بعض الشركات الخاصــة ، لاسـيما ينعزل المشروع الصناعى فى مدينة صغيرة ، بحيث يصبح العمل شاقا وبدون بعض الحوافز الأضافية • ويرتبط المهندسون والفنيون الذين يعملون بالصناعة من حيث طبيعة عملهم ، بأساليب التفكير الفنية الغربية فقد يتطلب تقدم المهنيين المتطلعين عموما ، معرفة التراث التقليدى والقيم

السياسية والاخلاقية . ولقد افترض جاكوبز Gacobs أنه فى ايران قد انعكس هذا المطلب بمرور الزمن فى تبنى المدخل غير عقلى فى المشكلات الفنية (٢٧) ، وقد تخضع المتطلبات الفنية العلمية لصالح المنزلة ولاعتبارات غير فنية بحيث تتخذ القرارات لاعتبارات غير فنية .

وسوف توضح مقارنة الجماعات ذات الدخل المتوسط فى مدينة رئيسية كبيروت ، ومدن اقليمية فى العراق وتركيا أنه حتى باختلاف البيئات الحضرية فان هذه الجماعات تؤدى وظائف اجتماعية متشابهة وتواجه ضغوطا واحد من قطاع الشركات المختلطة ومن المجتمع . وهناك ثلة من هذه الشركات فى المجتمع الاسلامى التقليدى ، وفى مدينة الشرق الاوسط اليوم تزداد هذه الشركات رغم المعوقات الحكومية والخاصة .

فالحمرا Hamra فى بيروت هى منطقة نمت حول الجامعة الامريكية بعد انشائها فى عام ١٨٦٦ . ولقد كانت الجامعة والمعاهد المرتبطة بها محل اهتمام الدرسين والمهنيين وأصبحت المنطقة الان تتسودها الطبقة المتوسطة (٢٨) . وبالنسبة للبناء المهنى للحمرا فان الموظفين أصحاب الياقات البيضاء White Collar يمثلون ٣٣٪ والتنفيذيين ٥٪ ، فى حين أن ٢٦٪ رجال أعمال مستقلين ، وأكثر من ثلث المجموع الكلى مهنيين وتعكس الاهمية العددية لمهن الطبقة الوسطى فى الحمرا السيطرة المتزايدة للبناءات البيروقراطية والمشتركة فى لبنان . وفى مجال الاعمال ، بدأ أصحاب المتاجر بمحلات (سوبر ماركت) ، بينما الضغط التنافسى على المهنيين (المستقلين الذين يتزايد عددهم قد أخذ شكل توظف بالمرتب والارتباط بعدد من المارسين ولقد استمر القطاع الاقتصادى التقليدى للاشخاص الذين يعتمدون على توظيف ذاتهم فى هذه المنطقة يعملون فى

---

(٢٧) Jacobs (1966) op. cit., p. 164.

(٢٨) S. Khalaf & P. Konstad, Hamra of Beriut: A Case of Rapid Urbanisation, Leiden, 1973.

محلات صغيرة ، وأكشاك للماكولات والصيارفة ، وما شابه ذلك ، ولكن هذا اخذ فى التناقص نسبيا ٠

وليس هناك قسم « توظيف » للطبقة الوسطى فى الحمرا ٠ ويقول خلف وكونستاد ، أن هذا يجعل الطبقة الوسطى أكثر ضعفا من الناحية الاقتصادية من نظيرتها فى أمريكا الشمالية ، رغم أنها تشبه الصفوة المثقفة ، فى حمل مهارات وأيديولوجيات جديدة وتبدو بأساليب حياة جديدة ، حيث يؤثر المقيمون فى الحمرا على التغير الاجتماعى فى بيروت ٠

وتوضح مقارنة مهن الابناء بمهن ابائهم أن الحراك أو التنقل الاجتماعى والاقتصادى من جيل الى اخر أصبح واضحا فى المنطقة ٠ فان اكثر من نصف الابناء الذين كانوا موضوعا للمنح قد تغيرت مهنهم عن مهن أبائهم ، ولكن مع ذلك فان نسبة لها اهميتها مازالت تتبع تقاليد الاسرة فى التوظيف ٠

وبتلخيص الاستنتاجات التى دارت حول الطبقة الوسطى فى الحمرا ، نجد أن هناك دخلا مرتفعا كامنا ودرجة من الحراك الاجتماعى الاقتصادى فى المنطقة ، مع أسلوب حياة مناسب لانتشار الافكار وأنماط السلوك الجديدة ، التى تشير الى أن هناك تاكيد على الانجاز Achievement أكثر من الانتماء Ascription عند تحديد الدخل ، الا ان استمرار قطاع التوظيف الذاتى ، والاهمية المستمرة لكثير من الاتصالات الاسرية ، وثبات أهمية الارتباط الوثيق فى الحمرا على أنها منطقة فى المجتمع اللبنانى بصفة عامة تعطى للطبقة الوسطى هناك انتشارا غير محدد نسبيا لجماعة اجتماعية ٠ ويمكن أن تكون هناك أهمية محلية للجماعة ذات الدخل المتوسط فى المدن أو فى اجزاء من المدن ، تلك الجماعة التى احتفظت بجزء جوهرى من خاصيتها قبل التحديث ٠ اذ يتضمن الجماعة ذات الدخل المتوسط فى كرمان جماعة تقليدية من المقيمين فى الحضر وعدد قليل من الشباب المتعلم ، بعض اساليب الثقافة الغربية ، والذين يتحدون عن

الاتجاه التقليدى (٢٩) ويرى هالبرن Halpern أن هؤلاء الناس الذين يطمحون فى التفكير المستقل يتحملون مسؤلية الأخذ بالتحديث ، فكثير من التسهيلات العامة الحديثة للمدينة هى نتيجة لضغط هذه الجماعة ، ولكن الاحباط الذى يبدو أنه منتشر بين الجماعة هو نتيجة لعدم قدرتها على تحقيق مطامحهم الاجتماعية • ومع ذلك فان الحجم الاكبر من الجماعة ذات الدخل المتوسط فى كيرمان تشتمل على صغار تجار عملات البازار (سوق شرقية) • والحرفيين ، حيث تقدم عليهم الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية فى المدينة •

وما يزال البناء الحرفى قائما من خلال البازارات المنتشرة فى كثير من المدن الايرانية ، رغم أنها فقدت كثيرا من أهميتها الماضية فالنقابات الحرفية فى طهران وكيرمان ويزد وكاشان تنظيم احتفالات حداد خلال الشهر القمرى محرم للاحتفال بذكرى استشهاد الامام الحسين ، ويقيمون محاضرات دينية وفى أوقات أخرى ينظمون أنشطة علمانية (دنيوية) مثل النزهات والاجتماعات • وفى كاسفين Qasvin لا يفعلون شيئا من هذا (٣٠) ولقد قلت الوظائف التجارية لهذه النقابات الحرفية الان منذ أن تجاهلتهم الحكومة • فهم لا ينظمون دفاعهم وسلوكهم باعتبارهم وحدة متميزة من أجل اهداف الضريبة ، أو من اجل ضبط كم ونوع السلع المصنعة التى تباع فى البازارات • حيث يخضع الحرفيون والتجار فى البازارات الصغيرة لضغط متزايد من جراء الانتاج بالجملة للسلع فى المصانع الحديثة وحيث تم شغل الموقع الذى يحتلونه من طريق الشركات

---

(٢٩) English (1966), op. cit., pp. 74 - 6.

(٣٠) H. Rotblat, Stabililty & Change in an Iranian Provincia Bazaar, Unpublished Ph. D. thesis, University of Chicago, 1972, pp. 215 — 16.

التجارية الحديثة • ان الجماعة الحضرية التقليدية ذات الدخل المتوسط مازالت باقية ، ولكن تأثيرها التجارى والاجتماعى يتلاشى بسرعة •

ويمكن توضيح تاثير وصول جماعة الطبقة الوسطى ذات العقلية الحديثة على الاتجاهات الاجتماعية التقليدية فى مدينة أولا Ula بغرب تركيا ، تلك المدينة الصغيرة التى لا تتجاوز (٥٠٠٠) خمسة الاف نسمة وقد حصلت مدينة أولا على مكانتها فى عام ١٩٥٤ عندما افتتح بها عدد من المكاتب الحكومية ، التى يعمل بها موظفون بالخدمات المدنية المهنية • والرجال الذين يولدون فى المدينة يجندون من أجل المراتب الدنيا ومن أجل العديد من الاعمال التى يقومون بها لاول مرة على انها مشاركة فى المجتمع القومى (٣١) • وزوجات الموظفين بالخدمة المدنية اللائى جئن معهم الى مدينة أولا يفرض عددا من الحريات ، فلقد بدأن يذهبن الى الاسواق الاسبوعية لمجرد الحفاظ على الرجال ، ويذهبن الى السينما فى الحفلات النهارية يوم الاحـــد ، ويزرن الناس الذين يعيشون معهم كما يستقبلون المقيمين معهم فى منازلهم •

وربما تكون الخاصية الاساسية للجماعات ذات الدخل المتوســـط متمثلة فى الطموح نحو تحسين المكانة الاجتماعية • ويمكن اتجاز هذا من خلال الحصول على الثروة والتعليم ان المنزلة التى تاتى عن طريق التعليم والدخل الاعلى من المتوسط تنعكس بصورة متعددة من خلال بعض السمات الاجتماعية لتفكير الطبقة العليا • ويصطبغ العمل اليدوى باى شكل من أشكاله بالازدراء • ولا يقوم طلاب الجامعة ، رجالا ونساء ، بأى عمل مهنى خلال الصيف ، لان أجور الوظائف غير الماهرة منخفض جدا ، ولانها تقلل من قدر طالب الجامعة أيضا • انهم يفضلون أن يبقوا فى أسرهم

---

(٣١) Benedict (1970) op. cit., p. 232.

وهم يبقون بالفعل « صبى » يغلف السلع ويحملها الى سيارة الزبائن أو الى تاكسى ٠ وفى المكتب يحمل الساعى دائما الشاى والقهوة والمرطبات ويجلس دائما فى حجرة صغيرة فى كل طابق أو على الكراسى فى الطرقة، يقول جوليك Culick أن أحدا من طرابلس لا يجلس أمام الباب وهو يرتدى ملابس قديمة خشنية أن يظن الغرباء أنه خادم أو محتاج ٠

ويرتدى الرجال والنساء ملابس بطراز غربى عندما يخرجون الى مطعم عام لتناول مكرونة باللحم أو طعاهم محلى مثل الكباب ٠ ويعتبر الفراغ الواضح مؤشرا للمكانة ، بحيث قد يرغب الرجال ان يذهبوا كثيرا الى المقاهى وصالات الشاى ٠ وفى المساء ، قد يرتدى كل أفراد الاسرة فى المدن مثل أصفهان ملابسهم ويتجولون لرؤية المحلات ، حتى النساء قد يرتدين غطاء فوق ملابسهن الحديثة الطراز ٠

ان الصورة العامة قد تتناقض مع الوجه الخاص ، كما يحدث هذا فى المدينة التقليدية فسوف يكون لدى بعض البيوت متوسطة الدخل أشياء متنائره من مختلف المستويات الغربية ، وربما تعيش الاسر النواة فى غرفة أو غرفتين حيث تطبخ وتأكل وتنام ، ولها منضدة منخفضة لتناول الاكل (طبلية) ، وفرش السرير يحيط بجدران الحجرة ، وتكون السلع القابلة للحركة أقل كثيرا مما تحمله الاسرة البدوية وهناك أسر أخرى تنفق اموالها على الاثاث الغربى الطراز ، مثل المناضد والكراسى والادوات الكهربائية والسجاد الفخم ٠ وبعضها يهتم بوجـــود حجـرة لزيارة واستقبال الزائرين من أسر اخرى ، وغالبا ما يكون هذا داخل المنزل ٠

والمؤشر الاخير للتأثير الغربى على الانماط الاجتماعية فى المدن السريعة التوسع ــ باستثناء ليبيــا والسعوديــة ــ يتمثل فى ازدياد امكانية الكحوليات ٠ ان الخمر والبغاء محرم عن طريق التعاليم الاسلامية وقد يوجد هذا الى حد ما فى بعض المدن التى تغرى الذين يحضرون اليها من مدن صغيرة مثل القاهرة وبيروت واسطنبول وطهران ٠ وخاصة

اذا أتيحت الفرصة لزيارة مدينة كبيرة لوقت طويل ، بعيدا عن الحديث النقدى للمدينة الصغيرة ذلك الحديث الذى يركز على عيوب الاخرين ٠

الجماعة ذات الدخل المنخفض :

تضم الجماعة الحضرية ذات الدخل المنخفض أشخاصا يعملون كأجراء ، وبعض الحرفيين وغير الملتحقين بأعمال ٠ وهم يشكلون الغالبية فى جميع مدن الشرق الاوسط بخلاف اسرائيل ، كما يتقاسمون المشكلات العامة لمعدلات الوفيات ومعدلات الخصوبة المتزايدة عن غيرها من جماعات، وتنفرد بمعدلات عالية من الاعتماد على الغير اقتصاديا وتنخفض مستويات التعليم ومتوسط الدخول وأغلبهم من أصل قروى ، سواء من الجيل الاول أو الثانى من المهاجرين ٠وهى جماعة أقل وعيا بالطبقة العاملة ، ولا يوجد هذا فى المدينة التقليدية قبل الصناعية ٠ ان وجود هذه الفئة المنخفضة لنصف سكان الحضر قبل أن تبدأ بوظيفتها على أعتبار أنها ذخيرة عمل للمشروعات والمصانع الرأسمالية ، واستمرار وجودها ، كان موضع تساؤل فان نيونهايز Van Niew wenhuijze عما يمكنأن يطلق عليه البروليتاريا فى المجتمعات الغربية (٣٢) ٠ ان التحفق المتواصل للسكان الى المدينة فى الشرق الاوسط فى الماضى سمح بوجود تيار مضاد ٠ فليس هناك نظير للبروليتاريا التى تكونت فى مرحلة الثورة الصناعية الاوربية التى لا ترجع الى القرية وأصبحت ضرورية للصناعة ٠ لقد قال :

« من الواضح جيدا أن الاطراف الدنيا الغير مستقرة متشابهة فى مدينة الشرق الاوسط ٠ وكذلك ففى هذه الايام فانها تفترض أبعادا

---

(٣٢) Van Niew wenhuijze (1965), op. cit., p. 47.

ودلالة اجتماعية جديدة تماما • وكظاهرة نمطية فانها تتميز بالدوام ولكنه دوام لطبيعة خاصة • فالاطراف الدنيا رغم دوامها ، الا انه ليس لاحد ممن يكونونها أن يعتقد فى دوام وجودها فى الاطراف الدنيا • وعلى العكس فان الذين يعتقدون أن ذلك موقف مؤقت مشروط بضرورات فى أماكن أخرى • وان فان ينظر اليه على أنه الطريق الذى على ضوئه يوجد هذا الافتراض أو لا يوجد عن طريق حقائق لاحقة • اذ سوف يجد أولئك الناجحون أنفسهم سواء فى فئات تقليدية دنيا ، أو فى فئه عمل صناعية جديدة • أما الذين يفشلون فيقنون على حافة البؤس أو يختفون فى مواقف معينة ، ويعودون الى القرية » (٣٣) •

وعلى الرغم من أن بعض الكتاب مثل ليرنو قد وضعوا بعض عناصر وعى الطبقة العاملة ، حيث أشار الى مصر خلال أوائل الخمسينات من هذا القرن ، فمن الممكن وصف الجماعة ذات الدخل المنخفض وصفا أدق ... على انها طبقة جماهيرية أكثر من كونها طبقة بروليتارية (٣٤) •

وهكذا تشمل الجماعة ذات الدخل المنخفض أولئك الذين يعملون كاجراء فى القطاع العام ، وأولئك الذين يعملون فى قطاع البازار وتوضح صور البناء الصناعى لمدن الشرق الاوسط عادة عددا كبيرا من الوحدات الصغيرة وعددا قليلا من الوحدات الكبير : ففى البحرين Bahrein فى عام ١٩٥٦ تتمثل ٣٣٪ من قوتها العاملة فى وحدات صناعية بها أقل من عشرة أشخاص ، ولكنها كانت تمثل ٩٧٪ من العدد الكلى للوحدات الصناعية • ومن ناحية أخرى ، فان ½٪ من المصانع تضم أكثر من ٢٠٠

---

(٣٣) Ibid p. 48.

(٣٤) Lerner (1964) op. cit.,

شخص يمثلون ٤٧٪ من قوة العمل(٣٥)ان ترجيح العمال غير المهرة في المدن ربما يكون مرتبطا بنسبة العمال الذين وصلوا حديثا من القرى والذين لديهم مهارات وأفكار زراعية فقط ، وحتى وقت قريب انخفض التأكيد على التعليم بالنسبة للموضوعات التكنولوجية وتزايد على التراث ٠

وتتضمن الجماعات ذات الدخل المنخفض في المدينة التقليدية ، العمال الفقراء ، والعمال غير المهرة ، وعمال الانتاج ، وعمال الحدائق والخدم ، والبوابين والباعة الجائلين ، والخدمات الدنيا التي تتمثل في الخدمات الدينية والحكومية ٠ وعلى مستوى قاع المقياس الاجتماعي لوصف القيم الاجتماعية يقع أولئك من لهم مهنة أو ميلاد ليس فقط متواضعا ولكن أيضا ممزقا مثل الجزارين والحلاقين والغسالين في حمامات عامة ، والقائمين بدفن الموتى ، ودباغي الجلود ، ومنظفي المراحيض ، وجامعي القمامة والكناسين والخدم (٣٦) ويعتبر الباعة الجائلون في الشوارع مصدر حيوية بازعاجهم لجزء من المشهد الحضري ٠ ويبين حصر الباعة على الرصيف في شيراز أن ٣٤٤ يقومون بهذا العمل منفردين (٣٧) وفي الاكشاك والعربات وعلى ظهر الحمير وعلى الارصفة وجوار الحوائط تعرض أشياء مبعثرة حيث يتخذ التجار أرصفة على الجانب الظليل من الطرق (الشوارع) ٠ وتتسم معظم الاكشاك بنمط واحد من الاصناف مثل أوراق اليانصيب والفواكه وفي موسم معين ، والسلع الاستهلاكية الرخيصة ، ولعب الاطفال ، والامشاط ، والاحزمة ، والاقلام ، والسجاد ، وما الى ذلك ٠ ويمكن يعيش المتجولون في الميادين التقليدية من المدن

---

(٣٥) Baer (1964) op. cit., p. 227.

(٣٦) English, (1966) op. cit., pp. 76 - 9.

(٣٧) J. I. Clarke, The Iranian City of Shiraz, Depertment of Geography Research Papers Series, No. 7, University of Durham, 1963, pp. 34 — 5.

حيث تكره النساء دخول المحلات ويمكثون الى جوار باب المنزل لكى يشترون ما يحتاجون اليه • ويمثل العمال الزراعيون معدلا كبيرا جدا من اجمالى قوة العمل فى المدن الصغيرة • فبعضهم يعمل بالبيع فى موسم المحصولات الصيفية وخاصة البطيخ ، بينما يعتبر غيرهم بعيدين عن العمل فى الزراعة •

ويصف هاكر Hacker متوسط دخول غالبية العمال بأنه منخفض جدا، الا أن هناك اختلاف فى معدلات الاجور بين العمال المهرة وغير المهرة ، فكل منهما يكسب نفس المبلغ مثل الكتبة فى الحكومة أو غيرها من الخدمات ، رغم أن العمل الكتابى قد يكون نصف عدد الساعات • وتبين دراسة الدخل والانفاق لدى جماعات الدخل المنخفض كمية غير عادية من الديون • ويرجع أثر ذلك الى صعوبة التكيف من اقتصاد الكفاف الريفى الى اقتصاد النقد الحضرى ، ويبين أن السكان من أصل ريفى يعتادون على الحياة فى الارض الخاصة ، ويمتلكون ما تنتجه الارض من خضروات ، لديهم دجاج وخراف وماعز ، ولا يعملون ميزانية متطلبات يوم بيوم عندما يتحركون الى البيئة الحضرية • ويذهب عزيز الى أن هذه التناقضات لا تتمثل فى الديون لدى غالبية مهاجرى (العمارة) فى بغداد (٣٨) • والحقيقة الهامة هنا أنه فى عام ١٩٥٤ عندما كانوا يعيشون فى أكواخ فان حوالى ٨٤٪ من دخل الاسرة كان ينفق على الاساسيات مثل الطعام والكساء والوقود • وفى عام ١٩٦٤ ، بعد مشروع الاسكان الحكومى ، ينفق ٦١٪ من الدخل فى المواد الغذائية ، وبدأ المهاجرون فى استخدام الكهرباء والمياه لاول مرة ، كما أن أكثر من ٦٪ من الدخل كان ينفق على مصاريف السفر ، والحركة الى خارج حدود بغداد والاقامة فى الضواحى القديمة وكلها كانت سببا فى هذه النفقات •

---

(٣٨) Azeez (1968) op. cit.,

الفصل السابع

الشكل والبنـــاء الحضرى (*)

لقد ركزنا من قبل وبشكل كبير على التغيرات التى صاحبت نمو المدن ، وذلك على مستوى الافراد ، والمجتمع ككل • والى جانب كون المدينة وحدة اجتماعية ، فانها أيضا وحدة فيزيقية ، ذات مشكلات فيزيقية • وهذه الوحدة ، وتلك المشكلات اكتسبت بناءها وشكلها من أولئك الذين يعيشون فيها ، وبواسطة نمط التكنولوجيا السائد • ويرجع اهتمامنا بالمدينة من الناحية الفيزيقية الى أن الناس يعملون بالضرورة من خلال ضغوط جغرافية حضرية ، وأيضا لانه ليست لدينا معطيات مباشرة عن طريق المقابلة ، وهذا يجعل من الممكن الاستدلال على طبيعة العمليات الاجتماعية ، والاقتصادية التى تدور فى المدينة عن طريق التسهيلات الفيزيقية التى ترتبط بهذه العمليات • ان موقع المنازل ، والمساجد ، والطرق والمدارس ، والسجون ، والمصانع ، والمتاجر ، والمعسكرات يدلنا على الكثير عن الانسان الذى بناها •

ومدينة ما قبل الصناعة ، بطابعها الاسلامى تشكل نواة تاريخية لمعظم مدن الشرق الاوسط • وكانت هذه المدن تتشكل من مجتمع ذى طبقتين ، على رأسهما حاكم استبدادى فى العادة ، ثم حاشيته • كما أن هذا المجتمع يتضمن عددا قليلا ـ ان لم يكن يخلو ـ من المؤسسات ، والاتحادات كما يخلو من الوحدة التضامنية ، ولكنه يتضمن عددا كبيرا من المجتمعات تشبه القرى ، والتى تعيش فى أحياء متمايزة فى المدينة • كذلك كان مجتمعا مختلطا فى تكوينه العرقى ، ثم ان الحياة العائلية والخاصة فيه كانتا فى عزلة تامة ـ اجتماعيا وفيزيقيا عن الحياة العامة •

(*) ترجم هذا الفصل وعلق عليه الدكتور / عبد الهادى والى •

وقد كانت النظم الفيزيقية الاساسية عبارة عن المسجد ، والقلعة ، والسوق ولم تكن الشوارع منظمة ، بل كانت ضيقة ، وكان اتساعها يســمح فقط بمرور الدواب المحملة ، وأخيرا كانت المجتمعات السكنية المتجاورة تعطى المدينة ذلك النمط الذى يشبه الخلايا ، وهو نمط نما وتدهـور بشكل عضوى ٠

وكان عدد قليل من المدن هو الذى يزيد قطره على ثلاثة كيلو مترات، ولهذا فان أقدم الاحياء فى المدن الكبرى الحالية يغطى جزءا صغيرا فقط من المنطقة الكلية التى تشغلها المدينة ٠ ولقد كان الشكل العام لمســاكن هذه المدن متلاصقا ، لان الظهير الزراعى الخصيب كان يحدد امتدادها ، وكان التجاور السكنى أيضا يرجع لاعتبارات حماية المدينة من ناحية ، ولتيسير عملية الاتصال التى كانت تتم إما سيرا على الاقدام ، أو بسرعة العربات التى تجرها الدواب من ناحية اخرى ٠ وكانت شبكة الاتصالات تربط ما بين التجار والادارة ، والمستهلكين وأصحاب المتاجر ٠ ولقد كان من الضرورى أن تعيش طبقة الخاصة ، والدهماء على مسافات متقاربة اذا أريد للتفاعل بينهما أن يتم عبر جزء صغير من اليوم ٠ ولقد سهل ذلك الاستخدام المتعدد الاغراض للعقارات فى مجال العمال ، والسكنى ٠

وفى معظم المدن خاصة الكبرى منها ٠ أدت التحسينات فى تكنولوجيا النقل ، والنمو الاقتصادى الذى حدث بشكل مقصود ، الى جانب الزيادة السكانية فى المائة عام الاخيرة ، إلى نمو ضواح تتميز بالغنى ، والحداثة، خارج نطاق الاسوار القديمة للمدينة ٠٠ ثم ان النظم الحديثة للطرق ، والسكك الحديدية ، والقطارات الداخلية ، قد أدت إلى خفض مدة الانتقال كما سهلت الامتداد الحضرى السريع ٠ ويضاف الى نمو الضواحى ذات الثراء فى القرن الحالى ، نمو آخر فى مناطق الاقامة التى يختارها المهاجرون وعلى هذا نمط المدينة فى الشرق الاوسط كان يتضمن ثلاثة عناصر فيزيقية كبرى :

(أ) المركز القديم ٠

(ب) والجزء الاكثر ثراء وتخطيطا ، وهو الضواحى ٠

(ج) والمناطق الحديثة الاكثر فقرا ٠ وهذا النمط يوجد أيضا فى مناطق جنوب شرق اسيا ، وغرب افريقيا ، والهند ٠

ومن الناحية الفيزيقية نجد أن الفروق الكبرى كانت تظهر بين المدينة القديمة ، والضواحى بنوعيها : الغنى ، والفقير - فذلك يعكس بدوره الفروق الاجتماعية ، والديموجرافية ٠ وقد عاش سكان المركز القديم وسط كثافة سكانية عالية بالنسبة للهكتار ٠ كما كانت معدلات الزيادة الطبيعية بينهم عالية ، ومستويات الدخول ، ومعدلات التعليم منخفضة عن المتوسط السائد فى المدينة ٠ وفى المدن الكبرى كانت ظاهرة الاستقطاب (*) Polarization واضحة فى كل من الاجزاء القديمة ، والجديدة على

(*) عالج الكثير من علماء الاجتماع الحضرى ظاهرة الاستقطاب ، ومن اهمهم هيرشمان Hirschman والعالم الفرنسى داڤان Davin والفين بوسكوف Alvin Boecff ، وايجون بيرجل Egon Berhel وغيرهم ٠ ويستخلص محمود الكردى تعريفا اجرائيا للاستقطاب الحضرى على أنه « مجموعة من الظواهر التى تنشأ فى منطقة معينة تتمتع بمميزات جغرافية ، واقتصادية ، واجتماعية وادارية ، بشكل يكسبها خاصيتى الجذب ، والتاثير فى المناطق المحيطة بها (والقابلة للاستقطاب) بحيث تجعلها تتجه اليها دائما ٠ وتعانى مثل هذه المنطقة من تركز فى السكان ، وتكدس فى الانشطة ، مما ينجم عنه تاثيرات اجتماعية ، واقتصادية ، وجغرافية ، وادارية فى كل من مركز الاستقطاب ، والمنطقة أو المناطق المستقطبة على حد سواء » أنظر : محمود الكردى النمو الحضرى ، دراسة لظاهرة الاستقطاب الحضرى فى مصر ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٧٧ ٠ (المترجم) ٠

السواء • الامر الذى أدى الى ظهور مراكز حضرية منفصلة خارج اسوار المدينة ، وذلك لسد احتياجات الضواحى الجديدة • ففى مدينة مشهد Mashed بايران على سبيل المثال أدى الامتداد نحو الغرب مع توقف الامتداد نحو الشرق الى انقسامية Dichotomy كاملة بين جزئى المدينة مع بدايات عام ١٩٦٠ • وقد عكست قيمة الارض فى المدينة هذه الثنائية، فقد كانت هناك قيمة معينة للارض حول مركز المدينة القديمة ، أو حول القبة الذهبية لضريح الامام رضا Imam Reza • وقيمة أخرى مختلفة فى المركز الحديث للمدينة حيث تقع المكاتب الحكومية • وان النمو السريع لمدينة مشهد حول مركزها الجديد بمعدل أسرع من المركز القديم ، يعنى تغيرا فى جوانب التركيز فى الحياة الحضرية من الدينى الى الدنيوى (*)•

كذلك فان النمو الحضرى الحديث يختلف عن النمو الذى ساد عصر ما قبل الصناعة ، فى أنه أصبح هناك تأكيد متزايد على التخطيط الرشيد للمدينة ، بدلا من تركها تنمو عشوائيا • ومع ذلك فان هذا التطور ليس جديدا كلية ، فقد شهدت مدينة كثيرة ، عربية ، وفارسية ، وتركية فى عصر ما قبل الصناعة ، بعض العناصر التخطيطية فى الميادين الكبرى .

(*) ليس من الضرورى ان يكون النمو السريع حول مركز جديد فى المدينة متضمنا تحولا من الاتجاه الدينى الى الاتجـــاه الدنيوى ، بل ان هذه الظاهرة يمكن أن تفسر فى ضـــوء عوامل الاستقطاب الحضرى ومؤثراته ، أو فى ضوء النمط الايكولوجى السائد ، أو فى ضوء وجود مناطق مغلقة فى وجه النمو ، أولا تسمح به • المهم أن توطن أوجه النشاط ، أو السكنى فى مكان معين لا يعكس بالضرورة اتجاها اجتماعيا دينيا ، أو دنيويا • خاصة فى ظل تكدس المدن الحديثة ، الامر الذى لا يترك خيارا لسكان المدينة فى ان يعمل أو يقيم وفقا لاتجاهه •
(المترجم) •

والشوارع المتسعة ، كما هو الحال فى مشهد فى القرن السادس عشر ، كما شهدت هذه المدن بعض عناصر الهندسة الاجتماعية ، كما هو الحـال فى أصفهان ، حيث كان يقطن الوافدان من أرمينيا ، والذين جلبهم الشاه عباس ، وأيضا كما كان الحال فى عملية بناء طرق جديدة ، وميادين ، ومساجد فى القرن السادس عشر ٠

ان التنظيم السابق للفضاء فى المدينة كان نتيجة لقرارات فردية اتخذت من جانب حكام أوتوقراطيين ، سواء كان ذلك فى مجال بناءات فردية معينة ، منزل أو مسجد أو قصر ، أو كان على نطاق واســـع مثل بناء ميادين ، أو شوارع واسعة ، أو أسوار للمدينة ٠ ومع ذلك فان هذا التخطيط يسهم الان الى حد كبير فى جمال وجاذبية المدينة التقليدية ويتمثل هذا الجذب فى الثروة المعمارية لمدن مثل اصفهان والقاهرة ، تلك المدن التى تركت اثارا على الحضـــارة الاوربيـــــة ، وهنا يقول بيرون Witness Robert Byron ، وهو سائح ، وفنان إنجليزى ، يقول فى عــام ١٩٣٠ :

« ان جمال اصفهان يملك على الانسان فؤاده ، فانت تدخل اليها من خلال ساحات ذات أشجار سيقانها بيضاء ، وسرادقات مشرقة ، وقباب قديمة ، صفراء اللون وبنفسجية ، تمتد فى ارتفاعها نحو السماء بلون بنفسجى يميل الزرقة ٠ وترى النيل وقد تفرع الى فروع ملتوية ، تتحول فيها زرقة الماء المشبع بالطمى الى لون فضى ، وعلى ضفتيه صفوف من حدائق خضراء ، وكبار من أعمدة من الاجر ، كأنها أعمدة من الحلوى ، وطيات فوق طيات من الفتحات المقوسة المشتبة على أعمدة أيضا ، كأنها أعمدة السرادقات ٠ ومن فوق الجبال بنفسجية اللون ، تنظر للمدينة فترى ما يشبه الثقوب فى قبة عالية ، ثم ترى افاقا أخرى تنكمش لتتخذ ما يشبه خطوط الامواج على ساحل صخرى لونه كلون الثلج ٠ وقبل أن تعرف كيف تشكل ذلك كله ، فان اصفهان تبقى ثابتة خالدة ، توحى اليك

بصورتها المشتملة على معرض من الاماكن التى يحتفظ نحوها كل فـــرد بالاعزاز والتقدير » (١) ٠

ولكن مثل هذا اللمسات الجمالية لعب دورا صغيرا فى تصميم المدن الحديثة - بل ان احتياجات النقل الحديث فى المدينة هى التى سيطرت على المرحلة الحالية من تخطيطها ، فضلا عن طلب الحكام لمزيد من الخطط والنماذج العظيمة ، والتى تصمم لتطابق خطط اعادة تنمية المدن الاوربية فى القرن الثامن والتاسع عشر ٠ فنجد أن نموذج هوسمان Haussmann ذى الشوارع الواسعة قد طبق فى معظم العواصم خلال القرن التاسع عشر ، وبدايات القرن العشرين ٠ وفى القرن الحالى أصبح بناء الطرق الطولية (الممتدة عبر المدينة كلها) ذو أولوية فى المدن ذات الاهمية ، والحجم الادنى من المتوسط ٠

ان الانسان لا يستطيع أن يغير جزءا معينا فى المدينة دون أن تتأثر بذلك اجزاء أخرى ٠ ولذلك فان بناء هذه الطرق قد عبر بشكل راديكالى فى اتجاه ومدى انسياب الافراد ، والسلع فى النسق الحضرى ٠ فمعظم منشات تجارة التجزئة قد انتقلت من الاسواق التقليدية ، الى الطرق الجديدة ، حيث بنيت المصانع ، وحيث توجد مكاتب الحكومة ، والمدارس وفضلا عن ذلك فان اختراق الشوارع الكبرى للمناطق القديمة فى المدينة قد أدى الى هدم وازالة كثير من المبانى القديمة ٠ والقضاء على التقارب الذى كان يغلب على المناطق الاجتماعية ٠ وقد أصبح معظم النمو السريع فى المدن يتم على حساب الاحياء ذات الحدائق ، والتى كانت تحيط بالمدينة قبل هذا النمو ، وفى هذا المجال عانت كرمان شاه ، وبيروت ، وطهران الشىء الكثير ٠

---

(١) Byron, R. The Road to Oxiana, London, 1950. p. 173.

ومع ذلك فقد كان الاتجاه للنمو الحضرى ضئيلا بسبب ضعف التشريعات التخطيطية وعدم وجود الرغبة لنرضها ، وفضلا عن ضعف المجالس البلدية . والى حد ما فان المشكلة قد بزغت من عدم وجود تراث للحياة الحضرية المتكاملة . ان قانون البلدية الايرانى الصادر ١٩١٣ كان قد صيغ بواسطة مشرعين اعتقدوا أن تنظيف للشوارع ، والسيطرة على التوزيع الملائم ، ودفع قيمة الخبز ، واللحم هى من مسئوليات البلديات فى العالم الغربى . ولهذا فان البلديات التى اقيمت فى ايران لتتكفل بكل ذلك قد فشلت ، وتم حلها بعد أربع سنوات .

وفى العصر الحديث ، نتج عن اعداد الخطة الثالثة فى ايران (١٩٦٣ ـ ١٩٦٨) مشكلات فى برنامج التنمية الحضرية ، واتضحت هذه المشكلات بشكل أكبر فى الخطة الرابعة . وكانت هذه المشكلات عامة بالنسبة لمدن الشرق الاوسط ، وأصبح هدف الخطة الرابعة والخامسة فى ايران العمل على تخفيف حدة هذه المشكلات . ويمكن الاشارة الى بعض هذه المشكلات من خلال مضمون الخطط السيادية الايرانية :

(كان عدد المهندسين المتخصصين ، ذوى الخبرة فى اعمال التنمية الحضرية محدودا كما كانت الاحصاءات الملائمة ، والمعلومات الخاصة بالمدن، قاصرة ، ولم تكن هناك سياسات اقليمية ملموسة على المستوى القومى ، وفشلت محاولات تقرير أسلوب اعداد مشروعات شاملة ، وترجمتها فى شكل مشروعات تنفيذية ، وكذلك عدم وجود كوادر لانجاز المشروعات يمكن الاعتماد عليها .

ان تخطيط المدن ، والتخطيط على مستوى الدولة ليس مسألة بناء

---

(٢) Plan Organization, Fourth National Development Plan, Tehran, 1968, p. 293.

طرق ، وتصميه حدائق ، او الاطمئنان الى سلامة المجارى ، فحسب ، ولكنه جزء من العملية السياسية ، ان التخطيط الحضرى الفعال ممكن فقط فى المجتمع الذى لديه أهداف واضحة ، مشتقة من نظريته الاجتماعية الخاصة، وهو ممكن عند توافر الرغبة فى التخطيط • والقدره على التنفيذ • ان الحاجة الى أيديولوجيا تعكس الاهداف الشاملة للمجتمع العربى ، قد تمت الاشارة اليها بشىء من التركيز فى احدى منشورات اليونسكو عن المدن العربية وهى تتضمن :

(ان الايديولوجيا الحضرية الجديدة الزامية ، فهى لا تستسلم للامور العرضية ، أو العادية ، وهى لا تخضع للفكر التقليدى ، أو تسلم به جدلا ، ان مشكلاتنا مترابطة الى حد بعيد ، بحيث لا يكفى أن نتناولها فقط ، بل يجب أن نتغلب عليها • والتصورات الخلاقة هى التى تكمن فى الفكر الثورى ، ولذلك فان الايديولوجيا الحضرية التى نحتاجها ينبغى أن تكون ثورية ، وابعد من ذلك يجب أن تقوم على أســاس واقعى ، وعلى فحص دقيق ، وصياغة للواقع الراهن من أجل خلق واقع جديد • أن الايديولوجيا الثورية تتضــمن دائما الاستراتيجية الثوريــة ، والاستراتيجية الثورية بدورها يجب أن تنتج تكتيكات جزئية) •

ونحن نمضى فى هذا العرض نفترض أن النمــو الميتروبوليتانى سوف تخف سرعته وأن التدهور الفيزيقى ، والاجتماعى للمهن سوف يتوقف ، مقترحين بعض الطرق المؤدية الى ذلك • فالصحراء يجب تعميرها وتوطينها ، وكمقدمة ضرورية لذلك ، فان هناك نسقا قيميا سائدا ينظر للصحراء على أنها منفرة ، وللخضرة على أنها شىء جميل ، وللصفرة على أنها شىء كريه • هذا النسق القيمى يجب أن يتغير الى شىء اخر مختلف

ان التاريخ المعاصر (بعد عام ١٩٦٧) ينبغى أن يعلمنا درسا

هو أن الارض غير الماهولة بالسكان ارض لا يطالب بها احد (*) • ولننا اذا لم نوطن صحارينا ، فان امما اخرى اكثر فقرا ، واكثر تكدسا سوف تفعل ذلك بقوة السلاح (٣) •

ان هذا هو ما قامت به اسرائيل • فهى تمدنا بمثال عن الاهداف الفيزيقية ، والتحضر الاجتماعى ، الذى تمت صياغته بوضوح بواسطة دولة لديها الارادة ، والوسائل التى تنفذ بها ارادتها • فلننظر الى الخلف قليلا •• ان هذه الدولة قامت عام ١٩٤٨ بحجم سكانى بلغ (٨٧٠ر٠٠٠) ثمانمائة وسبعين الف نسمة ، وتبنت سياسة نشطة من اجل تشجيع الهجرة اليها ، لذلك وصل اليها ما بين عامى ١٩٤٨ ، ١٩٧٢ (٤ر١) مليون مهاجر ، وفى نفس الوقت هجرها مئات الالاف من غير اليهود كلاجئين وفى عام ١٩٤٨ كان معظم المواقع الاقتصادية الهامة ، يوجد على طول الشاطيء ، حيث كانت الروابط قد تدعمت مع الغرب خلال القرن التاسع عشر ، والقرن العشرين ، وبنفس الطريقة كانت الروابط قد تدعمت شمالا مع بيروت وطرابلس وفى الداخل كان هناك خط من المستوطنات القديمة على امتداد الناصرة ، بيت لحم ، القدس ، حبرون (**) Hebron

---

(*) ربما كان من الواجب تعديل هذه العبارة لتصبح « أن الارض غير الماهولة بالسكان قد لا يسهل الدفاع عنها ضد أى غاصب أو معتد مع ملاحظة أن اسرائيل حينما احتلت بعض الاراضى العربية عام ١٩٦٧ لم يكن ذلك بدافع فقرها أو تكدس سكانها ، ولكنها قضية اخرى مختلفة عما أورده المؤلف • (المترجم) •

(٣) Ibrahim, S. E. Urbanization in the Arabworld, Pepulation of the United Nations Economic Commission for Western Asia, 7, 1974, p. 99.

(**) حبرون Hebron هى مدينة الخليل وهى مدينة عربية تقع الى الجنوب الغربى من مدينة القدس وكان عدد سكانها فى عام ١٩٤٤ (٢٣ر١٣٢) الف نسمة • (المترجم) •

وهذا الخط قد أصابه تغير قليل في الوقت الراهن ، والاهم أن أكثر من ثلاثة أرباع السـكان اليهود عام ١٩٤٨ كانوا يعيشون في تل أبيب Tel Aviv ، وحيفا ، والمناطق المركزية ، وكانوا يشغلون فقط (٠ر١١٪) من مساحة الارض · وهذا الوضع كان لابد أن يتغير اذا ارادت اسرائيل أن تشدد قبضتها على المناطق التى تحتلها الدولة الصهيونية Zionist ولذلك فان قسم التخطيط القومى قد قام على ستة أهداف رئيسية هى :

١ ـ استيعاب المهاجرين داخل المجتمع الاسرائيلى ·

٢ ـ توطين مناطق سكانية موزعة ومنتشرة ·

٣ ـ احتلال مناطق خلفية لخدمة اغراض استراتيجية ، واكتساب هيئة ، أو مكانة قومية ·

(٤) أكتشاف مناطق غنية بالموارد ·

٥ ـ تغيير سلسلة الاولويات فى النسق الحضرى ، عن طريق تحديد النمو فى تل أبيب وحولها ·

٦ ـ خلق مدن ذات حجم متوسط كجزء من أنساق الاقامة الاقليمية المتـكاملة ·

ولما كان هناك عدد قليل من المدن ذات الحجم المتوسط بعيدة عن المناطق المركزية ، فانه تم اقتراح عدد من المدن الجديدة لسد الثغرات القائمة ، كذلك تم انشاء مستوطنات ريفية جديدة فى الدراجات الدنيا من السلم التنظيمى لكى تتخطى التوزيع التقليدى العربى للقرى ، والاسواق وفى نفس الوقت لكى تخلق نسقا مكانيا مركزيا يهوديا · وقد بنيت المدن الجديدة لتساعد فى توجيه المهاجرين نحو الهدف الاسرائيلى فى انشاء مجتمع ديموقراطى شعبى ، متطور تكنولوجيا · وقد تنوعت خلفيات المهاجرين بحيث تراوحوا ما بين الاميين القادمين من اليمن ، وبين أغنياء

نيويورك .وكان الجميع يبحثون عن أرض الميعاد Promised Land، اضفاء معنى المجتمع المحلى على تجمعات مثل الكيبوتز Kibbutzim وفى حجمها ، قد اتاح الفرصة للمهاجرين لكى يكونوا قادة وسط المدن الجديدة الصغيرة، فضلا عن أن أحجامها الصغيرة نسبيا قد تشجع العمل الاجتماعى الخلاق . والسلوك التعاونى بين الاسرائيليين الجدد عما كان يمكن تصوره فى المدن الكبرى (٤) .

والاكثر غرابة ان الاسلوب التخطيطى لاتجاوز ذلك كله .قد سار على النهج البريطانى فى تخطيط المدينة ، ذلك النهج الذى كان متطورا بدرجة ملحوظة . لقد ادخلت حكومة الانتداب البريطانى تخطيط المدن . والتخطيط الاقليمى الى فلسطين ، وتم ذلك فى البداية من خلال خطط استشارية ، مثل خطة جيديز Geddez الخاصة بتل أبيب وبعد ذلك من خلال النسق التخطيطى القانونى الذى صيغ على أساس التشريع البريطانى وتمثل فى قانون تخطيط المدن الصادر عام ١٩٣٦ . وقد ابقى قانون ١٩٦٥ على بعض المداخل الموجودة فى القانون القديم . واضاف استخدامات جديدة . ان العملية التخطيطية كانت تهدف الى تحقيق نمو فيزيقى حضرى متناسق ، من خلال سلطات قومية ، واقليمية ، ومحلية . وان هذه العملية رغم أنها قد دعمت بواسطة الملكية العامة لحوالى (٩٢٫٠٠٪) من الارض الا أنها قد عرقلت بسبب الملكيات غير الحكومية الموجودة فى المدن . لقد نجحت فى تحقيق التنمية ، ولكنها لم تؤد الى تناسق ، أو توازن هذه التنمية ، فالمدخل البراجماتى للتنمية الاقتصادية الذى تبنته بعض الوزارات القومية لم يؤد الى نمو فيزيقى متناسق ، وقد كانت له نتائج وخيمة على أحوال البيئة . فعلى سبيل المثال فان تنمية المنطقة الخلفية

---

(٤) Ash, J. The Progress of New Towns in Israel, Town Planning Review 45, 1974, p. 387.

لمدينة تل أبيب قد نفذ بواسطة وزارة المالية ، والسياحة وباجراءات غير سليمة من جانب البلدية ، قبل أن تكتمل الخطة الشاملة لتنمية تل أبيب (٥) •

لقد تم بناء ثلاثين مدينة جديدة في اسرائيل ، وهذه قد تصاعد عدد سكانها الكلي من (١١٣٠٠٠) أحد عشر الفا وثلاثمائة نسمة عام ١٩٤٨ الى اكثر من (٦٠٠٫٠٠٠) ستمائة الف نسمة عام ١٩٧٤ ، حيث اشتملت على حوالي خمس سكان الدولة • وان معظم المدن الجديدة التي بنيت بكفاءة كانت في الصحراء الجنوبية ، بينما فقدت المدن التي تم بناؤها في الشمال جزءا من سكانها بسبب الهجرة الداخلية في العصر الحديث • وفي البداية كانت المدن الجديدة تقوم على اساس التصور الانجليزي لمدن الحدائق حيث تشتمل على قدر كاف من الفضاء المفتوح • وعلى كثافة سكانية منخفضة ، وحدائق خاصة كبيرة حول المساكن ، على نحو يذكرنا بنمو الحدائق على الطريقة البريطانية في مدينة عبدان ، مع فارق أنه في عبدان كانت المياه متاحة بوفرة من النيل • بينما كان الامر في اسرائيل غالي الثمن ، فمناخ الصحراء هناك قد أحال الحدائق الى بؤر ترابية :

« ان انشاء الحدائق ليس أمرا سهلا ، وليس رخيصا ، كما أنه من الناحية الاجتماعية ليس الزاميا كما هو الحال في انجلترا ، كما ان المناطق المحيطة بالمساكن لم تكن موضع عناية ، ولقد كانت هذه المنازل في نظر المخطط الاسرائيلي أشبه بصناديق غير مغطاة ، تقع في بيئة غير منظمة• كما أن منظر الناس وهم جالسون خارج المنازل وسط الغبار ، بملابس النوم (البيجامات Pyjames) ، بين أفـــواج من الدجاج تعبث

---

(٥) Hill, M. Isreal - Planning Machinery, Built Environment 3, 1974, pp. 610 - 611.

بالارض ، كان هذا المنظر يثير فزع المخططين والرسميين الاسرائيليين. ولم يكن ذلك يرجع للحساسية الزائدة لعدم النظام ، ولكنه كان يرجع للخوف من أن المهاجرين قد يستقرون على نمط من الحياة شبه ريفى . وللقضاء على مثل هذا الاتجاه ، ودعم وتطوير التضامن الاجتماعى ، وزيادة تأثير النظم الجماعية ، أو العامة ، فقد تقرر بناء مدن جديدة ذات كثافات سكانية أعلى بكثير ، بحيث تصل الى حوالى (٦٠) ستين ساكنا للهكتار الواحد ، وبحيث يغلب على منازل هذه المدن أن تكون من أربعة أدوار .

ان المجتمعات السكنية الشعبية ذات النمط المستطيل أو قائم الزوايا تعبر بشكل قاطع عن ترتيب وتنظيم ، ووظائف الحياة الحديثة . ولقد كان ذلك يتضمن رسالة — على الاخص — لهؤلاء المهاجرين الذين جاءوا لكى يلجئوا لارض اجدادهم ، حيث أن هناك عددا قليلا من المدن التى لها تاريخ أو ماض يهودى واضح ، حتى يفكروا فى اقامة مستقبل يهودى عليها . ان المدن الجديدة مثل بئر سبع Beersheba ، وعسقلون Askelon وأرد Arad ، وديمونه Dimona ، واشدود Ashdod ، كل هذه المدن قد ورد ذكرها فى التوراة ، ولكنها الان عبارة عن علامات بارزة على عصر عالمى تسوده الميكنة (٦) .

ان النمو الحضرى فى اسرائيل قد فقد الان قوة الدفع التى كان يتمتع بها . فالجماعات الاوربية ، والجماعات العرقية القادمة من شمال أفريقيا ، والتى تعيش فى المدن الافريقية ، قد دخلت بشكل متزايد فى نوع من المصادمات الاجتماعية ، هذا فضلا عن استمرار الهجرة التى اوصلت أحجام الاماكن الحضرية الى درجة عالية ، مع مزيد من التركز حول منطقة القدس

Ash, op. cit. p. 389.

الحضرية • وان عددا من المدن الجديدة يشبه القرى الكبيرة من حيث الحجم والسمات ، أكثر مما يشبه المدن • ولذلك فانها من غير المحتمل أن تنمو كثيرا فى المستقبل المرئى • ومع ذلك فان الكثيرين يحسدون هذه المدن حينما يرون التكلفة الاجتماعية . والاقتصادية التى توجـــه للمحافظة عليها • ان دور بعض هذه المدن ينحصر الان فى كونها ببساطة مكان متوسط للمهاجرين قبل أن ينتقلوا الى الميتروبوليس (. أى محطة متوسطة) (٧) • وباختصار فان الدور الاجتماعى ، والوظيفة الاقتصادية لهذه المراحل الوسيطة فى السلم الحضرى اصبح غير ملائم الان لبلد يعيش (٨٠٪) من سكانه فى أربعة مراكز حضرية فقط •

وعلى الرغم من أن القرى الاجتماعية التى تشكل مدينة الشرق الاوسط تمدنا بنماذج تختلف الى حد بعيد عن نماذج الايكولوجيا الحضرية التى تمدنا بها مدن الغرب الصناعى ، الا أن التكنيكات التى تطورت لدراسة البناء المكانى الداخلى للمدن الغربية ، قد تكون ملائمة لدراسة هذا الوضع الجديد فمداخل دراسة التطور المكانى فى الحضر فى أوربا الغربية ، وامريكا الشمالية ــ حيث لم تطبع الاجهزة الاشتراكية السلطوية شكل المدينة بطابعها الخاص ــ هذه المداخل يمكن تقسيمها الى قسمين :

الاول : يتضمن تلك المداخـــل التى تقوم على دراسة الايكولوجيا الحضرية ، والتى استخدمت كثيرا من جانب السوسولوجيين •

والثانى : يتضمن تلك التى تقوم على دراسة اقتصاديات الارض الحضرية ، وعلى نظرية المكان المركزى ، وهى نظرية الموقع ، والحجم ، والطبيعة ، والتباعد بين الاماكن التى تؤدى دور السوق للمجتمعات المحلية

---

(٧) Sarly, R. Israel - Failure of the New Towns, Built Environment 3, 1978 pp. 612 - 616.

الاقليمية ، حيث تمدها بالسلع ، والخدمات ، ومع ذلك فان هذه الاساليب تتداخل فى الواقع العلمى ، وسوف ندرس فيما بعد امثلة على تطبيق كل من هذه المداخل على الجغرافيا الحضرية ، الاجتماعية فى الشرق الاوســـط .

ان هناك اعتبارين واقعيين قد اثرا على تحليل المكان الاجتماعى الحضرى :

الاول : البيانات الاحصائية الخاصة بعدد من مدن الشرق الاوسط اصبحت متاحة رغم صعوبة الحصول عليها ففى ضوء مثل هذه المعلومات اصبح ممكنا تصور طبيعة المتغيرات فى الجغرافيا الحضرية بتفصـــيل اكثر مما كان ممكنا حينما كنا نعتمد على تخمينات الباحثين الحقليين الاول . ومع ذلك فانه ــ كما حدث فى استخدام هذه المعلومات فى المدن الغربية ــ ليس من المؤكد ان هذه الطرق الاستقرائية سوف تساعدنا فى التوصل الى تعميمات افضل عن التنميط المكانى للمجتمع .

والثانى : ان رد الفعل لهذا الخضم المتاح من المعلومات قد تمثل فيما سمى بالتحليل المتدرج Gradient Analysis ، وهو يقوم على فكرة ان الكثير من ملامح المدينة يميل للتنوع ، او الاختلاف فى تتابع منطقى كلما بعدنا عن المركز ، وان هذا التنوع القائم على درجة البعد من المركز يمكن توضيحه من خلال قضايا رياضية بسيطة نسبيا ، كما يمكن توضيحه فى جداول تساعدنا على امكانية المقارنة بين مدن مختلفة فكثافة السكان مثلا ، حينما تقاس بعد الاشخاص فى الهكتار ، فانها تميل فى معـظم المدن ــ غربية كانت أم غير غربية ــ الى الانخفاض تدريجيا كلما بعدنا عن مركز المدينة . هذا ويمكن قياس زاوية الميل ، والتغير فيها عبر الزمن ، ومقارنتها فى كل مدينة بالاخرى . وان نفس التكتيك يمكن تطبيقه على بعض الملامح الاقتصادية ، والاجتماعية الاخرى . وسوف تمدنا مناقشتنا لمدينة كاشان Kashan بمثال يوضح تطبيق بعض هذه التكتيكات ، والافكار التى توحى بها ، فى مدينة صغيرة نسبيا ، كما تجعلنا نؤكد

على ان التنظيم الاجتماعي للمكان الحضرى يميل للتنوع من حيث مستوى الحجم ، والمستوى الوظيفي .

Kashan

تقع مدينة كاشان على مسافة مائتين وخمسين كيلو مترا جنوبى طهران على حدود سهل ايران الاوسط ، وهى مدينة معروفة دوليا بسبب انتاجها فائق الجودة من السجاد اليدوى . ومع ذلك فان الكثير من ثروة ايران يتحقق من حصيلة انتاجها الالى من الغزل . وقد سجل عدد سكان المدينة عام ١٩٦٦ رقم (٥٨ر٤٦٨) الف نسمة ، وقد كانت هناك هجرة ضئيلة الى كاشان من المنطقة الريفية المحلية ، على الرغم من النمو الاقتصادى السريع ، ومعدلات العمالة العالية التى نتجت عن التوسع فى صناعة الغزل الحديثة . لقد كانت نسبة النمو سكان المدينة بين عامى ١٩٥٦ ، ١٩٦٦ هى (٢٧ر٠٪) وجاءت معظم هذه الزيادة نتيجة لنمو السكان المحليين .

وقبل هذا النمو كانت الاحياء التقليدية فى كاشان عبارة عن خليط من الازقة الملتوية المغلقة ، مع عدد كبير من القناءات المنزلية . ولقد كانت الحركة من جزء لاخر فى المدينة عسيرة حتى بدايات عام ١٩٦٠ ، حيث شقت بها طرق طولية وعرضية . وفى هذه المدينة الكبيرة التي كانت تمثل مدن ما قبل الصناعة كان هناك تدرج اجتماعى ــ قبل النمو الحديث يمتد من الاحياء الجنوبية ، والغربية ، الى الاحياء الشرقية . وقد كشفت احدى الدراسات عن هذا التدرج بالتصوير الفوتوغرافى ، ومقابلة السكان . فالاحياء ذات الفضاء ، والمرغوبة ، وذات الحدائق والاكثر نظافة ، والتى تصلها امدادات المياه بوفرة كانت تكثر فى الاجزاء الجنوبية ، والغربية من المدينة ، بينما كانت الاحياء الشرقية على العكس من ذلك ، كثافة سكانية عالية فى الهكتار . ويمكن ان نستخلص من ذلك ان الاحياء فى كاشان فى عصر ما قبل الصناعة لم تكن بالضرورة تشتمل على خليط

من الاغنياء ، والفقراء جنبا الى جنب بسبب انتمائهم لقبائل واحدة ، أو يعملون فى تجارة واحدة • ولقد كانت هذه المدينة فيما قبل عصر الصناعة اى قبل القرن العشرين – مدينة متجانسة نسبيا من حيث العرق ، والدين باستثناء مجتمع محلى يهودى واحد ، يعيش بين الاغلبية الشيعية الفارسية المسلمة • وقد كان لثروة الناس وصيتهم اثر على نوع المكان الذى يقيمون فيه • فقد كانت عائلة (بوروجيردس Borujerdis وهى من اهم عائلات المدينة تعمل فى صناعة السجاد اليدوى ، كانت تسكن فى منزل يقع فى الركن الجنوبى الغربى للمدينة ، وهو موقع راق ، حيث ينساب الماء من شبكة قنوات تحت الارض ليغذى المدينة ، وكان الماء فى هذه المنطقة نقيا ، صافيا ، ووفيرا •

ولقد أحدث النمو السكانى ، والتوسع الاقتصادى منذ عام ١٩٥٠ ، بعدها تغيرات فى هذا النمط ، ففى شمال وغرب المدينة ، وخارج الاسوار تم حفر العديد من الابار التى تمد بالماء ، ومن اجل الزراعة اساسا ، ولكنه يغذى ايضا المنازل الشيدة حديثا بمنطقة الضواحى الموجودة هناك • وفى الجنوب والشرق بنيت المدارس ، والحدائق بينما ظهرت ضواحى فقيرة سكنها المهاجرون ، خاصة فى الجنوب •

ان هذا النمط من النمو ، يقدم لنا مداخل لفهم المتغيرات الايكولوجية فى المدينة • والمادة الاحصائية التى اعتمدنا عليها فى هذا التحليل تشير الى العلاقة العكسية بين كثافة السكان بالنسبة للحجرة ، وكثافتهم بالنسبة للهكتار • والنسبة الاولى ذات اهمية بالنسبة للاحوال الحضرية، وتزداد اهميتها عن المعدل البسيط الخاص بكثافة السكان فى رقعة أرض معينة • وقد اشارت المادة الاحصائية الى أن الكثافة بالنسبة للهكتار ، والحجرة اعلى فى أكبر أحياء المنطقة الشرقية والمعروف باسم بوشته مشهد Poshte Mashed فهذا الحى محصور بين المدافن ، والاطلال الخربة التى تنتمى الى عصور قديمة ، كما ان هذا الحى كان مخاطا

من ثلاثة جوانب بأسوار المدينة • وقد كان بوشت مشهد كغيره من احياء المدينة له كيانه الاجتماعى ، فعلاقات القرابة وثيقة ، والسكان يتكلمون بلهجة متميزة • وكانت الخصوبة عالية فى الحى ، ومعدلات التعليم منخفضة • وكانت القيود الفيزيقية المفروضة بوجود الاسوار ، والدانق وكذلك النظام الادارى المتمثل فى أن المنطقة التى تقع بين الاسوار ، وخط السكة الحديد محتجزة للترويح ، كل هذا أدى الى عدم تشجيع الامتداد الفيزيقى للحى • وكذلك شانه بسبب الروابط الاجتمعية القوية ، فان الذين انتقلوا الى خارج الحى ، كانوا قلة حتى عام ١٩٦٠ • ومنـذ ذلك الوقت أصبحت معدلات الزيادة الطبيعية ، والكثافة بالنسبة للحجرة من اعلى المعدلات فى المدينة • ولكن بحلول عام ١٩٧٣ بدأت المنطقـــة الجنوبية الشرقية تمتلىء بسرعة بالمنازل الجديدة •

اما الاحياء المركزية فى كاشان ، والموجودة حول السوق ، فتمدنا بصورة مختلفة ، فهذه كانت ولا تزال القلب التجارى للمدينة • وفيهـــا نجد أن معدلات الكثافة السكانية للهكتار عالية ، ولكن المساكن غالبا تتكون من عدة طوابق ، وبها حجرات كثيرة ، متضمنة بالطبع حجرات للعمل ، ورغم ذلك فالكثافة السكانية بالنسبة للحجرة منخفضة وان من سمات منطقة السوق انه يسكنها عدد كبير من المراهقين الذكور الذين يعيشون بالقرب من عملهم فى المتاجر ، والمحال الصغيرة التى تعمـــل فى حرفة النسج ، والموجودة بالقرب من مركز المدينة • والى الجنوب ، والغرب من السوق توجد أحياء فيها معدلات خصوبة أقل وبها عدد أكبر من كبار السن • ومن سمات هذه المنطقة أيضا انتشار الكثير من منازل الاثرياء ، وسط منازل متواضعة ، وذلك قبل أن ينتقل هؤلاء الاثرياء الى الضواحى •

ان هذه الضواحى لا تزال محدودة فى مداها فقد كانت تشتمل فى عام ١٩٦٦ على أقل من (٠ر٢٠ ٪) من السكان ، والكثافة السكانية بالنسبة

للهكتار منخفضة فيها . والسكان الذين يعيشون فى الضواحى الجنوبية معظمهم من المهاجرين الذين يعيشون وسط كثافات سكانية عالية بالنسبة للحجرة . وعلى العكس من ذلك فان الضواحى الشمالية تسكنها طبقة الاغنياء فى المدينة . وعند منتهى الشارع الرئيسى الشمالى — والذى يطلق عليه اسم مستعار هو (كاشان بيرسيبوليس Kashan's Pesepolis توجد منازل طبقة الميسورين ، كما توجد معظم القيادات الادارية فى المدينة ، وكذلك قيادات الصناعة ، وكبار رجال صناعة السجاد .

ان الحاجة لدراسة المتغيرات العديدة المتضمنة فى ايكولوجيا المدينة تصبح واضحة اذا نظرنا بشكل أعمق الى متغيرين يرتبطان بالكثافة السكانية ، فاذا أخذنا المدينة ككل ، فان كثافة السكان فى الهكتار تفصح عن تناقض كبير بين المدينة القديمة ، والضواحى الجديدة ، وهذا الوضع فى الحقيقة له علاقات بغيره من المؤشرات الخاصة بنمط الاســكان ، والكثافة ، مثل متغيرات عدد الافراد للحجرات ، ونسبة الاشخاص الذين يسكنون فى منازل من الطوب اللبن فى كل حى . ومع أن هناك علاقات بين الكثافة السكانية للهكتار . والكثافة السكانية للحجرات ، الا أن توزيعات هذه العلاقات ليســت واحدة . فبينمـــا يوضح المؤشر الاول (الكثافة الهكتارية) وجود اختلافات بين الاحياء القديمة ، والجديدة ، الا أن المؤشر الثانى (الكثافة وفق الحجرات) يرتبط ايجابيا بالمســافة الى قلب المدينة . وبمعنى اخر كلما زادت مسافة البعد عن المركز القديم للمدينة تزايدت كثافة السكان بالنسبة للحجرات . وعلى اية حال ، فاذا نظرنا الى الكثافة السكانية بالنسبة الحجرة ، فان كاشان على العكس تماما من معظم المدن التى تمت دراستها فى العالم العربى ، أو العـــالم غير العربى على السواء .

ومع ذلك فان كاشان توضح لنا ما نتوقعه من تناقض بين المدينة القديمة ، والمدينة الحديثة من عدة جوانب ، ولكن هناك عناصر متصلة

بالتدرج الاجتماعى فى المدينة القديمة فى عصر ما قبل الصناعة . لا تزال باقية · وان التناقض بين الضواحى الشمالية ، والغربية ، وبين ضواحى الجنوب ، والشرق ، يمكن الى حد ما ان يكون الامر الاخير الذى تفرع عن النظام الاجتماعى ، والذى لا يزال موجودا حتى الان · وبالاضافة الى ذلك فان التناقض بين صفوة المدينة ، وبقية المجتمع الحضرى ، والذى يمكن تتبعه من منظور الجغرافيا الاجتماعية ـ لا يزال الان كما كان فى المـاضى ·

القـــــاهرة : Cairo

القاهرة الكبرى من مدن الشرق الاوسط بلا منازع ، وهى فى نفس الوقت عاصمة كبرى الدول العربية سكانا ، كما أنها مدينة ذات أهمية عالمية · وبغض النظر عن حجم المدينة الحالى ، فان الكثير من جوانب نموها واضح جلى · فقد كانت واحدة من بين أقدم المدن التى تجاوزت مرحلة ما قبل الصناعة ، كما وجدت بعض برامج التخطيط الفعالة . رغم عمرها الطويل (احتفلت بعيدها الالفى عام ١٩٦٩) · ومن الناحيـــة الفيزيقية فان الجزء الاكبر قد بنى فى المـاضى القريب (*) ·

(*) أطلق عليها الفاطميون اسمها الحالى عام ٩٦٩ لذلك احتفــلت بمرور ألف عام على انشائها فى عام ١٩٦٩ مع أن المدينة كانت موجودة قبل ذلك بثلاثة قرون (منذ الفتح العربى لمصر عام ٦٤١) حيث قام عمرو بن العاص بانشاء مدينة الفسطاط بعد الفتح العربى أما النمو الحديث للمدينة سيتضمن خطة واسعة النطاق باسم مخطط القاهرة الكبرى ، أو اقليم القاهرة ويتضمن هذا الاقليم مدينـــة القاهرة ، مدينة الجيزة وأجزاء من محافظتى الجيزة والقليوبية وقد [illegible] هذا الاقليم عام ١٩٧٠ (٧ر٣) مليون نسمة وقد قام المخطط العمرانى على عدة مبادىء منها الحفاظ على البيئة . والحفاظ

=

ان قاهرة العصور الوسطى ، والتى تعرضنا لها من قبل فى الفصل الثالث ، بقيت كما هى من حيث البناء المورفولوجى ، والاجتماعى حتى بدايات القرن التاسع عشر ، حيث جاءها محمد على الحاكم المصلح ، الذى كان متأثرا الى حد كبير بالفكر الغربى حيث بدأ بتنظيف المدينة ، وانشاء شبكة المجارى ، والاماكن المخصصة لسير المشاة ، وازالة اكوام النفايات المكدسة • وقد انفق ابنه الاكبر اسماعيل مما يفوق العائد من تصـدير القطن المصرى ، خلال الحرب الاهلية الامريكية من اجل خلق مؤشرات بارزة على التقدم المصرى • وشيد حيا فاخرا جديدا الى الغرب ، والجنوب الغربى من مدينة العصور الوسطى • وبينما استمر نمط الحياة فى المدينة القديمة على ما كان عليه تقريبا • من حيث الاعتماد على الصـناعات الحرفية ، والتجارة الضرورية ، والاخذ بالقوانين الاسلامية فى التجارة ، والحياة اليومية ، الا أن نمط الحياة الحى الجديد (الاسماعيلية) كان يتلاءم مع حياة الطبقة العليا الاوربية • ففيه توجد (الفيلات) الواسعة التى بها عدد كبير من الخدم ، وشوارع جديدة ، ووسائل للمواصلات ، كالسكك الحديدية ، وامدادات الكهرباء ، وشبكة أنابيب المياه ، ودار للاوبيرا ، حيث قدم فيردى Verdi أوبيرا (عايدة) كايذان بافتتاح معجزة فنية أوربية أخرى ، بعد قنال السويس • وقد كان حى الاسماعيلية يشبه نيودلهى ، من حيث كونها ملحقة بمدينة دلهى القديمة old Delhi وفى عام ١٩١٧ كان الاجانب يشكلون اكثر من (١٠ر٠٪) من جملة

=

على الموارد . والحفاظ على الطاقة البشرية ، والعامل الاقتصادى ، والفترة الزمنية للخطة ، والنقل والمرور ، والخدمات التعليميـة والثقافية ، والقيم الجمالية : انظر تصدير ابراهيم بغداد لترجمة جيرالدبريز ، مجتمع المدينة فى البـلاد النامية ، ترجمة محمد الجوهرى ، مرجع سابق ص ص ل — ع •
(المترجــم) •

سكان القاهرة البالغ عددهم (٨٠٠٫٠٠٠) ثمانمائة الف نسمة · وفيما بعد الحرب العالمية الاولى تقلصت الادارة الاجنبية الى حد ما ، بينما بدأ الاهلون فى مزاولة الوظائف التى كان يقوم بها الاجانب ، فى العمل ، والتكنولوجيا ، والادارة ، والجيش ، ومن هنا اتسع نطاق الطبقة الوسطى ، والطبقة العمالية ، والمناطق التى تشغلها بسرعة فائقة ·

وعندما بدأت طبقة المهنين المصريين تنمو عدديا ، أخذ الكثير من ابنائها ينتقلون من المركز القديم الى الضواحى ويمثلو ن الصفوة الجديدة · وقد شغل المهاجرون الريفيون الاماكن التى خلت بانتقال هؤلاء ، اما المهاجرون فقد يتزايد عددهم بين الحربيين العالميتين · وقد كانت عملية التتابع Succession هذه سمة منطبقة على مدن الشرق الاوسط ، وهى تشبه عملية التتابع الايكولوجى (*) التى لوحظت فى معظم المدن الغربية ،

(*) الى جانب التفاعلات الاجتماعية فى اطار البيئة هناك عمليات ايكولوجية رئيسية هى المنافسة Competition ، والغزو ، والعزلة Invasion & Segregation والانتشار Decentralization والتتابع Succession فقد خلق نمو المدينة الحديثة نوعا من المنافسة على استخدام الارض ، انعكس فى التغيرات التى طرأت على أسعارها فى مناطق المدينة ، والعملية الثانية تتضمن عمليتان متكاملتان معا مما قيام جماعة من المهاجرين بحركة هجرة جماعية (غزو) لمنطقة معينة ، ويترتب على ذلك ميل الجماعة الاصلية الى الانعزال عن الجماعات المهاجرة الغازية ، وقد يحدث ان يرفضوا قدوم هذه الجماعات والاستقرار الى جانبهم ، فيرحلون عن المنطقة ويفضلون العزلة وعدم الاندماج وذلك للمحافظة على كيانهم ، ومقوماتهم ، وبينما يميل هؤلاء الى العزلة يميل الغزاة الى الانتشار والتوزع فى المناطق التى يدخلونها ، وبعد أن ينتشر هؤلاء الجدد يشكلون فيما بينهم من جديد جماعات تميل بدورها للعزلة ، وحينما تنتقل جماعة من منطقة قلب المدينة الى منطقة التحول تفاجأ بعد ذلك بأن طبقة متوسطى الدخل تقوم بغزو منطقتهم الجديدة ، ثم يتبعهم

=

صاحبها في العادة تدهور كيفي في الاسكان . وقد أخذت الضواحي التي تم بناؤها بشكل تجاري (غير مؤسس جيدا) في الامتداد لتلتحم مؤخرا بالجزء القديم (وما قبل الصناعة) ، وكذلك لتصل الى الاطراف التي أصبحت مأهولة سكانيا في القرن التاسع عشر . ومع ذلك فان الفروق الحادة في نمط الحياة بين الصفوة ، وبقية المدينة ، قد انطمست الى حد كبير بقيام ثورة ١٩٥٢ . وفي عام ١٩٥٦ طرد الاجانب ، وأفراد الطبقة الثالثة . وهكذا فانه اذا كانت القاهرة غير أنيقة بما فيه الكفاية في أحياء معينة ، كما كانت منذ عشرين عاما مضت ، الا أنها ليست فقيرة ، أو مهجورة ، أو مثيرة للعطف في أحياء أخرى (٨) .

وفي عام ١٩٦٠ كان عدد سكان القاهرة قد وصل الى ما يقرب من ثلاثة ملايين ونصف نسمة يعيش ربعهم مضغوطا في الاحياء القديمة ، والربع الاخر في الاحياء الجديدة (أحياء القرن التاسع عشر) التي تقع غربي المركز القديم . أما النصف الباقي فيعيش في الضواحي الممتدة الى الشمال والتي اتسعت بشكل كبير . ثم ان البناء الاقتصادي الذي يدعم كل هؤلاء الناس ، عبارة عن خليط ممتزج من الاعمال واسعة النطاق ، والوحدات التجارية الصغيرة والنوع الثاني من النشـــاط الاقتصادي يدعم الاتجاه التقليدي في اقتصاديات المدينة ، وهو من بقايا التنظـــيم الاقتصادي الحضري في عصر ما قبل الصناعة . وقد أضافت الهجرات

=

الفقراء والدهماء ، فتتحرك طبقة الاغنياء للضواحي الجديدة وهكذا وهذه التحولات العمرانية تسمى التتابع . انظر على سبيل المثال :
The Odorson, G. A. Studies in Human Ecology, Evan Ston, Row Peterson & Company, 1961. pp. 115 - 120
وغيره من الكتابات الاجنبية والعربية . (المترجم) .

(٨) Abu - Loghod, J. Varieties of Urban Experience, op. cit., p. 105.

الضخمة القادمة من المناطق الريفية بعدا اجتماعيا ثالثا ، حيث ساعدت على الابقاء على طرق الحياة الريفية حتى بالقرب من مركز المدينة ٠

ان أنماط الحياة المتنوعة التى توجد فى المدينة والتى ترتبط ـ الى حد ما ـ بهذه البناءات الاقتصادية ، واطلق عليها : الانماط الريفية ، الحضرية ، التقليدية ، والحديثة ٠ وهذه تعكس مقدار الاختلافات فى الدخل ، والمهنة ، ونوع الاسكان ومكان الميلاد ، والقيم ، وطريقة الحياة الاجتماعية ٠ وفى الوقت الحالى ترتبط أنماط الحياة هذه بالمكانـــــة السوسيواقتصادية الى حد بعيد ، ولكن لا يوجد شاهد احصائى مباشر عن الأماكن التى توجد فيها انماط الحياة هذه فى مدينة القاهرة ، ولذلك فانه يمكن ان تستخدم بدلا عنها بعض المتغيرات المتاحة ، خاصة التعليم ومن الزواج عند المراة ، والخصوبة ، وعدد الاشخاص بالنسبة لعـــدد الحجرات ، ويمكن استخدام هذه المتغيرات كمؤشرات على نمط الحياة(٩)

وكما كان متوقعا من قبل ، فان الاحداءات تشير الى أن الاجزاء الجديدة من المدينة هى التى تشتمل على أعلى معدلات الوعى الثقافى ، والتاخر فى سن الزواج عند المراة ، والخصوبة الاقل ، والعدد الاقل من الاشخاص بالنسبة للحجرات ٠ وهذه الاحياء الجديدة تشكل (٠ر١٦٪) من جملة سكان المدينة عام ١٩٦٠ ٠ ويمكن ملاحظة أن أحياء مثل باب الحديد ، والساحل ، كانت بها منازل ، ومتاجر ومكاتب أحدث من النماذج السائدة فى الضواحى الجديدة الغنية ٠ فالناس متعلمون ومثقفون جيدا ، ويعملون فى القطاع الاقتصادى الحديث ، ويتزوجون فى سن متاخرة وفى العادة نجد أحجام أسرهم أقل من المتوسط السائد وعلى الجانب الاخر من الصورة نجد أحياء كانت فى عام ١٩٦٠ ريفية السمات ، ومعظمهـا

---

(٩) Ibid, p. 175.

على أطراف المدينة ، وتحتوى على (٠ر١٤٪) من السكان . اما نماذج المنازل فكانت تشبه تلك الموجودة فى القرية ، اكثر من كونها تشبه مساكن المدينة الكبيرة . ولم تكن تجارة التجزئة تحقق عائدا كبيرا طالما أن القوة الشرائية للناس كانت محدودة ومعظم الفتيات كن يتزوجن فى سن السادسة عشرة ، وأسرهن كبيرة ، كما كانت معدلات التعليم ، والالتحاق بالمدارس منخفضة . وكانت هذه المناطق فى طريقها للانكماش السريع فى عام ١٩٦٠ ، حيث ظهرت استخدامات جديدة للارض .

اما بالنسبة الباقية من سكان القاهرة ، والتى تمثل (٠ر٧٠٪) ، فقد كانت تعيش عام ١٩٦٠ فى مناطق لاهى بالحضرية الجديدة ، ولا هى بالريفية التى تسودها طرق ريفية الحياة . فحوالى (٠ر٣٠٪) يعيشون فى المركز التقليدى ، (٠ر٤٠٪) فى أحياء يختلط فيها التقليدى بالحديث . وكانت الطبقة الوسطى الدنيا التى تعيش فى هذه الاحياء تمارس نوعان من اعادة التكيف الذى تمارسه أى جماعة اجتماعية ، بمعنى أنه يمكن تشبيههم بهؤلاء الذين اطلق عليهم ليرنر Lerner جماعات الذين فى مرحلة التحول Transitionals . أما أولئك الذين يعيشون فى مناطق الطبقة العليا ، والعليا الوسطى ، فقد وصلوا الى بعض أشكال الحياة الحضرية الحديثة . وبينما الذين يعيشون فى الاحياء الريفية من المدينة لم يبدءوا فى ذلك بعد أى أن حركتهم لا تزال فى وسط المسافة .

ان نمط ١٩٦٠ الذى يعكس الى حد ما تاريخ المدينة الراهنة ، يتغير الان بسرعة ، وبشكل خاص فان ثنائية الريفى — الحضرى تميل الان للاختفاء . ولم تعد طبقة الاجانب المنعزلين عن المصريين الفقراء تسيطر على المدينة . فقد اختفت من قلب المدينة تلك المناطق الريفية المعزولة ، كما انها تتلاشى بسرعة من مناطق محيط المدينة . والى حد ما وبفضل المبادئ الاشتراكية للحكومة ، فان السكان فى طريقهم الى الاندماج أو

لاختلاط ·وهذا يتناقض مع الثقافة الفسيفسائية Mosaic (*) في لبنان، حيث نجد نمط الحياة المختلفة متوازية ، ولا تتجه للاندماج معا ، بسبب غياب الايديولوجيا الاشتراكية · ومع ذلك فان هذه الثقافات تدخل في الوقت الراهن في صراع واضح ·

هذا ولا يمكن القول بأن القاهرة تمثل نموذجا لكل المدن المصرية ، فانعدام الفروق الاجتماعية ـ كما هو الحال في مدن امريكا الشمالية ـ سمة لا توجد في مدينة الاسكندرية وهي ثانية المناطق الحضرية المصرية الكبرى ففيها نجد الجماعات الدينية تقطن مناطق مترابطة على أساس المكانة الاجتماعية فالاقباط · Coptic واليهود ، والمسيحيون الاجانب ، يشكلون جماعات تعيش كل منها بشكل متميز · كذلك فالسكان المولودون خارج مصر (غرباء المولد) قد حاولوا التمسك بالاقامة فيها ـ ومعظمهم في قلب المدينة ـ رغم التقلبات التي شهدتها مرحلة ما بعد الاستقلال(١٠)

(*) كلمة Mosiac تعني مادة الفسيفساء ، التي تستخدم لاغراض للزينة ، وتشع منها الوان متعددة · واستخدامها هنا يشير الى أن الثقافة السائدة في مدينة القاهرة تميل الى الاندماج أو التجانس، بينما تتضمن الثقافة اللبنانية عناصر مختلفة ومتميزة ، ولا تتجه الاندماج والتوحد بل على العكس من ذلك تميل للاختلاف ، والتنوع، وربما الصراع · ويرجع التوحد ، والاندماج في الحالة الاولى (الثقافة المصرية) الى وجود رابط ايديولوجي في هذه الثقافة ، ويرجع ما يوجد في لبنان الى غيبة هذا الربط · وهو الامر الذي تجلى اثره في السبعينيات من هذا القرن ، حيث اشتعل الصراع في لبنـــان بشكل اثر على نموه واقتصاده · (المترجم) ·

(١٠) Abdel - Latif, A. H.; The Ecological and Social Structure of Alexandria Egypt: An Examination of Subarea Date; 1947 and 1960; Unpublished Ph. D. Thesis; Ohio State University, 1970.

بيـــــيروت : Beirut

كانت النواة التاريخية لمدينة بيروت ـ كما هو الحال في القاهرة ـ هي مدينة ما قبل الصناعة ، الاسلامية ، ذات الاسوار . وعبر العقد الاخيرة من القرن التاسع عشر أدى انسحاب المسيحيين الاوربيين ، وفي الضواحي ذات النمط الاوربي على حافة المدنية الاسلامية ، مع تأسيس الجامعة الامريكية في ضاحية رأس بيروت Ras Beirut ، أدى كل هذا الى تغير شامل في ضواحي المدينة ، كما أضيف اليها في النصف الاول من القرن الحالي ما يعرف بمدن الاكواخ أو العشش Shanty Towns التي يسكنها المهاجرون الريفيون واللاجئون . والى جانب مدن العشش ـ التي كان بها جماعات دينية ، وعرقية متنوعة الى حد كبير ، والتي كانت تمثل النواة الاولى للمدينة ـ كانت هناك ثلاث ثقافات فرعية محددة في بيروت فهناك الاشرفية Ashrafieh ، وهو حي سكني تسكنه الطبقات المسيحية العليا ، والوسطى ، وفيه يميل الناس الى النمط الفرنسي في الحياة والثقافة ، ويعيشون في الغالب في دور سكنية كبيرة Mansions وهناك حي البسطا Basta ويسكنه أبناء الطبقة الوسطى ، والدنيا من المسلمين السنيين ، الذين يتأثرون بتراثهم التقليدي . وبين الضلعين [illegible] هذه الاحياء السكنية المتجانسة نسبيا نجد رأس بيروت [illegible] Hamra ، وهو حي علماني ينمو بسرعة كبيرة ، والعنصر الاساسي هنا هو الطبقة الوسطى ، والنمط الانجلو ـ ساكسوني Anglo - Saxon في الحياة . وقد تعرضنا من قبل للوضع السوسيو ـ اقتصادي للحمرا ولكن اهتمامنا الحالي هو مناقشة تحول الحمرا من سوق تهتم بما يتصل بزراعة الحدائق ، الى مجمعات ذات ابراج عالية خلال ثمانين سنة . وقد قام (خلف وكونستاد) Khalaf & Konstad بشرح العمليات الايكولوجية من غزو ، وتتابع ، وما تبعهما من زيادة الكثافة السكانية ، وتغير في نمط استغلال الارض .

والحمرا لا تقاس بالقاهرة - طبعا - ولا حتى بكاشان ، فقد نمت بدون تخطيط محكم ، أو تقسيم للارض ، وذلك بسبب عوامل حرية السوق • والسمات الفيزيقية ونوع الحياة يشبه السمات التى ادخلها بناء الجامعة الامريكية • فقد وجدت هذه الجامعة عام ١٨٦٦ ، وفى منطقة مقسمة الى حدائق للزراعة ، وينتشر فى أرجائها ثلاثون منزلا للفلاحين تم بناؤها من الحجر الرملى ، ومن طابق واحد وشقة مربعة مسقوفة ، وباختصار بدأ المدرسون ، وعمال الجامعة فى شراء قطع من الارض ، وشيدوا عليها (فيلات) من طابقين ، وثلاثة طوابق ، مغطاه بالاسمنت، واللون الاحمر ، بالاضافة الى الواجهات Facades ، والشرفات • وقد استمرت منازل الفلاحين ، (والفيلات) الجديدة هى الشكل العام الغالب على المساكن حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، حيث تزايد الطلب على الارض الفضاء كما دخلت الى المنطقة انواع جديدة من السكان ، وكانوا فى العادة قادمين من خارج بيروت ، وعلى ذلك استمرت الطبقة الحضرية الوسطى الصاعدة هى الغالبة على منطقة الحمرا •

ومنذ هذا الوقت اصبح التتابع الحضرى Urban Succession (*) - وهو احلال نمط معين لاستخدام الارض باخر ، أو احلال جماعة اجتماعية باخرى - واضحا • وقد تزايدت نسبة استخدام الارض لغير الاغراض السكنية ، بسبب تزايد الطلب على انشاء المكاتب • وقد أصبح التطور السكنى أكثر تركيزاً ، الامر الذى أدى الى ظهور منازل مكونة من شقق بكل منها ما بين أربعة الى سبعة طوابق أما بقية انماط استغلال الارض قبل انشاء الجماعة ، فقد بدأت فى الاختفاء ، بينما تم بناء الحدائق ذات الاسوار ، والمناطق الزراعية جميعا تم بناؤها أيضا • ثم ارتفعت أسعار الارض نظرا لارتفاع المساكن ، والاستثمار فى مجال العقارات • واستمر

(*) أنظر تعليقنا السابق على العمليات الايكولوجية (المترجم) •

القطاع الاقتصادى فى بيروت فى النمو ، والاتساع • ثم ان الطلب على المكاتب الكبيرة ، وتوافر مبالغ كبيرة من راس المال قد أدت الى الاهتمام بالبناءات الشاهقة ، والتى احصيت فى بداية السبعينيات ، واتضح انها تمثل (٢٢ر٠٪) من جملة المبانى ، (٥٧ر٠٪) من اجمالى مساحة الارض •

وقد استخدم معظم الارض الفضاء (٦٢ر٠٪) من أجل الاقامة السكنية ولكن الجزء الباقى توزع على أساس (١١ر٠٪) استخدمت لاوجه النشاط الخاصة بالبيع بالتجزئة ، (٩ر٠٪) للمكاتب ، (١١ر٠٪) للاستخدمات الادارية ، والصناعية والتنظيمية ، وأصبح المكان شبيها بمنهاتن Manhattan • ان الامر الاساسى الذى يميز الحمرا عن نظيرتها المنطقة الحضرية المركزية فى الغرب هو عدم وجود تخصص فى استخدامات الارض • فتلك مثلا بناءات عالية تجاور منطقة مخصصة لحديقة زراعية • وقد تشتمل المبانى العالية على حانة ، أو خمارة ، او على مخزن ، أو على جراج ، وذلك فى الطابق الارضى ، كما يمكن ان تشمل على مقهى او سينما • أما تجارة التجزئة فغالبا ما تكون فى الطابقين التاليين لذلك والسكنى فوق هذا كله • وهكذا نجد اشكالا كثيرة للاستخدامات الرأسية •

وهناك فضلا عن كل ذلك انقسامية واضحة فى موقع ، ونوعية الاسكان فى الحمرا • فالسكان ينتمون فى معظمهم للطبقة الوسطى ، وكثيرون منهم يعملون محليا (فى الحمرا) • وحوالى (٨٠ر٠٪) من الاسر تتكون من الوالدين ، والاطفال ، ونادرا ما كانت تمتد لتشمل الاقارب • والغالبية العظمى من السكان يعيشون فى مساكن مستأجرة • ويوضح الوضع الديموجرافى أن هناك معدلا منخفضا للاعالة (عدد الذين تعولهم الاسرة) وكذلك معدلات منخفضة للخصوبة كما يتزايد عدد اليافعين ، والنشطين اقتصاديا • واخيرا فان الاهم من ذلك أن المنطقة يغلب عليها وجود مهن ذوى الياقات البيضاء ، وابناء الطبقة الوسطى •

الـــــكويت Kuwait

تمدنا الكويت بمثال لمدينة مزدوجة dual City ذات نواة قديمة وضواح جديدة اتسعت بشكل كبير ، وسريع فى الوقت الراهن ،وتحكمها ضوابط تخطيطية صارمة • وكانت المدينة القديمة موطنا قريبا من البحر على خليج الكويت وكانت تمتد لمسافة ثمانية كيلو مترات ومحاطه بسور من اللبن تتخلله اربع بوابات ولقد تم بناء السور على عجل عام ١٩٢٠ ، حيث كانت المدينة مهددة من جانب بعض القبائل القادمـــة من المملكة العربية السعودية ، وكانت خواصها المورفولوجية تمثل نموذجا لمجتمع صحراوى فى الشرق الاوسط •

كانت الفناءات الموجودة فى المدينة مراكز للتنشئة ، الاجتماعيه والصناعة ، والراحة • وقد كان هناك نوع من التوازن يتفق مع شـكل التوازن السائد فى مدينة العصور الوسطى ، كان هذا التوازن قائما بين الانسان والانسان من ناحية ، وبين الانسان وربه من ناحية أخرى ، وبين الانسان والطبيعة من ناحية ثالثة ، واخيرا بين الانسان وخصومه متمثلين فى البحر ، الصحراء ، والحرارة ، وندرة الماء النقى ، والعواصف الرملية الشديدة • ولقد كان هذا هو الوضع الاجتماعى ، والحضرى حينما تفجرت ابار البترول ، وحملت معها عددا كبيرا من المشكلات المعينة (١١)

لقد كان هذا المجتمع مجتمعا لا طبقيا ، ومنعزلا الى حد كبير عـن الاتصال المباشر بغير العرب ، أو حتى بأصدقاء العرب الموجودين شمالا وغربا • ويرجع غياب الانقسام الطبقى فى المدينة الى صغر حجمها ، ووجود علاقات اجتماعية وثيقة ، كما يرجع الى عدم وجود الزراعة ،

---

(١١) Sh.be.. ., Recent Arab City Growth, Kuwait, 1967; p. 170.

وملكية الارض وكذلك الى زوال اهمية التقاليد القبلية . والتباهي الاسرى وهذه الامور لم تجعل للنقود اهمية كبيره حتى في امور الزواج . وفيما عدا المنطقة التى يوجد بها قصر الحاكم فاننا لم نكن لنجد فروقا مكانية في مجتمع المدينة .

ولقد أدى اكتشاف النفط الى ظهور مجتمع طبقى يقوم على أسس طبيعية واقتصاديه على مدى ربع قرن فقط ولقد انسابت النقود في القطاع الخاص اولا بفضل الخطة الحكومية الخاصة بشراء الارض ، حيث دفعت الحكومة للمواطنين مبالغ ضخمه مقابل تمليكهم الارض الموجودة في المدينة القديمة وبالتالى كانت هذه النقود بمثابة رأس مال ذى قوه تساعد على تشجيع الانتقال الى الضواحي الجديدة . وتسمح باعادة بناء شاملة للمدينة القديمة . وفي عام ١٩٥٢ ظهرت الخطة الشاملة الخاصة بالمدينة ، ومن خلال هذه الخطة صممت الحكومة تقسيمات مكانية للكويتين وقد حدد قانون ١٩٤٨ شروط المواطنة أو الجنسية ، وأوضاعها . فالكويتيين فقط هم الذين كان يسمح لهم بالانتقال الى المناطق السكنية الجديده خارج الاسوار أما المهاجرون فقط استمروا في الانتقال الى داخل المركز القديم وكانت النتيجه ان الكويت أصبح لديها ازدواجية في البناء الاجتماعي . والسكاني الامر الذى استمر الى يومنا هذا

والمهاجرون كما رأينا كانوا خليطا من الجنسيات ، وادوا ادوارا متنوعة داخل الاقتصاد الكويتي ولقد دفعت الحكومة بسخاء من أجل جلب المستشارين والتقنيين وغيرهم كما ساعدت على دخول عدد كبير من العمال للعمل في بناء الكويت تحديثة كذلك كانت هناك اعداد من المهاجرين الذين جاءوا بطريق غير قانوني ، ومعظمهم فقراء جاءوا بحثا عن فرص للعمل هذا ويمكن تقسيم المدينه الى ثلاث جماعات باوضاعها الاجتماعيه الخاصه اولها : المدينه القديمه والمناطق الاخرى التى غزاها المهاجرون وهذه مخصص بين المهاجرين ذوى المكانة الدنيا والمهاجرين

ذوى المكانة العليا ، مثل الانجليز والامريكان ، والاردنيين • والثانية : تضم المهاجرين الذين يعملون فى مهنة البناء ، والذين عملوا فى أعمال يدوية دنيا ، وعاشوا فى مواقع البناء (قبل أن تكتمل) ، أما المنطقة الثالثة : فهى التى يعيش فيها الكويتيون أنفسهم (١٢) •

وانه من الطبيعى أن هذا الانقسام قد خلق جملة من المشـــكلات الخاصة ، حيث أصبحت الكويت مطوقة بجماعات متجانسة ، ومتجاورة من العمال ، عراقيين ، ســعوديين ، فلســـطين ، هنود ، مصريين ، وباكستانيين • وهؤلاء بالنســـبة للكويتيين يعتبرون فقراء • وحينما تتضافر عوامل المرتبية Ethnicity ، والفقر فى تجمعات سكانية حضرية كثيفة ، فان الوضع يكون قابلا للتفجر (١٣) • وتعلمنا تجربة الكويت كيف أن الشعور بوضع أفضل لدى أناس من غير مواطنيها أصبح واضحا فى أماكن أخرى ، فهذه أبو ظبى Abu - Dhabi عند الناحية الاخرى للخليج تشجع الهجرة اليها على أمل أن يصبح المهاجرين يوما من مواطنيها اذا كانوا عربا •

ومن الامور التى حظيت بالاهتمام أيضا فى خطة ١٩٥٢ ، التكيف للسيارة ، خاصة السيارات الكبيرة الفارهة • فقد تم هدم الاسوار ، وظهرت فى المدينة القديمة ، والضواحى الجديدة شوارع واسعة ، واشارات للمرور حتى اثناء الليل • وأصبحت السيارات ، والفضاء ، (والفيلات) والطرق السريعة ، والمبانى الكبيرة ، بديلة للعلاقات الوثيقة ، والنظارة المحددة ، والقناعات ، ونفوذ الرجل ، والاطار الانسانى للعلاقـــات • فالسيارة ، والسيارة وحدها أصبحت موضع تفخيم ، حتى الان لا تزال

---

(١٢) Hill, A. G.: Aspects of the Urban Development of Kuwait, Unpublished Ph. D. Thesis, University, of Durham, 1969.

(١٣) Ibrahim, op. cit., p. 93.

لها السيادة فى الحضر • وقد وجهت كثير من الانتقادات لعملية هدم المبانى ، والمنازل التقليدية الجميلة فى المدينة القديمة ، خاصة وانهـــا قد استبدلت بنماذج ذات مستوى متوسط الهندسة المعمارية المعاصرة كذلك فان الطرق الواسعة ، والفضاء المفتوح ، واستخدام النمط المكشوف بشكل عام فى مناطق الجوار الحديثة يثير شعورا بعدم الراحة ، وبعض المنازل الحديثة (وليست المعاصرة) اقيمت حولها أسوار زجاجية ، وصممت بالطبع بواسطة أصدقاء لاصحاب مصانع أجهزة تكييف الهواء فالمهندس الذى يبنى أفرانا تعمل بالسولار فى الكويت ، والرياض مثلا ، ثم يقوم بعد ذلك بجلب مشروع كبير للتبريد حتى تصبح هذه الافران محتملة ، هذا المهندس لا يتعمد ـ بالضرورة ـ تعقيد المشكلة ، ولكنه يعمل دون المستويات المعاصرة فى الهندسة المعمارية (١٤) •

وكل منطقة للجوار فى الكويت لها مدارسها الخاصة ،ولها متاجرها ومساجدها التى تتوسطها ، وتتميز (الفيلات) الحديثة والتى يسكنها الاغنياء ، بأن لها نوافذ الى خارج المبنى تضفى عليها خاصية تختلف كلية عن المنزل التقليدى خاصة ، اذا نظرنا اليها من الخارج • ومع ذلك فان بعض الخواص التقليدية للسكن الخاص لا تزال باقية ، على الاقل تلك الاسوار العالية التى تحيط كل منزل ، وهى تعطى شعورا بالعزلة الذاتية لكل جزء • وفى غيبة الارصفة الجانبية فى معظم ضواحى الكويت ، فان هناك بالضرورة منطقة ترابية بين المنزل والشارع لا يمتلكها أحد •

---

(١٤) Fathy, H., Constancy, Transposition and Change in the Arab City; in: From Media to Metropolis, ed. L. Brown; Englewood Cliffs; New Jersey; 1973, p. 331.

طهـــــران : Tehran

ليس من الضرورى دائما أن نستخدم التكنيكات الاحصائية المعقدة لدراسة التغيرات الاجتماعية من جزء لآخر فى المدينة • ففى طهران يمكن أن نلاحظ تدرجا اجتماعيا على نطاق واسع ، فتوضح لنا جولة بالسير فى الاقدام من أحد جوانب المدينة للجانب الاخر ، ما يحدث من تفاعل بين الموقع ، والمناخ والوضع • وبين طبيعة المجتمع الذى تعامل مع هذه المتغيرات • ان هذه الجولة يمكن أن يقوم بها راجل قوى ، لديــه الاستعداد والمقدرة لعبور عشرين كيلو مترا من محطة السكك الحديدية ، حتى سطح جبال البورز Elburz • وان هذه الرحلة تتضمن تسلق (٣١٠٠) ثلاثمائة وعشرة أمتار ، ولكنه ضرب من الجنون القاسى أن يحاول احد القيام بهذه المغامرة صيفا • لقد بنيت طهران الكبرى على مستوى ارتفاع ألف ومائتى متر فى المتوسط مع انحدار خفيف يتجه للجنوب بدءا من جبال البورز • ويتسم المناخ بالتناقض بين الفصول فالخريف قصير ، والربيع قصير ايضا ، وهما يفصلان بين شتاء قارس البرودة ، وصيف طويل جاف وحار ومتوسط درجات الحرارة فى الجزء الجنوبى للمدينة هو (٣٠) ثلاثون درجة فى يوليو ، مقابل (٢٣) ثلاثة وعشرين درجـة فى الضواحى الشمالية • وفى الشتاء يكون متوسط درجات الحرارة ما بين (١ ــ ٥) درجة مئوية •

والى جانب البرودة فان من مشكلات الرئيل فى الشتاء تلك الطريقة التى يزيل بها الناس الثلج من فوق أسطح المنازل ، فتراهم يهيلون الجارف بالثلج ، ويقذفون به للشارع من ارتفاع أربعة طوابق بطريقة عشوائية أما الصيف فحار جدا ، ويزيد الامر سوءا نمط الحياة اليومية بالنسبة للعاملين بالمكاتب ، الذين يعملون لعدة ساعات فى الصباح ، ثم يعودون للمنزل ، ثم يعودون مساءا • ولهذا فانهم يتسببون فى أربع فترات للذروة فى المرور يوميا • ولنــــا أن نتصور ما ينشأ عن ذلك من ضغوط ، ويهرب

البعض من الحرارة في الدورات المسائية بركوب الحافلات ، أو السيارات الى موقف عام في الشمال • وكذلك فان واجهات المنازل تساعد الريح على الاندفاع عبر المنحدر • لذلك فان الوجهة المحببة للمنازل هي أن تكون على زاوية قائمة مع انسياب الهواء وتميل معظم شوارع الضواحي للانحدار من الشرق الى الغرب ، وتتخلل شبكات الشوارع المتجهة من الشمال الى الجنوب • ومعظم المنازل الفارسية التقليدية تشتمل على ابراج للهواء تجذب النسيم لداخلها • أما المنازل الحديثة فانها يجب أن تشتمل على خلفيات زجاجية ، وعاكسات للضوء ، أو الحرارة ، كما لا تخلو من الصوت الدائم لاجهزة تكييف الهواء ، والمراوح •

ان ايران مجتمع راسمالي ، فالشاه هو رئيس الدولة ، والحاكم ومع ذلك فالصناعة الكبرى فيها . وهي النفط ، ملك للدولة • كما ان للدولة تاثير متزايد في دفع عجلة التنمية الاقتصادية • وهكذا فان قوة الحكومة فيها على عكس لبنان • والمنافسة الحرة للحصول على مواقع مرغوبة في المدينة ، قد انعكس في ظهور مناطق تتمتع بتخصص وظيفي واضح (١٥) فقد وصلت أسعار الارض في حي الاعمال المركزي ذروتها ، ولكن القيمة العامة للاراضي السكنية ، قد تزايدت بشكل تدرجي من جنوب المدينة الى شمالها • ولكي تدخل المدينة من الجنوب فان ذلك يعني انك تدخلها من أفقر مناطقها •

ان منطقة جنوب طهران هي التي تستقبل الفقراء المهاجرين ، وليست هناك مناطق يسكن فيها الناس ، حتى العشش أو الاكواخ كما هو

---

(١٥) Bahrambeygui, H. Tehran: An Urban Analysis, Uapublished M. A. Thesis, Unizersity of Durham, 1972.

الحال فى كثير من المدن سريعة النمو ، لكن المبانى تتكون فى هذه المنطقة من طابق أو اثنين فقط ، وبناؤها غير جيد ، ومكدسة ومتلاصقة • أما مناطق الفضاء المفتوح التى تستخدم للترويح فقليلة ، رغم أن الحكومة تحاول علاج هذا الوضع • وتغلب القذارة على الشوارع ، والارصفة مكدسة ومليئة بالضجيج ، وبالصراخ المرتفع من جانب الباعة الجائلين • ولا توجد أشجار الا فى الميدان الذى بناه رضا شاه عام ١٩٣٠ • والمتاجر صغيرة وبها كميات ، وانواع من السلع تلائم الدخول المنخفضة للسكان وهناك عدد من الاسواق المفتوحة للهواء الطلق ، وتباع فيها الخضروات التى تنتج فى سائر أنحاء الدولة • ومع ذلك فالجنوب هو أكثر أجزاء المدينة محافظة ، ففيه ترتدى جميع النسوة ذلك الرداء الذى يغطى الجسد من الرأس الى القدم ، والمعروف باسم « شادور Shador » ، والصوت الصادر عن مكبرات الصوت المعلقة على المساجد يمكن أن يسمع فى كل مكان وفى هذا الحى يحظر على المتاجر بيع الخمور على الاطلاق •

وكلما اتجه الانسان شمالا داخل حدود مدينة القرن التاسع عشر، واقترب من حى الاعمال المركزى ، فانه يرى أن المبانى اكبر ، واكثر فخامة ، ومع أن السوق تصدر عنها رائحة البذور والغلال ، الامر الذى يعطى انطباعا معينا عن ارتفاع عائدات التجار ، الا ان الاعمال الكبرى فى الواقع تتم فى المجتمعات ذات الابراج ، والهيبة فى الجانب الانيق من المدينة • وأبعد من ذلك مانه خلف السوق ، وفى موقع قصر كاجار Qajar Palace • توجد مبان لعدد من الوزارات ــ العدل والمالية ــ كما توجد مكاتب وكراسى على الارصفة المبلطة ، وعليها توجد الات كاتبة واكواب من الشاى ، فى انتظار الاميين الذين يحتاجون لملء استمارات ، أو كتابة رسائل ، او خطابات •

وبعد ذلك نجد حول ميدان « حسافظ » مجموعة من السفارات والادارات ، ونجد أن السفارة التى اختارت مواقعها فى القرن التاسع عشر

تشغل مساحات أكبر من الارض ، حيث أن هذه المنطقة كانت ضمن ضاحية خارج اسوار المدينة حتى بداية القرن الحالى • فالسفارة البريطانية ، والسوفيتية لكل منها حديقة كبيرة مليئة بالاشجار ، وعلى شكل يتلاءم مع قوة هاتين الدولتين فى القرن الماضى • وخلف هذه المنطقة فان هناك تحولا من مدينة رضا شاه الى طهران الجديدة • وهنا تجد الجزء الخاص بحى الاعمال المركزى ، حيث توجد المكاتب المالية ، وقيادات « شركة النفط الوطنية الايرانية » ، والفنادق ، ودور السينما ، ومعظم مكاتب شركات الطيران • وفيها أيضا توجد الخدمات التى تقدم للاثرياء الاجانب ، مثل محال بيع الفطائر الدانيمركية ، والاسواق العامة Super Markets ومحـــال المشروبات الروحية ، والنوادى الليليـة ، ومكاتب ارشـــاد السائحين • والناس فى هذه المنطقة يرتدون ملابس غربية •

وعند أعلى أجزاء التحدر من هذا الحى تبدأ مناطق الطبقة الوسطى فى طهران وفيها نجد أن قيمة الارض فى المناطق السكنية منخفضة عما هو موجود فى أقصى الجنوب ومع ذلك فان أسعار الارض فى الشوارع الرئيسية مرتفعة جدا ويغلب على هذه المنطقة وجود مبان من أربعة أدوار مقسمة الى شقق ، ووجود منازل كبيرة ، وأشجار غير ناضجة • واسطح المنازل بيضاء على عكس اللون القائم فى الاحياء الجنوبية • وان النمو فى هذا الجزء من المدينة بعد الحرب العالمية الثانية يتخذ مسلكين رئيسيين ، يؤديان شمالا الى حى شيرميران Shermiran • وهو حى فى أقصى الشمال • أما النمو اللاحق فقد عمل على شد الثغرات الموجودة ، ومن هنا فان المدينة تبدو وحدة بنائية تمتد من الصحراء الى الجبال • واذا كانت المنطقة المركزية من طهران ، والتى تنتمى للقرن التاسع عشر ، وتسكنها الطبقة الوسطى ، تنطوى على سحر الاجزاء الجيدة من المدن الاوربية • بفناءاتها المورقة ، فان الاحياء الشمالية تشبه الى حد كبير المدن الامريكية الحديثة ، لما تشتمل عليه من طرق سريعة تؤدى بالانسان خارجها الى الصحراء ، فضلا عن مبانيها العالية ، وشمسها الساطعة • وعند سفح

تلال توكال Tochal بقممها التى تبلغ (٣٨٠٠) ثلاثة الاف وثمانمائة متر ، وتناهز خط السحاب من الشمال ، فى هذا المكان توجد الجامعة الجديدة ، وفندق شيراتون , وهيلتون ٠

وان من يستطيع أن يدفع تكلفة الاقامة فى هذه المنطقة ، فانه سوف يستمتع بأوجه الترويح الخاصة ، كالانزلاق على الجليد شتاء فى شالوز Chalus ، أو القيام برحلات فى الاغوار الدافئة عند بحر قزوين ٠ ومن اعلى هذه التلال يرى الناظر الى المدينة قصر الشاه ٠

الفصل الثامن

خـــــــــاتمة (*)

لقد افترضنا فى الصفحات السابقة أن البحث عن تفسير التحضر الاجتماعى يوجب الاشارة الى وظيفة المدينة أو مجموعة الوظائف التى تقوم بها • فقد كان التطور الحضرى للمدن قبل الصناعية فى الشرق الاوسط تطورا داخليا ، مبعثه حاجة محلية أكثر من كونها ضغوطـا استعمارية مفروضة عليها من الخارج • فالمدن الكبرى والشهيرة كانت لها علاقات تجارية فى العالم القديم • الا أن سكان اسطنبول أو القاهرة أو دمشق أو بغداد لم يعيشوا على تجارة التوابل أو الاحجار الكريمة أو السلع المصنعة ، بل انهم كانوا يتعيشون عن طريق استغلال اراضيهم الزراعية • واتضح لنا فى التحليل الاخير أن ثروة هؤلاء الفلاحين كانت تتجمع من استغلالهم لاراضيهم الموجودة بالمدينة أو حولها حيث يجمعون ثروتهم الحقيقية ، وكانوا ينفقون هذه الثروة فى مجالات الترف والرفاهية • وفيما عدا الاراضى الموجودة على طول نهر النيل كانت المدن تقع فى مراكز تتم فيها الزراعة المكثفة ، حيث تتاح المياه وتكون الارض صالحة للزراعة • وهذه المناطق يفصل الواحدة منها عن الاخرى جبل أو صحراء متناثرة • وكانت كل مدينة تقوم فى الغالب بوظيفتها • باعتبارها مكانا مركزيا يمد خدماته للمناطق المحيطة • ويمكن أن تكون هذه الخدمات فى شكل سلع مصنعة يدويا او فى شكل أمن عسكرى تدعمه القلعة •

ومدينة كاشان التى تقع فى مركز ايران هى جزء من نسق اقليمى عالى التنظيم للاستيطان ، تدعمه الاتصالات المستمرة بين اجزائها • ففى هذا النمط من المدن الايرانية يتكون الترتيب الهرمى الاجتماعى فى منطقة

(*) قام بترجمة هذا الفصل والتعليق عليه الدكتور غريب سيد أحمد

المدينة من طبقة عليا من الموظفين سكان الحضر ، ومن صناع السجاد ، وملاك الارض ، والتجار ، والصيارفة وبعض رجال الدين • وهذه الطبقة تدعم سيطرتها الاقتصادية والاجتماعية على جمهور الشعب غير المتعلم من خلال التحكم فى الماء والارض والقروض المالية • ويوجد بناء اجتماعى متشابه فى القرى ولكنه اقل اتساعا من السائد فى المدينة ، وفى كثير من الحالات ليس من السهل التمييز بين المدينة والقرية من حيث الوظيفة أو البناء الاجتماعى أو المورفولوجية الطبيعية (١) •

ففى منطقة مثل كاشان يتشابه سلوك ملاك السجاد وجــامعى الضرائب والصيارفة فى المدينة وفى القرية ، وتدخل نسبة عالية من سكان الحضر فى مهنة الزراعة التى تعد مهنة القطاع الريفى للمجتمع • وحتى

---

(١) المورفولوجيا الاجتماعية Social Morphology تشتمل على دراسة جغرافية البيئة وسكانها وعلاقة ذلك بالتنظيم الاجتماعى ، وعلى دراسة السكان من حيث التخلخل وتوزيعهم على مساحة معينة من الارض ، وتوضح المورفولوجيا الاجتماعية ، الطريقة التى يتجمع بها الافراد بعضهم مع بعض ، اى أنها تشرف على تنسيق التكتل نفسه ، كالمناهج الاجتماعية التى تنجم عنها ظواهــر التكاثف والتخلخل فى السكان بالنسبة الى المساحــة التى يشغلونها ، وكالقواعد التى تنظم شئون الهجرة من القرى الى المدن ومن المدن الى القرى ومن الدولة الى خارجها ، لان الهجرة من الامور التى تطرا على التكتل نفسه فتغير من أوضاعه ، وكالتنظيم التى يسير عليها المجتمع فى انشاء مواطن التجمع كالقرى والمدن والمساكن والطرق التى يتبعها فى تصميمها واشكالها ومرافقها ووظائفها ومواقعها بالنسبة الى الجبال والبحار والانهار والبحيرات ، وجميع ما يتصل بهذه الشئون •

= (أنظر : على عبد الواحد وافى ، علم الاجتماع ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ١٩٧٩ ، ص ٦ •

فى ايران فان النظرة التاريخية لا تفرق بين اقليم معين وبين مكنـــة الاساسى ، ولا تتعدى هذه التفرقة مجرد أسمائها المعروفة بها ، فليس هناك شك فى أن التفرقة بين المدينة والقرية ، أو بين سكان المدينـــة والبدو ، كانت متمثلة فى عقول الناس ·

وتتركز الحياة فى مدينة الشرق الاوسط قبل الصناعة على عائلة الشخص ، ودينه ، وجماعته القبائلية المتسعة ووسائلها فى الحصول على متطلبات الحياة ، بحيث تعتمد فى المدن الاصغر — عامة — على الزراعة ومن خلال هذه المظاهر لم تكن مدن الشرق الاوسط قبل الصناعية تتميز عن غيرها من مدن العالم القديم ، اللهم من حيث كونها جزءا من نسق اجتماعى أوسع هو ما يطلق عليه العالم الاســـلامى ، هذا النسق الذى شكل العلاقات الشخصية والعائلية وكذلك الشكل الطبيعى للمدينة وبناءاتها الحكومية والسياسية ·وهناك مظهرين للمدينة الاسلامية يمكن أن يسهما فى توضيح تاثير الدين على شكل المجتمع وتاثيره المستمر فى الوقت الراهن وهما : الحكومة ودور المدينة كمركز للنظام الدينى ·

فالايديولوجيا الاسلامية تؤمن بالمساواة بين البشر ولكن ليس بالضرورة أن تكون ديموقراطية · ويحتاج هذا التمييز الى تاكيد طالما أن هناك خلط بين الاتجاه الخاص بالمساواة Egalitarianism والاتجـاه الديمقراطى فى الفكر الغربى · فالاسلام ينظر الى الناس على انهـــم متساوون عند الله ، وليس هناك جزء من المجتمع يستطيع أن يدعى تميزه أو وجود مسافة اجتماعية بينه وبين الاخرين باستثناء سلالة محمد (ص)، ولذلك كانت الدولة الاسلامية التقليدية تحكم عن طريق صفوة قليلة تكرس ذاتها الدفاع عن القانون والنظام ، والاستعداد لبعض الخدمات العامة الاولية وجميع الضرائب من القادرين لكى يستطيعوا انجاز هذه الوظائف· ولم تكن هناك دولة مدينة موحدة فى الاسلام ، كما لم تكن هناك دولة يمارس فيها الشعب الحكم · ويقوم رجال الدين الاسلامى الحـــكماء

بتوضيح القانون والنظام على أنها فضائل مدينـــة أساسية ، كبديل للفوضى التى كان يعانى منها الكثيرون • وكانت الوحدات المعروفة التى تجمع بين الاسرة والدولة هى فقط الجماعات العرقية Ethnie والدينية • وبدون اية مراجعات أو موازنات داخل الدولة ، تتجه السلطة التقليدية الى أن تصبح استبدادية ـ ذلك التقليد الذى استمر حتى الان (٢) •

وتتضح أهمية المدينة كمركز للنظام الدينى من خلال التاكيد على

---

(٢) ان المؤلف فى هذه الاراء يجانبه الصواب • فالإسلام ، بالاضافة الى تاكيده على المساواة بين الناس « لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى » ، فانه يؤكد أيضا على مبدأ للشورى فى الحكم واتخاذ القرارات • وهذا المبدأ هو ما يطلق عليه بالاضـــافة للدنيـــة مبدأ الديموقراطية • ويمكن الاستدلال على حجية الشورى من القران الكريم والسنة الشريفة •

فنى القران وردت ايتان :

الاولى : قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » •

والثانية : قوله تعالى فى سورة ال عمران « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنــكر وأولئك هـــم المفلحون » •

أما عن السنة ، فقد روى عن الرسول (ص) قوله :

« ما ندم من استشار ، ولا خاب من استخار » •

وروى عن أبى هريرة أنه قال : « لم يكن أحد أكثر مشورة لاصحابه من رسول الله » • والواقع أن كتب التاريخ والتفسير والحديث زاخرة بالامثلة الدالة على أن الرسول (ص) كان يكثر من مشورة أصحابه •

(انظر : عبد الحميد متولى ، « مبدأ الشورى فى الاسلام » ، محاضرة عامة ، جامعة أم درمان الاسلامية بالسودان ، ١٩٦٩ ، ص ٦ ـ ٧) • (المترجم)

قدسية الاماكن ، سواء اليهودية أو المسيحية أو الاسلام . وبالتالي تصبح مدينة القدس ومكة والمدينة المنورة هي أماكن ينظر اليها الناس بعين الاحترام والورع في تاريخ العالم . وليس من المدهش ان كانت هذه المدن وما زالت مركز الاهتمام الديني والعاطفي والسياسي . وينظر الى المدن التي دفن فيها مشايخ المسلمين وأئمة الاسلام ـ مثل مقبرة الامام رضا Reza في مشهد ـ بعين التبجيل والاحترام كما أن مقابرهم هنا الحج اليها . ففي الوقت الحاضر يزور حوالي ٩٠٠ر٠٠٠ حاج مدينة مكة كل عام . ويقضي القرآن الكريم على أن كل مسلم قادر يجب أن يحج مرة واحدة على الاقل خلال حياته (٣) . وتعتبر ادارة الاماكن المقدسة في القدس احدى أوجه النزاع القائم بين العرب واسرائيل ، كما كانت منذ الحروب الصليبية المسيحية .

ولقد حدثت تحولات في مدينة الشرق الاوسط الاسلامية التقليدية عن طريق المشروع الرأسمالي ، الذي بدأ من القرن التاسع عشر واستمر خلال القرن العشرين ، عن طريق الدولة العثمانية والنمو السكاني المتزايد ورغم ان المركز الاقليمي مازال يقوم بوظيفته كمكان مركزي للمناطق المحيطة به ، فلقد تغيرت وظيفة المدينة وحدودها وعلاقتها بالمنطقة المحيطة من

---

(٣) قال تعالى : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضـــوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » .

(سورة الحج ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩)

هكذا أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ابراهيم عليه السلام ـ باني البيت ـ وما يزال وعد الله يتحقق منذ ابراهيم الى اليوم والغد .

(المترجم)

كونها منطقة تقوم على الإكتفاء الذاتى الى العمل على الوفاء بمتطلبات الاقتصاد الموجه نحو التصدير • وفى الريف تحطمت الملكية الجماعية أو ملكية القبيلة للارض فى ظل السوق الجديدة للارض ، هذا الذى يعطى المشايخ حقوق اغتصاب الارض • وقد حدث مثل هذا فى المدينة ، حيث أصبح سوق الارض الحضرية هاما لاول مرة • حيث بدأ الاغنياء من سكان المدينة فى البناء خارج أسوارها ، بينما فى داخل المدينة القديمة التى تعتمد مجتمعاتها على التكوين القبـــائلى أو العائلى الذى فقدت هذه التنظيمات مسئولياتها الجماعية فى المحافظة على النظام ووظائفهاكوحدات ضرائبية • وكمثال على التغيرات نحو القيم العلمانية واخلاقها التى حلت محل الاطار الاسلامى للمجتمع الحضرى يمكن ملاحظة قواعد السلوك القائمة فى الاعمال التجارية قبل القرن العشرين • فالعمل التجارى فى بزارات تركيا وايران ينظم بقواعد دينية تحدد مبادىء الاخلاق التى ينبغى على التاجر أن يأخذ بها ، وموجه دينى يعطى النصيحة ويحكم فى المنازعات وفى الازمنة الحديثة حلت التشريعات الحكومية محل هذه القواعد ، ولكن هناك ادعاءا بأنها تشريعات ذات أصول دينية الا أنها تطبق الان عن طريق السلطة العلمانية •

ان التغيرات البطيئة فى البناء الاجتماعى والفيزيقى للمدن الكبرى فى ظل دوافع النمو الاقتصادى والاستقلال السياسى قد تم تجاوزه عن طريق التزايد فى سكان الحضر ، وهذا يرجع الى النمو الطبيعى والعدد الكبير من المهاجرين من المناطق الحضرية بعد الحرب العالمية الثانية • فلقد جاء المهاجرون بتقاليدهم من حياتهم الريفية السابقة التى أضيفت الى أساليب الحياة الحضرية ولكنهم لم يستغرقوا فيها مباشرة •

ويتمتع المهاجرون الى المدينة عـــادة باستعدادهم لعقد اتصالات شخصية ، تعلوا فوق المعاملات التجارية التى تربط القرية بالمدينة • فقد يكون لهم أقارب يعيشون فى المدينة ، وربما كانوا بدويين أو قرويين

سبقوهم الى الهجرة ، وبالتالى فبعض سكان الحضر يزورون الريف للترفيه ، أو لرؤية أقاربهم ، أو للهروب من حرارة الصيف • والسبب فى حركة الناس دائما الى المدينة يعتمد فى بعض الاحوال على الثورات السياسية التى هى حالة عادية خلال القرن الحالى ، وفى حالات تعتمد الهجرة على ما يكمن فى حياة المدينة والعمل بها من عوامل جذب ولكن فوق كل هذا جماهير المهاجرين يهتمون بذلك كرد فعل للضغط العنيف لسكان الريف على منابع الثروة المحلية • ورغم تعرضهم للمرض والكوارث فان الفلاحين فى الشرق الاوسط يحققون نموا عـــددیا سريعا ، الا أن الارض المتاحة والماء لا يواكبان هذا النمو ، رغم الجهود الحكومية فى اصلاح الريف • ولمجرد وجود المهاجر فى المدينة فانه يتحرك من منطقة لاخرى • وهذه الحركات تكون استجابة للتغيرات التى تحدث فى المكانة المالية للمهاجر • ولمجرد أن يعمل المهاجر بطريقة حسنة فى المدينة فانه يصبح أفضل حالات ويتمكن من طرائق حياة الحضر وتصبح هذه التغيرات الداخلية بمثابة علامة لحدوث التحضر الاجتماعى •

ويتبقى التأكيد على أن الزيادة الطبيعية للسكان لها أهمية تماثل أهمية الهجرة على الاقل فى نمو سكان الحضر فى الشرق الاوسط — على العكس من المناطق الاخرى مثل أطراف صحراء افريقيا sub - saharan Africa ويتبع ذلك أن التوازن بين معدلات النوع (ذكور ، واناث) فى مدن الشرق الاوسط أقل قدرا عما هو الحال فى افريقيا الاستوائية ، باستثناء بعض المدن مثل عمان والكويت وكذلك السكان أقل ترحالا • وفى العـــالم الاسلامى تعمم ظاهرة التبعية المستمرة للمرأة وتعطى ميزة فقط من الناحية الجنسية والانجاب (٤) ، وان الاختلافات الديموجرافية بين المدينة والقرية

---

(٤) هذه مغالطة • فلقد كانت المرأة قبل الاسلام عبدا يتخلص منها أبوها =

قد تكون اقل في هذا العالم الاسلامى عما هو الحال فى بقية مناطق العالم · ومن ثم فلا يتكون سكان الحضر من الجيل الاول من المهاجرين · بمعنى اخر ، ما هي الخاصية التى تميز الحضر ومن يعيشون في المدن ـ أو ما هي المتطلبات التي تجعلنا نطلق على منطقة ما كلمة « حضر » من حيث

وأولياؤها بوأدها ، أي قتلها حية · وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك :

« واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم · يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » · (النحل ٥٨ ، ٥٩) ·

وجاء الاسلام ليحرم هذه العادة التى تقلل من مكانة المرأة · وفى القرون الوسطى استبدت الغير على المرأة واشتد سوء الظن بخلقها وطبيعتها ، فحرمت الظهور فى المجتمعات ، وشاعت عادة أقفال العفة ، وهو أقفال من حديد ركبت فى احزمة خصصت لتلبسها النساء حول حضورهن اذا غاب عنهن أزواجهن فى سفره ثم تغلق بمفاتيح يبقيها الزوج معه لا تفارقه لحظة · جاء الاسلام ليضع المرأة الى جانب الرجل تماما ، فجعل لها من الحقوق ما له ، وكلفها مثله بالتكاليف الدينية والمدنية ، فهى ترث كما يرث ، وتملك كما يملك وتبيع وتشترى ، وتهب وتوصى ، وتؤجر وتوكل ، ولها ان تزوج نفسها اذا بلغت من الرشد ، ولا يجوز لوليها أن يزوجها على عكس ارادتها ، أو يزوجها قبل أن يعرف رأيها · (فتحى رضوان ، الاسلام ومشكلات الفكر ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٣ ، ص ١٩٥) وفى الحديث :

« لا تنكح الايم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن ، ان الثيب أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأمر وسكوتها اذن » ·

ويوصى الاسلام بالنساء خيرا ، ويدعو الرجل الى أن يكون خيرا بأهله ، وفى هذا قال رسول الله (ﷺ) :

« استوصوا بالنساء خيرا ، فان المرأة خلقت من ضلع ، وان أعوج ما فى الضلع أعلاه ، فان ذهبت تقيمه كسرته ، وان تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء » (متفق عليه) (المترجم) ·

التفسير السوسيولوجى اكثر من التفسير الديموجرافى أو الجغرافى ؟ .

وهناك تركز سكانى كبير فيما يمكن وصفه بانه الاستيطان الدائم الكثيف نسبيا لافراد متغايرين اجتماعيا ، الا ان هناك اشارة ضئيلة للاغتراب واللااسمية الذى افترض بعض علماء الاجتماع أنه نتيجة حتمية للنمو السريع المتشابه لنمو الحضر فى الغرب فى القرن التاسع عشر . فالشرق الاوسط يختلف عن امريكا القرن التاسع عشر فى وجود الحياة الحضرية التقليدية الخاصة به . وفى وجود الظاهرة الخاصة فانه كلما كانت المدن اكثر كوزموبوليتانية فانها تحافظ أكثر على مركز او مكانة معينة للسكان الوطنيين أو الاصليين . ولذا فسرنا ذلك فى ضوء عدد السكان فان التراث الحضرى قبل الصناعى تكون له أهمية مباشرة فى المدن ذات المركز القديم ولكن كلما نمت المدينة أصبحت المناطق القديمة مجرد أجزاء من الكل خاصة ، عندما أشتد التاثير الاستعمارى وتزايدت المدن الجديدة . يضاف الى هذا أن الأهالى هم المهاجرون جلبوا معهم طرائق واساليب تقليدية استمرت مؤثرة فى حياتهم . وكذلك ففى كل مراحل الحياة الحضرية يوجد الاتصال الشخصى . وتصبح اللااسمية مشكلة قوية ، سواء بالنسبة للاغنياء الذين تتطلب أعمالهم أن يكونوا معروفين عن طريق اسم عائلتهم الخاصة ، أو بالنسبة للمهاجرين الفقراء الذين يعيشون مع أصدقائهم أو أقرانهم القرويين . وبهذا يمكن تحديد الدور الذى يلعبه المهاجر الاولى فى عمليات التغير الاجتماعى . والمدينة تبدو على أنها المكان الذى يشجع هذه العمليات . وعلى الرغم من تحسين الاتصالات بين المدينة والقرية ، الا أن هذه العمليات سوف تكون اقل وضوحا فى المستقبل .

ويعتبر الدين مثالا جيدا كمظهر من مظاهر التغير الاجتماعى ، اذ أن الحركة الى المدينة تصاحبها تغيرات فى العادات الدينية باستمرار . فقد يصلى الانسان خمس مرات فى اليوم كما هو مفروض . وربما يصلى

الانســـان مرتان فقط بسبب الضغوط المفروضة على وقته فى المدينة • ومع ذلك ليس هذه سمة حضرية ، فالبدويون والقرويون قد يهملون بعض الاوقات الخاصة بالعبـادة بنفس الطريقة • ان التغيرات الكبرى فى التنظيم الدينى تنفذ عن طريق الدولة أكثر من كونها نتيجة لحركة السكان من مناطق أصغر الى أخرى أكبر • فلقد مزجت حكومات القرن العشرين بين الاتجاهات والدين الا أن أغلبها خفف من قوى الوظائف الدينية • فتركيا مثلا لم تدعم الدين ، واوقفت مؤسسات التعليم الدينى • الى جانب الغاء ممارسات معينة ترتبط بالاسلام ، ولكنها ليست أساسية فيه مثل تحجب النساء وعلى العكس من ذلك دعمت ايران المذهب الجعفرى، وطائفة الشيعة كمذهب دينى رسمى الى جانب الابقاء على حجاب النساء وممارسات أخرى • كما حظيت طبقة العلماء Ulama فى ايران بمكانة ثابتة وقوية على يدى رضا شاه ، رغم انه كان قد لقى منهم لوماشخصيا فى احدى المناسبات فى مدينة (قم) ، وكان هذا الموقف من جانبهم قد ترك لديه انطباعا بعدم احترامهم •

وليس هناك مستوى دينى محدد يمكن أن نقول بان خروج المهاجرين عليه يعتبر انحرافا • فالاسلام يتضمن تنوعا واسعا للتعبير الدينى ، اذ ترتبط المدارس التقليدية للشرع والمعاملة ، والتراث الغامض بالبـدع • فالمدينة الكوزموبوليتية كاريين Carienę تتكون عموما من تابعـين متزمتين للمذهب الوهابى الذى جاء من السعودية • واكثر من ذلك ، يجب التمييز بين المذهب والدين Sect & Meligion وخاصة فى لبنان حيث يعتبر كل مذهب سمة منظمة للحياة الاجتماعية والسياسية •

ومن ناحية أخرى ، فهناك عدد من المتغيرات الاجتماعية التى تخلل المجتمع الريفى والحضرى بادئة من المدينة • ويحتمل أن تكون المرأة قد عانت فى الماضى من قيود المدينة التقليدية اكثر من القرية ، والان يحدث العكس • وهناك شواهد على أن المهاجرين لديهم اتجاهات ايجابية نحو

تحرير المرأة بعد الانتقال للمدينة اكثر من ذى قبل • ومع ذلك فالقيم التقليدية لشرف العائلة ما زالت باقية وقوية ويمكن ملاحظتها ، رغم ما تحدثه الهجرة لمسافات بعيدة واتساع نطاق الاتصالات العائلية من اثار تفككية • وفى كل من المناطق القديمة والجديدة فى مدينة مثل اصفهان تقتصر المنازل على العديد من اسر الاقارب حتى وان لم يكونوا مقيمين فى مبنى واحد • فالنماذج الاجتماعية التقليدية يحافظ عليها ويتم دعمها لدى بعض جماعات المهاجرين ، ومثال ذلك المهاجرين القبائليين من العمارة الى بغداد ، وهم الذين يعملون فى المدينة ويصبحون موضوعا للايقاع والضغوط الخاصة بالتوظيف الحضرى ، ولكن حياتهم الاجتماعية والقبائلية والدينية مازالت موضع محافظـــة ولم تتسبب المدينة فى تغييرها • فانتقال التقاليد العائلية والقبائلية من القرية أو الصحراء الى المدينة يشتمل ايضا على اساليب الحياة الشخصية فى بعض الاماكن • ففى الكويت يتم استقبال الزائرين من خارج اطار الاسرة كضيوف فى اطار طريقة السلوك الصحراوية التقليدية ، بينما لكل مكان فى الشرق الاوسط ــ تقريبا ــ أسلوبه التقليدى فى التحية والسؤال عن صحة وأحوال الفرد وعائلته ، والرد على ذلك بأسلوب مماثل • فالزائر لمكتب حكومى معين غالبا ما يقدم له الشاى او القهوة أو المرطبات مثلا •

ومع ذلك فانه بعيدا عن المستوى الشخصى فاننا نجد هناك جوانب أخرى قد تغيرت بفعل اعادة بناء الاقتصاد الحضرى ، فتركز السكان فى مراكز قومية قليلة هو نتيجة مباشرة للوظائف الجديدة للمدن ، بينما اصبحت هذه المراكز عوامل ربط بين القرية والدولة ، والنسق الشامل للعلاقات الاقتصادية التى تفوق الحدود الوطنية ، ذلك النسق الذى سيطر عليه المشروع الحر واقتصاديات السوق المباشرة للغرب بعد الحرب العالمية الثانية • ولقد ظهرت وظائف حضرية جديدة وأدت دورها من خلال نمو القطاع المختلط Corporate للاقتصاد ، ذلك القطاع الذى كان مرتبطا باقتصاد الشارع الذى يخضع للصدفة وكذلك اقتصاد تجارة الاسواق

الشرقية والخيرية (بازار) واقتصاد الانتاج من أجل تجارة التجزئة . ويعكس البناء المهني المدن نحو قطاعات جديدة ويعطى بعض الاطر التي تحدد التكوين الطبقي ، وما يرتبط به من وجود طبقات عليا ووسطى ودنيا ولكن نعود هنا مرة أخرى الى الافكار التقليدية عن المكانة او مطالب التعليم التى تعكس الصورة ، بينما هناك محاولات واضحة للحكومات العربية الاشتراكية مثل سوريا وليبيا لازالة الجوانب المختلفة لهذه الصـــورة تمـــاما .

" وبناء على ما ناقشناه آنفا ، فاذا أصبحت الدولة الان محركا اوليا في التغير الاجتماعي ، فسوف يعمل التركيب السياسي للدولة على تحديد اتجاهات التغير الاجتمـــاعي . وقبل أن نشرع هذه النقطة عن المناسب وضع تحضر الشرق الاوسط في سياق اكثر اتســـاعا وشمولا وذلك بمقارنته مع الخبرة الحضرية لاقاليم العـــالم الاخرى . وسوف نضع في الملاحق مادة علمية عن التحضر الطبيعي . ومن الممكن ملاحظة أن التحضر الفيزيقي في الشرق الاوسط على مستوى أدنى بصفة عامـــة عما هو الحال في امريكا اللاتينية (ففي البرازيل مثلا يعيش ٥٦٪ من السكان في مناطق حضرية) ، الا أنه على مستوى أعلى عمـــا هـــو الحال في أطراف صحراء افريقيا ، بحيث يعيش حوالى ١٥٪ من السكان في المناطق الحضرية . ويختلف دور المدينة في افريقيا عن الشرق الاوسط فالنمو الحضري الافريقي المعاصر وقف على تدفق سكان الذين يرحون ويجيئون بين القرية والمدينة (٥) ، والذين يحافظون على ارتباطهم الوثيق بالقرية . ولا تتحمل المدينة او الدوله مسئولية للتغير الاجتماعي ولكن هذا رهن بتأثير القوى الاقتصادية الخارجية . وتنجز المدينة الافريقية الحديثة وظائف ليست جوهرية بالنسبة اليها ، ولكنها تنشأ من نسق عالي

---

(٥) Little, 1974, op. cit.,

واسع للعلاقات التجارية الدولية . وبالتالي فسوف تصل المدن بجهدها الى الشخصية المدنية حتى اذا كانت للشركات القائمة بها هوية تنظيمية بنائية وتمارس قوى محلية . وهناك موقف مشابه في جنب اسيا وفي الجنوب الشرقي من اسيا ، رغم أن لهذه المناطق تراث طويل في الحياة الحضرية ، وهكذا تستمر البلدان الغير شيوعية ببناءات اقتصـــادية استعمارية متوارثة ، والتخصص في انتاج المواد الخام من أجل احتياجات قوى الانتاج في الميتروبوليتان (٦) .

وتقوم المدن الكبيرة بدور نقاط الاتصال بين البلدان الصناعيـــة ومنابع المواد الخام التابعة لها ، وبالرغم من انخفاض معدل اجمالي السكان الذين يعيشون في مناطق حضرية نسبيا ، فان حجم المـــدن الرئيسية يفوق العـــادة ، اذ يعيش اكثر من ٦ مليون مثلا في جاكرتا ومانيلا . ومع ذلك فان ثمة شك في أن غالبية سكان الحضر في اسـيا متحضرين من الناحية الاجتماعية ، اذ يمكن وصف المدن على انها تكتلات لجتمعات شعبية وأن القسم المتحضر فيها صغير نسبيا . كما أن التفاوت بين أقاليم العالم يؤكد على أن المدن في العالم الثالث تمثل نمطا متميزا عن تلك الانماط التي تسود المجتمع الغربي الصناعي أو الكتلة الشيوعية . وكلما ازداد تصنيع المدن أصبحت متشابهة في كثير من مظاهر بنائها الاجتماعي ، طالما ان التعقيد المتزايد للتكنولوجية الحديثة يتطلب تحديدا

---

(٦) المدن ذات الطابع المتروبوليتي هي عباره عن مراكز لمجتمعات محلية اكبر من الناحيه الايكولوجيه يطلق عليها اسم المنطقه المتروبوليتيه ولهذا ينظر لهـذه المنطقه على انها مركز للسيـــاده أو السيطره على منطقة واسعة مكونة من مدن صغيرة ويمكن ان ينضم الى نطاقها عدد من المدن الريفية والقرى أيضا .

(أنظر : محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع الحضري ، دار الكتـــب الجامعية ، ١٩٧٢ ، ص ٢٤٨ ــ ١٤٩) (المترجم) .

اكثر ضيقا لمجموعة الضروريات البنائية التى تمكن المدينة من أداء وظيفتها من منظور علم الاجتمـاع فان اتجاهات ومعتقدات الانســاق الحضرى الحديث هى واحدة اينما وجد ، وان كل المدن الحديثة تظهر على نفس المنوال • ووفقا لوجهة النظر هذه ، فاننا جميعا على طرق تميل الى الالتقاء عند نقطة واحدة وهى الاشكال الاجتماعية المتشابهة وقد يكون احد هذه الطرق أكثر طولا من غيره • ويتضمن الاقتباس التالى وجهة نظر تتناقض ما سبق •

« فى كل احتمال فاننا نصل الى نهاية حقبة تاريخية لارتبــاط التحضر الطبيعى والاجتماعى بالنموذج الغربى للتحضر وبالخصائص الاقتصادية والاجتماعية والصناعية للنموذج الغربى • وتبدو الاهمية الوحيدة لبعض الزيارات الحضرية المتوقعة فى العالم الثالث متمثلة فى احتمال أن تصبح مثار مناقشة متزايدة لتوضح المدى الذى عنده يمكن ارتباط هذا التحضر بالخبرة الحضرية الغربية » (٧) •

وفى هذا يقترح بيرى Perry وجهة نظر مشــابهة مؤداها أن الاسس الاجتماعية والسياسية للتنمية الحضرية متباعدة ، من الاتجـاه الشخصى الذى يقوم على مبدأ (دعه يعمل) ويتضـــح فى شمال امريكا ، الى الادارة البيروقراطية المركزية فى الدول الاشتراكية ، مما يؤدى الى تباعد النتائج المترتبة على ذلك فى الناحية الانسانية ومن الناحية العلمية ، فان كل أنماط التبـاعد للتنمية الحضرية التى وصفها بيرى يمكن أن توجد فى الشرق الاوسط ، الى جانب اساليب التخطيط الحضرى المرتبطة بكل نمـط (٨) •

---

(٧) Dwyer, 1974, op. cit., p. 13.

(٨) Berry, 1973, op. cit., pp. 178 - 80.

وتمثل لبنان احد اطراف الاشكال الاجتماعية السياسية التى توجه مجرى التنمية الحضرية فى الشرق الاوسط ، اذ تتميز لبنان بسيادة اقتصاد السوق القائم على المشروع الحر ، حيث تتدخل القوى الاقتصادية والسياسية فى كل ما يرتبط بالملكية الخاصة • تلك القوى التى تتنوع تنوعا كبيرا من جانب ، وتنظيم بفعل التنافس من جانب اخر• والنتيجة أن مسار التنمية الحضرية فى الحمرا ببيرت يشبه ذلك الذى يوجد فى الولايات المتحدة ، وكندا واستراليا ، ويشبه النموذج الحضرى الكلاسيكى فى القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، حيث أدت المنافسة على الارض فى المنطقة الحضرية المركزية الى رفع قيمة الارض ونجاح استخدامات الارض الحضرية • وخارج حدود هذه المنطقة المتميزة بخصائص المجتمع الغربى والامريكى ، تحتفظ الجماعات العنصرية والدينية بهويتها فى مناطق منفصلة عن بيروت • اذ يتجه السنيون المسلمون المسيحيون ، والشيعة المسلمون والفلسطينيون الى المعيشة فى مناطق مختلفة • ويعمل الاتجاه السياسى اليسارى للفلسطينيين على اثارة التمايزات العرقية السائدة حاليا بين المسلمين وجماعات الكتائب المسيحية فى اغلب الاحوال ، حتى انفجر الصراع الدموى الواضح فى الشوارع بين هذه الجماعات فى عام ١٩٧٥ واستمر بدون انقطاع فى عام ١٩٧٦ •

وعلى هذا ، فبينما يعمل نمو قطاع الاقتصاد المختلط على تشجيع طبقة وسطى جديدة ، فهناك عادة تأكيد مستمرة على العوامل العرقية فى الحياة الحضرية • تلقى الاثار الاجتماعية واسعة النطاق لطبيعة هذا المجتمع الضوء على ما تقوم به الجماعات العرقية والراسمالية المتنافسة فى بيروت ، حيث يندفع المتدغسون لتخريب أرض واحدة من أكثر المناطق جمالا على شاطىء البحر المتوسط •

« ان كل الهدوء والخضرة . ومقاييس الاشياء ، وقيم الجمال ،

والتحضر ، والتمدن : جميعها قد طمست فى واقع أعمى ومجنـون لتلك المدينة الحزينة بحوض البحر المتوسط ، وذلك عن طريق حركات المـد الجزر للمطامع والنزوات ، والمضاربة ، والاستغلال والقدرية • وبالرغم من أن المدينة قد أنشئت ليعيش فيها بنى الانسان ، فلقد اصبحت بيروت حجرة نوم كبيرة — رئة اللابس ، غير مرتبة غير امنة ، مهجع غـير منظم — تليق بمن يبحث عن المتعة والسياحة ، من يستغل هذه الظروف من أجل الحصول على المال » (٩) •

ان التخطيط الحضرى بميل الى أن يكون عديم الجدوى طالمـا تظهر أو تتفاقم مشكلات تتطلب تصحيحا أو تحسينا من أجل المحافظة على قيم الاقتصاد • فليس هناك مستقبل ، أو أهداف محددة ، ولكن هناك فقط محافظة على قيم الماضى • وعلى أية حال فمن الصعوبة الاتفاق على أهداف عامة توضح الاختلافات بين المجتمعات المحلية المتنوعة •

واذا كان اليسار هو الهيكل الاجتماعى والسياسى المؤثر فى الواقع اللبنانى ، فان الاتجاه الراديكالى للرفاهية موجود بالكويت واسرائيل أيضا حيث يعدل نسق المشروع الحر عن طريق القرار الحكمى مما ينتج عنه تمايزات اجتماعية وخاصة • تكفل الدولة الحد الادنى للرعاية المادية — الرعاية الصحية ، والتعليم ، والتوظيف ، والاسكان — لكل مواطن، وذلك من خلال الضرائب المتنوعة والمتطوعين للرعاية فى اسرائيل وعائد البترول فى الكويت • ولقد تاثر التخطيط الحضرى المبكر فى كل من هذين البلدين باوربا الغربية ، وخاصة بريطانيا • ويكمن مفتاح التخطيط الناجح فى انتشار الملكية العامة للارض ، حيث تسمح الخطة المركزية فيهما بتنفيذ القرارات المحلية واقامة التنظيمات وايجاد الطرق العامة التى تتلائم

---

(٩) Shiber, 1967, op. cit., p. 410.

مع متطلبات السفر فى المستقبل • ويمكن ملاحظة أسلوب التخطيط هذا فى الكويت ، حيث تسمح الاتجاهات الحالية بالتنبؤ بما سيحدث فى المستقبل من مشكلات ، واعـداد خطط مواجهتها • وعن طريق تشييد مساكن كبيرة فى المدن القائمة وانشاء مدن جديدة يمكن ان يمارس القطاع العام قيادة تنموية ، وان يكون له دورا رائد فى توجيه التحضر الفيزيقى، والاجتماعى نحو اتجاهات جديدة •

ويمكن الكشف عن أسلوب تخطيطى اكثر استغلالا فى ايران وتركيا حيث يقل التاكيد على اسلوب مواجهة المشكلات الجديدة • بينما يتزايد فى البحث عن فرص النمو الجديدة • حيث يدمج التخطيط الحضرى والقومى الايرانى بين كل من التنمية عن طريق المقاولين ، والشركات ، التخطيط الخاص والتخطيط الصناعى ، وبين المشروعات العامة التى تنبثق من مصالح خاصة • فلقد قام شاه ايران والدولة بقيادة تنموية وبتخطيط استراتيجى • ويتضح هذا من مقدمة الخطة الرابعة التى تغطى الفترة من مارس ١٩٦٨ الى مارس ١٩٧٣ • بالاضافة الى تفويض المسئولية والسلطة الى المكاتب الادارية المحلية ، فان على العامة أنفسهم ان يشاركوا بطريقة فعالة فى توظيف المال من اجل الانتاج ويشاركوا فى أوجه النشاط الاجتماعى بينما تكون جهود الحكومة المركزية منحصرة فى الحفاظ على النظام العام ، واقامة بناء متين للنشاط الاقتصادى ، وتسهيل المبادرة الفردية ، وحماية حقوق الافراد ، والتخطيط ، وتحديد السياسات العامة واقامة التنظيمات وتنسيق وتوجيه الجهود الفردية نحو المصلحة القومية (١٠) •

---

(١٠) Plan Organization, 1968.

ومن الواضح أن التنمية عملية كلية نشترك فيها أجهزة الحكومة ولذلك فلا معنى للسؤال عن مقدار ما تسهم به الحكومة فى التنمية الاقتصاديه • فعوامل التنميه ليست مقيدة وغى لانتظار من يفك =

وهنا نجد مزجا بين المصلحة الخاصة والرفاهية العامه والحكم الاوتوقراطى • وتصبح الخطوة التالية من جانب الدولة فى الاتجاه نحو التنمية الحضرية هو العمل على استمرارها • وهذا يتطلب نظاما محددا لاهداف معيارية تعتمد على مستقبل مرغوب فيه ، مع سياسات مصممة ومخططة كادوات تعمل على ترشيد التنمية الحضرية لكى تتجه نحو هذه الاهداف أو الزامها بذلك • ولقد حاولت بعض الدول الاشتراكية العربية مثل مصر ، خلال الزمن أن تحد من تنافس المشروع الحر وتعمل على ازالته متبعة فى ذلك اشتراكية أوربا الشرقية أكثر من اتباعها اشتراكية أوربا الغربية • وأصبحت القاهرة الان توضح تماثلا وفقدانا للتخصص الحضرى أكثر من أى وقت اخر فى القرن الماضى أو الحالى ، وصاحب ذلك اعادة تشكيل لاساليب الحياة ونماذج البناء • وكان من المحتم للوصول الى هذه الاهداف الاجتماعية ارتفاع قوى الضبط والالزام وتطبيقها عن طريق الدولة وموظفى الحكومة •

ولكى نفهم التحضر الفيزيقى والاجتماعى واثاره مع الاقتصاد المختلط فان على المرء أن يفهم طبيعة القوى الخاصة والعامة وقراراتها ، وفى المواجهة يجب أن يفهم المرء الاهداف القومية وايديولوجيات المخططين، لان الحقيقة الهامة التى سادت الربع قرن الماضى كانت تتمثل فى البحث عن اسلوب تحقيق

=

أسرها ، وانما يجب خلقها ثم بعد ذلك — على الاقل — رعايتها وتوجيهها • والسلطات العامة وحدها هى التى تملك أو تستطيع العدول على الموارد والقدرة الكافية للقيام بهذه المهمة • ولذلك فمن الممكن وصف التنمية بأنها مشروع عام (أ•هـ• نسون ، المشروع العام والتنمية الاقتصادية ، ترجمة محمد أمين ابراهيم ، الدار المصرية للتأليف والترجمة . ١٩٦٣ ص ١٩١) (المترجم) •

مثل هذه الاهداف فى المستقبل (١١) ٠

وهكذا فان الروح الحضرية الاخذة فى النمو فى الشرق الاوسط تتكون من عناصر متوحدة ومتنوعة فى نفس الوقت ٠ وتاتى وحدتها من الاصول الداخلية العامة للتحضر، والتى تصبغ كل مكان بالثقافة الاسلامية ، وكما ناقشنا فى الفصول السابقة فلا تبدو عمليات التحضر الاجتماعى الحديث مختلفة بشكل أساسى بين جزء واخر ، ولا تضيف خبرة عامة جديده وظائف الحضرية القديمة ٠ فالمدينة تخدم الان متطلبات الدولة الحديثة٠ وهناك أوجه شبه كثيرة بين هذه المتطلبات ، رغم وجود بعض الثورات مثل ثورة الشاه والشعب ، أو الثورة العربية الاشتراكية ٠ وبالمثل توضح الديموجرافيا والنمو الطبيعى لمدن الشرق الاوسط تسلسلا متشابها للانماط من خلال الدين ، بينما هناك توازن بين الزيادة الطبيعية والهجرة ، والثبات النسبى للهجرة هذه الخاصية التى تجعل المنطقة متميزة عن أمريكا اللاتنية أو أطراف والصحراء الافريقية فاذا كانت الوسيلة الفنية التى عن طريقها تنقل المدينة خبرات الحكومات المركزية هى عنصر عـام للوحدة ، فان هذه الخبرات تصبح متنوعة ٠ ويمكن أن يحدد التحضر الفزيقى والاجتماعى فى المستقبل عن طريق الايديولوجيات المختلفة لدول الشرق الاوسط كل على حده والاهداف المخططة من أجل المجتمع الحضرى، كما تتحدد عن طريق الملامح الاجتماعية والتاريخية والبيئية التى تعـم مدن الشرق الاوسط ٠

---

(١١) Berry, 1974, op c.it., p. 171.

خاتمـــة الترجمـــة العربية (*)

حدد فينسنت كوستيللو الهدف من هذا المؤلف في شرح الاسلوب الذي تحولت به مدينة الشرق الاوسط إلى التحضر الفيزيقي والاجتماعي الحديث . واعتمد في سبيل تحقيق هذا الهدف على العديد من الدراسات التي استطاع أن يجمع من بين خصوصياتها ما يصلح لاعطاء صورة تحليلية لها صفة العموم على المدينة في الشرق الاوسط .

الا أن تحديده لمنطقة الشرق الاوسط وفقا لتلك البلدان التي تحدث مع وضع هذا المسن منذ الحرب العالمية الثانية ، يشوبه كثير من الغموض وخاصة ان البلدان التي عرض لها ترتبط بعلاقات جغرافية وتاريخية واجتماعية ، فما حدده (كوستيللو) من بلاد ، كان يمكنه أن يضيف اليها بلاد أخرى حتى يستكمل صورة منطقة الشرق الاوسط ، ولا يقتصر على بلدان شبه الجزيرة العربية واسرائيل ولبنان والعراق وتركيا وايران وليبيـــا ومصر ، لانه استبعد التحديد بلدانا أخرى تشترك مع ما ذكره في النواحي التاريخية والاجتماعية والثقافية ، كالمغرب العربي والسودان .

كذلك فان مفهوم « التحضر » لديه يأخذ بالاتجاه الامريكي الذي يعتبر « المدينة » تلك المنطقة التي تشتمل على اكثر من خمسة الاف نسمة . ولهذا التحديد العددي انتقادات متعددة ، حيث ان بلدان الشرق الاوسط تحتوي مجتمعات محلية ريفية يصل مجموع سكانها الى أكثر من هذا العدد ، بل أضعافه ، ومع ذلك يطلق عليها « قرية » حيث تتميز بأسلوب الحياة القروية ، وبالخصائص الاجتماعية القروية . وهذا التعريف العددي جعله يأخذ بالاتجاه الايكولوجي في تحديد المدينة وطابعها واسلوب حياتها

(*) كتب هذه الخاتمة الدكتور غريب سيد أحمد .

وما يرتبط بالناحية العددية من موضوعات تدخل ضمن اطار التحضر .
ولذلك يعرض (كوستيللو) لموضوع البيئة ، والمجتمع الحضرى فى الشرق الاوسط فى عصر ما قبل الصناعة ، والنمو الحضرى الحديث . والهجرة الريفية الحضرية والتوافق الاجتماعى فى المدينة ، والمهن والتدرج الطبقى ، والشكل والبناء الحضرى من الناحية الايكولوجية .

والمتعمق لهذه الموضوعات التى تناولها المؤلف يلحظ انها ذات منظورين ، اولهما : يركز على الناحية العددية وكيفية تحديد معنى الحضر بعدد سكان المدينة ، والعوامل التى تسهم فى نمو المدينة عدديا ، وما يصاحب ذلك من عمليات اجتماعية اخرى ترتبط بالتوافق الاجتماعى والمهنة والتدرج الطبقى وثانيهما : يركز على الجانب الفيزيقى للمدينة، وما يرتبط به من عوامل ايكولوجية تساعد على الهجرة من الريف الى الحضر ، وتعمل فى نفس الوقت على نمو المدينة ذاتها .

ولعل أفضل مدخل لدراسة نقدية لما اشتمل عليه هذا المؤلف ان نضع أساسا نظريا وتاريخيا لعلم الاجتماع الحضرى ، نستطيع من خلاله أن نعرض وجهات النظر المتباينة التى تناولت الحضر والتحضر، ونعقب هذا بتحليل نقدى لما جاء به المؤلف . ولهذا نجد من الضرورى أن نرتكن على أربع نقاط اساسية . تركز الاولى على نشاة علم الاجتماع الحضرى وتطوره ، وتوضح الثانية أهم الاتجاهات النظرية ومداخل دراسة المجتمع الحضرى ، وتتناول النقطة الثالثة : المدينة وعوامل نموها وتحديد معناها ، وتبين النقطة الرابعة والاخيرة ايكولوجيا المدينة. ومن خلال عرض هذا التراث النظرى يمكن لنا ان نحدد موقف المؤلف من هذه القضايا النظرية والمنهجية .

أولا : نشاة علم الاجتماع الحضرى وتطوره :

تقع معظم كتابات علم الاجتماع الحضرى فى الفترة ما بين عام ١٩٠٠ والحرب العالمية الثانية ، وكلها كتابات لها قيمتها العلمية وأهميتها

الموضوعية فى هذه الحقبة التاريخية ، ولقد وضع مفكروا هذه الفترة الاسس العلمية لهيكل المعرفة المتسلسل الذى يعبر عن افكار معينة استمرت سيطرتها على ما يرتبط بفهم الحياة الحضرية فى الوقت الراهن (١) ٠

ان الدراسات الحضرية مجال حديث جدا من الدراسات الاجتماعية بالرغم من أن المدن احدى مخلفات الحياة الحضارية القديمة ٠ ويرجع ذلك الى انه قبل الثورة الصناعية اهتم المفكرون والكتاب بتصور المجتمع ذاته ، ولم يهتموا بنوع فريد أو متميز من المجتمعات ٠ فلقد ظهرت اراء كثيرة فى العالم القديم عند أرسطو وأفلاطون وأوغسطين ، وخلال العصور الوسطى تصور بعض المفكرين مثل ميكيافيللى الحياة الاجتماعية فى المدينة ، خلال القرن الثامن عشر تأكد الاهتمام بالمدينة والمجتمع فى النظرية الاجتماعية لروسو ٠ ولقد كان تصور المدينة يتخذ معنى خاصا باعتبارها مجتمعا متميزا ، ومثال ذلك ما تصوره جان بودان الفيلسوف الذى عاش فى القرن السابع عشر ، واستمر هذا التصور عند كبار المنظرين فى العلوم الاجتماعية ٠ وهكذا لم يكن لمجال الدراسات الحضرية معنى واقعيا متميزا بها وحدها ، فلقد اخذت المدينة صورة أوسع من حقيقتها وسيطرت على الفكر ردحا طويلا من الزمن ٠

ويمكن تاريخ الاهتمام بالدراسات الحضرية المقارنة بالقرن السادس عشر على الاقل ، حينما طبع جوفانى بوترو Ciovanni Botero لاول مرة مؤلفه الشهير « عظمة المدن » The Creatness of cities فى عام ١٥٩٨ وفى سنة ١٨٩٩ كتبت قدنا فيبر Adna F. Weber بحثا سوسيولوجيا اكثر تخصصا بعنوان « نمو المدن فى القرن التاسع عشر The Crowth of cities in Nineteenth Century وبعد مرور عشرين عاما ، نشر ماكس فيبر

---

(١) Richard Sennett (ed.) Classic Essays on The culture of Cities, N. Y., 1969, pp. 3 - 19.

Weber كتابه « المدينة » Die Stadt (٢) ٠

لقد بدأ الاهتمام يزداد بالمدينة منذ القرن السابع عشر ، اذ اتخذت المدينة كموضوع للبحث المنظم ، وقد أهتم بدراستها مؤسسوا علم الحساب السياسى وأتباعهم الاحصائيون وكذلك المهتمون بدراسة المشكلات السكانية والاقتصادية ورجال التاريخ والادارة والمعماريون والمخططون والمصلحون الاجتماعيون ، فقد قدم هؤلاء مادة غزيرة وصفية عن المدينة (٣) ٠

ومن الملاحظ ٠انه بعد قيام علم الاجتماع الحضرى كعلم مستقل لم يول دارسوه الا قدرا ضئيلا من الاهتمام للمشكلة الحضرية ، ويعتبر رنية مارييه R. Maurier أحد علماء الاجتماع الذى حاول أن يقدم اول وصف للمدينة تحت عنوان : « أصل المدن ووظيفتها الاقتصادية » وقد صدر هذا الكتاب عام ١٩١٠ وواضح من عنوانه أن تناول المدينة من موقف رجال الاقتصاد لا رجل الاجتمـــــاع ٠

ويمكن تقسيم الكتاب الكلاسيكيين الذين اهتموا بالظاهرة الحضرية الى مدرستين فكريتين ٠ المدرسة الاولى هى المدرسة الالمانية التى كان مركزها هايدلبرج وبرلين ويمثلها كل من ماكس فيبر Max Weber وجورج زيمل Ceorge Simel ، شبنجلر Oswald Spengler وجميعهم كتبوا فى الربع الاول من هذا القرن ٠ والمدرسة الثانية نمت فى جامعـــة شيكاغو فى

---

(٢) جورج ٠ ، « علم الاجتماع الحضـــرى المقارن » ، ترجمة الســـيد محمد الحسينى ، دراسات فى علم الاجتماع الريفى والحضرى ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٣ ، ص ١٢ ٠

(٣) احمد منصور التكلاوى ، النمط الحضرى لمدينة القاهرة فى ضوء آراء لويس ممفورد .رسالة دكتوراه مودعة بمكتبة كلية الاداب جامعة القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٣١ — ٣٢ ٠

العشرينات من هذا القرن ، حيث استمار اعضاؤها نشاطهم العلمى بعد الحرب العالمية الثانية ، ومن قادة مدرسة شيكاغو روبرت بارك Robert Park ولويس ويرث Louis Wirth وايرنست بيرجس Ernest Burgess .

١ — المدرسة الالمانية :

يعتبر كتاب ماكس فيبر عن « المدينة » The City بمثابة « الجهد الحديث الاول الذى ظهر فى عام ١٩٠٥ • والموضوع كان جديدا بالنسبة اليه حيث عالج المدينة بطريق لم يسبقه اليه أحد ممن كتبوا عن المدينة قبل هذه الفترة • وهذا الكتاب من الصعب قراءته ، لما ينعكس على لغته المجردة من صعوبة ناجمة من تواترات الفكر نفسه • فلقد كان فيبر فى حياته الخاصة متارجحا بين كونه انسانا له سلوكه وأهدافه العملية ومستوياته الاخلاقية المميزة ، وبين كونه عالما يدعو الى التحرر من القيم عند وصف المجتمع • وتعتبر اللغة المجردة التى تميز كتابات فيبر بمثابة احد الطرق التى يتبعها الكتاب للدفاع ضد نوازعه الشخصية بحيث يستطيع الكتابة على أنه ملاحظ بعيدا عن المعرفة التى تتضمن توجيهات خلاقية لافكاره • ولقد أهتم فيبر بالتوتر بين الملاحظة وحكم القيمة والجدال بين المحتويات ، حيث وضع المواد المرتبطة بالموقف البشرى فى طريق يؤدى الى نتائج حتمية ، ولم يكرس جهدا فى رسمها وتوضيحها وقد يبدو هذا التوتر على أنه انحراف ، مما جعل لعمل فيبر قوى متنوعة اذا ما صبر القارىء وتجلد عند قراءته •

وتبلغ مصادر تفكير عن المدينة درجة عالية من الدهشة ، باعتبارها متميزة عن معرفته الضخمة حول المدن • يكاد يظن المرء أنه انهمك واهتم بكتابات تونيز ودوركايم وعلماء الاجتماع الذين عاشوا حقبة تاريخية كانت بداية لكشف العوامل الحضرية وتاثيرها على مظاهر الحياة الاجتماعية

التى يبدو انها غير مرتبطة بها ، وذلك رغم عدم تمكنهم من صياغـة نظرية واحدة فى هذا الصدد وقد تناول فيبر تلك الجذور المختلفة ، ولم يحاول وصف كيفية تاثير المدن على عزلة الناس ، ولكنه حاول توضيح الظروف الايجابية المؤثرة على الحياة العامة للناس ، وعلى هذا اعتم بالمدينة فى الماضى أكثر من اهتمامه بها فى الحاضر ، ويعتبر هذا حجر الزاوية فى نقد فيبر للحياة الحضرية الحديثة ، وتتعقد الاسباب التى دعت فيبر الى الاهتمام بوصف المدينة فى الماضى ، وقد اعتمد هذا على تعريفه للمدينة كما يرجع هذا التعقيد الى اعتقاده فى هذا التصريف وأعميته ·

ويمكن ايضاح تعريف فيبر للمدينة اذا ما حددنا الكلمات المرتبطة بها ارتباطا وثيقا ، وخاصة مصطلح « كوزموبوليتانى Cosmopolitan فالاستيطان البشرى يمكن أن نطلق عليه كوزموبوليتانى اذا تعايشته معا أساليب حياة متنوعة أو أفراد متمايزين ، فى نفس المكان · ونقل فيبر هذا التعريف الى ثقافة المدينة ذاتها : فالمدينة هى الشكل الاجتماعى الذى يسمح بدرجة عالية من الفردية والتمييز فى كل مظهر ولتعى من المظاهر الموجودة فى العالم · ولتحديد معنى المدينة لا يمكن الاقتصار على وصف نمط حياة منفرد ، ولكن باعتبار انها احد البناءات الاجتماعية التى تعمل على ايجاد أساليب حياة ملموسة ومتعددة · وهكذا تصبح المدينة مجموعة من البناءات الاجتماعية التى تعمل على تشجيع الفردية والتجديد ، ومن ثم تصبح أداة للتغير التاريخى ·

وقد يبدو هذا التعريف عير معيب أو ضار ، ولكنه كان فى وقت ما تعريفا منتقدا · فلقد أوضح لورد برايس Lord Brycs عقب رحلته الى المدن الصناعية فى أمريكا فى نهاية القرن التاسع عشر ، أن الاختلافات الإساسية بينها أن بعضها مبنى من الطوب الاجر والاخر مبنى من الخشب كما تطور رد فعل الاوربيين للمدن الصناعية فى ثقافاتهم الخاصـة ، فالاماكن الصناعية لا تتميز بهم ، وهم يفضلون زيا موحدا ، ولا يتميزون

بشخصية محددة ويعتمدون على المصانع الكبيرة والمكاتب البيروقراطية فى العاصمة ٠

ومن هنا نستطيع أن نوضح دراسة فيبر للمدينة ، وحيث افترض أن المدن الحديثة لا توضح أو تعبر عن المدينة باعتبارها ثقافة ٠ فقد نظر الى المدن فى ايامه على أنها بدائية ومتخلفة ، أكثر من كونها نتاجات لخط معقد من التطور التاريخى ، مثلما اعتقد كثير من المعاصريين له ، فالقوة الرشيدة والبيروقراطية الكامنة فى الرأسمالية الحديثة عبارة عن عمليات جدلية معقدة ، الا أنها تعمل على ايجاد نوع من انتكاس أو تقهقر البيئة الحضرية ٠ وعلى العكس من الماركسيين الذين عاصروه ، فقد ذهب فيبر الى عدم الاعتقاد فى التطورات التاريخية التى تظهر بصورة جامدة وموجهة ، فقوى النمو الصناعى توجد حالة من التخلف الحضارى أكثر مما حدث فى مدن العصور الوسطى ٠

ولقد تطورت أفكار فيبر من خلال تعريفه للمدينة ٠ فما يمكن أن تطلق عليه الان تعريفا لحياة المدينة ، أطلق عليه فيبر ظرف « النموذج المثالى » للمدينة ، ويعنى به حالة معينة للحياة الحضرية التى تفى بالمتطلبات الاجتماعية المتوارثة فى تنظيم الاستيطان البشرى ٠ ويفترض ظرف « النموذج المثالى هذا ، امكانية ايجاد وصف رشيد (عقلى) لاية ظاهرة اجتماعية ، مثل ظاهرة المدينة ، الا أن المناقشة الرشيدة غالبا ما تحدث خارج لغة التاريخ ٠

وعلى ضوء طريقة المناقشة التى استخدمها فيبر ، فان القوالب الجامدة لنظرية رشيدة للمجتمع تبعد عن التاريخ ، وتبعد عن الخبرة الواقعية للانسان ، ولكنها لا تبعد عن كونها افتراضات أو بناءات تنتمى الى مفكر متميز ٠ وتكمن دقة هذا المدخل فى محاولته التوسع أكثر من الوصف التاريخى للظواهر الاجتماعية ٠ فمعطيات خبرة الناس وتاريخهم ،

يمكن استخدامها لاقامة نموذج للحياة الاجتماعية يربط بين المعطيات التاريخية عن طريق خطوط رشيدة أو عقلية وبهذه الصورة يمكن ان تأخذ كثير من البناءات فى المجتمع شكلا منطقيا ، بصرف النظر عن العلاقة التاريخية عبر الزمن وعن طريق النموذج المثالى ايضا يمكن مقارنة البيروقراطيات التى سادت اوربا فى العصور الوسطى بتلك التى سادت الصين القديمة ومقارنة دولة المدينة فى اليونان بجمهوريات ايطـــاليا فى عصر التنوير وهكذا • ولقد كان المعنى Meaning مستخدما فى المقارنة المنطقية لمكونات الصور الاجتماعية ، فكان العقل Reason يستخدم كأداة لايجاد نسق الخبرة التاريخية ولم يظهر هذا اذا اقتصرت نظرة الملاحظ فى حدود وسياق المادة التاريخية وحدها

وباستخدام هذا المدخل ، استطاع فيبر ان يكتشف ويحدد الشكل الحضرى فى العصور الوسطى المتأخرة فى الاقطار أو البلدان الدنيا ، وأن يلقى الضوء على المدن الايطالية فى عصر التنوير ، والتى بدت اكثر قربا من تنميط ظروف وحالات بناء المدينة نتجت عنها أسـاليب حياة حضرية متنوعة وعديدة • وهى بهذا على العكس من تلك المدن التى تسود اوربا فى العصر الحديث والتى يأمل فيبر فى توضيحها دون دراســـة تغيرها وكيفيته ، وانما توضيح ما يمكن أن يفقد منها الان •

ولقد كان جورج زميل George Simmel صديق وزميل دراسة الكس فيبر ، واحد الاوائل الذين تابعوا عمل فيبر العظيم • ولقد بذل فيبر كثيرا من الجهد فى محاولة أن يكون زميل احد الرفقاء الجامعيين الجيدين ، وطالما ان زميل كان يهوديا فلقد واجهته صعوبات كثيرة فى نظام المدرسة الالمانية ولم يحظ بالشهرة التى نالها فيبر •

ولقد اشترك كل من فيبر وزيمل فى تصوير البناءات التى تكون المدينة الغربية الحديثة ، الا ان زيمل لا يوافق فيبر فى [illegible]

المدينة ، بالاضافة الى أن زيمل يرى امكانية وجود حياة حضرية معقدة وجديدة فى تلك الاشكال الحضرية للعصر الحديث ٠

ويعتقد زيمل مثل فيبر أنه يمكن وصف المدن فى ضوء « نموذج مثالى » ، الا انه يمكن أن تكون عناصر هذا الوصف نفسية وليست بنائية كما وصفها فيبر بالنسبة للسرقة والاسرة والقانون الحضرى ٠ ويرى زيمل أن الحقيقة الحتمية للحيـــاة الحضرية لكل الانواع كانت متمثلة فى الشعور بالقهر ، ذلك الشعور الذى يحيط بالانسان فى المدينة التى يعيشها ٠ ويرى زيمل أن الانزاط فى الحافز النفسى يقود الناس الى المحاولة الدفاع عن أنفسهم بطرق سلبية رد الفعل العاطفى بالنسبة لمن يحيطون بهم فى المدينة ، وهذا يعنى ألا تحاول القيام برد الفعل كما تفعل جميع الكائنات البشرية ٠

وكدفاع ضد تعقيد للحياة الحضرية ، يحاول الناس أن يعيشوا فى علاقة غير عاطفية وعقلية ، ووظيفية ، مع الاخرن ، وهذا الدفاع يجعل الحياة منفصلة ، وينطبق الضبط على كل واحد على حدة ٠٠ واذا حاول الناس فى المدينة أن يعيشوا حياتهم فى الاسرة وفى العمل وفى الصداقة فانهم يتحطمون عن طريق التعقيدات الكامنة فى كل من الوقائـــع التى يعيشونها فى الوسط الحضر٠

وتحوز عملية الانشقاق هذه تاييدا وتمجيدا من اقتصاد السوق ومن بيروقراطيات المصنع والادارة ، وكانت الحضرية مستترة فى شكلهـــا الاقتصادى والاجتماعى عن الارتباط بسلوك الاخرين ، بحيث كان الكائن البشرى العاطفى موجها نحو الاتصال البشرى فى أشكاله الوظيفيــــة والعقلية الخالصة ٠ وكلما تعاظم تهديد الحوافز الزائدة فى المدن الكبيرة التى كانت موجودة أيام زيمل ، فقد افترض أنها سوف تبدو بمظهر

واحد تقريبا ، فالتبادل فى السوق يصبح وسيلة غير شخصية مناسبة لها جميعا باعتبارها دفاعا ضد التفكك النفسى للكائن المقهور ٠

وهكذا توصل زيمل الى صورة تشبه كثيرا ما وصل اليه فيبر عن خصائص حياة المدينة الحديثة ، تلك الخصائص المتمثلة فى اللاشخصية، والبيروقراطيات التى لا تتمثل فيها العلاقات المباشرة ، وعمليات السوق الفعلية ٠ الا ان زيمل يعتقد أن هذه السمات ناتجة عن حالة نفسية اجتماعية تصيب طبيعة الحضر ، بينما اعتقد فيبر أنها ناتجة عن التقاء القوى الاقتصادية وغير الاقتصادية التى يطلق عليه اسم الراسمالية ٠ ولقد رأى زيمل ايضا امكانية الحياة فى هذه المدن الحديثة ، تلك القضية التى عالجها فيبر بطريقة غير مباشرة ٠

ان وصف زميل للميكانزم والنفسى الذى يؤثر على كثير من الاعضاء الذين يعيشون معا ، يقوم على افتراض أن هناك ذاتية ، وهوية بشرية ، تحاول أن تحمى نفسها من خلال هذه العملية ٠ الا ان هذه الذات ، وهذا الكائن العاطفى ، ليست معزولة ، ولكنها تستطيع العيش بميكانزمات دفاعية تتكون من خلال الاستجابة للمدينة ٠ ان عملية تكوين هذه الدفاعات ضد المدينة تعمل على تشكيل هوية الانسان وذاتيته فى عملية التكوين ذاتها ٠ وهكذا ٠ وهكذا تبدو أهمية تفكير زيمل فى أنه لم يعقد ارتباطا بين العالم الخارجى للمدينة وبين العالم العاطفى الداخلى لها ، فليست هناك ضرورة لظهور النفوس المغتربة عند الانسان الذى يعيش يوما بعد يوم بطريق غير شخصى ووظيفى ٠ فالحياة العاطفية للانسان لا تحتاج الى أعمال دائمة كمتنفس له ٠ ولكن ظروف المدينة قد تؤدى الى شىء اخر مختلف مثل نوع معين من الحرية البشرية الخاصة بالحضارة أو بالتحضر ٠

ويعتقد زيمل أن الانسان يستطيع أن يحرر نفسه (روحه) من

سلوكه هو ، وبامكانه أن يفهم أن « من أكـــون » Who I am و ليس ببساطة « ما اتفق على فعله What I do ordinarily ، فهناك شيء تهكمى فى اضطهاد اليهود فى أول شكل حديث للافكار المسيحية عن حياة المدينة. ولذلك يرى زيمل أن الخصائص الوظيفية وغير العاطفية الاكثر ارتباطا بالمدينة هى القوى التى تحفز الناس الى النظر للنظام المبهم فى الحياة . وهى التى تحرر الناس ايجاد دائرة السلوك الروتينى لمشاعرهم وافاتهم الثقافية • وحيث أن روتين الحياة هو سلوك دفاعى ، فان الشخص الذى يدافع عن نفسه يعتقد أن ذاتيته هو تكمن فى مقدرته على الدفـــاع . وارتفاعه فوق المسائل الدنيوية ، والاشياء العاطفية ، وأن يعيش حيـــاته بعيدا عنها ، والعالم الالمانى الثالث الذى نعرض اليه فى هذا التراث الكلاسيكى هو اوزوالد شبنجلر Oswald Spengler الذى لم يكن صـــديقا شخصيا لاى من فيبر أو زيمل ، ولم يكن معمقا لاعمال اى منهما • ولكن كتاباته عن المدينة تتخذ صورة أرتباط مدهش بأفكار معينة جاءت عند فيبر وعند زيمل ، وكانت افكاره الخاصة ذات تاثير على شباب أمريكا ، حيث كانت دراساته ودراسات ريمن قبل الحرب فى المانيا ، أوجدت مدرسة شيكاغو للدراسات الحضرية •

ويعتقد شبنجلر ان مراحل تطور المدينة تشير الى مراحل الحيـــاة الحضارية ككل فى الثقافات الغربية ، بهذا الاعتقاد تميز هو عن غيره من المفكرين الذين عاشوا عصره مثل فيبر وزيمل الذين حاولا وضـــع سمات فريدة محددة للمدينة على انها أحد الاشكال الاجتماعية • وأبعـــد من ذلك ، فان مراحل النمو الحضارى جعلت شبجلر يتصور المدينة على انها تجسيد دورى ، فارتفاع وانخفاض ثقافات المدينة لها نمط واضح بحيث تشير الى مراحل النمو والتدهور فى المجتمع •

الا ان شبنجلر ابتعد عن المفكرين القدامى وذلك بوقوفه على مجريات النمو الحضرى الذى يختلف على النمو الصحى للمجتمع ،فلقداعتقدسبنجلر

أن المدن الكبيرة فى عصره تعمل على افساد نشاط وحيوية وطـاقة من يقيم بها حيث تتميز بالطابع الروتيفى وتصبح الحياة فيها قاسية • وكان يتوقع أن الثقافات المتروبولوليتية سوف تواجه مصير وقدر روما ، بحيث تتدهور المدن ويعود المجتمع الى نوع من الحياة الزراعية لغير متمدنة وهكذا تصل دورة النمو الحضرى على اعادة تنظيم ذاتها •

أما مؤلفه الاساسى فهو تدهور الغرب Decline of the West الذى يرد عنوانه الى أعتقاد شبنجلر بأن ثقافة المدينة الغربية قد أخذت فى التدهور والتفسخ منذ بدايات القرن العشرين ، كما يعتقد شبنجلر أن دورة الحياة الحضرية تنطبق على افساد سكانها عن طريق اخضاء الطابع النظامى على العلاقات البشرية المتبادلة ، وعن طريق جعل هذه العمليات روتينية وغير عاطفية • ولقد أدرك زيمل هذا من خلال تطـور المدن الاكبر حجما ، الا أن فكرة شبنجلر عن الفساد ترتبط ارتباطا وثيقا بخصائص مدن العالم الحديث كما اشار اليها فيبر •

ويعتقد سبنجلر ان كل ثقافة ، غربية وغير غربية ، تتشابه فى صياغتها لروح الشعب «Folk Spirit» فى صورها الاولية المبكرة • تلك الروح التى تعطى الثقافة هويتها الخاصة ، وعندما تنمو المدينة الكبيرة تدريجيا فان هذا يطمس خاصية الثقافة عن طريق احساس أعضاء المدينة بالفردية والانعزالية •

ويرى شبنجلر أن هذا يتشابه فى جميع المدن الكبرى طالما أنها انبثقت أساسا من ثقافات متشابهة ، وأن هذا التشابه هو علامة المرض والانهيار الوشيك الحدوث • أما التوازن بين المدينة والقرية فهو مفتاح صحة جميع المجتمعات النامية من وجهة نظر شبنجلر •

وتبدو مناقشة شبنجلر على انها مناقشة مرنة متعددة التعميم ، وقد بدت هكذا نتيجة للانحراف الذى ساد الحقبة النازية فى ألمانيا • فالنظرة الدائرية الى ملامح المدينة هى بطريق أو باخر عبارة عن رمز للنمو

والتدهور الذى يتميز بأصوله العميقة فى الثقافة التى يعرض لها • ويعتبر هيردر Herder من أوائل من كتبوا عن « روح الشعب » فى القرن الثامن عشر ، كما أن هناك كتابات أخرى فى التاريخ الانجليزى قد ركزت على فكرة الدورة فى نمو الثقافة منذ ان كتب شبنجلر فكرته هذه • ويظهر هذا بوضوح فى كتابات ارنولد توينبى Arnold Toynbee وعالم الاجتماع الحضرى الامريكى لويس ممفورد Lewis Mumford .

وتتمثل القضية الاساسية فى كتابات شبنجلر فى تحديد خصائص المدينة كافتراضات جوهرية لوجود المدينة • وهكذا اهتمت المدرسة الالمانية وعلى راسها فيبر وزيمل لهذه الافتراضات الخاصة بثقافة المدينة ، كما اهتم المفكرون الثلاثة بتعزيف ثقافة المدينة على أنها ظاهرة متكاملة وذلك عند مقابلتها بغيرها من الوحدات الاجتماعية •

٢ - مدرسة شيكاغو :

اما أعضاء مدرسة شيكاغو الاوائل فقد اتجهوا فى مسار متناقض مع مسار الاتجاه السابق ، حيث ركزوا على المدينة وتساءلوا حول الخاصية الداخلية للمدينة كيف تعمل مختلف أجزاء المدينة وتؤدى وظائفها عند ارتباطها بعضها بالبعض ، كما تساءلوا عن مختلف انواع الخبرات التى تسود مدينة بعينها فى فترة زمنية محددة • ونظر علماء الاجتماع الحضرى الى المدينة على أنها تمثل عالما فى حد ذاته ، وحاولوا تعريف المدينة فى ضوء العلاقات التى تحدث بين أجزاء هذا العالم • وبهذا كانت جهودهم عبارة عن محاولة جديدة تختلف عن المحاولات الالمانية ، فلم يحاولوا فهم المدينة من خلال علاقتها بالاشكال الاجتماعية الاخرى ، الا ان المراحل الاخيرة فى هذه المدرسة كانت تتعمق المعنى الاجتماعى الواسع للمدينة كما يظهر ذلك فى كتابات روبرت رمفيلد •

وبرغم هذه الاختلافات التى سبق توضيحها ، فان القضايا التى

عالجها علماء الاجتماع الحضرى فى شيكاغو مثل روبرت بارك ولويس ويرث وايرنست برجسن ، كانت هى نفس القضايا التى تناولها الجيل الاول من العلماء الالمان ، مع الاهتمام بالتركيز والتوضيح لكثير منها • ووفقا لهذا الاستمرار الفكرى أحرزت الدراسات الحضرية ـ كاطار علمى ـ تقدما ملحوظا بتطور الزمن • ويمكن أن تنقسم هذه القضايا الفكرية التى اثارتها مدرسة شيكاغو الى قسمين يمثل كل منهما الاجابة على سؤال محدد • الاول : ما هى القوى غير الاقتصادية التى تعمل على خـلق ثقافة المدينة ؟ • والسؤال الثانى : ما هى امكانيات الاختيار الحـر والتجديد فى ثقافة المدينة ؟ • وبالاضافة الى هذا فقد حاول روبرت رد فيلد وميلتون سينجر Milton Singer الوصول الى وسائل معينـة لوصف تطور المدن حتى يتمكنا من الوصول الى حل لبعض الصعوبات التى واجهت الكتاب الالمان وكتاب مدرسة شيكاغو المبكرين عند الحديث عن طبيعة تطور شكل المدينة ذاتها •

ولقد بدات مدرسة شيكاغو تاخذ شكلها العلمى بعد الحرب العالمية الاولى عندما جذب عالم الاجتماع الصحفى الشاب روبرت بارك Robert Park اهتمام ارنست برجس Ernest Burgess ولويس ويرث Louid Wirth الباحثين بجامعة هيدلبرج قبل الحرب ، وكان متاثرا الى حـد كبير بمحاضرات جورج زيمل • ولقد ظهر أول عمل مثمر له فى مقال نشر عام ١٩١٦ بعنوان « المدينة . بعض المقترحات حول دراسة السلوك البشرى فى البيئة الحضرية » ، وكان هذا المقال علامة مميزة فى تطور الدراسات الحضرية حيث كان لها تاثيرها على البحث الحضرى فى امريكا وأوربا على حـد سواء •

ويحاول بارك فى هذا المقال فهم المدينة سواء على انها مكان معين أو على أنها نظام أخلاقى • ولقد أعتقد أنه يمكن وصف المدينة من خلال

خصائصها الوظيفية والملموسة حتى تتضح امكانيات الحياة الثقافية والاخلاقية فيها • اما ما وسمه بارك بايكولوجية المدينة والطريقـــة والاجراءات التى تقسم داخليا على أساسها ، فانه لا يعنى وضع خريطة لتوزيع وجود الاشياء وعملها ، بل أراد ان يكتشف كيفية تأثير هـــذه المركبات الفيزيقية فى الخبرة العاطفية والانسانية لسكان المدينة •

ويفترض بارك ان الظروف النفسية والاخلاقية للحياة فى المدينة سوف تعكس ذاتها من خلال صور طبيعية ، فى كيفية استخدام المكان ، وفى أنماط الحركة والانتقال البشرى وما الى ذلك • وبعبارة أخرى فانه يفترض أن الثقافة يمكن ان تكشف عن نفسها بطريق مباشر من خـــلال المصنوعات المادية • وعلى هذا تصبح للمدينة خاصية عضوية عبر عنها كتاب مثل شبنجلر كموضوع عن « المظهر العضوى » للتربة او المزرعة •

ان الفكرة الاساسية التى تدور حولها مقترحات بارك تتلخص فى ضرورة توجيه البحث نحو دراسة المظاهر الملموسة والمباشر للحياة فى المدينة ولسوء الحظ ، فانقلة فقط من تلاميذ بارك العديدين هى التى اهتمت بالصورة العضوية هذه ، لدرجة أن الدراسة الايكولوجية للظروف الحضرية كانت ضحلة مع قلتها فى زمانة الا أن بعض اتباعه قد تحققوا من أهمية العنصر البشرى فى القضايا المحورية فى تفكيره ، وظهر هذا جليا فى المقالات النظرية التى كتبهما لويس ويرث وروبرت رد فليد وفى البحوث الحديثة الواقعية التى قام بها علماء الاجتماع الحضرى فى شيكاغو من امثال دونالد بوجيه • Donald Bogue

لقد اتضح لنا أن كلا من زيمل وشبنجلر قد استخدم مفهوم تقسيم العمل لوصف الطريق الذى من خلاله يعيش سكان المدينة فى علاقـــة انقسامية وتخصصية كل بالاخر . وكانت القوة الملحة فى تقسيم العمل هذا متمثلة فى الرغبة فى الكفاءة العقلية لانجاز أعمالهم بطريقة رشيدة بعيدين

عن أو مواجهين العلاقات العاطفية المتضمنة فى الافعال الاجتماعية • وكان على أعضاء مدرسة شيكاغو وبخاصة بارك ووبرث أن يبينوا كيف يمكن لهذه القوى العقلية أن تعبر عن ذاتها فى الترتيب الطبيعى للمدينة ذاتها • وكيف كانت جغرافية المكان هى التعبير الملموس لتقسيم العمل وتمايز الادوار الاجتماعية •

ونظرا لاستخدامنا للتصور الجغرافى للمدينة حيث نميز بين منطقة الاعمال ومنطقة اليهود المتخلفة Chetto Slun ، فمن الصعوبة تصور وجود أى نوع اخر من الاشكال الحضرية ، أو وصف شيء من الجغرافيا الوظيفية لاحياء المدينة ومناطقها • والواقع أن هذا التصور الايكولوجى يميز المدينة الصناعية • فهناك فصل بين المنازل والمصانع ، وأماكن الحياة وأماكن العمل ، حيث لم يكن هذا معروفا فى مدن العصور الوسطى بشمال أوربا ، أو فى دولة المدينة الايطالية فى عصر النهضة • فى النصف الاخير من القرن الماضى عند أعادة باريس ، خططت أحياء المعيشة لكى تتضمن جميع الواحدت من الغنى والفقر فى نفس المكان •

ولقد أعتقد بارك ووبرث أنه يمكن وصف عملية التقسيم هذه على أنها سمة طبيعية للمدن الصناعية بحيث يعتمد استخدام الارض استخداما جيدا ، وتوزيع السكان ، على تجانس الوحدات الوظيفية فى نفس المنطقة الطبيعية • ويعتقد بارك وويرث أن المدينة عبارة عن عوالم عنقودية متمايزة ولكن كل جزء فيها يقوم بوظيفته في ضوء الكل الأوسع منه •

ويرى بارك ان هذا التقسيم الوظيفى الطبيعى يمكن أن يؤثر تأثيرا كبيرا فى ضبط السلوك فى المدينة ، بحيث يحد من حرية السلوك وامكانية التعبير فى المدينة ان الاهتمام بحرية المدينة ، جعل بارك بعيدا عن تلامذته من أمثال لويس ويرث الذى أكتشف مسئولية سكان الحضر بالنسبة لتقسيم حياتهم فى ضوء طرق الاتصال والقوى المتركزة فى المدينة ،

ومن خلال بعض الجماعات المحدودة مثل التنظيمات الطوعية • ويؤكد بارك على امكانية حرية الناس في المدن باعتبارها من اثار تقسيم العمل مقتضيا اهتمامات أستاذه جورج زيمل •

ويعتقد بارك أن محصلة هذه الانتماءات المتمايزة تبيين عدم امكانية التحكم في مستويات موحدة للسلوك في المدينة • حتى وان كان لمعظم سكان المدينة قواعد متشابهة للسلوك تحركهم دون حاجة الى قوة صارمة وعلى هذا يجب أن يتعاظم ما أطلق عليه بارك بالمدى الاخلاقي لسلوك المنحرف في المدن فليست هناك مؤسسة غير صارمة تستطيع أن تحد من عدم المتثلين • ولكى يجدد الانسان ويحرر ذاته من الجمود الثقافى القديم فانه قطعا لا يمتثل • ولهذا نظر بارك الى المدينة على انها وسط يسمح بظهور حرية الناس الذين يجب أن يتجاوز تطورهم الشخصى مستويات مجتمعة عامة والذين تعمل مبتكراتهم وتجديداتهم على ايجاد للتغير التاريخى فى المجتمع الحضرى ذاته •

وتتعارض هذه الحرية الحضرية الى تصورها بارك مع تصور زيمل للحرية فى المدينة فالحرية التى تصورها بارك هى حرية سلوكية ، وتتضمن مقدرة الناس على التعبير عن ذواتهم من خلال سلوك غير مرغوب فيه ويعمل المجتمع المحلى ككل على تقييدها • أما الحرية التى تصورها زيمل فلا تعترض هذه الحالة من الانحراف الاجتماعى ، أنها تجاوز تعويض يعنى الحيوية أو النشاط الداخلى للبحث عن الفردية من خلال الروتين الذى يرى زيمل أنه أحد ظروف الحياة المتروبوليتية • وبينما كان الانسان الحضرى الحر فى نظر بارك هو مبتكر ومنحرف ، فان الانسان الحضرى الحرفى نظر زيمل اكثر شبها بالراهب أو الناسك •

ويتمثل لسهام لويس ويرث بصفة خاصة فى محاولته لكشف الطرق التى من خلالها يؤثر تقسيم العمل كظاهرة حضرية على علاقات اقتصاديات

الحضر ، واستخدام الارض الحضرية وانماط العمالة ، الحضرية والبناءات الساسية الحضرية ، كما فى الاخرى ، ويرى اهمية انماط العـــلاقات المتبادلة لفهم مدى تاثير كل منها واتصالها بغيرها •

وتعتبر كتابات روبرت رد فيلد أهم كتابات مدرسة شيكاغو وتتميز اعماله بالتعميق حيث أن يدرس المدينة الحديثة معتمدا على مجموعـــة من الافتراضات المرتبطة بأساليب الحياة حاول غير الحضرية ، أو ما وسمه ردفيلد بالمجتمعات الشعبية « Folk » • وحاول ردفيلد بالاشتراك مع زيمل دراسته الشاب مليتون سينجر Milton Singer أن يوضح الفروق بين المجتمعات الحضرية والمجتمعات الشعبية وما يرتبط من هذه الفروق بتقييم شكل المدينة ذاته وبهذه الصورة استطاع ردفليد أن يرتبط بين ما توصل اليه علماء مدرسة شيكاغو من أهمية الخصائص الداخلية للمدينة ، وبين أعمال المدرسة الالمانية التى نظرت الى المدينة فى ضوء وبين أعمال اردرسة الالمانية التى نظرت الى المدينة فى ضوء السياق الشامل للمجتمع والتطور الاجتماعى •

ويتشابه منهج التحليل لدى ردفيلد مع ما ذهب اليه ماكس فيبر من أن كليهما استخدم صورا مركبة للمجتمعات ، نماذج مثالية ، لكى يعطى تصورا عقليا للمدينة ليس من الضرورى أن يكون قـــائما على معطيات تاريخية عقلية • واهتم ردفيلد باعطاء نموذج مثالى خاص يصور للقرية أوالمجتمعات الريفية بشكل يتعارض مباشرة مع وصف المدينة لدى بارك وويرث • ولقد اسهم ردفيلد فى ميدان المعرفة الانثربولوجية بتوضيح تاثير المجتمع غير الانقسامى فى الدين وممارســـة القــوى والجماعات القرابية • وكان يهدف فى كل حالة أن يوضح ما اذا يحدث عندما يتسم سلوك الناس بالطابع العاطفى ، وماذا يحدث عند اختفاءمبدأ تقسيم العمل والادوار فى حياتهم • ويؤكد ردفيلد على أهمية هذه المقارنة فى الدراسات الحضرية •

وأخذ ردفيلد هذه الفكرة البسيطة كحجر زاوية فى وصف ما يحدث للناس عندما يصبحون متحضرين • ويعتقد ردفليد أن الانتقال من المجتمع الشعبى الى المجتمع الحضرى يتسم على مرحلتين : الاولى نوع من الامتصاص البنائى داخل المدينة ، والثانية هى التغير الداخلى للاتجاهات العقلية للحضريين الجدد ، الا ان عملية التحضر التى وصفها ردفيلد تتسم بالغائية • حيث تتحدد بداية ونهاية الحركة من الثقافات الشعبية الثقافات الحضرية على اعتبار أنها عملية اجتماعية • ويتشابه هذا المنهج مع منهج ماكس فيبر حيث يفترض كل منهما ان غاية هذه العملية هى تحول الناس وأساليب حياتهم الى الحضر •

ويعتقد ردفيلد وسينجر — على العكس من فيبر — أن لدى المدن قوى نموها التى لا تفقدها خاصيتها المميزة ، لان المدن توجد على أساس بعدين هامين متكاملين الاول بعد غائى بميزها بالتجديد وبالتحول من الثقافة الشعبية الى ثقافة الحضر ، أما البعد الثانى فيتمثل فى العلاقات الوظيفية للمدينة بغيرها من عناصر المجتمع • ولقد أعطى رد فيلد وسينجر صورة قوية للمدينة باعتبارها عاملا سياسيا فى احداث التغير الاجتماعى • فالمدينة وسط من خلاله يندمج ايقاع التغير البشرى مع التقدم الحر للحياة الاجتماعية •

ثانيا اتجاهات الدراسة فى علم الاجتماع الحضرى :

لم يزل علم الاجتماع الحضرى — حتى الان — فى حاجة الى اطار نظرى واضح المعالم ، لكى يتمكن الباحثون من البدء فى الدراسة على اساس فروض قابلة للفحص تكون لها ثمرة فى نهاية الامر ، حتى لا يضيع الجهد فى اجراء دراسات عقيمة تنتهى منها الى مجموعة من القصاصات عديمة المعنى تضاف الى القصاصات المتركمة التى تحمل نفس الطابع والتى لا تسهم حتى الان فى تقدم المعرفة فى أطار النظرية أو اصلاح المجتمع (١) فقد اتسمت الدراسات الحضرية التى اجريت حتى الان بغلبة الوصف أو باتباع الطريقة الوصفية كما هو سائد فى كثير من موضوعات العلم الاجتماعى • مما ترتب عليه أن اصبح تسجيل ما هو قائم فى المدينة الامريكية هو الهدف الاساسى من قيام علم الاجتماع الحضرى • كما تسمت الدراسات الحضرية بغلبة الاتجاه الشخصى والتسليم بمجموعة من الدعاوى تقوم الدراسة على أسسها • مثل التسليم بالنظام الطبقى كأساس لتشريح المجتمع وبالمناطق المختلفة وضرورة وجودها • وكذلك التسليم بالتفرقة العنصرية بين مختلف فئات السكان • والتسليم بطبيعة المشاكل الاجتماعية وضرورة علاجها وأسبابها ، وأخيرا التسليم بالسلوك الانحرافى باعتباره أمرا لا مفر منه فى الحياة الاجتماعية • ومن أجل هذا ، كانت الدراسات التى ترد علم الاجتماع الحضرى تكاد ان تكون نسخة واحدة دراسة للايكولوجية وعملياتها ، ودراسة للتوزيع السكانى ، ودراسة للامراض الخاصة بالمدينة ••• دراسة للنظام الطبقى، دراسة لسيكولوجية ساكن المدينة ولا تكاد نجد غير ذلك اللهم الا فى بعض المسائل الصغيرة ، مثل تعريف المدينة كوحدة للدراسة ، وللفرق بينها وبين التجمعات الاخرى • والامعان فى وصف الحضرية باعتبارها خاصية

(١) د• محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع الحضرى ، ١٩٧٢ ، ص ١٠٨ •

أساسية تنبثق تلقائيا عن الوجود الحقيقى للحياة الحضرية (٢) ٠

ويمكن أن نعرض لاهم الاتجاهات النظرية فى علم الاجتماع الحضرى على النحو التالى :

١ ـ المدينة كمتغير أساسى :

يرجع تأكيد مفهوم المدينة وبلورته كمتغير أساسى فى علم الاجتماع الحضرى الى علماء الاجتماع الذين ينتمون الى مدرسة شيكاغو ، وعلى الاخص روبرت بارك Park ثم لويس ويرث Wirth ،وروبرت ردفيلد Red Field وآخرون من بعدهم ٠ ولقد انطوت محاولاتهم فى تفسير الحياة الحضرية على عدد من الصعوبات فتفسيراتهم التى تعتمد على المفاهيم الايكولوجية لم تكن مرتبطة تماما بمجهوداتهم فى تفسير الانساط الاجتماعى ، ذلك أن معظم الكتاب الذين تاثروا بروبرت بارك قد درسوا الايكولوجيا البشرية داخل ما يمكن أن يطلق عليه بأنه « اطار حيوى » Biotic وعلى الرغم من أن أصحاب هذه المدرسة قد قدموا تفسيرات مختلفة ، الا أن النظرية ذاتها قد استبعدت الظاهر الاجتماعية للعلاقات الانسانية المتبادلة بأعتبارها ميكانزما لتفسير الانماط الايكولوجية ، فى الوقت الذى أكدت قوى معينة مثل « المنافسة غير الشخصية » ، « والبيئة الطبيعية » (٣) ٠

ان نظرية لويس ويرث Wirth التى يذهب فيها الى ان المجتمع الحضرى الذى يتميز بالحجم ، والكثافة ، واللاتجانس هو الاساس المحدد للتنظيم الاجتماعى والسلوك ٠ (ويلاحظ أن ردفيلد ذهب الى أن اللاتجانس

---

(٢) المرجع السابق ص ١٠٩ ٠

(٣) مرجع سابق ٠ ص ١٩ ــ ٢٠ ٠

والاتصال هي الاساس المميز للمدينة) • وقد خلص ويرث الى أن الحضرية كاسلوب فى الحياة تتميز بالطمانية Secularization وظهور الجمــــاعات الثانوية والميل نحو تفت الادوار ، وعدم وضوح المعايير •

ومن الواضح أن كتابات ويرث تعكس روح عشرينيات وثلاثينيات هذا القرن وهى الفترة ألتى كان كثير من المثقفين الامريكيين ـ بما فى ذلك علماء الاجتماع ـ يحاولون أن يتكيفوا مع الضغوط الاجتماعية التى نشات ، ومنها الصــــراع الثقافى الناتج عن الهجرات التى وفدت على الولايات المتحدة ، ثم الكساد العظيم Great Depressionلذلك فانه يجب اخذ جانب الحيطة والجذر اذا ما حاولنا تطبيق نظرية ويرث على ثقافات أخـــرى •

يعرف لويس ويرث فى مقاله الكلاسيكى عن التحضر كاسلوب للحياة المدينة بانها محل سكن دائم ، كثيف وكبير نسبيا لاناس متقاربـــين اجتماعيا ، ويرتب على هذه الخصائص ملامح هامة ، يرتب عليها مثلا اختفاء روابط القرابة والحوار والمشاعر التى تنشا من المعيشة فيها لاجيال عدة التى تتميز بها الحياة فى الريف ، او على الاقل تضاؤل اهميتهـــا وينتج عن هذا ، فى رأية ، أن تحل المنافسة محـــل التعاون ، وتختفى الضوابط التقليدية ويظهر بدلا منها وسائل الضبط الرسمية • وأيا كان نمط التعامل الذى يشيع فى المدينة فليس هو العلاقات الوثيقة التى تسمح للفرد أن يتعامل مع الاخرين كشخص كامل ، وانما فى أدوار محدود غير مرتبطة بالضرورة ومن ثم فان الحياة فى المدينة تؤدى الى شـــيوع الفصـــام (٤) •

---

(٤) عزت حجازى ، القاهرة : دراسة فى ظاهرة التحضر ، منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ١٩٧١ ، ص ٦٣ •

كما أوضح لنا اوسكار لويس Lewis بعد اجراء بحث واقعى كيف أن التحضر فى مدينة المكسيك لايصاحبه بالضرورة انهيار فى النظـــام الاجتماعى والاخلاقى • كما أن أغلب الدراسات التى أجريت على « المدن السابقة على المرحلة الصناعية » Preindustrial Cities قد اكدت الاعتقاد الذى مداه أن ويرث وردفيلد قد بالغا فيما ذهب اليه ، وأن حيـاة المدينة يمكن أن تكون على درجة عالية من التنظيم (٥) •

وقد كان علماء الاجتماع الحضرى يركزون عنايتهم فى دراسة المدن ذاتها دون محاولة تعمق فهم الانساق الاجتماعية لهذه المدن أو الكشف عن سمات الحياة الحضرية وطبيعتها وتحديد ابعادها والتعرف على نموها وتطورها ولا يقل دراسة عملية التحضر عن الدراسة السابقة أهمية لانها تتضمن فى الواقع مظاهر كثيرة أهمها دراسة جماعات الافراد من سكان المدينة وهم يزاولون مختلف أنماط نشاطهم وبخاصة فى قطاع الصناعة• وقد شغل أذهان علماء الاجتماع الحضرى من الامريكيين وحدهم موضع دراسة المدينة كما اهتمت المؤتمرات الدراسية التى عقدت فى أمريكا ببحث امكانيات علم الاجتماع الحضرى بموضوعاته « من الواضح أن أسلوب الحياة فى المدن الحديثة على حد قول الاستاذ فيرث يتميز بأنه لا شخصى بالضرورة ، كما تغلب عليه صفة التعاقدية أى ان العلاقات بين أفراده تقوم على أساس رابطة الدم أو الجوار فهى من ثم علاقات مقتضبة سريعة الانتضاء من ناحية اخرى • وبديهى أن هذه العلاقات وان ظل جـوهر خصائصها واحداً ، الا أنها فى خصائصها الثانوية باختلاف الســكان

---

(٥) جورج ، مرجع سابق ، ص ٢٢ •

والزمان » (٦) ٠

٢ ـ القيم الثقافية كمتغير اساسى :

اما الاتجاه النظرى الثانى فيتصادم مع الاتجاه النظرى السابق ، من حيث انه يسعى الى تفسير التنظيمات الايكولوجية والاجتماعية الحضرية فى ضوء القيم الثقافية ٠ ولقد أسهم عدد من علماء الاجتماع فى تطور هذا الاتجاه مثال ذلك العمل الذى قدمه كولب Kolob وكذلك بحث والترفيرى Terfirey عن « استغلال الارض فى بوسطن » ٠ الذى يمثل جهدا اساسيا فى تحليل دور القيم فى التنظيم الايكولوجى للمدينة ٠ والواقع أن هذا التحليل قد منح هذا التوجيه النظرى قوة دافعة هائلة ذلك انه قد اثار كثيرا من الجدل ، بالرغم من أن العلماء الاجتماعيين قد جمعوا قدرا « هائلا » من البيانات يتناول نقطة « التوجيهات القيمية » Value orientation كمتغير حيوى فى تحديد انماط استغلال الارض فى المجتمع المحلى ٠ وهناك عملان اساسيان دعما قضية فيرى Firey وهى : دراسة روبرت ديكنشون Dickinson عن « المدينة الاوربية الغربية The West European والمقال الشهير الذى كتبه فون جرونباوم Von Grunebtum المدن الاسلامية فقد أوضح هذا المقال أن المدن الاسلامية التقليدية تتميز على وجه الخصوص بطريقة فريدة فى الحياة ، حيث تؤثر فيها القيم الدينية على نشاطات الحياة الحضرية ففى فترات منتظمة خلال اليوم يؤذن المؤذن لدعوة المؤمنين الى الصلاة ، وهذا اجراء يشغل الى حد ما مكانا فى النشاطات اليومية ٠ خلال شهر رمضان يعدل الناس من نشاطاتهم لكى تتفق مع القيود الدينية التى يفرضها الصوم

---

(٦) د٠ محمد خيرى ، « توطين الصناعة والعمليات والعلاقات الاجتماعية ، المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد الثانى العدد الثانى ، مايو ١٩٦٥ ، ص ٦٩ ـ ٧٠ ٠

من مشرق الشمس حتى غروبها وفى هذا الشهر أيضا يتحول انجاز بعض الاعمال من النهـار الى الليـــل ، كما قد تتوقف بعض المشروعـــات الاقتصادية (٧) ٠

لقد كتب وليم وايت Whyte مقالا حديثا ذهب فيه الى أن القيم الثقافية تعتبر مسئولة عن الحقيقة التى مؤداها أن بعض الناس يفضلون الاقامة فى المناطق الحضرية الامريكية بعد أن يعشوا فترة من الزمن فى الضواحى ، وهذا بدوره يؤثر على حجم المدن وكثافتها (٨) ٠

٣ ـ التكنولوجيا المتغير اساسى :

أما الاتجاه النظرى الثالث فى علم الاجتماع فيعتمد على التكنولوجيا باعتبارها متغيرا أساسيا وهذا يكون للتصنيع (الذى يمثل نظاما يستخدم طاقة غير بشرية) نظما خاصا من التكنولوجيا ٠ ومن رواد هذا الاتجاه أو جبران Ogburn وهاولى Hawley وبالرغم من ذلك كشف بعض رواد هذا الاتجاه عن عدم صدق بعض التصميمات الايكولوجية التى تتناول تاثير التكنولوجيا على الانماط المكانية والزمانية للمدن ٠ ذلك قد يتردد المرء فى التسليم مع أوجبرن فيما ذهب اليه من أن « ٠٠ طبيعة المدينة ، ومحال اقامتهم ، وأماكن عملهم تمثل انعكاسا لاحدى وظائف النقل المحلى، كما أن المدن ذاتها هى من خلق النقل البعيد المدى ٠٠) وما يقال عـن عبارة أو جبرن ، يقال أيضا بالنسبة لهاولى الذى ذكر أن « بعثرة السكان فى المراكز الحضرية انما هو رد فعل مباشر للسهولة « المتزايدة فى الحركة، وكما ذهبنا من قبل ، فان القيم ـ وليست الاعتبارات الاقتصادية ـ هى التى تسبب الانحرافات عن « الانماط المثالية » التى يفترض فيها أن

---

(٧) جورج ، مرجع سابق ، ص ٢٥ ٠

(٨) جوزج ، مرجع سابق ، ص ٢٥ ٠

تكون ناتجه عن التوسع فى التصنيع • وقد أوضحت دراسات دوتسون Dotson فى المكسيك ، وبعض الدراسات التى أجريت على مدن فرنسية ، ومسح اجراء جست Gist على مدينة بانجالور Bangalore بالهند ، أوضحت أن الاتجاه نحو الضواحى Suburbanization فى هذه المناطق كان ضئيلا • ومعنى هذا أنه أتجاه يختلف عما هو سائد فى المجتمع الامريكى والذى على أساسه صاغ كثير عن علماء الاجتماع تعميماتهم • وعلى الرغم من وسائل نمو الاتجاه نحو الضواحى ممكنه ، الا ان كثيرا من الاشخاص يفضلون الاقامة فى المدينة وخصة فى قلبها أو مركزها • ولقد كان ذلك — من الناحية التاريخية — رمزا للمكانات الاجتماعية العليا والواقع أننا لا نقصد بهذه الملاحظات أن نقلل من قيمه الدور الذى تلعبه التكنولوجيا فى الايكولوجيا الحضرية بل على العكس من ذلك فالتكنولوجيا تعتبر من اكثر المتغيرات اهميـــة وحيوية • ويبدو ذلك واضحا اذا ما قارنـا بين المدن الصناعية والمدن السـابقة على المرحلـة الصناعية (٩)

٤ — القوة كمتغير اساسى :

أما الاتجاه النظرى الرابع والاخير فيمثل المصلحة الخاصة ، الذىتعتبر القوة الاجتماعية فيهمتغير مستقلا ولقد ادخلوليام فورم Form هذاالاتجاه حديثا فى نطاق الايكولوجيا الحضرية ، لكى يفسر على اساسه انمـاط استغلال الارض الحضرية • والواقع أن هذا الاتجاه لا يزال بحاجة الى بلورة وتوضيح ، ذلك أن فورم قد أهتم فقط بما هو سائد فى المجتمعات المحلية الصغيرة ، ولم يستطع أن يوضح مدى فائدة هذا الاطـــار فى تحليل نمو المدن والتنظيم الاجتماعى الحضرى بوجه عام •

---

(٩) المرجع السابق ص ٢٩ •

ويمكن الاستعانة بالقوة أو المصلحة الخاصة على مستويات مختلفة من التحليل : المحلى ، والقومى ، والعالمى فقرارات القوة المحلية لها تاثير واضح على ايكولوجية المدينة وبنائها الاجتماعى • ان الافراد يستطيعون تحقيق أهدافهم اذا كانوا يمتلكون القوة السياسية الضرورية فاذا ارادت جماعة ما أن تحول منطقة للمقابر الى حى تجارى مثلا ، أو أن تحول منطقة سكنية الى منطقة تجارية ، فلابد وأن تملك بادىء ذى بدء القوة الكافية تستطيع التغلب على أية مقاومة (١٠) •

ومع ذلك فهناك ثلاث مداخل اساسية تتبع عند محاولة دراسة الظواهر الحضرية كما تستخدم فى الوصف السوسيولوجى والتحليل العلمى لهذه الظواهر وهذه المداخل هى (١١) :

أولا : المدخل الذى يصور المدينة على أنها مجتمع محلى نموذجى

ثانيا : المدخل الذى يصور المدينة على اعتبار انها مجتمع محلى يتميز بمجموعة مركبة من السمات •

ثالثا : المدخل يصور المدينة على اعتبار أنها امتداد للقرية •

ويمكن اضافة مدخلين اخرين الى هذه المداخل الثلاثة وهما : المدخل التاريخى والمدخل الايكولوجى • وسوف نعرض لهذه المداخل الخمسة فيما يلى :

١ ـ مدخل التحليل النموذجى :

ينظر الى التحليل النموذجى باعتباره نهجا قائما بذاته ، ويتوصل

---

(١٠) المرجع السابق ، ص ٣٥ •

(١١) د• محمد عاطف غيث ، مرجع سابق ، ص ١١٢ •

اليه الباحث عن طريق تحديد الخصائص اللازمة لموضوع أو ظـــاهرة معينة ، والوصول بها الى نهايتها المنطقية وصورتها الكاملة بغض النظر عن امكان تتبعها فى الواقع أو وجودها بصورتها المنطقية هذه فى مكان ما ولهذا فمن الصعب ان نتلمس واقعا تجريبيا لهذه الخصائص (١٢) ٠

أراد ماكس فيبر فى مؤلفه « المدينة » أن يكتشف نموذجا مـن التاريخ وأن يقف على الطبيعة الخاصة للظاهرة الاجتماعية الحضرية ٠ ولقد قبل الفكرة الشائعة فى وقته والتى مؤداها أن المدينة هى منطقـــة مزدحمة بالسكان حيث لا يعرف الناس كلا منهم الاخر على خلاف يحـدث فى الاماكن الاصغر ، ولكنه تنوق على غيره من السوسولوجيين بنظريته عن « المجتمع المحلى الحضرى » عند فيبر مجرد جمع أو تجمعات للنشاطات الانسانية ، ولكنه عبارة عن نمط واضح محدد المعالم من أنماط الحياة الانسانية ٠ ولكن ن تظهر المدينة بهذا المعنى فقط تحت شروط خاصة وفى مرحلة معينة من مراحل التاريخ ، ولقد توفرت هذه الشروط فى أوربا فى مدينة ما قبل الصناعة ٠ وأن فيبر قد اثبت أن هذه الشروط لم تكن موجوده فى كل انحاء اوربا ، وينبغى تحديد الوقت الحقيقى لظهور المدن على نحو دقيق (١٣) ٠

٢ ـ مدخل مركب السمات :

وهو متصل بالمدخل الاول أى المدخل النموذجى ٠٠ وكل الخلاف يقع فى ان مدخل مركبات السمات يستخدم صفات ملموسة او متغيرات يمكن ادراكها فى الواقع، كما ن يرد هذه الصفات المتغيرات يكون بصورة يفهم

---

(١٢) المرجع السابق ، ص ١١٣ ٠

(١٣) د٠ محمد الجوهرى ود٠ علياء شكرى ، علم الاجتمـــاع الريفى والحضرى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٨١ ، ص ٣٤٣ ٠

منها أذيا مرتبطة أحدها بالآخر علميا (١٤) •

رغم الفروق الفردية الكبيرة التى توجد بين أهل المدينة الواحدة، ورغم اختلاف المدن كذلك بعضها عن بعض من حيث مساحتها وكثافة السكان فيها ودرجة تحضرها وعدد المصانع بها • رغم هذه الفروق فانه يمكن القول بصفة عامة أن المدينة الحديثة مجتمع حضرى صناعى • وقد يضم هذا المجتمع الالاف من الناس ، كما قد يضم أحيانا ملايين منهم • وسمة هذا المجتمع البارزة هى أنه مجتمع لا يمكن أن يعيش منعزلا لان (وجوده) يفترض بداهة توافر مواصلات ووسائل نقل سهلة تمده بالمواد الاولية وبضائع التجارة ، ومعنى ذلك انه لا يمكن أن يقوم مثل هذا المجتمع دون الاعتماد على منطقة ريفية تزود بهذه الحاجيات الاساسية ، واذا كان ذلك شأن هذا المجتمع فكذلك شأن أفراده اذ لا يستطيع الفرد أن يعيش مكتفيا بذاته ، فان تقسيم العمل يؤدى الى اعتماد كل فرد على الاخر لتحقيق حاجاته ، ومعنى ذلك أن التخصصات المختلفة تسند وتشد بعضها بعضا (١٥) •

والمدينة زاخرة بالثقافات الفرعية وذلك لان سكان المدينة مختلفون من حيث العنصر Race والثقافة والدين أحيانا ، ويترتب على ذلك كله تنوع عديم القيم أما نواحى النشاط فكلها وسائل لغاية لاغايات فى حد ذاتها ، ولابد للسلوك أن يكون مبررا معقولا ولا علاقة للدين بحياة الانسان اليومية العادية والعلم يهدم التقاليد • وقوة الاداب الشعبية Folkways والاعراف تصدم بعضها ببعض لوجود جماعة تختلف فى عاداتها عن جماعة أخرى ، وايضا ، ولكونهم فى مكان محدود كان لابد

(١٤) المرجع قبل السابق ، ص ١١٥ •

(١٥) د• محمد خيرى محمد على • الريف والحضر وظاهرة الجريمة ، دار النهضة العربية ١٩٦٥ ، ص ٤٢ •

ان يسود بينهم التشريع وذلك لان الجزاءات الرسمية ضرورية لضبط السلوك أما النظم الاجتماعية فهى التى تحدد الادوار والمكانة ،هذا بالاضافة الى أن الشعور بالانتماء الى الجماعة We group fealing أضعف فى المجتمع الحضرى منه فى المجتمع الريفى (١٦) ·

ويترتب على هذه السمات تشخيص المدينة بأنها (١٧) :

(أ) تتصف بوجود الجماعات الاختيارية كالهيئات والنقابات ·

(ب) كما تتصف ببروز سمة الفردية ·

(ج) هذا بالاضافة الى أن عناصر الضبط الاجتماعى فى المدينـــة تتخذ الصورة الرسمية التى تتمثل فى القانون واللوائح والهيئات المنفذة·

(د) وتتصف المدينة كما يلخص ذلك فرانسيس ميريل فى كتابه المجتمع والثقافة بدرجة كبيرة من التسامح الاجتماعى الذى يظهر فى الحرية فى العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية ، ثم التحرر من القلق عند عدم وجود التطابق بين سلوك الجماعة وأفكار الفـــرد أو سلوكه ·

٣ ـ مدخل الامتداد الحضرى :

أما المدخل المفضل فيدور حول اعتبار الريف والحضر امتدادا واحد حيث يمكن أن نلحظ تدرجا مستمرا بين ما هو ريفى وبين ما هو حضرى الامر الذى يمكن معه أن نضع كل مقومات الانسان ونتائج نضـــاله مهما اختلفت خصائصها فى احد حلقات تلك السلسة المتصلة والمترابطة ·

---

(١٦) المرجع السابق ، ص ٤٢ ·
(١٧) المرجع السابق ، ص ٤٢ ·

ولهذا نعتبر أن هذا المدخل ينظر الى الريف والحضر على انهما علامتين على طريق واد مدخلا مختلفا الى حد كبير من المدخلين السابقين (١٨) ٠

٤ — المدخل التاريخي :

تناول ممفورد المدينة باعتبارها حقيقة تاريخية تراكمية فى المكان والزمان ومن هذا المنطلق فان تاريخها يمكن استقراؤه من خلال مجموعة التراكمات التاريخية ، فهي في تطورها من حيث الزمان تاخذ شكلا تتابعيا من حيث الوجوه التى مرت بها ، وهى كنتيجة لذلك التتابع الزمنى تعد تراكمية فى المكان ٠ وتعد المدينة الميتروبوليس Metropolis بمثابة مركز تتجسد فيه أعلى صور التراكم الزمنى والمكانى ومن ثم ينظر اليه باعتبارها بؤرة تجمع لسائر ما حققه الانسان فى ماضيه وحاضره ان المدينة هى المكان التى تلتقى فيه كافة موجهات الحياة المنتشرة والكثيرة وتظهر فيه فاعليتها الاجتماعية وقيمتها ، ففيها تتعدد وجوه الانتاج الحضارى كما تتحول بداخلها الخبرة والتجربة الانسانية الى اشارات ورموز حية وانماط السلوك وقواعد النظام (١٩) ٠

ومن بين العوامل الهامة فى التحول الى الحضرية التوسع التجارى وبخاصة منذ القرن السابع عشر اذا يرى ان الراسمالية بدات تمارس فعلها فى تغيير ميزان القوى فقد بدأ الحافز على التوسع الحضرى ينبعث أساسا من التجار ورجال المال واصحاب الاملاك الذين كانوا يهدفون أساسا الى خدمة مصالحهم الخاصة ، وقد نجم عن ذلك ان أصبح كل جزء فى المدينة بفعل الرأسمالية التجارية ليس ببعيدا عن يد التغيير متى كان هذا التغيير يمكنه أن يحقق لهم فائدة معينة (٢٠) ٠

---

(١٨) د٠ محمد عاطف غيث ، مرجع سابق ، ص ١١٦ — ١١٧ ٠

(١٩) أحمد منصور النكلاوى ، مرجع مذكور ، ص ١١٠ ٠

(٢٠) المرجع السابق ، ص ١١٢ ٠

ولقد اكتسب المنهج التاريخى أهميته فى مجال البحث الحضرى السوسيولوجى من الاعتبارات الاتية (٢١) :

١ ـ تقدم الدراسات التاريخية للمناطق الحضرية وصفا دقيقـا للمراحل التى مرت بها الظواهر الحضرية بل ولقيـام هذه الظواهر ، ويتضمن هذا الموقف تحديدا لسمات المنطقة الحضرية خلال مراحل التاريخ وتحليل وبيان طبيعة واتجاهات التغير التى طرأت عليها سواء من الناحية الجغرافية او العمرانية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ٠

٢ ـ تفيد الدراسة التاريخية فى بيان الاحداث والتيارات والحركات التى لعبت دورا اساسيا فى تطور المنطقة الحضرية ومن هذه الاحداث الحركات الدينية والسياسية والاجتماعية والتكنولوجية ٠

٣ ـ تحاول الدراسة التاريخية أن تحدد الشكل أو الطريقة التى استطاعت بها مجموعة الاحداث والحركات أن تؤثر فى مجرى الهيكل البنائى للمنطقة المدروسة ٠

٥ ـ المدخل الايكولوجى :

قام عدد من علماء الاجتماع المهتمين بايكولوجية المدن بوضع عدد من النظريات عن التوزيع المساحى والجغرافى للناس والخدمات فى المدن وذلك بعد أن قاموا بدراسة عدد من المدن يتفاوت بين باحث واخر (٢٢) ٠

ويرى « وليم أو جـبرن » وزميله ميير نيمـكوف » أن النمـط الايكولوجى للمدينة عبارة عن مركب من مجموعة من العناصر الثقافية

---

(٢١) المرجع السابق ، ص ٧٠ ـ ٧١ ٠

(٢٢) انظر فى هذا د٠ عبد المنعم شوقى ، مجتمع المدينة ، ص ١٥٧ ـ ١٧٠ ٠

الاجتماعية والجغرافية ويرجع الى هذه العناصر سبب تباين فى الانماط الايكولوجية داخل المدينة ، واذا كان هناك قدر من التشابه الطبوغرافى والاقتصادى فانه تشابه يساعد فى عمليات التصنيف للانماط والهياكل الايكولوجية فحسب ، فهناك النمط الدائرى وانماط المستطيل والنمط النجمى وهكذا (٢٣) ·

وسوف نعرض فيما يلى لاهم النظريات اطيكولوجية :

١ ـ نظرية النموذج الدائرى المتراكز : Concentric Zone

ونادى بهذه النظرية ارنست برجس بعد دراسته لمدينة شيكاغو وتتلخص هذه النظرية فى ان فئات الناس والخدمات فى المدينة تتوزع فى شكل حلقات حول مركز أساسى فى المدينة ·

هذا وقد لاحظ برجس من دراسته أز نسبة السكان الذين يملكون البيوت التى يسكنونها تتزايد كلما بعدنا عن مركز المدينة ، كما لاحظ أيضا ان نسبة تشرد الاحداث والبغاء ونسبة الاجانب أيضا فى وسط المدينة وتقل كلما ابتعدنا عن المركز ·

٢ ـ نظرية القطاع : Sector

نادى بهده النظرية هو مرعويت Hoyt بعد دراسته ١٤٢ مدينة من ناحية ايجارات المساكن ومميزاتها · وتتلخص هذه النظرية فى أن المدينة تنقسم الى قطاعات مختلفة لا حلقات وان السكان يتجهون فى انتقالاتهم فى حدود محور محدد كلما نمت المدينة وان اكثر المجموعات السكانية انتقالا هى الطبقات الغنية ، وبناء على هذه النظرية فان منطقة سكن الاغنياء لا تغطى حلقة باكملها فى المدينة وانما نمت ويحدث فى نفس الوقت

---

(٢٣) المرجع قبل السابق ، ص ٥٣ ·

فى القطاعات الاخرى من المدينة أى أنها تنتقل للخارج فى نفس القطاع، وبانتقال السكان من مركز المدينة الى الخارج تنتقل معهم ايضا بعض الخدمات وخاصة الخدمات التجارية كمحلات بيع الخضار واللحم والفاكهة والاجزخانات ودور السينما ، ومن ناحية أخرى فان نشأة بعض المصانع فى حدود المدينة تؤدى عادة الى أن ينتقل اليها العمال حتى يعيشوا بالقرب من أعمالهم •

٣ ـ نظرية النوايا المتعددة : Multiple Nuclic

نادى بهذه النظرية هاريس والمان Harris & Ullman وتتلخص فى أن هناك عدد من المراكز فى كل مدينة لا مركز واحد ، وان كل مدينة تختلف عن الاخرى فى نوع وعدد مراكزها ، ويرجع ذلك الى ما يلى :

(أ) تحتاج بعض نواحى النشاط فى المدينة الى تسهيلات خاصة فمكان التجارة القطاعى ينشأ عادة فى المراكز الذى يؤمه أكبر عدد من الناس وحتى الميناء ينشأ بجوار البحر وحى الصناعة ينشأ بجوار النهر أو البحر وعند التقاء الطرق او السكك الحديدية •

(ب) تستفيد بعض النواحى النشاط فى المدينة من وجودها فى مكان واحد فتجمع تجارة القطاع مثلا فى حى واحد يفيدهم جميعا لان هذا يسهل على العملاء عملية الشراء •

(جـ) تنفر بعض نواحى النشاط فى المدينة من بعضها فالطبقة الغنية مثلا تنفر من منطقة الصناعة وتسكن فى ابعد مكان عنها •

(د) لا تتمكن بعض نواحى النشاط فى المدينة من تحمل عبء الارض ذات القيمة المرتفعة فى وسط المدينة فتجار الجملة مثلا يبعدون عن وسط المدينة لانهم يحتاجون لمساحات كبيرة لتخزين بضائعهم ويتأمل التوزيع المساحى والجغرافى فى مدينتى الاسكندرية والقاهرة نجد انها تتفق مع هذه النظرية الاخيرة •

وتتفق الثلاث نظريات التى أشرنا اليها فى ان كل مدينة تنقسم الى مناطق ولكل منطقة منها مميزات خاصة وفيما يلى سوف نتناول وصف بعض هذه المناطق :

١ ـ منطقة رجال الاعمال المركزية :

تتجمع فى هذه المنطقة الادارات العامة للتجارة والبنوك وحكومة المدينة والمحلات التجارية الكبرى والفنادق ٠٠ الخ وتزدحم هذه المنطقة طوال اليوم تكاد تخل من السكان اثناء الليل اذ ينتقل سكانها الى مناطق سكنية أخرى فى المدينة وسعر الارض فى هذه المنطقة غالى جدا ٠

٢ ـ منطقة تجارة الجملة واصناعات البسيطة :

مبانى هذه المنطقة فى حالة سيئة عادة وترتفع فيها نسبة تشرد الاحداث والاجرام وسعر الارض فيها غالى ٠

٣ ـ منطقة سكن الطبقات الفقيرة :

تمتاز هذه المنطقة بالازدحام الشديد ويرتكز مشكلات المدن عموما ويسكنها عادة العمال والمهاجرين والطبقة الفقيرة عموما وكثيرا ما يسكن هؤلاء فى شقق مشتركة ٠

٤ ـ منطقة سكن الطبقات المتوسطة :

المبانى والطرق والخدمات فى حالة أحسن من المنطقة السابقة ويسكن الناس عادة فى هذه المنطقة فى شقق مستقلة ٠

٥ ـ منطقة اسفر اليومى أو الضواحى :

وتقع فى أطراف المدينة أو خارج حدودها ويترك كثير من سكان هذه المنطقة بيوتهم فى الصباح لكى يعودا فى وقت النوم ، وترتفع نسبة امتلاك السكان لبيوتهم فى هذه المنطقة عن غيرها من المناطق ٠

ثالثا المدينـــــة :

تتسم الحياة فى المدينة عن البيئة الطبيعية بتعقد عظيم أو بمركب صنعته البيئية التكنولوجية Technological Environment • كما تمتاز المدينة باحتكاكها المستمر بالعالم الخارجى والتخصص الكبير للعمل ، كما يحتوى المجتمع الحضرى على أعداد هائلة من الاشخاص الغـــير متجانسين فى أولهم ومنهم وطرق معيشتهم • وتمتاز المدينـــة أيضا بكثافتها وحشودها لدرجة انه لا توجد جماعات متحابة وودية ويرتبط السكان فى المدينة بالصحافة News والدعاية Publicity والقوانين الرسمية Formal Lows والضوابط غير الشخصية Impersonal controls كما تمتاز حياة المدينة بالتعقيد complexity واللاستقرار Instabitiy والروابط الغير مباشرة Indirect Interrelation (٢٤) •

والمدينة من الناحية السوسيولوجية البحتة عبارة عن «فكرة مجردة» ولكن العناصر التى تتكون منها ، مثل الاقامة والبناءات الداخلية ووسائل المواصلات • الخ عبارة عن موجودات مشخصة لها طابع مختلفة ولقد عرفت المدينة احيانا فى ضوء اصطلاحات قانونية ، ذلك أن المكان الذى يطلق عليه « المدينة » يكون عن طريق اعلان أو وثيقة رسمة تصـــدر عن سلطة عليا • كما أنها تعرف بطرق احصائية ـ كما فى الولايات المتحدة ـ بأن سكان المدينة يبلغون من العدد ٥٠٠٠ نسمة فاكثر ومن ناحية أخرى فهناك من يحدد المدينة بأنها المكان الذى أصبح من الكبر بحيث لم يعد الناس يعرفون بعضهم بعضـــا • بهذا تكون التعريفات التى تحاول أن تضع مقياسا واحدا لتحديد المدينة او لتعريفها غـــير ناجحة ، الامر الذى دعا كل من سوروكين وذمركان ومونيه وسمبارات الى

(٢٤) Barnes, Society in Trtnsition, Prentice - Hall N. Y., 1952, p. 389.

القول بان التعريف الصحيح للمدينة يجب أن يأخذ فى الاعتبار تعدد العوامل وارتباطها (٣٥) ٠

واذا كنا بصدد وضع تعريف محدد للمدينة فنقول ان علم الاجتماع ملىء بالتعاريف خصوصا اذا ما كنا بصدد دراسة السلوك الانسانى ٠ وهدف القارئ الاساسى هو اكتشاف حقيقة فهم أولئك الفلاسفة الاجتماعيين حين يحاول كل منهم تعريف الظاهرة ولا يتكلم ايريكسن عن الانسان الاقتصادى تعبير ـ ولكنه يدرس الجماعات الحقيقية وتمثلاتها فى الحياة الحضرية ٠ يقول أن مفهوم المدينة قد نال مختلف التعاريف والوصف نظرا لاختلاف اهتمامات الناس ويقول نلزاندسون فى مقال له عن التحضر والحضرية انه تبين من المؤتمرات الدراسية أن وعاء علم الاجتماع الحضرى يجب أن يتسع للدراسات الاتية : علم الاجتماع بوجه عام ، العلوم السياسية ، القوانين ، الاقتصاد السياسى ، الجغرافيا الاقليمية والاقتصادية ، علوم الانثروبولوجيا والايكولوجيا ، وقد أصبحت دراسة ظاهرة المدينة الكبيرة فى المجتمع الحديث موضوع اهتمام عالمى من كل مدارس علم الاجتماع فى الغرب والشرق ، ومن قبيل ذلك اهتمام هيئة اليونسكو بعقد حلقات دراسية متعاقبة لبحث ظاهرتى التحضر والتصنيع وما يقتضيه ذلك من دراسة ظاهرة التغير الاجتماعى (٢٦) ٠

١ ـ الجغرافيون :

نظروا الى المدينة كمكان يشتمل على الشوارع والمبانى والطرق ٠ وغير ذلك من الماديات التى تجعل حياة المدنية ممكنة ٠ ولقد كان وجه

---

(٢٥) د٠ محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٣ ، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٥ ٠

(٢٦) د٠ محمد خيرى ، مرجع سابق ، ص٧٠ ٠

اهتمامهم فى المحل الاول تبيان العلاقة المتبادلة بين المادة والعوامل الاجتماعية • وبينما يهتم الجغرافيون الاقتصاديون بمناطق التجارة فى المدينة والاسواق ، يحلل الجغرافيون الطبيعيون القوى الطبيعية والحياة الحضرية لبيان خصائص كــل منها • أما الجغرافيون الايكولوجيون فيتمركزون حول نماذج التكوين الفيزيقي التى تظهر فى المدينة كنتاج للعملية الاطرادية الشائعة • علاوة على تمركزهم حول بيان الخصائص المشتركة بين المدن • وهكذا تعتمد الدراسات الجغرافية على المشاكل وتعمم حالات الانتاج والاتصال والمواصلات وما شابه ذلك •

ان كلمة « المدينة » فى اللغة العربية واللغات السامية الاخرى مشتقة من « دان » دان يدين أى حاكم ، « الديان » القاضى • فهى مكان اقامة القاضى وفى هذا اشارة الى وظيفة الحكم والادارة وهى من أولى وظائف المدن فى التاريخ القديم وعلى الرغـــم من أن الجغرافيين يختلفون فى تعريفهم للمدينة الى أنهم يجتمعون حول خمسة أسس رئيسية لتعريفها وهـــى (٢٧) :

(أ) الاساس الاحصائى أو الكمى :

ويستند الى عدد معين للسكان بمعنى أن المجتمع السكانى أو المحله اذا وصل سكانها الى عدد معين تصبح مدينة ، ويختلف هذا الحـد العددى بين الدول ويتفاوت بين الف نسمة فى « تركيا » والحد عشر الف نسمة فى « مصر » • وأهم ما يوجه الى هذا الاساس العددى اختلاف

---

(٢٧) محمد محمود أحمد محمدين ، « نشأة المدن وعلاقتها بوفرة الغذاء »، مجلة كلية التربية ، جامعة الرياض ، السنة الاولى ، العدد الاول ، ١٩٧٧ ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٥ •

الدول حول تحديده • كما أنه ليس بمعقول أن تتحول المدينة الى قرية اذا ما نقص عددها •

(ب) الاساس الاداري :

وهو أن المدينة تحدد بمرسوم قضائي أو قرار اداري يعلن أنها مدينة على أن مراسيم اخن لم تعرف مناطق كثيرة ومنها الشرق الاوســـط ، والاساس الاداري اساس لاحق لوجود سابق ، فالمدينة وجدت أولا ثم استحقت أسمها •

(ج) الاساس التاريخي :

ويرى بعض الكتاب ومنهم « ماكس سور Max Sorre » أن التاريخ ييسر لنا تعريفا وافيا للمدينة • وأن الاثار التاريخية في أي تجمع عمراني أقدر على تفسير وجودها من عدد سكانها • ويعترض على هذا التعريف بأن هناك مدنا كثيرة بدون تاريخ مثل مدن التعدين والمدن الامريكية •

(د) الاساس الوظيفي :

ويعتمد هذا الاساس على نمط الحياة ، فالقرية تعتمد على الزراعة والمدينة ليست كذلك أى أن المدينة هي التجمع اللازراعي •

وقد عبر « روبرت لويز Robdrt S. Lopez » عن المدينة بانها ملتقى الطرق • وخير مثل على ذلك في نظره تعبير المصريين القدماء عن المدينة في كتابتهم الهيروغليفية حين رمزوا للمدينة بخطين متعامدين داخـل دائرة يدلان على الطرق المتقاطعة • وربما كان رمزوا المدينة الفرعونية هو اقصر وأقدم تعريف للمدينة يتفق ورأى لويز • وقد يعترض على ذلك بأن المصريين القدماء ربما لم يقصدوا برسم الصليب أن يرمزوا الى تقاطع الطـــــرق •

وقد عرف « ديكنسون ـ Dickinson » المدينة بانها تجمع عمرانى متكدس يعمل اغلب سكانه بحرف غير الزراعة كالتجارة والصناعة٠

(ﻫ) الاساس الظهرى العام :

ويتلخص هذا التعريف اننا يمكن أن نتعرف على المدينة من مظهرها العام ، اذ أنها قمة التطور الحضارى ٠ وتتضح بصمات هذا التطور فى مبانيها العامة وشوارعها ومصانعها، الا أن هذا التعريف لاينأى عـــن دائرة الاعتراض فهناك كثير من القوى ذات التخطيط الهندسى الحديث لا يختلف فى مظهرها عن كثير من المدن ٠

٢ ـ المؤرخون :

ويختلف اعتقادهم عن الجغرافيين اذ ينظرون الى المدينة على أنها تعبير مقترح للحضارة عن طريقة يخضع نكنيك الوثائق للتحليلات ٠

٣ ـ علماء السياسة :

وقد اعتبر المدينة كقالب للتنظيم السياسى ، وارتفعوا فى دراساتهم باهتمامهم بها لقياس مدى التماسك فيها بمدى كفاية الخدمات العامة المحلية ٠ وحاولوا ايجاد علاقات شتى بين المدينة والدولة والقطر والوكالات السياسية الفدرالية (الاتحادية) ٠

٤ ـ الاقتصاديون :

اعتبروا المدينة كمشروع اقتصادى ، وحاولوا جهدهم اكتشـــاف حقيقة السلوك الحضرى كنتيجة لتقسيم العمل واعتماد الناس المتبادل ومستويات الثروة ٠

ـ المحـــامون :

نظروا الى المدينة كنوع من القانون أو المجالس البلدية التى توضيع

عن طريق اشخاص متخصصين • وتتطلب ـ الاحتفاظ بالملكية وابرام العقود • وتحمل بقوتها هذه أشياء جمة لا يستطيع المحامى فعلهـا • فدراسة القوى القانونية وتطبيقها فى أى ناحية تهم المحامى فى المحل الاول فى دراسته للمدينة •

٦ ـ اخصائى الرعاية الاجتماعية الوظيفية :

ينظر الى المدينة كوسيلة للرعاية الانسانية ، ولا يجعلها كمشروع اقتصادى او حكومى بل يجعل منها أداة للاصلاح الاجتماعى وتحسين التعليم الحر وحماية الصحة وارتفاع مستوى المعيشة •

٧ ـ علماء الاجتماع :

يضعون فى اعتبارهم هذا السؤال : لماذا تعتبر المدينة كقالب للحياة الاجتماعية متميزة عن غيرها من أنواع الحياة الاجتماعية الاخرى ؟ ان عالم الاجتماع انما يدرس العلاقات الاجتماعية الخالصة واللاارادية للانسان ، ونعنى بمصطلح لا ارادى Consensual نموذج الاختيار فى الطرائق الشعبية والمعايير والتعاون والصراع بين أعضاء جماعة واحدة او جماعات متباينـــة • كيف نتعرف اذن على موضـوعنا ان عـالم الاجتماع الالمانى ماكس فيبر Max Weber قد أمدنا بنظرية تعرف كمدخل مثالى ، ولا يعنى استخدام اللفظ مثالى Ideal تقييم أى شىء وانما يرجع الى بناء معين لبعض عناصر الحقيقة فى مفهوم منطقى ومتناسق • وهدف ذلك التعرف على الحياة الحضرية كقالب لوجود الانسانى فى تعارضه مع الحياة الريفية اذ تختلف عناصر بناء الحياة فى الحضر عنها فى الريف ، وكذلك أنماط الحياة فى كليهما •

لقد كان فيبر يقصد من تعريفه للمدينة ، أن يقدم نموذجا مثاليا لظروف المدينة ، أى حالة للحياة الحضرية تستطيع أن تواجه القدرات الاجتماعية الكامنة فى هذا التنظيم للاقامة البشريـــة • ويفترض هذا

النموذج المثالى أنه من الممكن تتحيم وصف عقلانى أو رشيد لظاهرة اجتماعية ، ولكن هذا الوصف العقلانى قد قام اساسا على التطور التاريخى، ومعنى ذلك أن « النظرية العقلانية » عن المجتمع هى نتاج ، أى نتاج الخبرة الحقيقية للناس ، وليست مستندة الى فروض وأبنية فرضية تنتمى الى بعض المفكرين غير أن الصعوبة التى ينطوى عليها هذا الاتجاه ، تتمثل فى أن فيبر يحاول ان يحقق شيئا أوسع نطاقا من الوصف التاريخى للظواهر الاجتماعية لان المادة المتعلقة بحيرة الانسان ، وتاريخه سوف تستخدم فى بناء نموذج للحياة الاجتماعية ، تربط بين عناصره روابط عقلية ويمكن بهذه الطريقة اعطاء البناءات الاجتماعية الكبرى فى المجتمع شكلا منطقيا ، بغض النظر عن علاقتها الزمانية (٢٨) ٠

ويذهب بارك الى أنه يحاول فهم المدينة بوصفها مكانا ، وكذلك باعتبارها نظاما اخلاقيا Moral order وهو يعتقد أنه يجب وصف المدينة بطريقة يمكن معها ، عن طريق التحليل الوظيفى ، اظهار امكانيات الحياة الثقافية والاخلاقية ٠ أماما وصفه بارك بانه ايكولوجية المدينـــــة ecology of the city ، فانه لا يعنى الاقتصار على تتبع التقسيم المكانى الداخلى للمدينة ، او وضع خريطة لمختلف الاشياء التى توجد بها ، وانما هو ما أراده فى الحقيقة اكتشاف تأثير هذه الظواهر الفيزيقية فى خبرة سكان المدينة الانسانية والعاطفية ودورها فى تشكيلها (٢٩) ٠

يمثل النمط الحضرى للمدينة عند « لويس ويرث » شكلا من أشكال الترابطات الانسانية رسمية وغير رسمية ، تقوم على علاقات تخصصية قطاعية وغير شخصية وانتقالية ونفعية وقـــد نوه « ويرث » بضرورة

---

(٢٨) د٠ محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع الحضرى ، ١٩٧٢ ص٣١ ٠

(٢٩) المرجع السابق ، ص ٣٦ ٠

الاهتمام بالدعائم التالية وذلك عندما حاول وضع تعريف سوسيولوجى للمدينـــــــة (٣٠) ٠

١ ـ تحديد الخصائص الاساسية التى تتسم بها المدن على وجه العمــوم ٠

٢ ـ تحديد سمات التباين التى تفصل بين انماط المدن الصناعية والتجارية مثلا ٠

من هذه الدعائم انتهى « ويرث » الى وضع استخلاص مؤداه أن السمات البارزة فى البعد الاجتماعى الحضرى تتباين وفق حجم وكثافة المدينة وكذلك اختلاف أنماطها الوظيفية والمدينة على هذا النحو بناء يشخص هيكلها عناصر ثلاثة هى ٠

١ ـ بناء جغرافى ديموجرافى ايكولوجى ٠

٢ ـ تنظيم اجتماعى أهـم عناصره مجموعة النظم والعـــلاقات الاجتماعية القائمة ٠

٣ ـ مجموعة من الاتجاهات والافكار والسلوك الجمعى ٠

ان التعريف السوسيولوجي للمدينة لابد أن يسعى لانتقاء عناصر الحضرية التى تميزها كاسلوب متميز للحياة الجمعية للانسان ٠ ولهذا فان وصف المجتمع المحلى بناء على الحجم ليس صائبا ٠ وينطبق ذلك ايضا على بعض المقـاييس الاخرى مثل عـــدد السكان ، والامكانيات الفيزيائية المتاحة ، والنظم واشكال التنظيم السياسى ٠ ان أهمية هذه المقاييس ليس فى وجودها فى المدينة ولكن فى قدرتها على توجيه وتعديل

---

(٣٠) أحمد محمد منصور التكلاوى مرجع سابق ، ص ٥٩ ـ ٦١

وصياغة طابع معين للحياة الاجتماعية فى شكل حضرى • ان التعريف الحضرى الذى يمكن استخدامه ليس هو التعـــريف الذى يركز على الخصائص أو المتغيرات المشتركة بين كل المدن بل هو التعريف الذى يمكن أن يكتشف اختلافاتها •

رابعا : ايكولوجية المدينة :

كان ظهور الايكولوجية البشرية ضمن دراسات علم الاجتماع نتيجة للانتقاد الذى وجه الى علماء الاجتماع وفحواه انهم لا يضعون فى اعتبارهم عامل المكان أو الارض وتأثيرها على الجماعات الانسانية • وعلى ذلك فان الايكولوجية البشرية تهتم بدراسة التقسيمات المكانية والنظم التى توجد فى المجتمع الانسانى ، وهى علم مازال فى مرحلة التكوين فقد بدأ العلماء يفكرون فيه منذ عام ١٩٢٠ ثم أخذ ينمو حتى أصبحت دراسة الايكولوجية تشكل اتجاها قويا فى علم الاجتماع الامريكى • فقد كان بارك Park وزميله بيرجس Burgess أول من اهتما بهذا النوع من الدراسات فى أمريكا وأكد أهميته فى دراسات المجتمع الحضرى • وقد استعاره علماء الاجتماع من علمى البيولوجيا والحيوان ولذلك فالايكولوجيا تعنى العلاقة المتبادلة بين الانسان والبيئة ، ولا يقتصر مصطلح البيئة هنا على البيئة الطبيعية فحسب بل وأيضا يدخل فى نطاقها النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والبيئة التى خلقها الانسان من حوله كالتكنولوجيا وغيرها من مكونات الثقافة المادية ، وعلى ذلك فان التكنولوجيا والصناعة وغيرها من الملامح الفيزيقية للمدينة (٦٦) •

---

(٦٦) انظر فى هذا عرضا لكتاب « السلوك الحضرى » تأليف جوردون ايريكسون ، عرض وتحليل غريب سيد أحمد ، المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد الرابع ، العدد الاول ، يناير ١٩٦٧ •

ونظرا لان علماء الاجتماع كانوا يوازون بين الحياة الانسانيــة والحياة العضوية ، فقد استعاروا عددا من المفــاهيم من علمى الحيوان والنبات ، ومثل ذلك فيما يتعلق بالايكولوجيا البشرية ، ففى عام ١٨٢٩ ، كان ارنست هيكل Ernest Heackel من استخدم هذا الاصطلاح مستعيرا اياه من البيولوجيا لكى يشير به الى الحقيقــة التى مؤداها ســلوك الكائنات البشرية التى يتأثر بمعيشتهم معا • ولكن السؤال الذى يوجه الان هو ما هى الاشياء التى يتفق فيها النبات والحيوان مع الانسان المتحضر من وجهة النظر الايكولوجية ؟ ويجيب العلماء على هذا السؤال بقولهم أن الايكولوجية باعتبارها تدرس العلاقة المتبادلة بين الانسان والبيئة ترى أن البيئة تؤثر على الحيوان كما تؤثر على الانسان ، فهى تقود الحيوانات الى التنانس فيما بينها • وثمة عدد من الاختلافات بين المجتمع البشرى وبين تجمعات النبات أو الحيوان وهى : •

١ ـ الحيوان أقل تحركا من الانسان

٢ ـ فيما يتعلق بالكائنات البشرية يجب أن نضع فى الاعتبار التفاعل الاجتماعى ، الانسانى علاوة على ذلك مخلوق مبدع ، وعلى ذلك فالانسان وحده هو القادر عى اقامة الحضارات الفنية بينما الحيوانات والنباتات تتحرك من خلال البناء النسيولوجى أو الغزيرى •

٣ ـ كما أن الانسان وحده هو القادر على اقامة الثقافة بجانبيها المادى واللامادى •

٤ ـ وأخيرا فان الانسان لا يتوافق مع الطبيعة أو البيئة توافقا سلبيا كما هو الامر بالنسبة للنباتات والحيوانات اذ يؤثر فى البيئــة ويتأثر بها فى ان واحد ، كما أنه الى جانب معيشته فى البيئة الطبيعية يعيش فى بيئة خلقها هو بنفسه •

واذا تحدثنا عن المنهج المتبع فى دراسات الايكولوجيا الحضرية فان

الاهتمام موجه أساسا فى هذا النوع من الدراسات الى ما حاول الانسان أن يضعه من منتجات ثقافية لكى يتوافق توافقا مريحا مع البيئة ، بدلا من التركيز على النطاق الجغرافى للمدن • وبذلك فقد أصبح تقسيم العمل بين علماء الاجتماع وعلماء الايكولوجيا فى دراسة المدينة أكثر وضوحا فعلم الاجتماع يهتم بدراسة العلاقات الشعورية بينما تهتم الايكولوجية بدراسة العلاقات اللاشعورية بين الناس ، وتركيز الايكولوجيا على دراسة الكيفية التى تؤثر بها البيئة الطبيعية والتكنولوجية على حياة الناس فى المجتمع الحضرى • وعلى ذلك فان عالم الايكولوجية الحضرية لا يجب أن يغفل الحقائق المتعلقة بالثقافة مثل :

١ ــ أن الثقافة تضع حدود الاشياء وتحدد ما هو ممكن وما هو عادى •

٢ ــ تضع القواعد التى عن طريقها تؤدى الاشياء •

ولما كان الانسان يؤثر فى البيئة الطبيعية عن طريق ما يصنعه من ثقافة مادية فقد تحول اهتمام علماء الايكولوجية من الطبيعة الى الانسان، وحاولوا أن يربطوا بين التكنولوجيا وعملية بناء المجتمع • كما حاولوا دراسة العلاقة بين التنقل أو الحراك Mobility والاماكن التى تتركز فيها الصناعات التكنولوجية وغيرها من منتجات الثقافة المادية • ويلاحظ ايريكس أن انتقال الناس من مواطنهم الطبيعية يزداد الى تلك المناطق التى يتركز فيها النشاط التكنولوجى •

ويرى ايريكس أن التكنولوجيا تؤثر تأثيرا عميقا فى العلاقات الاقتصادية بين الناس وذلك فى تأكيده أهمية وسائل النقل والعلاقات الاقتصادية التى وسعت حدود السوق العالمية والمجتمع الاقتصادى والتكنولوجيا قد ساعدت على زيادة الانتاج الكبير والتوزيع وهى مسئولة مباشرة عن وجود النظام الراسمالى والمراكز المتروبوليتية الكبرى •

ويقل تاثيـر التكنوجيا النظام السـياسى اذ يرى ايريكس أن السياسة تتأثر بالعـلاقات الشخصية والاخلاقيـة اكثر من تاثيرها بالعلاقات الفيزيقية • كما يعتبر نسق العلاقات الاخلاقية أقل رسمية من العلاقات السياسية • والتكنولوجيا تسمح بتدعيم شبكة الاتصال بين الافراد والجماعات وتؤدى الى حدوث العمليات الاجتماعية فى المجتمـع مثل الصراع والتسابق والتمثيل •

وتستطيع التكنولوجيا أن تعمق صلات الناس بعضهم ببعض عن طريق تقريبها بين المتباعدين فى المكان فهى تدعم وسائل الاتصال وبذلك يتضح الفرص لاحتكاك الثقافات ومعرفة الانسان بثقافات قد يتعذر عليه أن يخبرها طوال حياته كلها • أما عن العلاقة بين الايكولوجيـا والتفكك الاجتماعى هى أن الايكولوجيا تدرس المشاكل الاجتماعية التى قد تنجم عن زيادة السكان أو عن سوء توزيعهم فى المكان وتحركهم أو انتقالهم الافقى وتقسيم العمل بينهم • وفى النهاية يمكن أن نقول ان الايكولوجيا البشرية هى وجهة نظر جديدة مدرسية غنية فى البحث يمكن ان تضاف الى العلوم الاجتماعية الاخرى •

هذا ويتأسس بناء المدينة الاجتماعية على الجانب الجغرافى ، فالمدن لا تنمو بذاتها ولهذا ينبغى أن نعرض لاثر البيئة والهجرة والمحل والموقع ونظرية التمركز المكانى باعتبارها عوامل مسـاعدة على نشأة المـدن ونموها •

أما عن البيئة فانه من الضرورى لفهم طبيعة الحياة الحضرية ان نضع فى الاعتبار الخصائص الفيزيقية لها كالمناخ والتربة والسطح وهى التى يقوم عليها تنظيم المدينة ، ويؤكد أصحاب النزعة البيئية اهمية البيئة فى تحديد الحياة البشرية ، بينما ينكر أصحاب الاتجاه الاخر أثر البيئة ويأخذون فى اعتبارهم جهود الانسان فى تشكيل البيئة لصالحه • فقـد

استطاع أن يحول مجرى الانهار وأن يدمر الجبال العالية ، بعبارة أخرى انه يشكل البيئة لكى يحيا حياة مستقرة ٠

اما عن الهجرة Migration فان بعض العلماء يحاولون دراستها عن طريق النظر الى عامل واحد هو العامل الجغرافى ويقولون أن البيئة الجغرافية تساعد على تحديد اتجاه المهاجرين ٠ ولكنه يرى أننا لا نستطيع أن نفسر ظاهرة مثل الهجرة بالعامل الجغرافى وحده بل ان تحركات السكان قد تكون راجعة الى عوامل ثقافية أو عوامل متصلة باعمالهم الرسمية أو الحكومية ٠

اما عن المحل والموقع Site & Situation فان علماء الاجتماع الحضرى يهتمون بالجغرافية الى المدى الذى تؤثر فية على الحياة الاجتماعية فى المجتمعات الحضرية ،ويمكن أن نحدد هذه المسائل كالاتى :

١ ـ طبيعة المناخ الذى يعيش فيه الناس ٠

٢ ـ خصائص السطح من حيث وجود جبال أو هضاب ٠

٣ ـ طبيعة التربة ٠

٤ ـ وجود أو عدم وجود مصادر الطاقة ٠

ونعنى بمصطلح المحل Site خصائص البيئة المحلية ، ومثال ذلك المكان الذى تقوم على مدينة بعينها ، أما مصطلح الموقع Situation فيشير الى موضع المجتمع على سطح الارض ٠ وترجع اهمية الموقع فى انه يأخذ المحل فى اعتباره ولكن بالنظر اليه فى اطار المكان أو البيئة ككل ، كما ان الموقع يساعد فى توضيح امكانية نمو المدن ٠

وتعتبر نظرية التمركز المكانى احدى المداخل النظرية لدراسة توزيع مواطن النشاط البشرى كالدراسة التى قدمها الجغرافى والتركز يستلزم

Walter Christaller ومضمون هذه النظرية أن منطقة معينة من الاراضى المنتجة يمكن أن تدعم مركزا حضريا وتكون حولها منطقة تابعة تعتمد عليها ، وتفترض هذه النظرية أنه كلما اتسع حجم المدينة كلما زادت المناطق المعتمدة عليها اتساعا ٠

موجز القول أن المراكز التجارية والمراكز التى تتمتع بمواقع جغرافية هامة يجذب اليها أعدادا من الناس وذلك لتركز النشاط والخدمات فيها وهذه الحقيقة يتدارسها علماء الاجتماع الحضرى ٠

وعندما نبحث فى العلاقة بين التكنولوجية وتوطين المدن فان هناك ارتباط قوى بينهما حيث أن الاختراعات الحديثة واقامة المصانع ووسائل الاتصال اقامت من حولها مجتمعات متعددة ولقد كان وليام اوجبرن أحد علماء الاجتماع الذين دعموا هذا الاتجاه ، فدراسته عن التغير الاجتماعى كانت تميل الى اعتبار التكنولوجيا عاملا موجها لكل تغير ، حتى انه كان يرى أن الجانب المادى من الثقافة يميل الى التغير بصورة أسرع من الجانب اللامادى الامر الذى يؤدى فى النهاية الى ما اطلق عليه اسم التخلف الثقـــافى Cultural Lag ٠

كما كان هناك أثر لقوة البخار والكهرباء وغيرها مثل اقامة طرق المواصلات التى مكنت من تقريب المتباعدين وغير ذلك من العوامل التى ساعدت على زيادة عدد المدن ولذلك يقال أن الحضرية ترتبط بالتصنيع والتغيرات التكنولوجية ارتباطا قويا

وتذهب العديد من الدراسات الى بيان العلاقة بين القيم المتعلقة بالارض فى المدينة ، والطريقة التى تستخدم بها هذه الارض ، لان قـيم الارض تتحكم فى توزيع الاشخاص والنظم فى المدينة ، ويرى كثير من المفكرين أن قيمة الارض ذات قيمة فعاله فى المناطق المحلية المنعزلة ، وترجع أهمية قيمة الارض فى أنها تحدد التنظيم الاجتماعى والثقافى والمهنى

فى المجتمع • كما أنها تحدد نماذج الابنية التى تقام عليها • وثمة عاملين اساسيين يدخلان فى الاعتبار عند دراسة قيمة الارض • الاول خصوبة التربة والثانى موقع الارض • وفى المناطق الريفية يكون العامل الاول هو الاساس فى قيمة الارض وتترتب على اساسه العوامل الاول هو الاساس فى قيمة الارض وترتب على أساسه العوامل الاخرى • وفى المدن يكون العامل الثانى هو الاساس فى قيم الارض وتترتب عليه العوامل الاخرى • كما أن دراسة القيم المتعلقة بالارض فى المدينة يمكن أن تشرح لنا تاريخ المدينة واقامة الاحياء المختلفة بها وتاريخ المنشات كذلك • ويهتم علماء الايكولوجيا بقيم الارض فى المدينة لانها تفسر التوزيعات المكانية فى علاقتها بالانسان •

خامسا : تعقيب ووجهة نظر :

من خلال عرض الاتجاهات النظرية فى علم الاجتماع الحضرى ، ومداخل دراسة المدينة وتحديد مختلف تعريفاتها ، نستطيع أن نعرض لتحليل نقدى لاتجاهات (كوستيللو) النظرية التى بنى عليها تحليلاته للموضوعات التى تناولها المؤلف •

١ ـ فلقد أخذ المؤلف بالتعريف الامريكى للمنطقة الحضرية ، وهى تلك المنطقة التى تشتمل على اكثر من خمسة الاف نسمة • وحاول أن يطبق هذا التعريف على مدن الشرق الاوسط • والمعروف ان تحديد الحضر فى مصر مثلا يأخذ بالتعريف الادارى حيث يتحدد الحضر وفق التعداد العام للسكان على انه يتضمن القاهرة والاسكندرية والسويس ، وبورسعيد والاسماعيلية وعواصم المحافظات الاخرى وسائر البنادر والمراكز ، وما دون ذلك فهو ريف • فكيف يمكن اذن أن نأخذ بتعريف معين دون أن نعرض لمختلف أوجه التعريف حتى نبرر اختيارنا لهذا التعريف • بل ان التعريف العددى الذى اتبعه (كوستيللو) قد يدخل فى نطاق الحضر ، تلك المناطق القروية التى يزيد عدد سكانها عن العدد الذى حدده بكثير بل باضافة

أحيانا ، كما يلاحظ فى مصر ، وخاصة اذا أضيف الى القرية توابعها والعزب التى تقع فى ناحية ادارتها •

والملاحظ أن المؤلف قد وقف على عدد من الدراسات الحضرية التى اجريت فى مدن الشرق الاوسط ، وهى تلك الدراسات التى انيحت له باللغة الانجليزية ، وبهذا غفل جانبا كبيرا من الدراسات الحضرية التى لو كان قد اطلع عليها لتغير تصوره لمجتمع المدينة بالشرق الاوسط •

٢ ــ ولهذا كان طبيعيا أن يهتم المؤلف بالظواهر الديموجرافية الخاصة بالمناطق التى تعيش فيها الناس ، الى جانب العمليات الاجتماعية التى تتطلب الاخذ بعناصر الثقافة المادية وغير المادية ، وبأنماط السلوك والافكار التى نشأت فى المدينة أو التى تميزها • وهذا يتطلب منه أن يعــرض للتحضر الفيزيقى للدلالة على المكان الذى يعيش فيه الناس ، والتحضر الاجتماعى للتعبير عن العمليات الاجتماعية التى يتضمنها التحضر • ولكى يتناول جانب التحضر الفيزيقى حاول أن يعرض لجغرافية المنطقة التى تسهل الاتصال بين هذه البلدان التى اختارها وفق التحديد الذى وضع منذ الحرب العالمية ، ولم يطبق بالفعل الاساسى الذى حدده هو ذاته اذ أن الامتداد الجغرافى والفيزيقى لهذه البلدان يجب أن يضع فى اعتباره بلدان أخرى كالمغرب العربى والسودان •

ومما يؤكد وجهة نظرنا هذه أنه عرض لوحدة المنطقة عن طريق عناصر دينية وثقافية واقتصادية ، ولذا كان هذا هو الاساس ، فلابد اذا ــ ان يتناول تلك البلدان التى اشتركت فى عناصر دينية واحدة كالبلدان التى انتشر فيها الاسلام ، والتى يهتم بها المؤلف ؛ وقد يرجع عدم اهتمامه هذا الى أن المراجع الاجنبية عن هذه البلدان لم تصل اليه ، ولذلك اقتصر على المتاح من مطبوعات • وهذا كان يتطلب منه أن يحدد عنوان بحثه عن التحضر فى بعض بلدان الشرق الاوسط ، وليس فى الشرق الاوسط ككل حيث حدد منطقة الشرق الاوسط بتلك المنطقة المتوسطة من هذه البلدان

وهى شبهالجزيرة العربية ،والمشرق ، والعراق • ورأى امكانيةادخال أو استبعاد أى بلدان أخرى تقع على أطراف هذه المنطقة ، ولذلك أدخل تركيا وايران من جانب ، ومصر وليبيا من الجانب الاخر ، بحجة أن لهـــا علاقات جغرافية وثيقة على المنطقة الاصلية ، مع أن الامتداد الجغرافى الطبيعى لمصر ــ مثلا ــ هو السودان •

٣ ــ يتساءل المؤلف هل أدى التحضر الاسلامى دورا فى حياة المدينة الحديثة ؟ أم أن هناك عوامل خارجية غيرت التراث الحضرى لهذه المنطقة وهو فى هذا يرى أن الدولة فى الشرق الاوسط أصبحت الان محركا أوليا فى التغير الاجتماعى ، وأن التركيب الاساسى للدولة يعمل على تحديد اتجاهات التغير الاجتماعى كما أنه يرى أن هناك فرق بين نظام الطوائف الدينية ــ كالموجودة فى لبنان مثلا ــ وبين التشريعات الدينية ، وان الطوائف لعبت دورها الكبير فى احداث التغيرات الاجتماعية أو اعاقتها ، وما زال للطوائف اثرها الواضح حتى الان • ومن ناحية أخرى يؤكد المؤلف على أهمية الاماكن المقدسة كالقدس ومكة والمدينة المنورة فى احدى التغيرات الاجتماعية بالمنطقة ، واعتبارها مركزا للاهتمام الدينى والعاطفى والسياسى • ويرى ان هناك اماكن أخرى ينظر اليها الناس بعين الاحترام والورع مثل المدن التى يدفن فيها مشايخ المسلمين وأئمة الاســـلام ، واذا كانت لارائه هذه صدى واقعيا ، الا أنه من الناحية العلمية قــد اتبع فى تحليله هذا المدخل الايكولوجى لدراسة المدينة وتقسيم المدن على أساس وظيفتها : والمعروف أن بعض المدن تتميز بالوظيفة الدينية ، ولهذا يجب أن نفرق بين دعوة الدين الى الاصلاح والتغيير نحو الافضل وما يرتبط بالمعاملات بين الناس ، وبين ما تقوم به الدول بالفعل عند تنفيذ هذه الدعوة الدينية • فلا يمكن بحال أن نرجع عوامل التخلف الى التمسك بالدين ، بل من الضرورى توضيح ذلك فى ضوء أسلوب التنفيذ ذاته •

٤ ــ وكان على المؤلف أن يبدأ ــ وفق مدخله الايكولوجى ــ تحليله بتوضيح دور المدينة فى احداث التحضر الاجتماعى بالشرق الاوسط ، وان

تكون نقطة انطلاقه متمثلة فى اختيار المدن التى لها اثرها بالفعل فى هذه المنطقة فلقد لعبت القاهرة مثلا دورا كبيرا فى احداث عمليات التحضر بمجتمع الشرق الاوسط وكانت لمصر ــ بالذات ــ تاثيراتها فى تحديث العالم العربى حيث تولت مهمة التعليم ونشر الثقافة ودفع معدلات التحضر فى هذا المجتمع ، بالاضافة أحدثه الازهر الشريف من تغيرات المفاهيم والتصورات الخاطئة وارساء قواعد الدين والدعوة اليها ، كجامعة ثقافية تعليمية دينية • كما أن تقدم المنطقة من الناحية السياسية قد تأثر وبطريق مباشر فيما حدث فى مصر ــ ذاتها ــ عام ١٩٥٢ ، حيث كانت ثورة يوليو بمثابة نقطة الانطلاق الرئيسية التى احدثت تغيرات حضارية وحضرية فى منطقة الشرق الاوسط باسرها لذلك كله ، كان على المؤلف الا يغفل دور مصر التاريخى هذا فى احداث التحضر والتحديث بالمنطقة •

فضلا عن كل ذلك ، فان الكاتب فى اختياره لبعض دراسات الحالة ، كان معجبا الى حد كبير بنموذج مدينة الكويت ، وعبدان ، وكاشان • وهذه المدن لا تحدد ملامح التحضر فى المنطقة ، ولذلك يصعب التعميم بناء على ظروفها الاستثنائية • وكان على الكاتب ان يتخير حالات دراسته من مدن أخرى مثل القاهرة أو بغداد ، أو ان يضع تصنيفا أو تنميطا Typology للمدن حسب وظائفها حتى يتسنى له الخروج بتعميمات منطقية يمكن ان تنطبق على مدن مشابهة •

وتتضح أهمية وجهة نظرنا عندما نلاحظ ان المؤلف يؤكد تاكيدا زائدا على التجربة الاسرائيلية واعجابه بها ، رغم أنه يدرك تماما الادراك انها حالة تاريخية استثنائية ، لا يمكن التعميم منها على التحضر فى الشرق الاوسط •

٥ ــ ان الباعث الحقيقى فى احداث التحضر بالشرق الاوسط يكمن فى التغيرات الاجتماعية والسياسية التى حدثت بعد حصول بلدان الشرق الاوسط على استقلالها فى السنوات الاخيرة • ومع عدم انكارنا لدور

المشروعات الصناعية الغربية أو الخبرة الاجنبيـــة فى تحديث الشرق الاوسط ، الا أن التحضر عملية منبثقة من داخل بناء المجتمع ذاته ، وما العمليات الخارجية الا عوامل مشجعة او معجلة لعمليات التحديث ذاتها •

وبهذا نرى أن المؤلف لم يستطع الاجـــابة بكفاءة على تســـاؤله الإساسى الذى ينحصر فى تحديد دور التحضر فى عنصر الدولة الاسلامية واثره على التحضر الحديث •

ملحـــــــق

التقدير الكلي والنسبة المئوية للسكان الذين يعيشون فى مناطق حضرية لبلدان مختارة

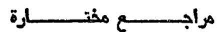
اعتمد فى هذه البيانات على الكتاب السنوى الديموجرافى للامم المتحدة عام ١٩٧٤ .

الشرق الاوسط وشمال افريقيا	السنة	مجموع السكان بالالف	نسبة الحضر
الجزائر	١٩٦٦	١١٨٢١	٣٩
	١٩٧٤	١٦٢٧٥	٥٢
البحـرين	١٩٧٢	٢٢٣	٧٨ر١
مصر	١٩٦٦	٣٠٠٧٥	٤١ر٣
	١٩٧٤	٣٦٤١٧	٤٤ر٣
ايران	١٩٦٦	٢٥٠٧٨	٢٥ر٤
	١٩٧٤	٣٣٠٩٣	٤٣ر٣
العراق	١٩٦٥	٨٠٤٧	٥١ر١
	١٩٧٣	١٠٧٦٥	٦٢ر٦
اسرائيل	١٩٦٦	٢٦٢٩	٨١ر٨
	١٩٧٣	٣٢٧٧	٨٢
الاردن	١٩٧٣	٢٥٣٥	٤٣
الكويت	١٩٦٥	٤٦٧	٩٤
لبنـــان	١٩٧٠	٢١٢٦	٦٠ر١
ليبيـا	١٩٦٦	١٦١٧	٢٥ر٤
	١٩٧٤	٢٢٤٠	٢٥ر٨

مراكش (المغرب)	١٩٦٦	١٣٣٢٣	٣٠ر٥
	١٩٧٤	١٦٨٩٠	٣٧ر٩
سوريا	١٩٦٦	٥٥٠٠	٤١
	١٩٧٤	٧١٢٠	٤٥ر٩
تونس	١٩٦٦	٤٥٢٣	٤٠ر١
تركيا	١٩٦٦	٣٢٠٢١	٣٤ر٩
	١٩٧٤	٣٨٢٧٠	٤٢ر٦
امريكا الجنوبية :			
البرازيل	١٩٦٦	٨٣٣٤٣	٥١ر٦
	١٩٧٤	١٠٤٢٤٣	٥٩ر١
شيلى	١٩٧٠	٨٨٥٣	٧٦
كولومبيا	١٩٦٦	١٨٦٢٠	٥٥ر٥
	١٩٧٤	٢٣٩٥٢	٦٤ر٣
اكوادور	١٩٧٤	٦٥٠٠	٤١ر٣
جويانا	١٩٧٣	٧٥٧	٤٠
باراجواى	١٩٧٠	٢٣٨٦	٣٥ر٧
بيرو	١٩٦٦	١٢٠١١	٥٠ر٢
	١٩٧٤	١٥٣٨٢	٥٥ر٣
فنزويلا	١٩٦٦	٩٠٣٠	٧٢ر٤
	١٩٧٠	١٠٣٩٨	٧٥ر٧
افريقيـــا :			
بوتسوانا	١٩٦٦	٥٢٤	٤ر٥
	١٩٧٤	٦٦١	١٢ر٣
بوروندى	١٩٦٥	٣٢١٠	٢ر٢
	١٩٧٠	٣٥٤٤	٢ر٢

الكاميرون	١٩٧٠	٥٨٣٦	٢ر٢٠
جمهورية افريقيا الوسطى	١٩٦٦	١٤٧٣	٦ر٢٦
تشـــاد	١٩٧٤	٣٩٤٩	٩ر١٣
داهومى	١٩٧٣	٣٩٤٨	١ر١٣
اثيوبيا	١٩٦٥	٢٢٥٩٠	٨ر٦
	١٩٧٤	٢٧٢٣٩	٣ر١١
جابون	١٩٧٠	٥٠٠	٣٢
جامبيا	١٩٧٢	٣٨٣	٢ر١٤
غانـــا	١٩٧٤	٩٦٠٧	٤ر٣١
كينيـــا	١٩٦٩	١٠٩٤٣	٩ر٩
ليبيريا	١٩٧١	١٥٧١	٦ر٢٧
مدغشقر	١٩٦٦	٦٢٠٠	٧ر١٢
	١٩٧٠	٦٧٥٠	١ر١٤
مالاوى	١٩٦٦	٤٠٣٩	٥
موريتنيـــا	١٩٦٥	١٠٥٠	٧ر٦
	١٩٧٤	١٢٩٠	٧ر٢١
موريتنيـــا	١٩٦٥	٨٢٢	٩ر٤٣
نيجيريا	١٩٦٣	٥٥٦٧٠	١ر١٦
روديسيا	١٩٦٦	٤٦٢٠	٩ر١٥
	١٩٧٤	٦١٠٠	٤ر١٩
جنوب افريقيا	١٩٧٢	٢٢٩٨٧	٩ر٤٧
الصحراء الاسبانية	١٩٧٤	١٠٧	١ر٤٥
السودان	١٩٦٦	١٤١٢٠٠	٦ر١٠
	١٩٧٤	١٧٢٢٤	٢ر١٣

سوازيلاند	١٩٦٦	٣٧٤	٧ر١
	١٩٧٣	٤٦٣	٧ر٩
تانزانيا	١٩٦٧	١٢٢١٣	٥ر٥
	١٩٧٣	١٤٣٧٦	٧ر٣
توجـــو	١٩٧٤	٢١٧٠	١٥ر٢
أوغندا	١٩٧٢	١٠٤٦١	٧ر١
زائير	١٩٦٦	١٨٢٨٧	٢١ر٦
	١٩٧٤	٢٤٢٢٢	٢٦ر١
زامبيا	١٩٦٩	٤٠٥٦	٣٠ر٤
	١٩٧٣	٤٦٣٥	٣٤ر٣


مراجــــع مختــــارة

Abdel-Latif, A. H. «The Encological and Social Structure of Alexandria, Egypt: An Examinatian of Urban Subarea Data, 1947 and 1960, Unpublished Ph. D. thesis. Ohio State University. 1970.

Abu-Lughod, J. «Migrant adjustment to city life : the Egyptain cases», American Journal of Sociology 57 (1961), 22 - 32.

«Urban-Rural differences as a function of the demographic transition: Egyptian date and an analytical model», American Journal of Sociology 69 (1963), 476 - 90.

«Urbanization in Egypt», Economic Development and Cultural Change 13 (1956a), 313 - 43.

«Tale of two cities: the origins of modern Cairo» Comparative Studies in Society and History (1965b), 429 - 57.

«Varieties of Urban Experience: Contrast, Coexistence and Coalescence in Cairo» in Middle Fastern Cities, ed. I.M. Lapidus, Berkeley and Los Angeles, 1969.

«Rural Migration and Politics in Egypt» in Rural Politios and Social Change in the Middle East, ed. R. Antoun & J. Harik, Bloomington. Ind., 1972.

Admiralty. Handbook for persia, London, 1945.

Ajami, « Socitl classes, family demographic characteristics and mobility in three Iranian villages» Sociologia Ruralis 9 (1969), 62 — 72.

Antoun, R. and Harik, I. Rural Politics and Social Change in the Middle East, Bloomington, Ind. 1972.

Ash, J. «The Progress of New Towns Israel,», Town Planning Review 45 (1974), 389.

Aubin, J. Elements pour l'etude, des agglomerations urbaines dans l'Iran Medieval» in The Islamic City. ed. A. Hourani & S. Stern. Oxford 1970.

Azeez, M. M. «Geographical Aspects of Rural Migration from Amara Province Iraq. 1955 - 1964 », Unpublished Ph. D. thesis, University of Durham, 1968.

Baali, F. « Agrarian Reform in Iraq: Some Socio- Economic Aspects», The American Journal of Economics and Sociology 28 (1969), 61 — 76.

Baer, G. Population and Society in the Arab East, London, 1964.

Studies in the Social History of Modern Egypt. Chicago, 1969.

«The Administrariopn, Economic and Social Functions of Turkish Guilds», International Journal of Middle East Studies I (1970), 28 — 50.

Bahrambeygui, H. « Tehran: An Urban Analysis» Unpublished M. A. Thesis, University of Durham, 1972.

Barth, F. Principles of Social Organisation in Southern Kurdistan, Oslo, 1953.

Bartsch, W. H. «Unemployment in Less Developed Countries: A Case Study of a Poor District of Tehran», International Development Review 13 (1971), 1922.

Beeley, B. W. «The Turkish VillageCoffeehouse as a social institution Geographical Review, 60 (1970).

Berry, B. J. L. City Size Distributions and Economic Development. Department of Geography Research Paper No. 2 Chicago, 1961.

The Human Consequences of Urbanisation, London, 1973.

Benedict, P. «Ula, The Decline of a Regional Centre», Unpublished Ph. D. thesis, University of Chicago, 1970.

Bharier, J. «A note on the population of Iran, 1900 — 1966», Population Studies 22 (1968), 273 9.

Blake, G. H. Misurata: A Market town in Tripolitanis, Department of Geography Research paper Series No. 9, University of Durham, 1968.

«Israel: Immigration and Dispersel of population», in Popeulations of the Middle East and North Africa, ed. J. I. Clarke and W. B. Fisher, London, 1972.

Marketing in the Misurata region of Libya: tradition and change, Paper presented at the Annual Conference of the Institute of British Geographers, Oxford. 1975.

Bourgey, A. and Phares, J. Les bidonvilles, de l'gglomeration de Beyrouth», Revue de Geographie de London 48 (1973), 107-39.

Bowen - Jones; H. «Agriculture ». in The Cambridge History of Iran, Volume I, Cambridge, 1968.

Breese, G. The City in Newly Developing Countries. Readings on Urbanism and Urbanization, Englewood Cliffs. New Jersey, 1969.

Byron, R. The Road to Oxiana, London, 1950.

Clark; B. D. Iran: Changing Population Patterns», in Populations of the Middle East and North Africa, ed. J. I. Clarke & W. B. Fisher, London. 1972.

and Costello, V. F. « The urban system and social patterns in Iranian cities» Transaction of the Institute of British Geographers 59 (1973), 99 — 128.

Clarke, J. I. The Iranian City of Shiraz, Department of Geography Research Papers Series No. 7, University of Durham, 1963.

«Introduction», in Populations of the Middle East and North Africa, ed. J. L. Clarke & W. B. Fisher, London, 1972.

and Clark, B. D. Kermanshah: An Iranian Privincial City, Centre for Middle Eastern and Islamic Studies Publication No. I, Department of Geography Research Paper Series No. 10, University of Durham, 1969.

and Fisher, W. B. (ed.) Populations of the Middle East and North Africa, London, 1972.

Costello, V. F. Kashan. A City and region Iraq, London, 1976.

«The Industrial Structure of a Traditional Iranian City», Tidjschrift Voor, Economische en Sociale Geografie 2 (1973), 108 - 20.

Darwent, D. «Urban Growth in Relation to Socio - Economic Development and Westernisation - A Case Study of the City of Mashad. Iran», Unpublished Ph D. thesis, University of Durham, 1965.

Dewdney, J. Turkey, London, 1971.

«Turkey: recent population trends», in Populations of the Middle East and North Africa. ed. J. I. Clarke & W. B. Fisher, London, 1972.

«Syria: patterns of population distribution», in Populations of the Middle East and North Africa, ed. J. I. Clarke & W. B. Fisher, London; 1972.

Dodd, P. C, Family honour and the forces of change in Arab society», International Journal of Middle East Studies 4 (1973), 40-54.

Dunham, D. «The courtyard hous as a temperature regulator», The New Scientist (1960), 663 — 6.

Dwyer, D. J. (ed.) The City in the Third World; London; 1974.

Elkabir, Y. A. «The Assimilation to Rural Migrants in Tripoli, Libya», Unpublished Ph. D. thesis. Case Western Reserve, 1972.

English. P. W. City and Village in «Iran· Settlement and Economy in the Kirman Basin, London, 1966.

Fathy, H. «Constancy: Transposition and Change in the Arab City», in From Medina to Metropolis, ed. L. Carl Brown, Englewood Cliffs. New Jersey. 1973.

Fernea. R. A. «Land Reform and Ecology in Post - Revolutionary Iraq». Economic Development and Cultural Change 17 (1969), 356 — 81.

«Gaps in the Ethnographic Literature on the Middle Eastern Village : A Clasaificatory Exploration»; in Rural Politics and Social Change. ed. R. Antoun & I. Harik. Bloamington. Ind. 1972.

and Fernea, E. W. «Iraq». Focus 20 (1969).

Firench. G. E. & Hill. A. G. Kuwait: Urban and Medical Ecology. Heidelberg. 1971.

Fisher. W. B. «Jordan: a demographic shatter - belt». in Population of the Middle East and North Africs, ed. J. I. Clarke & W. B. Fisher. London. 1972.

«Lebanon: an ecumenical refuge». in Populations of the Middle East and North Africa, ed. J. I. Clarke & W. B. Fisher. London. 1972.

Floor, W. M. «The Guilds in Iran - an Overview from the Earliest Beginnings till 1972», Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesesllschaft 125 (1975), 99 — 116.

Gibb, H. A. R. and Bowen, H. Islamic Society and the West. London 1950.

Goitein, S. D. A Mediterranean Society: The Jewish Community of the World. Vol, I: Economic Foundations, Cambridge, Mass, 1967.

«Cairo: An Islamic City in the Light of the Geniza Documents», in Middle Eastern Cities. ed. I. M. Lapidus, Berkeley and Los Angeles, 1969.

A. Mediterranean Society: The Jewish Community of the Arab World Vol. II: The Community. Cambridge, Mass, 1971.

Graber, O. «The Illustrated Maqumat of the The Thirteenth Can tury The Bourgeoisie and the Arts», in The Islamic City, ed. A. Hourani & S. Stern, London, 1970.

Gulick, I. Tripoli: A Modern Arab City, Cambridge, Mass.» 1967.

and Gulick, M. E. «Varieties of Domestic Social Organization in the Iranian City of Isfahan», Annals of the New York Academy of Sciences 220 (1974), 441 — 69.

Hacker, I, M. Amman, Department of Geography Research Papers Series No. 3, University of Durham, 1960

Haggett, P. Geography: A Modern Synthesis, New York, 1972.

Halpern, M. «Egypt and the New Middle Class», Comparative Studies in Society and History (1967), 97 — 108.

Hamdan, G. «The Pattern of Medieval Urbanism in the Arab World», Geography XLVII (1962), 121 — 34.

Harik, I. H. «The Impact of the Domestic Market on Rural - Urban Relations in the Middle East», in Rural Politics and Social Change in the Middle East, ed. R. Antoun and I Harik, Bloomington, Ind. 1972.

Harrison, R. S. «Migrants in the city of Tripoli», Geographical Review 57 (1967), 397 — 423.

Hartley, R. G. «Libya: Economic development and demographic responses»; in Populations of the Middle East and North Africa, ed. J. I. Clarke & W. B. Fisher, London, 1972.

Hasan, M. S. «Growth and Structure of Iraq's Population, 1867 - 1947». Bulletin of the Oxford Institute of Statistics (1958).

Herschlag, Z. Y. Introduction to the Modern Economic History of the Middle East, Leiden, 1964.

Hill, A. G. «Aspects of the Urban Development of Kuwait», Unpublished Ph. D. thesis University of Durham, 1969.

«The Gulf states: petroleum and population growth», in Populations of the Middle East and North Africa, ed. J. I. Clarke & W. B. Fisher, London, 1972.

Hill; M. «Israel - Planning Machinery», Built Environment 3 (1974), 612 — 16.

Hoselitz, B. F. «Generative and parasitic cities», Economic Development and Cultural Change 3 (1955), 278 - 94.

Hourani, A. «The Islamic City in the light of Recent Research», in The Islamic City, ed. A. Hourani & S. Stern. London, 1970.

Ibrahim, S. E. «Urbanization in the Arab World», Population Bulletin of the United Nations Economic Commission for Western Asia 7 (1974), 74 - 124.

Ismail, A. A. «Origin, ideology and physical patterns of Arab urbanisation», Ekistics 195 (1972), 113 — 23.

Issawi, C. The Economic History of the Middle East, Chicago, 1966.

«Economic Change and Urbanization in the Middle East», in Middle Eastern Cities ed I. M. Lapidus, Berkeley and Los Angeles, 1969.

Jabra, J. I. Hunters in a Narrow Street, London, 1960.

Jacobs, N. The Sociology of Development : Iran as an Asian Case Study, New York, 1966.

Jones, L. «Rabid population growth in Baghdad and Amman». Midd East Journal 23 (1969), 209 — 15.

Khalaf, S, and Konstad, P. Hamra of Beirut, A Case of Rapid Urbanisation, Leiden, 1973.

Khuri, F. I. «Sectarian Loyalty Among Rural Migrants in Two Lebanese Suburbs: A Stage Between Family and National Allegiance», in Rural Politics and Social Change in the Middle East; ed. R. Antoun & I. Harik, Bloomington: Ind., 1977.

Lambton, A. K. S. Islamic Society in Persia, London, 1954..

Lapidus; I. M. Muslim Cities in the Later Middle Ages, Cambridge, Mass., 1967.

«Muslim Urban Society in Mamluk Syria», in The Islamic City, ed. A. Hourani & S. Stern, Oxford, 1970.

Lawless, R. I «Iraq: Changing population pattern's in Populations of the Middle East and North Africa, ed. J. I. Clarke & W. B. Fisher, London, 1972.

Lerner, D. The Passing of Tranitional Society. Modernising the Middle East, London, 1964.

Levine, N. «Old Culture - new culture : a study of migrants in Ankara, Turkey», Social Forces 51 (1973), 355 — 68.

Levy, R. The Social Structure of Islam, Cambridge, 1962.

Little, Kenneth. Urbanizetion as a Social Process, London, 1974.

Lockhart, L. Eamous Cities of Iran, Brentford, Middlesex, 1939.

McGreogo, R. «Saudi Arabia: population and the making of a modern state», in Populations of the Middle East and North Africa, ed. J. I. Clarke & W. B. Fisher, London, 1972.

Mansur, F. Bodrum: A Town in the Aegean, Leiden, 1972.

Morrill, R. L. Spatial Organization of Society, Belmont, Calif, 1970.

Mountjoy, A. B. «Egypt: population and resources» in Populations of the Middle East and North Africa, ed, J. I. Clarke & W. B. Fisher, London, 1972.

Nader, L. «Communication between City and Village in the Modern Middle East», Human Organisation, 24 (1965); 18 — 24.

Petersen, K. K. «Demographic Conditions and Extended Family Housseholds: Egyptian Date», Social Forces (1968); 531 — 7.

Villagers, in Cairo: Hypotheses versus Data», American Journal of Sociology 77 (1971), 560 - 73.

Plan Organisation, Fourth National Development Plan, 1968 - 72, Tehran, 1968.

de Planhol, X. «Regional Diversification and Social Structure in North Africa and the Islamic Middle East», in Rural Politics and Social Change in the Middle East, ed. R. Antoun & I. Harik, London, 1968.

Porteous, J. D. «The nature of the company town», Transactions of the Institute of British Geographers 51 (1970), 127 — 42.

Roos, L. L. «Attitude change and Turkish Modernisation», Behavioural Science 13 (1968), 433 — 44.

Rotblat, H. «Stability and Change in an Iranian Provincial Bazaar», Unpublished Ph. D. thesis, University of Chicago, 1972.

Sarly. R. «Israel — Failure of the new towns», Built Environment 3 (1974), 612 — 16.

Saunders, J. The Muslim World on the Eve of Earope's Expansion, Englewood Cliffs; New Jersey, 1966.

Scanlon, G. T. « Housing and Sanitation: Some aspects of Medieval Islamic Public Services», in The Islamic City, ed. A. Hourani & S.Stern, London, 1970.

Shiber, S. G. Recent Arab City Growth, Kuwait, 1967.

Shorter. F. C. «Information on fertility, mortality, and popalation growth in Turkey», Population Index 34 (1968), 3 — 21.

Sjoberg, G. The Preindustrial City Past and Present, New York, 1960.

Snaiberg, A. «Rural - Urban residence and modernism : a study in Ankara Province, Turkey», Demography 7 (1970), 71 - 85.

Stern, S. M., «The Constitution of the Islamic City», in The Islamic City, ed. A. Hourani & S. Stern, Oxford, 1970.

Thesiger, W. The Marsh Arabs, London, 1964.

Turner. J. C. F. Uncontrolled Urban Settlement: Problems and Policies, United Nations, New York, 1968.

Van Nieuwenhuijze, C. A. O. Social Stratification and the Middle East, Leiden, 1965.

Weber, M. The City, New York, 1958.

Wickwar, W. H. «Pattern and problems of local administration in the Middle East», The Middle East Journal, Summer 1958

Wyitehouse, D. «Excavations at Siraf. Fifth Interim Report», Iran X (1972), 63 - 87.

Yaukey, D. Fertility Differences in a Modernizing Country, Princeton, 1961.

« تم بحمد الله »